السياسة الااسلامية

بين الكتاب والسنة وسائرالكتب السماوية

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 7

السياسة الااسلامية (بين الكتاب والسنة وسائرالكتب السماوية) (ج 9)

المقدمة

بسم اللَّه الرحمن الرحيم‏

الحمد للَّه‏رب العالمين وصلى اللَّه على خاتم النبيين وأشرفهم محمد صلى الله عليه و آله والمعصومين الاكرمين عليهم السلام.

القرآن كتاب هداية ككل لكافة المكلفين الى يوم الدين ومن ضمنها كاصل حكومي من السياسات الربانية والرسولية والرسالية ما ينفهم عن كافة السياسات المختلفة الخلقية وحتى العادلة فإنها ليست طليقة بحق أن تتبع وإنما سياسة يحق إتّباع عاصمة معصومة تعصم المكلفين عن الأخطاء الجماهيرية وكما نقرء في زيارة الجامعة مخاطبين ائمة أهل البيت عليهم السلام وساسة العباد وأركان البلاد، فإنهم إنما يرأسون الشعوب بسياسة ربانية ورسالية على ضوء الكتاب والسنة كما أن سائر الأحكام الإسلامية ليست إلّا على ضوءها ولا سيما الكتاب فإنه الأصيل في كل وارد وشارد والسلام على عباد اللَّه الصالحين اجمعين.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 8

سورة الملك وسيرة الملوكية العادلة على ضوء آيات بينات‏

«تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ\* «1» الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ»

إنه ليس مَلِكاً ومالكاً يملك مُلكه ومِلكه، إنما هما بيده لا سواه، وهما له لا سواه، وكل مالك مملوك إلا إياه، وكل ملك يُملك عليه سواه: «قل اللهم مالك الملك ..» «2» «ولم‏ يكن له شريك في الملك». «3»

وفيما إذا يؤتي ملكه من يشاء لا يتحلل هو عنه، ولا يؤتيه المُلك الخاص به: «واللَّه يؤتي ملكه من يشاء واللَّه واسع عليم». «4»

فالمَلِك الحق من الخلق ليس وكيلًا عن اللَّه بانعزاله- سبحانه- عن شي‏ء من الملك، ولا شريكاً له ولياً من الذل، ولا معنياً يعينه- بعض الشي‏ء- في الملك، وإنما يؤتاه تطبيقاً لحكمه العدل بين الخلق، بشيراً ونذيراً، دون أن يكون له من الأمر شي‏ء: «ليس لك من الأمر شي‏ء» «5» «فتعالى اللَّه الملِك الحق القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ..». «6»

«تبارك» ولأنه بيده الملك فهو متبارك: متعاظم بذاته وصفاته وأفعاله، لا تُحد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). إنه تعالى متبارك في مُلكه، دون لعنة ولا نكسة ولا نكبة، خلاف ملك الخلق، إلا الملوك‏الذين هم ضلال الرب في ملكهم، إلا فيما يجهلون ويعجزون للقصور الذاتي، فهو تعالى متبارك في كافة شؤون الربوبية خَلقاً وأمراً: «ألا له الخلق والأمر تبارك اللَّه رب العالمين» (7: 53) ومتبارك في الأمر التشريعي كما التكويني- سواء: «تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً» (25: 1) ففي ملك السماوات والأرض ككلٍّ وفي كلٍّ: «تبارك الذي بيده ملك السماوات والأرض وما بينهما» (43: 85) ف: «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شي‏ء قدير»

(2). 3: 26

(3). 7: 111

(4). 2: 247

(5). 3: 128

(6). 59: 23

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 9

بركاته ولا يُمددُ فيها وإنما يَمددُ، ولا تُعَد نعمائه «وإن تعدوا نعمة اللَّه لا تحصوها» وبما أن الملك يخصه، فالبركة أيضاً تخصه:

«الذي بيده الملك» ان اليد- هنا وفي سواه مما نسبت إلى اللَّه- توحي بالسلطة الإلهية اللامحدودة غير المغلوبة، والملك قرينة أخرى إضافة إلى القرينة العقلية، يوحي أن اليد هنا ليست هي الجارحة الجسدانية، فإن الملك لا تصله هذه اليد، وإنما السلطة، وتقديم الظرف «بيده» والاستغراق المستفاد من تأخير «الملك» يفيد ان الحصر، أن المُلك- أياً كان- إنما هو بيد اللَّه.

والمُلك أعم من مُلك الخلق والتقدير والتدبير، ومن مُلك النبوة والسلطة الزمنية، ولماذا يؤتيها الفجار إذا كانت هي أيضاً منه تعالى؟ له تأويل يأتي في محله الأنسب.

كلام في القدرة الإلهية:

«وهو على كل شي‏ء قدير»: فما هو كل شي‏ء، وما هي القدرة؟

فهل يقدر ربّنا أن يجمع بين المتناقضين ذاتياً، أو يخلق نفسه، أو يخلق مثله، أو يلد من لا يولد ولا يُخلق، أو أن يُدخل الدنيا في بيضة دون أن تصفر الدنيا أو تكبر البيضة، أو ما إلى ذلك من المستحيلات الذاتية عقلياً؟.

تقول: الأمور المتصورة- من حيث تعلق القدرة بها وعدم تعلقها- على أربعة أضرب:

1- الكائنات التي بالإمكان تحويرها وتغييرها، دون حاجة إلى معجزة أو اختراع، فهي من أبسط الأشياء التي تتعلق بها القدرة.

2- التي تحتاج إلى قواعد علمية كالمخترَعات، فهي قبل اختراعها قد تُزعم مستحيلة، ولكنما العلم يثبت إمكانيتها.

3- التي لا تقدر المحاولات العلمية عليها من الطرق العادية، كمعجزات النبيين، التي يزعمها الإنسان- ولا سيما المتحلل عن وحي السماء، الشاك فيه- يزعمها: من المستحيلات، ولكنما من الممكنات الذاتية، مهما كانت مستحيلة بالنسبة للقدرات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 10

المحدودة.

ومن هذه خلق العالم لا من شي‏ء، وسائر الاختصاصات الإلهية في خلقه المبدَع، فاللاشي‏ء الذي بالإمكان إيجاده بالقدرة اللّامحدودة، إنه يستحق إسم الشي‏ء بهذه الإمكانية الاستعدادية لقبول الخلق، سواء أخلق أم لا يخلق، فالمادة الأولية كانت هي اللاشي‏ء الممكن إيحاده، وقد خلقت، والسماوات الثمانية وما فوقها، كانت اللاشي‏ء الممكن إيجاده ولم تخلق، ولكنهما على سواء في أنهما شي‏ء لإمكانية خلقهما، مهما كانت الأولى راجحة في الحكمة والثانية مرجوحة، فهي من المستحيل عرضياً، لا ذاتياً.

4- الأمور التي لا تستحق إسم الشي‏ء، لأنها ليست كائنة، ولا بالإمكان تكوينها:

معدومات مستحيلة التكوين، كالأمثلة المسبقة، فإنها ليست من الأشياء حتى تشملها القدرة، مهما كانت إلهية لا نهائية.

إن القدرة تعني إمكانية تعلقها بشي‏ء مما قدمناه، والاستحالة الذاتية تعني- فيما تعنيه- استحالة تعلق القدرة بها وإن كانت القدرة الإلهية، غير المحدودة، فإذا تعلقت القدرة بأمر- مما يزعم استحالته- فالواقع المقدور، دليل لا مرد له على إمكانيته.

فهل بالإمكان الجمع بين النقيضين معاً: «أنا أنا ولست أنا» أو سلبهما معاً: «أنا لست أنا ولا لا أنا» مهما كانت القدرة المحاولة لجمعهما أو سلبهما إلهية؟

وهل بالإمكان أن اللَّه خالق نفسه، فخلقُ شي‏ء يسبقه عدمه، وهذا ينافي الوهية المخلوق، وخالقية شي‏ء تقتضي كونه قبل مخلوقه، فهل إن اللَّه كان قبل كونه! أمران مستحيلان ذاتياً!.

وهل بالإمكان أن يخلق اللَّه مثله، فيكون المثل خالقاً غير مخلوق مثله. فالإله المخلوق إذاً لم يكن مخلوقاً، حتى يماثل خالقه. فهو معدوم لم يخلق! فهل المعدوم يماثل الخالق، وإذا كان مخلوقاً فكيف يماثل خالقه في أنه غير مخلوق. أم هل هو مخلوق وغير مخلوق لكي يربح الواجبين: مماثلته خالقه، وعموم القدرة الإلهية لخلق مثله؟.

إنه- رغم ما يزعمه الثالثيون وأضرابهم-، ليس عدم تعلق القدرة الإلهية بالمحالات‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 11

الذاتية، نقصاً في القدرة، ونقضاً في شمولها، وإنما هي المحالات النسبية، التي لا يقدر عليها إلا اللَّه، فيختصها بقدرته ف «إن اللَّه على كل شي‏ء قدير».

نسألكم: هل بالإمكان أن يكون اللَّه إلهاً وليس إلهاً؟ خالقاً ولا خالق، عالماً ولا عالم! فإذا «نعم» فليس الملحدون خاطئين إذ تمسكوا بأحد جزءي القضية المتناقضة «موجود ومعدوم» إذ زعموا أنه معدوم، وإذا «لا» فلماذا «لا» فهل إلا لأنه من المحالات الذاتية! فكذلك سائر المحالات الذاتية كالأمثلة المسبقة.

فالمستحيل ذاتياً ليس شيئاً حتى تتعلق به القدرة، ولا أن القدرة تتعلق باللاشي‏ء الذي يستحيل أن يكون شيئاً، اللهم إلا اللاشي‏ء الممكن إيجاده.

فذلك ليس لنقص في القدرة اللانهائية، وإنما لأن القدرة لا تعني إلا التي بإمكانها إيجاد الممكن الذاتي، فالنقص كل النقص في المستحيل الذاتي الذي لا يقبل الإيحاد، إن صح التعبير ب «يقبل ولا يقبل» عن اللاشي‏ء المستحيل وجوده!.

ولئن سألت: هل لا يقدر ربنا أن يخلق المحالات، حالة قبول لخلقها. فالجواب أنه «ليس للمحال جواب»! فإنما الحالة والصفة تخلق في شي‏ء موجود، لا المعدوم المستحيل الوجود، وفيما إذا كان الشي‏ء موجوداً، لا يحمل صفة تناقض كيانه، فهل يحمل ذات اللَّه صفة الحدوث، أم‏هل تحمل ذوات الممكنات صفة الأزلية. كذلك- وبالأحرى- لا تحمل الذوات المستحيلة الوجود- إن صح تعبير الذوات- لا تحمل صفة الإمكان والقبول، المناقضة للاستحالة الذاتية!.

فقبول صفة الإمكان للمفروض استحالته الذاتية يحمل تناقضين:

1- فرض القبول للمعدوم حالة عدمه: صفة دون موصوف!.

2- تحميل الحالة المناقضة لذات المحمول عليه، جمعاً بين الصفة والموصوف المتناقضين: مستحيل ذاتي يقبل حالة الإمكان! ظلمات بعضها فوق بعض.

فالمحال الذاتي محال أينما حل، وبجنب القدرة الإلهية أيضاً، وليس عنه خبر ولا جواب، إلا أنه «ليس للمحال جواب» يجيب به الإمام الصادق زنديقاً سأله: أليس هو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 12

قادراً أن يظهر لهم حتى يروه ويعرفوه فيُعبد على يقين؟ فيجيبه: «ليس للمحال جواب» يعني بذلك: أن المحال ليس شيئاً يذكر فيسأل عنه، فلو أن اللَّه أظهر نفسه فلتره العيون بمشاهدة الأبصار، وفي ذلك تحول المجرد عن اللامادة إلى المادة، لكي تشاهَد، وهذا محال!.

كما يُسأل الإمام المؤمنين علي عليه السلام: «هل يقدر ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ قال: إن اللَّه تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز، والذي سألته لا يكون». «1»

وإن كان هنا وجه آخر للجواب، فهو عن وجه آخر للسؤال وكما أجاب علي عليه السلام نفسه عن نفس السؤال: «ويلك إن اللَّه لا يوصف بالعجز، ومَن أقدر ممن يلطِّف الأرض ويعظِّم البيضة». «2»

يعني الحالة الممكنة في موضع السؤال: أن يلطف اللَّه الأرض عن حجمها، برفع الخلل والفواصل عن عناصرها وجزيآتها، ودمجها كما يمكن، فتصبح قدَر البيضة فيدخلها فيها، فالبيضة إذاً لا تكبر حجماً مهما كبرت ثقلًا، كما الدنيا لا تصغر ثقلًا مهما صغرت حجماً، فهذه هي الحالة الممكنة من إدخال الأرض البيضة، بتلطيف الأرض حجماً وتكبير البيضة ثقلا!.

ثم استحالة تعلق القدرة الإلهية قد تكون ذاتية عقلية كالأمثلة المسبقة، وقد تكون واقعية كصدور القبيح منه سبحانه، أو خلق المرجوح كونياً؛ وحسب المصلحة الجماعية للكائنات أو للمكلفين كالمقترحين المعجزات تعنتاً ولجاجاً: «قل إنّ اللَّه قادر على أن ينزِّل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون». «3» فالأخيران- رغم إمكانيتهما ذاتياً، وبالنسبة للقدرات المحدودة أيضاً- هما مستحيلان على اللَّه، إذ يتنافيان وعدله وحكمته تعالى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين ج 1، ص 32، عن التوحيد للصدوق عن عمر بن اذينة عنه عليه السلام‏

(2). نور الثقلين ج 1، ص 32 عن ابان بن تغلب عن الصادق عليه السلام عنه عليه السلام‏

(3). 6: 37

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 13

وتقدس، استحالة بالإختيار.

انه لا قديرَ على كل شي‏ء إلا اللَّه، فلا يعجزه شي‏ء، ولا يفوته شي‏ء، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد، إنه عزيز حميد، وهو غالب على أمره، غير مغلوب فيما يريد، فما يحيله الإنسان بحساب قدرته المحدودة، إنه عند اللَّه سهل يسير، لا يعزب عنه شي‏ء ولا يعزبه شي‏ء.

وما يحيله العقل واقعياً، من المنكر، أو عقلياً من المحال الذاتي، فهو ليس شيئاً يذكر، أو لا يليق به تعالى حتى تتعلق به قدرته، فما دام القابل ناقصاً لا يقبل الكمال، أم هو دون النقص والكمال لاستحالة شيئيته، فعدم تعلق القدرة الإلهية به ليس نقصاً فيها، ولا نقضاً لعمومها وشمولها.

وهل إن القدرة الإلهية تتعلق بالشي‏ء الموجود: خلقُ الشي‏ء شيئاً: خلقه كما كان قبل خلفه؟ فهو من تحصيل الحاصل! أو خلقه شيئاً آخر بمعنى تغييره وتحويره؟ أو بمعنى إعدامه؟ فليست قدرته محصورة في حصار الكائنات بعد كونها، فمن هذا الذي كوّنها إلا هو؟! أم تتعلق قدرته بما كوّنها ويخلق الأشياء من اللاشي‏ء؟ فكيف يتحول اللاشي‏ء شيئاً! أن يخلق اللَّه العالم من اللاشي‏ء؟ وهذا هو الصحيح المعقول، أن لا مصدر لخلق المادة الأولية وجودياً ولا عدمياً، إنما مصدرها أولًا إرادته تعالى: أن خلق الأشياء لا من شي‏ء: «إنما أمرنا لشي‏ء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» وإنما استحق اسم الشي‏ء قبل تكوينية، اعتباراً بإمكانية تكوينه ومجال كونه المستقبل «علاقة ما يكون».

ثم مصدر الأشياء ثانياً هي المادة الأولية- المخلوقة لا من شي‏ء-، بإرادته تعالى، أن يحوّرها ويحوِّلها ويبدّل ماهيتها، ثم ماهيات الأشياء إلى ما يريد، أو يعدمها، وسوف نخوض في البحث عن كيفية التكوين في محالِّها.

إذاً فعموم قدرته تعالى ليس إلا لعموم الممكنات: المعدومات المتمكنة للإيجاد، والموجودات المتمكنة للتغيير والتحوير، أو الانعدام، فهي كلها أشياء معنية ب «كل شي‏ء» دون المحالات الذاتية فإنها ليست شيئاً لكي تتعلق بها القدرة، ودون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 14

الموجودات في وجوداتها، فإن الموجود لا يحتاج إلى الإيجاد، اللهم إلا إبقاءه فإنه أيضاً بحاجة إلى القدرة والعناية الإلهية كما في بداية وجوده، إذاً فليست القدرة الإلهية فوضى تتعلق بالمحالات لكي تبرز الفلسفة الكنسية تقوُّلها في ثالوث، المستحيل عقلياً، وان الإبن إله، مولود منذ الأزل، غير مخلوق، وأن الإله المجرد اللامحدود حلِّ في الجسم اللامجرد المحدود. «1»

«الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ».

ومن عموم قدرته للأشياء أنها تعم الموت والحياة، فالموت شي‏ء لأنه إعدام للحياة وفصل بين الكائن الحي وبين حياته، والحياة شي‏ء وهي أصل الأشيآء في الكائنات.

والموت الشي‏ء، المخلوق، هو الموت عن الحياة وبعدها، «2» لا قبلها، فإنه أمر عدمي وليس إعدامياً لكي يكون شيئاً، وتقدُّمه على الحياة هنا في التعبير، لا يقدِّمه عليها في الواقع المعني، إذ لا واقع له قبلها إلا عدم الحياة، وهو ليس شيئاً يخلَق، فخلق الموت هو الإماتة: «وأنه هو أمات وأحيى»، «3» لا الذي قبل الحياة فإنه كائن قبلها دون خلق، ولم يُذكر إلا في آية واحدة: «كيف تكفرون باللَّه وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون». «4»

ثم إن بلوى الإنسان ليس بالموت قبل الحياة، إذ لا يشعره قبلها، وإنما حالها، بما يعلم انه يدركه لا محالة، فليهيى‏ء له نفسه، وبعدها كذلك، ليذوق ألم الحسرة: «يا ليتني قدمت لحياتي» فليحسن عمله في عمله في حياة التكليف، ليحيى فيها وبعد الموت في حياة الخلود حياة طيبة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا «حوار بين الإلهيين والماديين»

(2). نور الثقلين 5: 379 عن الكافي عن الباقر عليه السلام قال: «ان اللَّه خلق الحياة قبل الموت» وفيه‏ايضاً عنه عليه السلام قال: الحياة والموت خلقان من خلق اللَّه، فاذا جاء الموت فدخل في الانسان. لم يدخل في شي‏ء الا وخرجت منه الحياة، وفيه ايضاً عنه عليه السلام ما الموت؟ قال: هو النوم الذي يأتيكم في كل ليلة. الا انه طويل لا ينتبه منه الى يوم القيامة.

اقول: كل ذلك يعني الموت عن الحياة، لا الذي قبلها، ولا يشمله كذلك‏

(3). 53: 44

(4). 2: 28

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 15

إن التسابق في الأعمال الحسنة هو الهدف لهذه الازدواجية من الموت والحياة، وليست الحياة فقط هي الباعثة لهذا التسابق، وإنما التي معها الموت علماً، وبعدها واقعاً، ومهما أنكر الإنسان حياة الحساب بعد الموت، الذي لا ينكره أحد، ولكن احتمال الحساب بعدُ قائم لا يمحى، فليحسب العاقل له حساباً، وكما يحسب كل تاجر حسابات في احتمالات الفائدة والضرر، ولأن الموت يحمل هذه الذكرى الضرورية، والبلوى العالية، تقدَّم هنا على الحياة رغم تأخره في غيرها من الآيات، إلا الذي هو قبل الحياة وليس فيه بلوى! «كنتم أمواتاً فأحياكم».

«أيكم أحسن عملًا» والعمل هنا يعم عمل القلب- وهو أولى- وعمل القالب- هو أدنى- لأن القالب يتبع القلب ويتّبعه في عمله، وليس كذلك القلب، مهما تأثر هو بالقالب في خيره وشره.

ثم العمل منه حسن ومنه أحسن، كما أن منه سيّى‏ء ومنه أسوء، والغاية القصوى من بلوى الموت والحياة الوصول إلى واقع العمل الأحسن قلباً وقالباً، وهو الذي يبتغى به وجه اللَّه كأعمال المقربين، ودونه الأبرار الذين يريدون الآخرة، فعملهم حسن، كما أن الأسوء هو أعمال الكافرين الذين توافق سيآتهم نياتهم.

ومن حسن العمل الأحسن نسيانه وعدم استعظامه، كما أن من الأحسن ذكر العمل السي‏ء فجبرانه.

فالموت والحياة دليلان، بما معهما من أدلة إلهية، عقلية وفطرية وواقعية، يدلان الناس اليقظين إلى العمل الأحسن، فليس الموت قبل الحياة داخلًا في المعني من الموت الابتلاء هنا.

هذا- وإن كان بالإمكان شمول الموت هنا لما قبل الحياة أيضاً، بتأويل أنه مخلوق ضمن الكائن الميت، «1» وكذلك الحياة غير الدنيوية فإنها حياة وأحيى من الدنيوية، ولكنما البلوى ليست إلا في الحياة الدنيا لواقع الإختيار والتكليف فيها، وفي الموت عنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ولكن الخلق هنا يوحي بالاستقلال فلا يشمل الموت ضمن الكائن الميت‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 16

علمياً حالها، فإنه الذي يحمل الذكرى، ويحمل صاحبه على التسابق في الأعمال الحسنة «ليبلوكم أيكم أحسن عملًا»، وللموت رحمات أخرى إضافة إلى البلوى. «1»

ولولا العزة والغلبة الإلهية لم تكن هناك بلوى ولا حسن الأعمال، فبعزته خلق الموت والحياة، وبعزته يحافظ على الأحياء والأموات، وعلى الأرواح والأجساد، وعلى أعمال الإنسان، وبعزته يجازي كلًا على عمله، إذ لا يفوته من أساء.

ولولا مغفرته كانت الحياة الأخرى كلها بلاءً وعذاباً، ولكنه يغفر ما دامت المغفرة لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ان رحمة الموت لا تختص بالبلوى التي تدفع الى التسابق في الصالحات، وانما هي الاهم من فوائده لبني الانسان حال الحياة اعتباراً، وبعد الموت جزاء للحسنى بالحسنى، وللذين كفروا عذاب، وهو رحمة للمحسنين-.

وهنا رحمات اخرى نتيجة الموت في النبات والحيوان والانسان: فللانسان: هل يا ترى لو لم يكن موت، اكانت الكرة الارضية بفضائها تسع نسله المتواصل؟ ولو وسعت، فهل بامكان الاولاد ان يتحملوا عب‏ء معايش الآباء والأمهات: الآلاف الالاف! واذا أمكن، فهل بامكان هذه الكثرة الخالدة في الحياة، المعايشة السلمية؟ كيف! ولا تعيش الآن- وهي تلمس الموت ليل نهار- الا في اضطرابات ناتجة عن تخلفات!.

فيا للموت من رحمة لبني الانسان، بنَّاء لحياة سليمة، لو تذكروا بها، وواعظا لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد، ورادعا عن الشرور لمن اراد الحياة سالمة غير منفصمة وان لم يؤمن بالآخرة، وباعثاً على التقوى لمن آمن باللَّه واليوم الآخر!.

وللحيوان: لو ان بيضات الاسماك (البطروخات) صارت كلها اسماكا ولم تمت، لاصبحت البحار جامدة من زحامها، فامتنعت الحياة عليها كلها.

ولو ان الجراثيم استمرت على التوالد خسمة ايام دون انقطاع ولا موت لملأت المحيط الى عمق ميل، فكيف الحياة؟!

ولو ان ميكروب الوباء (الكوليرا)- الذي يتضاعف كل عشرين دقيقة- لو مضى عليه يوم واحد دون عائق، لبلغ وزنه 7366 طنا، وعدده رقم 5 مع 21 صفرا، فاين الحياة!.

ان بعض المحار في البحار تبيض الواحدة منها ستين مليونا، لو بقيت انسالها بين عام وعامين لزادت على الكرة الارضية، فكيف الحياة!.

والذباب الذي ينفص عيش الانسان، تبيض انثاه خمس او ست مرات، في كل مرة 120- 150 بيضة، فلو عاشت دون موت لم يعش على وجه الارض انسان ولا حيوان!.

فلولا الموت لم تكن حياة، وانه يتبنى الحياة مادية ومعنوية، خلقية وخلقية، «ليبلوكم أيكم احسن عملًا» سبحان الخلاق العظيم، فهل لا يستحق الموت- اذا- ان يحتل الرتبة السابقة على الحياة: «خلق الموت والحياة»؟ فان الموت رحمة للاحياء وللاموات!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 17

تنافي عدله، ويكفي أن مصير الموحدين كلهم الجنة، بعد المغفرة، أو والعذاب فيما لا يتحمل المغفرة ثم الجنة، فرحمته وسعت كل شي‏ء «وهو العزيز الغفور».

أجل: وإن الخلق عامة، وخلق الموت والحياة خاصة، ليس جزافاً دون هدف، وإنما هو الإبتلاء لإظهار المكنون في علم اللَّه من سلوك المكلفين على الأرض، بلوى:

«بتكليف طاعته وعبادته، لا على سبيل الامتحان والتجربة، لأنه لم يزل عليماً بكل شي‏ء» «1» و «أكيس المؤمنين أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً» «فليأخذ الإنسان من حياته لموته» واستقرار هذه الحقيقة الحية من واقع الموت في ضمائر الأحياء، يدعهم أبداً يقظين منتبهين حذرين واعين، للصغيرة والكبيرة، في النية المستسرة، والعمل الظاهر، لا يدعه يطمئن أو يستريح، إلا أن يسامح عن عقله وضميره، فإن حسن العمل ليس إلا من حسن العقل، وعلى حد تفسير الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله: «أيكم احسن عقلًا، ثم قال: أتمكم عقلًا، وأشدكم للَّه‏خوفاً، وأحسنكم فيما أمر اللَّه عز وجل به ونهى عنه نظراً، وإن كان أقلكم تطوعاً». «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. «نور الثقلين» عن الاحتجاج للطبرسي عن الرضا عليه السلام في الآية: «فإنه عز وجل خلق‏خلقه ..»

(2). «مجمع البيان»: أبو قتادة قال: سألت النبي صلى الله عليه و آله عن قوله «أيكم أحسن عملا» ما عنى به؟ فقال: يقول: أيكم أحسن عقلًا.

وفيه عن ابن عمر عنه صلى الله عليه و آله قال: «أيكم احسن عقلًا، وأروع عن محارم اللَّه، وأسرع في طاعة اللَّه»، وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: «ليس يعني أكثركم عملًا، ولكن أصوبكم عملًا، وإنما الإصابة خشية اللَّه والنية الصادقة، ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد العمل، الا والعمل الخالص الذي لا يريد أن يحمدك عليه أحد إلا اللَّه، والنية أفضل من العمل، ألا وإن النية هي العمل، ثم تلا قوله تعالى: «قل كل يعمل على شاكلته» يعني على نيته.»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 18

ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك‏

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ\* إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». «1»

ف «لو» تُحيل ذلك الجعل الجاهل القاحل في ساحة الربوبية في حقلي التكوين والتشريع، إذ «لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء اللَّه لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في مآءَ آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى اللَّه مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون». «2»

وفي حقل التكوين: «ولو شاء اللَّه لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون» «3»- «وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم‏ القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير. ولو شاء لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير». «4»

ذلك، ولأن الناس أمم في شرائع اللَّه، وأممٍ في إختيار الخير والشر على أية حال، إذاً ف «لا يزالون مختلفين» تصديقاً للشرعة الكتابية وتكذيباً، ثم المصدقون لها مختلفون في ناسخها ومنسوخها، ثم الأمة الأخيرة مختلفون في مذاهب شتى أيادي سبا، ف «ولا يزالون مختلفين» بشتى الخلافات وشتاتها «إلّا من رحم ربك» وكما «كان الناس أمة واحد فبعث اللَّه النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما إختلفوا فيه وما إختلف فيه إلَّا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى اللَّه الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 11: 118- 119

(2). 5: 48

(3). 16: 93

(4). 42: 8

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 19

مستقيم». «1»

ذلك، فالإختلاف عن الدين الحق وفي الدين الحق ليس إلَّا بغياً بعد مجي‏ء البينات لإيضاح الحق، ف «من رحم ربك» هم الذين هداهم اللَّه في خِضِم الخلافات إلى الحق المُرام «ولذلك خلقهم» وذلك هو الوحدة والرحمة والهداية وكما قال: «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» «2» عبادة كما يشاء ويرضى وهي الهدى والرحمة المعنية لهم.

وقول القائل: «ذلك» المذكر ليس ليشير إلَّا إلى مذكر هو الإختلاف المستفاد من «مختلفين» دون الرحمة المستفادة من «إلَّا من رحم ربك» فقد خلقنا اللَّه للإختلاف، وكما حصل ذلك ببعث النبيين»!.

إنه قول غائل مردود لفظياً ومعنوياً، فلفظياً نقول: ليست الرحمة مؤنثاً حقيقياً حتى تستحق أداة التأنيث في ضمير راجع إليه أو إشارة وكما في‏ «إن رحمة اللَّه قريب من المحسنين» «3» و «هذا رحمة من ربي». «4» ثم «الرحمة» هي أقرب المرجعين فهي أحرى ب «ذلك» وقد يشير «ذلك» إلى جعْل الناس أمة واحدة باختيارهم، وهو الرحمة العميمة المحلقة- إذاً- على كل الناس على ضوء تطبيق شرعة اللَّه، أم هما معنيان، والإشارة ب «ذلك» لمكان بعد المحتد وعلوِّه، البعيد عن تحقيقه الحقيق، وهذا استخدام في الإشارة ما ألطفه ثم الرحم المستفاد من الرحمة هو المرجع لفظياً، و «ذلك» اشارة إلى المحتدى البعيد.

وأما الإختلاف فهو بعيد لفظياً ومعنوياً، بعداً في كونه مشاراً إليه، وآخر في أنه خلاف الضرورة الربانية الحاكمة بضرورة الوحدة في عشرات من آيات اللَّه البينات.

أفيكون «ذلك» المشيرة إلى العظيم العظيم في غاية الخلق، هو الإختلاف الرذيل الرذيل، المرفوض في محكمة الفطرة والعقلية الإنسانية والشرعة الربانية، أم هو رحمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 213

(2). 51: 56

(3). 7: 56

(4). 18: 98

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 20

الوحدة الفضيلة الفضيلة، المفروضة في كل الحقول! إذ «ما خلقت الجن والإنس إلَّا ليعبدون» «1» «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم‏ تتقون». «2»

أو ترى ربنا يندد بالإختلاف في الدين وعن الدين، ويمدح الوحدة فيه ويأمر بها، ثم يجعل غاية الخلق نفس الإختلاف؟.

وترى «إلَّا من رحم ربك» عماذا يستثني؟ هل عن المجموعة، أن من رحم ربك منهم لا يختلفون؟ وهم مختلفون مع أهل الباطل! نقول: الإختلاف المرفوض هنا هو الإختلاف عن الحق وفي الحق والتفرق في الدين: فقد «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما أوحينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» «3» ومن رحم ربك لا يتفرقون في الدين، بل هم متفقون فيه، فالإختلاف المرفوض في الدين هو إتباع سائر رفضاً لسبيل الدين: «وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله». «4»

ومن الإختلاف في الدين الشك فيه: «ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شكٍ منه مريب» «5»- «إنكم لفي قول‏ مختلف. يُؤفك عنه من أفِك. قتل الخراصون». «6»

فالإختلاف المرفوض هو المقصِّر، فلا يشمل إختلاف أهل الحق مع من سواهم فإنه مفروض، إنما هو اختلاف أهل الباطل فيما بينهم أنفسهم ومع أهل الحق، واختلاف أهل الحق فيما بينهم دون عذر، و «أهل الرحمة لا يختلفون في الدين» «7» فإن اللَّه «خلقهم ليفعلوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 51: 56

(2). 2: 21

(3). 42: 13

(4). 6: 153

(5). 11: 110

(6). 51: 10

(7). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 21

ما يستوجبون به رحمة فيرحمهم»، «1» فالرحمة المقصودة لعباد اللَّه هي العبادة الموحِّدة الموحَّدة دون خلاف واختلاف مقصِّر.

والإختلاف بين تقصير وقصور، والأول هو المحظور أن يختلف الناس في الحق بعدما جاءتهم البينات تغاضياً عنها إبتغاءَ أهواءهم ورغباتهم، وإنما ذلك في أصل الشرعة وفروعها البينة.

والثاني هو الإختلاف قضيةَ القصور الذاتي زمنَ غياب المعصومين عليهم السلام، وذاك في فروع أحكامية قليلة قليلة جداً، حيث الكتاب المبين والسنة البينة يزيلان أي اختلاف، ويكسحان أي خلاف، إلَّا ما قصر القاصرون عن تفهمه.

ثم لا إختلاف معانداً في هذه القلة القليلة من الفروع الأحكامية فيما هي منتهى مبالغ الإجتهادات الصالحة، وهنا يصلح القول: للمصيب أجران وللمخطى‏ء أجر واحد.

ذلك، ومهما كانت أسباب الخلافات قاصرة ومقصرة بين الأمم السالفة كثيرة عسيرة، فهي بين أمة القرآن قليلة يسيرة، حيث القرآن- وهو المحور الأصيل- خالد على مر الزمن، حاكماً بين الأصيل والدخيل، دون أي تحريف وتجديف.

فحين يوصَّل القرآن والسنة المؤيَّدة به في الأصول الإسلامية وفروعها، فقد تستأصل كافة الخلافات، ولا سيما إذا كان‏ «أمرهم شورى بينهم» بين الرعيل الأعلى من الأمة الإسلامية، والمفروض على كلّ منا رفض الإختلاف قدر الإمكانية، محاولة بكل حول وقوة للحصول على الحق المُرام، ثم الحاصل عليه، عليه توجيه الآخرين لينسلكوا في سلك الحق، والمحور الأصيل هو الحصول على الحق لنفسك، ومن ثم للآخرين، إذاً فوزر الإختلاف عن الدين وفي الدين، ليس فقط على عواتق المتخلفين، بل وكذلك على العارفين الحق، الذين لا يحاولون التوحيد على الحق بدعوة الآخرين، وتوجيههم إلى الحق المبين.

أجل، وإن اللَّه لم يخلقنا لنختلف، بل خلقنا لنأتلف على ضوء فطرة اللَّه وشرعة اللَّه، بعقلية سليمة، حيث العقل الإنساني طائر قدسي يطير بجناحي الفطرة والشرعة الربانية، إذ الشرعة تتبنى الفطرة كما العقل يتبناها، بفارق أن العقل آخذة منها ومفكرة في مغزاها وأحكامها ومرماها، والشرعة مبنية أخطاء العقل في أخذها، شارحة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 22

لتفاصيل غير مبينة فيها.

فهذه زوايا ثلاث من هندسة الرسالة الربانية أنفسية وآفاقية، هي متجاوبة مع بعضها البعض، بفارق أن الأنفسيتين مستفيدتان من رسالة الوحي ومن سائر الآيات الآفاقية.

ثم‏ «وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» وهو مِلى‏ء الورود، فريق للمكوث في هذا الورود وبئس الوِرد المورود، وفريق للنجاة بعد رؤية سجن الخاطئين، ونعم الوِرد المورود ف «إن منكم إلَّا واردها كان على ربك حتماً مقضياً. ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثياً» «1» فالباقون فيها كثير والناجون عنها قليل:

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون». «2»

ذلك، وقد يعني «أجمعين» هنا فيما سبقت من كلمة ربك التي ألقاها إلى إبليس إذ:

«قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلَّا عبادك منهم المخلَصين. قال فالحق والحق أقول. لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين». «3»

وحصيلة البحث الأصيلة حول الآية كما يلي:

1- كون الناس أمة واحدة في تكوين العقيدة المسيَّرة حقة أو باطلة هو من المستحيل في حكمة اللَّه البالغة.

2- الإختلاف في الدين مرفوض على أية حال، وهو الإختلاف المقصِّر، ولأن آيات اللَّه بينات هي للتدليل على الذين الحق، فالمختلفون عنه أو فيه هم المقصرون، والموحدون فيه هم أهل الرحمة الربانية.

3- سائر الإختلافات التي هي طبيعة الحال في الطاقات والمعطَيات ليست كأصل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 19: 72

(2). 7: 179

(3). 38: 85

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 23

مقصرةً إلَّا إذا أوجبت إختلافاً في الدين، فعلى المكلفين أن يوحدوا عقيدة الدين رغم سائر الإختلافات التي هي خِلقية قضيةَ الحكمة: «ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخريّاً ورحمة ربك خير مما يجمعون» «1» فعليهم ان يتحروا عن رحمة ربك وهي الهداية الوحِّدة الموحَّدة رغم درجاتهم في معطيات.

4- إنهم «لا يزالون مختلفين» في الدين «إلَّا من رحم ربك ولذلك» الوحدة والرحمة «خلقهم» فقد خلقهم ليعبدوه في رحمة الوحدة، فالعبادة رحمة، والإختلاف فيها رحمة، ثم الوحدة فيها رحمة فوق رحمة، فالعبادة الوحَّدة هي الغاية القصوى لخلق الخلق أجمعين.

ذلك وبالتالي عرض لمقاطع من خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حول ضرورة الوحدة الإيمانية على ضوء دين اللَّه:

«وإنما أنتم إخوان على دين اللَّه، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر وسوء الضمائر، فلا تَوازرون ولاتَنا صحون ولا تَباذلون ولا توادون .. وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلَّا خوفة أن يستقبله بمثله». «2»

«وألزموا السواد الأعظم فإن يد اللَّه على الجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشاذَّ من الناس للشيطان، كما أن الشاذ من الغنم للذئب». «3»

«وألزموا ما عقد عليه حبل الجماعة وبُنيت عليه أركان الطاعة». «4»

«فإياكم والتلوُّن في دين اللَّه، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل، وإن اللَّه لم يعط أحداً بفرقة خيراً، ممن مضى ولا ممن بقي». «5»

ذلك، ويجمع جامع الوحدة الإسلامية قول الرسول صلى الله عليه و آله: «المسلمون يتكافى‏ء دمائهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليه أقصاهم وهم يد على من سواهم». «6»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 43: 32

(2). الخطبة 111

(3). الخطبة 125

(4). الخطبة 149

(5). الخطبة 174

(6). في تفسير القمي عن ابي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية يعني أهل الرحمة لا يختلفون في الدين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 24

فقد شبه صلى الله عليه و آله المسلمين في التضافر والتوازر والإجتماع والترامذ باليد الواحدة التي لا تخالف بعضها بعضاً في البسط والقبض، والرفع والخفض، والإبرام والنقض، ومن ناحية أخرى تعني اليد هنا القوة القاهرة، وهي من قضايا ذلك التضافر، وقال صلى الله عليه و آله: «عليكم بالجماعة فإن يد اللَّه على الفسطاط» «1» واليد هنا هي الحفظ والرعاية الخاصة الراصة.

ذلك، فالإختلاف المقصر محظور والإختلاف القاصر غير محظور، فالمختلفون في الفتيا لاختلافهم عن محور الكتاب والسنة هم المقصرون وقد يندد بهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوِّب آراءهم جميعاً، وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد، أفأمرهم اللَّه تعالى بالإختلاف فأطاعوه، أم نهاهم عنه فعصَوه، أم أنزل اللَّه سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاءَ له فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى، أم أنزل اللَّه سبحانه ديناً تاماً فقصّر الرسول صلى الله عليه و آله عن تبليغه وأداءِه، واللَّه سبحانه يقول: ما فرطنا في الكتاب من شي‏ءٍ، وقال: فيه تبيان كل شي‏ءٍ، وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضاً وأنه لا إختلاف فيه، فقال سبحانه: «ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً» وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلَّا به». «2»

«أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواءُهم، كلامكم يوهي الصُم الصِّلاب،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المعاني باسناده عن أبي بصير قال سألت أبا عبداللَّه عليه السلام عن قول اللَّه عزَّ وجلَّ: «ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»؟ قال: «خلقهم ليأمرهم بالعبادة» قال: وسألته عن قوله عزَّ وجلَّ: «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم» قال: خلقهم.

(2). الخطبة 18

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 25

وفعلكم يطمع فيكم الأعداء .. ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أغاليل بأضاليل، دفاعَ ذي الدَين المَطول، لا يمنع الضَّيمَ الذليلُ، ولا يُدرك الحق إلّا بالجد .. المغرور واللَّه من غرّرتموه، ومن فاز بكم فقد فاز واللَّه بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل ..». «1»

«فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر آمورهم حين وقعت الفُرقة، وتشتَّت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئِدة، وتشعَّبوا مختلفين وتفرقوا متحازبين ..» «فإن اللَّه سبحانه قد أمتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التي ينتقلون في ظلها، ويأوون إلى كنفها، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنها أرجح من كل ثمن، وأجل من كل خطر». «2»

«وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ». «3»

«وكلًا» مما مضى ويأتي من أنباء «نقص عليك» قصّاً تاريخياً صالحاً «من أنباءِ الرسل»: هي أخبارهم ذات الفوائد العظيمة الجسيمة.

كما تقتضيه الحكمة الربانية الخاصة لتبنِّي رسالتك «ما نثبِّت به فؤادك» على ما أمرت به ومن تاب معك من الإستقامة.

فلقد كان صلى الله عليه و آله يجد من قومه، ومن إنحرافات النفوس وأعباء الدعوة بين مختلف الخرافات المعرَّقة في هذه النفوس، كان يجد ما يحتاج إلى تسلية ربانية بقصّ أنباء الرسل، ليحتاج ما قد يخلد بخلده المنير من تعب أمام هذه العراقيل، أم يأس عن تأثير الدعوة الصالحة، مع أنه هو الصابر الثابت المستمر الصامد، ولكنه على كلّ حال عبد من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 29

(2). الخطبة 190

(3). 11: 120

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 26

عباد اللَّه، يحتاج إلى تسليات اللَّه، تثبتاً له في تبكيت أعداء اللَّه، تثبيتاً بأنباء الرسل، وتثبيتاً هو الأصل له بتنزيل القرآن عليه طول حياته الرسولية نجوماً متتالية: «وقال الذين كفروا لولا نزِّل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا». «1»

ذلك، ومن قبلُ أمرهُ صلى الله عليه و آله بتحضير نفسه المقدسة لهبوط ذلك القول الثقيل الثقيل حيث يُثقله ويثبته في دعوته: «يا أيها المزمل. قم الليل إلَّا قليلًا. نصفه أو أنقص منه قليلًا. أو زد عليه ورتِّل القرآن ترتيلًا. إنّا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا. إنَّ ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلًا. إنَّ لك في النهار سبحاً طويلًا». «2»

ثم «وجاءك في هذه» القصص «الحقُّ» و «في» «هذه» الآيات القرآنية، و «هذه» الشرعة الأخيرة و «هذه» الحياة الدنيا، «جاءك الحق» كله، ما لم يجى‏ء لسائر الرسل، فأنت- إذاً- على الحق كله، ثم وهو «موعظة وذكرى للمؤمنين» بهذه الرسالة السامية، تعظهم بما سلف للسالفين، وتذكِّرهم ما يحق لهم من الحق من رب العالمين.

ذلك، وإذا تكملت العُدات القيمة بعِدَّاتها فيك وفي الذين تابوا معك، فلا ضعف ولا فشل ولا فتور، فلا خوف- إذاً- من الذين كفروا بكل ما يعملون ضدك على مكانتهم وما يأملون، وهنا الكلمة الفاصلة، والمفاصلة الحاسمة الجاسمة والقاصمة لظهورهم أولئك الأعداء الألداء:

«وَقُلْ لِلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ\* وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ». «3»

«قل» كما قال أخ لك من قبل وهو شعيب: «ويا قوم إعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب» «4» «وقل للذين لا يؤمنون» وهم‏ «الذين سواء عليهم أءنذرتهم أم لم تنذرهم لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 25: 32

(2). 73: 1- 7

(3). 11: 122

(4). 11: 93

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 27

يؤمنون» «1» قل «لكم دينكم ولي دين» فقد تمت المفاصلة بيني وبينكم بعد تكملة الحجج كلها: «اعملوا على مكانتكم ...» فقد يؤمَر رسول الهدى صلى الله عليه و آله بعدما ينفض يديه من تبليغ رسالته كأبلغ ما يكون، يؤمر بإعلان هذه المفاصلة بكل تهديد، قطعاً للخصام ولكل وِئام أمام هؤلاء الخصام اللئام.

أجل، فعلى ضوء العُدَّات الإيمانية وعِدَّاتها، رسولية ورسالية، استقامة في الداعية والدعوة، وعدم الطغيان فيهما والإنحراف عن جادتهما الجادَّة، وعدم الركون إلى الذين ظلموا في هذه السفرة الطويلة الشاقة، وإقام الصلاة زاداً لراحلة السفرة، والصبر على كل نائبة آئبة، والمحاولة التامة لتجميع جميع القوات للوحدة الإيمانية التي هي رحمة مضاعفة، وتذكراً لأنباء الرسل في دعواتهم.

بهذه البركات السبع تسكر كل دركات جحيم العرقلات الكافرة المتربصة كل دوائر السوء بالكتلة المؤمنة، وبعد تكملة هذه السبع يحق لقبيل الإيمان أن يقول لقبيل الكفر في الطول التاريخي والعرض الجغرافي: «اعملوا على مكانتكم إنا عاملون» وأين عمل إيماني جبار من عمل كافر غدار «وانتظروا» العاقبة هنا وفي الأخرى «إنا منتظرون» العاقبة فيهما.

ذلك، ومن موارد الإنتظار في الأولى بعد كافة التغلبات الإيمانية على الجبهة الكافرة هو إنتظار الدولة المهدوية العالمية التي أخبرت بها الأمم بأسرها مليين وسواهم، وكما هو مذكور في كتاباتهم، وقد سجلناها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

«وَللَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ». «2»

«وللَّه» دون سواه «غيب السماوات والأرض» «وإليه» لا سواه «يرجع الأمر كله» دون إبقاء، إذاً «فاعبده» لا سواه «وتوكل عليه» دون سواه «وما ربك» الذي رباك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 6

(2). 11: 123

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 28

بهذه التربية القمة العالية «بغافل عما تعملون» أنت والمؤمنون معك في بلاغ الرسالة وتطبيقها، ثم وهؤلاء الكفار الذين يؤمنون أو لا يؤمنون: «ولا تحسبن اللَّه غافلًا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار. مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وافئدتهم هواء». «1»

وبذلك الدور الختامي للسورة وهو عرض للدور الختامي للرسالة يطيب قلب الرسول صلى الله عليه و آله ويثبت بغيب السماوات والأرض للَّه‏ورجوع الأمر كله إلى اللَّه، إذاً «فاعبده» بكل جوانب العبودية ولا تفشل «وتوكل عليه» في مزالق الدعوة إذ «وما ربك بغافل عما تعملون».

وهكذا يلتقي جمال التنسيق بكماله الفني لفظياً ومعنوياً في البدء والختام‏ «ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً».

ذلك ومن «الموعظة القاصعة الناصعة ما يعظم به إمام الواعظين علي أمير المؤمنين عليه السلام من قوله: «أيها اليَقِن الكبير الذي قد لهزه القتير! كيف أنت إذا إلتحمت أطواق النار! بعظام الأعناق، ونشبت الجوامع حتى أكلت لحوم السواعد، فاللَّهَ اللَّهَ يا معشر العباد وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفُسحة قبل الضيق، فاسعوا في فَكاك رقابكم من قبل أن تُغلق رهائنها، أسهروا عيونكم، وأضمروا بطونكم، واستعملوا أقدامكم، وأنفقوا أموالكم، وخذوا من أجسادكم، فجو دوابها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها فقد قال اللَّه سبحانه: «إن تنصروا اللَّه ينصركم ويثبت أقدامكم» وقال تعالى: «من ذا الذي يُقرض اللَّه قرضاً حسناً فيُضاعفَه له وله أجر كريم» فلم يستنصركم من ذلّ، ولم يستقرضكم مِن قِلّ، إستنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد، وإنما أراد أن يبلوكم أيكم أحسن عملًا، فبادِروا بأعمالكم تكونوا مع جيران اللَّه في داره، وافَقَ بهم رسلَه، وأراهم ملائكته، وأكرم أسماعكم أن تسمع حسيس نار أبداً، وصان أجسادكم أن تلقى لُغوباً ونَصَباً «ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء واللَّه ذو الفضل العظيم»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 14: 43

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 29

«أقول ما تسمعون واللَّه المستعان على نفسى وأنفسكم وهو حسبنا ونعم الوكيل». «1»

ومن قوله في وصية له خاصة للحسن عليهما السلام اختصاراً فيما يلي:

«ومن الوالد الفان، المقرّ للزمان، المدبر العمر، المستسلم للدهر، الذام للدنيا، الساكن مساكن الموتى، الظاعن عنها غداً، إلى المولود المؤمِّل ما لا يُدرك، السالك سبيل من قد هلك، غَرَضِ الأسقام، ورهينة الأيام، ورميَّة المصائب، وعبد الدنيا وتاجر الغرور، وغريم المنايا، وأسير الموت، وحليف الهموم، وقرين الأحزان، ونَصْب الآفات، وصريع الشهوات، وخليفة الأموات-

أما بعد، فإن فيما تبيَّنتُ من إدبار الدنيا عني، وجُموح الدهر علي، وإقبال الآخرة لي، ما يَزَعُني‏عن ذكر مَن سواي، والإهتمام بما ورائي، غيرُ أني حيث تفرَّد بي- دون هموم الناس- همُّ نفسي، فصدَّقني رأيي، وصرفني عن هواي، وصرَّح لي محضُ أمري، فأفضى‏ بي إلى جِدٍّ لا يكون فيه لَعِب، وصدقٍ لا يشويه كَذِب، وجدتك بعضي، بل وجدتك كُلي، حتى كأنَّ شيئاً لو أصابك أصابني، وكأنَّ الموت لو أتاك آتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي، فكتبت إليك كتابي مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت‏

فإني أوصيك بتقوى اللَّه أي بُنيَّ، ولزوم أمره، وعمارة قلبك بذكره، والإعتصام بحبله، وأي سبب أوثق من سببٍ بينك وبين اللَّه إن أنت أخذتَ به-

أحي قلبك بالموعظة، وأمِتْه بالزَّهادة، وقوِّه باليقين، ونوِّره بالحكمة، وذلِّله بذكر الموت، وقرِّره بالفَناء، وبصِّره فجائِع الدنيا، وحذِّره صولة الدهر، وفُحش تقلب الليالي والأيام، .. فأصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك، ودع القول فيما لا تعرف، والخطاب فيما لم تكلَّف، وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإن الكف عند حيرة الضلال خيرٌ من ركوب الأهوال، وأمر بالمعروف تكن من أهله، وأنكر المنكر بيدك ولسانك، وباين من فعله بجُهدك، وجاهد في اللَّه حق جهاده، ولا تأخذك في اللَّه لومة لائم، وخض الغمرات للحق حيث كان، وتفقَّه في الدين، وعوِّد نفسك التصبُّر على المكروه، ونعم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 182

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 30

الخُلُق التصبُّر في الحق ... ورأيت .. أن أبتدئَك بتعليم كتاب اللَّه وتأويله، وشرايع الإسلام وأحكامه، وحلاله وحرامه، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره .. وليس طالب الدين من خَبْط أو خَلْط .. وما أكثر ما تجهل من الأمر ويتحير فيه رأيك، ويضل فيه بصرك ثم تُبصره بعد ذلك، فاعتصم بالذي خلقك، ورزقك وسواك، فليكن له تعبدك وإليه رغبتك ومنه شفقتك ... إجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبَّ لغيرك ما تحب لنفسك، وإكره له ما تَكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن لا تُظلم، وأحسِن كما تحب أن يُحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وإرض من الناس ما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك-

وإعلم أن الإعجاب ضدُّ الصواب، وآفة الألباب، فاسع في كدحك، ولا تكن خازناً لغيرك، وإذا أنت هُديت لقصدك فكن أخشع ما تكون لربك-

وإعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك في الدعاء، وتكفل لك بالإجابة .. ولم يجعل بينك وبينه من تحجبه عنك، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه .. ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه، بما أذن لك من مسألته، فمتى شئت إستفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شأبيب رحمته، فلا يَقنُطك إبطاءُ إجابته، فإن العطية على قدر النية، وربما أخِّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزَل لعطاء الآمل، وربما سألت الشي‏ءَ فلا تؤتاه، وأوتيت خيراً منه عاجلًا أو آجلًا، أو صُرِف عنك لما هو خير لك، فلرُب أمرٍ قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، ويفنى عنك وَباله، فالمال لا يبقى لك ولا تبقى له-

.. لا تتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك، وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة، وتجرَّع الغيظ فإني لم أرَ جُرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذَّ مغبةً، ولِن لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك، وخذ على عدوِّك بالفضلِ فإنه أحلى الظفرين، وإن أردت قطعية أخيك فاستبق له من نفسك بقيةً يرجع إليها إن بدا له ذلك يوماً مَّا، ومن ظن بك خيراً فصدِّق ظنه، ولا تضيّعن حق أخيك إتكالًا على ما بينك وبينه فإنه ليس‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 31

لك بأخ من أضعت حقه، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك، ولا ترغبنَّ فيمن زهد عنك، ولا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته، ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك، فإنه يسعى في مضرته ونفعك، وليس جزاء من سرَّك أن تسوءه-

والصديق من صدق غيبُه، والهوى شريك العَمى، ورب بعيد أقرب من قريب، وقريبٍ أبعد من بعيد، والغريب من لم يكن له حبيب، من تعدى الحق ضاق مذهبُه، ومن اقتصر على قدره كان أبقى له، وأوثق سببٍ أخذت به سببٌ بينك وبين اللَّه، ومن لم يبالك فهو عدوك .. آخِّر الشر فإنك إذا شئت تعجلته، وقطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل .. سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار-

... ولا تملِّك المرأة من أمرها ما جاز نفسَها، فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، ولا تعدُ بكرامتها نفسَها، ولا تُطمعها في أن تشفع بغيرها، .. وأكرم عشيرتك فإنهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول-

أستودعك اللَّه دينك ودنياك، وأسأله خير القضا لك في العاجلة والآجلة، والدنيا والآخرة والسلام». «1»

المَلِكية الصالحة نعمة ربانية

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِىٍّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ». «2»

الملأُ جماعة مجتمعة على رأي، تملأ العيون رواءً ومنظراً، والنفوس بهائاً وجلالًا ومَعبراً، ولأن التعاون والإمداد هما قضية الوحدة في رأيهم فقد يأتي الملأ بمعنى المعاونة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الوصية 31

(2). 2: 246

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 32

وطول المدة، سواء أكان ملأ الحق، أم ملأ الباطل ك «أملي لهم ان كيدي متين» وهو إطالة المدة ابتلاء بطول العصيان، وأعلى الملاءِ هم الملأُ الأعلى في كل خير للملإ «لا يَسَّمَّعون إلى الملإ الأعلى ويُقذفون من كل جانب». «1»

وهذه الآية نظيرة عريقة تستجر حصالاتها كتجربات لهذه الأمة الأخيرة، يؤمر بها رسولها وكأنه ينظر الى واقع الحادثة وحاضرها: «الم تر الى الملإ من بني إسرائيل ..».

ولأن القصد هنا- كأصل- هو اصل الحادثة، دون اي فصل له او وصل، لا يؤتى هنا بذكر لإسم الملاء، اكتفاءً بسمته بوصمته، لكي تُتحذر فلا تهدر هذه الأمة في فرض القتال.

ذلك! ف «اسمعوا ما أتلوا عليكم من كتاب اللَّه المنزل على نبيه المرسل لتتعظوا فإنه واللَّه عظةٌ لكم فانتفعوا بمواعظ اللَّه وانزجروا عن معاصي اللَّه، فقد وعظكم بغيركم فقال لنبيه: «ألم تر ...» ايها الناس إن لكم في هذه الآيات عبرةً لتعلموا ان اللَّه جعل الخلافة والأمر من بعد الأنبياء في أعقابكم، وأنه فضل طالوت وقدمه على الجماعة باصطفائه إياه وزاده بسطة في العلم والجسم فهل يجدون اللَّه اصطفى بني أمية على بني هاشم وزاد معاوية عليَّ بسطة في العلم والجسم»؟. «2»

هنا- وبعد أن أجملت القصة عن إسم النبي المسئول هنا وسمة الملإ السائل- ليس علينا ولا لنا أن نفتش عن هذا وذلك، وحيث القصد هنا أصل القصة دون اصحابها، مهما كان الرسول صلى الله عليه و آله الخاطَب هنا يعرف السائل والمسئول.

وحين القصة يشهد أن ذلك الملأ انما لجأوا إلى التماس مَلِك يقاتلون بقيادته في سبيل اللَّه بما الجأهم إحراجهم فإخراجهم من ديارهم وأبناءهم، وأن الُمحرِج الخرِج هو «طالوت» وقد فعل بهم وافتعل ما ألجأهم إلى أن يستيقظوا من نومتهم، ومن وهدتهم إلى وحدتهم، استتباباً لأمرهم الإمر، فقد إجتمع أهل الرأي فيهم إلى نبي لهم من بعد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 37: 8

(2). نور الثقلين 1: 244 في كتاب الاحتجاج للطبرسي من كلام امير المؤمنين عليه السلام: اسمعوا ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 33

موسى- أيا كان ذلك النبي- وقد كانت لهم وفرة غزيرة من النبيين والمرسلين قد تقتضي عدم ذكرهم بأسمائهم إلَّا العظماء منهم كداود وسليمان وأضرابهما، ولأن التسمية لا تزيد إيحاءً لأصل القصة والقصد منها.

وعلى الجملة اجتمعوا إلى نبي لهم متسائلين «إبعث لنا ملِكاً نقاتل في سبيل اللَّه».

وتراهم كيف يسألونه أن يبعث لهم ملِكاً، دون أن يقودهم هو بنفسه للقتال في سبيل اللَّه؟ والقيادات الروحية الرسالية هي بنفسها قيادات زمنية دون فاصل في شرعة اللَّه بين القيادتين!.

فهل «كانت النبوة في بني إسرائيل في بيت والمُلك والسلطان في بيت آخر لم يجمع اللَّه لهم النبوة والملك في بيت واحد»؟ «1» وقد جُمعا في داود وسليمان، بل وموسى عليهم السلام وأضرابهم ممن قادوا القتال في سبيل اللَّه، مهما نجد ملكاً كذي القرنين ليس نبياً!.

أم إنهم إستعظموا موقفه الرسالي ومكانته أن يقودهم بنفسه القتال وهو رأس الزاوية في القيادتين، فطلبوا منه أن يبعث لهم ملِكاً ينوب عنه في قيادة القتال، دون سائر الأبعاد في القيادة الزمنية فضلًا عن الروحية؟.

وقد قاد القتال في سبيل اللَّه مَن هم اكبر منه كداود وسليمان من الأولين، والرسول الأعظم صلى الله عليه و آله وصنوه على عليه السلام من الآخرين.

أم إنه كان- كما هو الضابطة- جامع القيادتين إلّا القتال التي تقتضي بسطة في الجسم كبسطة العلم، فلم يكن بتلك القوة الجسيمة التي تناسب قيادة الجيش؟.

أم وكان مبسوط الجسم ايضاً الى بسط العلم ولكن الظرف آنذاك كانت قضيتُه أن يبعث النبي ملكاً من عنده بإذن اللَّه، دون ان يقود هو الحرب بنفسه وكما اشار الإمام علي عليه السلام الخليفة عمر في حرب المسلمين مع الفرس ألا يخرج بنفسه قضيةَ الحفاظ على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 245- القمي وروى انه ارميا النبي فسلط اللَّه عليهم جالوت وهو من القبطفأذلهم وقتل رجالهم وأخرجهم من ديارهم واموالهم واستعبد نساءهم ففزعوا الى نبيهم وقالوا: سل اللَّه ان يبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل اللَّه وكانت النبوة ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 34

قاعدة القيادة الزمنية، فان غَلَب جيشُ الإسلام قيل هذه هي فعلة القيادة الجانبية فضلًا عن الأصيلة، وان غُلبوا قيل لأن القائد لم يكن هو الأصيل، فمصلحة الحفاظ على سيادة القيادة كانت تقتضي آنذاك ألا يخرج الخليفة بنفسه إلى هذه الحرب الضارية الداهية الخطرة.

وقد يعني «ملكاً» هنا قائداً للجيش «وكان الملك في ذلك هو الذي يسير بالجنود والنبي يقيم له أمره وينبئه الخبر من ربه». «1»

ف «الملك» لا تعني- ككل- رأس الزاوية في أية سلطة مهما كان هو الملك الأصل المعبر عنه بملك الملوك، فقد يملك المَلِك كلتا القيادتين: الروحية والزمنية، وأخرى إحداهما دون الأخرى، وثالثة يملك قسماً من روحية او زمنية، وقائد الحرب هو مَلِك لقسم الحرب من القيادة الزمنية على ضوء الروحية، وقد يؤيده او يدل عليه «ملكاً نقاتل» دون «ملكاً» بصورة طليقة تملِّكه كل القيادة.

وعلى أية حال فليست الآية تدل على ان الفصل بين القيادتين شرعة ربانية، بل الأصل هو الجمع بينهما، أو أن تكون القيادة الزمنية على ضوء القيادة الروحية وكما تطلَّب الملأ من بني اسرائيل نبيهم أن يبعث هو ملكاً يقاتلون تحت رايته في سبيل اللَّه، دون ان ينتخبوه بشورى بينهم، ثم ونبيهم هذا لم يبعث قائد الحرب من عند نفسه وإنما سأل فأجابه ف «قال إن اللَّه بعث لكم طالوت ملكاً ..» واذا لا يحق لنبي أن يبعث هو بنفسه وخيرته قائدَ الحرب، فكيف يحق للشورى- وهي ادنى من النبي- ان تنتخب خليفة الرسول صلى الله عليه و آله الحامل للقيادتين بصورة طليقة، اللهم إلا شورى صالحة زمن الغيبة من النخبة الصالحة، لانتخاب شورى القيادة الروحية والزمنية.

ولا بد لهذه الشورى- كما بينا في آية الشورى- ان تجمع الرعيل الأعلى من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 13: 449 عن ابي عبداللَّه عليه السلام في الآية قال: وكان الملك ... فلما قالوا ذلك لنبيهم قال لهم: إنه ليس عندكم وفاء ولا صدق ولا رغبة في الجهاد، فقالوا: إن كتب اللَّه الجهاد فإذا أخرجنا من ديارنا وابناءنا فلا بد لنا من الجهاد ونطيع ربنا في جهاد عدونا ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 35

الروحيين والساسة المسلمين في كل جنبات القيادتين، حتى تحلِّق هذه الشورى على كافة الحاجيات القيادية للمسلمين.

إذاً فلا مَلِك يحق له المُلك على ملاءٍ إلّا انتصاباً من نبي اللَّه، ولا يحق له اي انتصاب إلا بوحي من اللَّه، ومن ثم انتخابٌ له كما للقائد الروحي زمن غياب الوحي والعصمة ممن لهم خُبرة بالقيَم القيادية في شرعة اللَّه، فان‏ «أمرهم شورى بينهم» تجعل الإمرة- وهي أهم الأمور- مما لا تصح إلا بالشورى الصالحة كما فصِّلت على ضوء آية الشورى.

وهنا لما يتقاضى الملأ نبياً لهم، لا يجاوبهم من فورهم في سؤالهم إلَّا بعد ان يستوثق من صدق عزيمتهم تصميماً قاطعاً على النهوض بالتبعة الثقيلة، مندداً بناقضي العهد منهم:

«قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألَّا تقاتلوا ..». «1»

فالآن أنتم في سعة من ترك القتال ما لم يبعث لكم مَلك فيُفرض عليكم القتال تحت إمرته، وهذا يلمح بان فرض القتال او رجاحتها مربوط بحاضر شروطها ومن أهمها قائد الحرب، حيث يبدل «ان بعث اللَّه لكم ملكاً» ب «ان فرض عليكم القتال» مما يؤكد ان القتال لزام القيادة الصالحة.

وهذه كلمة لابقة لائقة بنبي، تأكداً لعزم وحزم من ملإه حتى تحل فريضة اللَّه محلها اللائق، دونما إجابة سؤال فارغ عن تصميم.

هنا- وعند هذه التوبيخة الصارمة، والإستيثاقة، ترتفع درجة فورتهم وحماستهم من فورتهم، استئصالًا لهامة أسباب التجافي عن فرض اللَّه:

«قالوا وما لنا ألَّا نقاتل في سبيل اللَّه وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ..»؟!

فقد تكون القتال مجردة عن مصلحة حاضرة ملموسة، فعنده التثاقل عنها، ولكننا «وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا» ننتظر- بكل عُجالة وانتظار- أمر القتال تحت قيادة صالحة للإنتصار، فان أعداءنا هم أعداء اللَّه، وأعداء اللَّه هم أعداءنا، فلنشمِّر عن كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 246

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 36

ذيل لقتالهم في سبيل اللَّه، وسبيل صالحنا المرضي للَّه.

ذلك! ولكن هذه الحماسة الثائرة الفائرة في ساعة الرخاء- رغم ظاهرها الجاد- لم تدم:

«فلما كتب عليهم القتال تولَّوا إلا قليلًا منهم واللَّه عليمٌ بالظّالمين». «1»

وهنا تبرز السمة الوصمة الاسرائيلية الدنية في نقض العهد مهما كان ميثاقه لصالحهم في انفسهم وابناءهم! تفلُّتاً عن الطاعة والمطاوَعة، ونكوصاً عن التكليف، سمة على القيادة ان يتحذرها، لكيلا تقع في فخها تحسُّباً لواثق الوعد، الصارم لفظياً، العارم عملياً.

فهذه البشرية الشريرة الناقضة للعهود بهذه العجالة، حيث لم تخلص من الأوشاب، ولم تطهر من عقابيل، هذه! يجب ان تتحذر في القيادات الصالحة «واللَّه عليم بالظالمين».

ان نبيهم- حيث تطلّب سُؤالهم من اللَّه- بعد أن اخذ موثقهم من اللَّه- قال لهم:

«وقال لهم نبيُّهم إنَّ اللَّه قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يؤت سعةً من المال قال إنَّ اللَّه اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم واللَّه يؤتي ملكه من يشاء واللَّه واسعٌ عليم». «2»

وهنا يبرز اول لجاج في حجاج حول الملك طالوت، وقد بعثه اللَّه بما ابتعثه منه ذلك النبي وهم أولاء الذين سألوه ان يبعث لهم ملكاً.

حجاجٌ لهم بقولة فارغة «أنى يكون له المُلك علينا» تكذيباً للرسول أم تجهيلًا للَّه‏في ذلك الإبتعاث، مفضلين أنفسهم ككلٍّ عليه: من فقراء وأغنياء، وعقلاء وأغبياء! ومن ثم محتجين بانه «لم يؤت سعة من المال» وفيهم من أوتى سعة من المال، فكيف يملك فاقد المال أصحاب الأموال؟.

وعلّهم قدموا انفسهم اولًا: «ونحن احق» لأنهم من بني اسرائيل وطالوت من القبط؟ او «كانت النبوة في ولد لاوي والمُلك في ولد يوسف وكان طالوت من ولد بن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 246

(2). 2: 247

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 37

يامين اخي يوسف لأمه، لم يكن من بيت النبوة ولا من بين المملكة»؟ «1» أم ايّاً كان ف «نحن أحق بالملك منه».

ومن ثم «لم يؤت سعة من المال» اوسع منا حتى يبرر التغاضي عن الأحقية الوراثية، وكل ذلك غبش في خاطئة التصورات، حصراً للأحقية في ميزان اللَّه فيما هم فيه يحصرون من وراثة او مال، ولا صِلة لأحدهما بحق القيادة الحربية، وهنا الجواب الحاسم، الذي يحمل أسس الإصطفاء للملك في حقل القتال:

«قال إنَّ اللَّه اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم».

فالبسطة في العلم يفسح له مجال القتال الناجحة في كل أبعادها وشؤونها، فكم من وسيع المال وهو يجهل شؤون القتال، لا تفيد قيادته إلا زيادة في السقوط، ولو صرف كثير المال في سلاح الحرب، ولكنه ماذا يفيد السِلاح ما لم يكن للقائد صَلاح لشؤون الحرب.

ثم البسطة في الجسم يفسح له مجال التقدم في الهجوم، وأن يكون في مقدم الجيش، مما يستجيش كامل القوات الحربية للمحاربين، ويستأصل كل حزم وعزم عن المعاندين، فكم من بسيط العلم والمال قد يخسر القتال لِهُزاله فلا يقدم الجيش، أم إذا تقدم فهو بنفسه قد يسبب الإنهزام.

فالبسطة في العلم في حقل القتال هو رأس الزاوية حيطة وخبرة بشؤون الحرب وتكتيكاتها الناجحة، والبسطة في الجسم زاوية ثانية هي تطبيق للأولى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 1: 245 من حديث القمي المفصل حول القصة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 38

مَلك داود ولأنه قتل جالوت‏

«فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ». «1»

هزيمة عظيمة قليلة النظير لهؤلاء الكفار كما كانت لقريش في بدر من البشير النذير، والعَدد، والعُدد نفس العُدد، فقد «قتل داود جالوت» «2» ولم يكن يخلد بخلَد أحد أن هذا الشاب القصير الصغير يقتل جالوت الكبير الكبير، وكما قتل الامام علي عليه السلام عمرواً في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 251

(2). البحار 13: 451 عن تفسير العياشي عن محمد الحلبي عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال: كان داودواخوة له اربعة ومعهم ابوهم شيخ كبير وتخلف داود عليه السلام في غنم لأبيه ففصل طالوت بالجنود فدعا ابو داود داود وهو أصغرهم فقال: يا بنى اذهب إلى اخوتك بهذا الذي قد صنعناه لهم يتقوون به على عدوهم وكان رجلًا قصيراً ازرق قليل الشعر طاهر القلب فخرج وقد تقارب القوم بعضهم من بعض.

وفيه عن ابي بصير قال سمعته يقول: فمرّ داود على الحجر فقال الحجر يا داود خذني فأقتل بي جالوت فإني إنما خلقت لقتله فأخذه فوضعه في مخلاته التي تكون فيه حجارته التي كان يرمي بها عن غنمه بمقذافه، فلما دخل العسكر سمعهم يتعظمون أمر جالوت فقال لهم داود: ما تعظمون من امرأه فواللَّه لئن عاينته فتحدثوا بخبره حتى أدخل على طالوت فقال: يا فتى! وما عندك من القوة؟ وما جربت على نفسك؟ قال: كان الأسد يعدو على الشاة من غنمي فأدركه فأخذ برأسه فأفك لحيته عنها فأخذها من فيه، قال فقال: ادع لي بدرع سابغة، قال: فأتي بدرع فقذفها في عنقه فتملأ منها حتى راع طالوت ومن حضره من بنى اسرائيل فقال طالوت: واللَّه لعسى اللَّه أن يقتله به، فلما أن أصبحوا ورجعوا إلى طالوت والتقى الناس قال داود عليه السلام أروني جالوت فلما رآه أخذ الحجر فجعله في مقذافه فصك بين عينيه فدمغه ونكس عن دابته وقال الناس: قتل داود جالوت، وملكه الناس حتى لم يكن يُسمع لطالوت ذكر واجتمعت بنو اسرائيل على داود وأنزل اللَّه عليه الزبور وعلّمه صنعة الحديد فلينه له وامر الجبال والطير يسجن معه قال: ولم يعط أحدٌ مثل صوته، فأقام داود في بني اسرائيل مستخفياً وأعطي قوة في عبادته.

وفي الدر المنثور 1: 320- أخرج ابن جرير وابن عدي عن ابن عمر قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: .. ثم اقرأ ابن عمر الآية وفيه اخرج ابن جرير عن جابر بن عبداللَّه قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ان اللَّه ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ اللَّه ما دام فيهم، وفيه اخرج ابن جرير عن ابي مسلم سمعت علياً عليه السلام يقول: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 39

الأحزاب، فاعتبروا يا اولي الألباب.

وهنا حكمة حكيمة ثانية في تغلب داود على جالوت هي أن قدَّر اللَّه أن يتسلم هو المُلك بعد طالوت فيكون عهداً ذهبياً لبني اسرائيل في تاريخهم الطويل الطويل، جزاءَ انتفاضة العقيدة في هذه المرة اليتيمة في نفوسهم بعد ضلال طويل وانتكاس وبيل.

ولقد جمعت فيه القيادتان، الزمنية والدينية، بعد ما كانتا مفترقتين عن بعض، وورثه سليمان فيهما وبصورة أقوى: «وآتاه اللَّه الملك والحكمة وعلمه مما يشاء» يشاءه هو ويشاء اللَّه كما يصلح ويكفي للقيادتين.

وهكذا يدفع ناس بعضهم ببعض بحكم التشريع والتكوين، ان يدفع النسناس بالناس بفضل إله الناس على العالمين، دفعاً عن فساد قاحل في أرض الحياة الإنسانية، ولسوف يدفع اللَّه بالمهدي عليه السلام وأصحابه كل فساد في الأرض فتصبح كما الجنة كما وعد اللَّه.

ومن دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض الدفع عن المسي‏ء بالمحسن حفاظاً عن عاجل العذاب، فالمؤمن مدفوع به عن سواه بدفاع وبذاتية الإيمان وكلاهما مرتكنان على الإيمان.

وقد يروى عن رسول الهدى صلى الله عليه و آله قوله: «ان اللَّه ليدفع بالمسلم الصالح عن مأة اهل بيت من جيرانه البلاء» «1» وقوله صلى الله عليه و آله: «لولا عباد ركَّع وصبيان رُضَّع وبهائم رُتَّع لصب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في نور الثقلين 1: 253 في أصول الكافي متصلًا عن أبي عبداللَّه عليه السلام قال: إن اللَّه ليدفع بمن‏يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا ولو اجتمعوا على ترك الصلاة لهلكوا، وان اللَّه ليدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي ولو اجتمعوا على ترك الزكوة لهلكوا، وان اللَّه ليدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا وهو قول اللَّه عز وجل «ولولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن اللَّه ذو فضل على العالمين» فواللّه ما، نزلت إلا فيكم ولا عنى بها غيركم.

أقول «كم» هنا هم كل الصالحين على طول خط الرسالات. المتمثل في تأويل الامام عليه السلام بالشيعة الصالحة فإنهم أفضل مصاديقهم.

وفي الدر المنثور 1: 320- أخرج ابن جرير وابن عدي عن ابن عمر قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ... ثم قرأ ابن عمر الآية وفيه أخرج ابن جرير عن جابر بن عبداللَّه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ان اللَّه ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ اللَّه ما دام فيهم، وفيه أخرج ابن جرير عن أبي مسلم سمعت علياً عليه السلام يقول: لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 40

عليكم العذاب صباً» «1» ذلكم المسلم، فبأحرى الأبدال وهم فطاحل المؤمنين الأفضال، وعلى حد المروى عن إمام الأبدال. «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. المصدر، أخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لن تخلوالأرض من أربعين رجلًا مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل اللَّه مكانه آخر.

وفيه أخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تمطرون وبهم تنصرون، وفيه أخرج الخلال عن ابن عمر قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لا يزال أربعون رجلًا يحفظ اللَّه بهم الأرض كلما مات رجل أبدل اللَّه مكانه آخر فهم في الأرض كلها

(2). المصدر، أخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن أنس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لن تخلو الأرض من اربعين رجلًا مثل خليل الرحمن فبهم تسقون وبهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا أبدل اللَّه مكانه آخر.

وفيه أخرج الطبراني في الكبير عن عبادة بن الصامت قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: الأبدال في أمتي ثلاثون بهم تقوم الأرض وبهم تُمطرون وبهم تنصرون، وفيه اخرج الخلال عن ابن عمر قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لا يزال اربعون رجلًا يحفظ اللَّه بهم الأرض كلما مات رجل أبدل اللَّه مكانه آخر فهم في الأرض كلها.

وفيه أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لا يزال اربعون رجلًا من امتي قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام يدفع اللَّه بهم عن أهل الأرض يقال لهم الأبدال انهم لن يدركوها بصلاة ولا بصوم ولا بصدقة، قالوا يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فبم ادركوها؟ قال: بالسنحاء والنصيحة للمسلمين، وفيه أخرج ابو نعيم في الحلية وابن عساكر عن ابن مسعود قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ان للَّه‏عز وجل في الخلق ثلاثمأة قلوبهم على قلب آدم عليه السلام وللَّه في الخلق اربعون قلوبهم على قلب موسى عليه السلام وللَّه في الخلق سبعة قلوبهم على قلب ابراهيم، وللَّه في الخلق خمسة قلوبهم على قلب جبرئيل عليه السلام وللَّه في الخلق ثلاثة قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام وللَّه في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام فإذا مات الواحد أبدل اللَّه مكانه من الثلاثة واذا مات من الثلاثة ابدل اللَّه مكانه من الخمسة وإذا مات من الخمسة ابدل اللَّه مكانه من السبعة واذا مات من السبعة ابدل اللَّه مكانه من الاربعين واذا مات من الاربعين ابدل اللَّه مكانه من الثلاثمأة واذا مات من الثلاثمأة ابدل اللَّه مكانه من العامة، فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء، قيل لعبد اللَّه بن مسعود كيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون اللَّه إكثار الأمم فيكثرون ويدعون على الجبابرة فيقصمون ويستسقون فيسقون ويسألون فينبت لهم الأرض ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء.

وفيه اخرج ابو داود والحاكم وصححه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: ان اللَّه يبعث لهذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، وفيه عن النبي صلى الله عليه و آله ان اللَّه يقيض في رأس كل مائة سنة من يعلم الناس السنن وينفي عن النبي صلى الله عليه و آله الكذب.

وفيه اخرج احمد والحكيم الترمذى‏ وابن عساكر عن علي عليه السلام سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: الأبدال بالشام وهم اربعون رجلًا كلما مات رجل ابدل اللَّه مكانه رجلًا يسقي بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن اهل الشام بهم العذاب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 41

محاجة ملكية ابراهيمية مع نمرود

آيات ثلاث تحمل هامة العقيدة، لا سيما سر الموت والحياة، والتعريف باللَّه الذي يملكهما دون سواه، تعريفاً في حجاج قامع، وبيان للواقع، فلها صلة بأية الكرسي المقررة لصفات ربانية هي الأصل في الإماتة والإحياء، كسائر الأفعال الربانية الخاصة باللَّه لا سواه.

فالآية الأولى تعرض حواراً بين ابراهيم والذي حاجه في ربه، طياً عن ذكر اسمه ادراج الرياح، تصغيراً لكيانه، ولأن اسمه لا يزيد في شكلية الحوار وحصيلتها والعبرة بها، فلندرس ذلك الحجاج اللجاج من الذي حاج بكل نبراتها، تذرعاً الى قوة الحجاج الإبراهيمية لحد «فبهت الذي كفر»!.

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ..». «1»

«ألم تر» يا رسول الهدى! ام وياكل من رأى تلك الحجاج في تاريخ الرسالات! استنكاراً بتشنيع وتقظيع على الذي حاج، وتعجيباً عجيباً لمن يرى او يسمع ذلك الحجاج، وحمق اللجاج من ناحية، وعمق الحجاج من أخرى.

«الذي حاج ابراهيم في ربه»: رب ابراهيم كما هو الحق المعترف هو به، ورب الذي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 258

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 42

حاجه كما هو الواقع المنكور لديه، فانه رب العالمين، مصدقين له او ناكرين، إذاً فضمير الغائب راجع إليهما على البدل، وما أجمله جمعاً كما هو داب القرآن الفني الخاص في تأدية المعاني الواسعة، ولماذا «حاج ابراهيم في ربه»؟: «أن آتاه اللَّه المُلك»! وتراه هو مُلك ابراهيم الذي آتاه اللَّه روحياً وكما آتى بعض ولده وآله زمنياً، ام روحياً وزمنياً وكما يقول: «فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً» «1» تأويلًا لآل ابراهيم بابراهيم وآله و «ملكاً عظيماً» يجمع كلتا القيادتين: الروحية والزمنية، مهما انفرد البعض منهم بإحداهما، حيث جُمعتا لآخرين كداود وسليمان ويوسف ومحمد صلى الله عليه و آله وأخيراً القائم المهدى من آله عليهم السلام.

ولقد سبقت آيةَ الملك هذه آيةُ الملك الروحي الرسالي المحمدي: «أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً. ام يحسدون الناس على ما آتاهم اللَّه من فضله فقد آتينا ...».

مما يمحور الملك الروحي، فليس الملك الزمني إلا على هاشمه وتحت إشرافه، وليس الملك المتخلف عن القيادة الروحية إلا سلطة مغتَصبة إبليسية.

ومما يرجح هنا ملك ابراهيم ادبياً هو اقربيته مرجعاً من الذي حاجه.

ذلك! ولكن ل «ان آتاه اللَّه الملك» لا تمت بصلة كسبب لمحاجته ابراهيم، إذ كان ناكراً اللَّه، فضلًا عن ملك آتاه اللَّه ابراهيم كقيادة روحية، ولم تكن زمنية ملموسة مصدقة!.

وقد يوجه ذلك الملك هنا بما نجاه اللَّه من نار نمرود: «قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم. وارادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين. ونجيناه ولوطاً الى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ... وجعلناهم ائمة يهدون بامرنا ...» «2» وكما يروى ان الحجاج كان بعد القاءه في النار. «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 4: 54

(2). 21: 73

(3). عن المجمع واختلف في وقت هذه المحاجة قيل: بعد القائه في النار وجعلها عليه برداً وسلاماً عن الصادق عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 43

فتلك النجاة، الخارقة لكل العادات، الحارقة لنمرود وزمرته، إنها طرف طريف من ذلك الملك الروحي، الذي لا يوجد في اي ملك زمني منفصل عن الوحي، ولا سيما منعزل عن حق الملك كنمرود.

فقد تميز نمرود غيضاً، فتحيز فرصة أخرى بحجاجة اللجاج، تعمية لتلك الخارقة الكبرى، وتدجيلًا عليه مرة أخرى فحاجه في ربه، وفي النهاية «فبهت الذي كفر» مرة أخرى بعد الأولى، فلا السلطة الزمنية النمرودية قدرت على إحراقه، ولا حجاجه اللجاج، سيطرت على دمغه وإحراجه، فنجاه اللَّه سليماً في كلتا المرحلتين، ثم هم اولاء الانكاد الاوغاد «فجعلناهم الاخسرين»!.

وقد تعني «ان آتاه اللَّه الملك» «الذي حاج ابراهيم في ربه» وقد يقربه ادبياً انه هنا محور الكلام، ف «أن اتاه» تعلل حجاجه بما آتاه اللَّه، مهما كان أبعد مرجعاً.

ثم القيادة الروحية لا تسمى مُلكاً مهما كانت هي حق المُلك وحقيقته، حيث المُلك ظاهر في واقع السلطة الملموسة، والسلطة الروحية على واقعها ليست ملموسة، بل وهي دوماً تعيش تحت ضغوط السلطات الظالمة الزمنية.

ولكن كيف «آتاه اللَّه الملك» ولا يؤتى مُلك اللَّه إلا من يحق له ويستحقه؟.

إن ايتاء الملك هنا تكويني وليس تشريعياً وبينهما عموم من وجه: تكويني لا تشريعي كما هنا، بمعنى انه لا يمنعه اللَّه عن الملك مهما منعه تشريعاً حيث الدار دار الإختيار.

ثم تشريعي لا يوافقه التكوين كالقيادات الروحية في المعصومين، ائمة ونبيين، الذين صدّ بينهم وبين سلطاتهم الزمنية، الشيطنات المدروسة من اصحاب السلطات الزمنية.

ثم الجمع بينهما كالذين ذكرناهم من ذي قبل، فداود عليه السلام ومن أشبهه جُمع له القيادتان.

ثم تكويني يوافق التشريع ولكنه ليست قيادة رسالية، كمثل طالوت الذي آتاه اللَّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 44

الملك دون نبوة، فان قضية توحيد الافعال أن للَّه‏تعالى دخلًا في كل خير او شر دون اجبار، ومنها المُلك: «قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شي‏ء قدير». «1»

فإتيان الملك لمن يحق له نبياً وسواه اعتلاءٌ، واتيانه لمن لا يستحقه ابتلاء، وكل من الاعتلاء والابتلاء بملكٍ وسواه انما هو من اللَّه لا سواه، دون استقلال لأحد في مُلكٍ وسواه.

ثم هنا «أن آتاه اللَّه الملك» تعليل بما يناحر ذلك الحجاج اللجاج، فبديلًا عن أن يشكر ربه ان آتاه اللَّه الملك، أخذته زهوة الملك وعزته فأخذ يجادل في اللَّه: «واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل واللَّه لا يحب الفساد. وإذا قيل له اتق اللَّه اخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد». «2»

والجمع بين المحتملين اجمل واجمع، حيث القرآن حمال ذو وجوه فاحملوا الى احسن الوجوه، وهو هنا وسواه مما أشبه، الجمع بين المعاني التي يحتملها ادب اللفظ وحدب المعنى!.

«إذ قال إبراهيم ربِّي الّذي يحيي ويميت».

أترى- وذلك بازغة الحجاج من ابراهيم- فاين البداية من الذي حاجه؟ إنها- لسخافتها كاسمه- أدرج درج الرياح، وقد يلوح من «قال ابراهيم ...» ان نمرود ادعى الربوبية لنفسه ثم قال له: ومن ربك أنت لأرى أينا أقوى وأحرى بالربوبية، فعرَّف ابراهيم ربه بأهم اختصاصات الربوبية: «ربي الذي يحيى ويميت»: إحياءً لكل الميتات التي تحق الحياة، وإماتة للأحياء التي تحق الممات، نباتية وحيوانية وانسانية وملائكية أماهيه.

فالإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان أمامنا على طول الخط، المعروضتان للإحساس والعقل دونما وقفة، وهما في نفس الوقت من الأسرار المحيرة للعقول في كل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 26

(2). 2: 206

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 45

الحقول، لا يتمكن العاقل ومَن دونه أن يسندهما إلّا الى الخالق المتعالي عن عجز المخلوقين.

اننا لا نعرف شيئاً عن حقيقة الحياة والموت على الاطلاق حتى الآن، اللهم الا مظاهر لهما، فنُلزم- إذاً- ان ننهي مصدرهما الى قوة ليست من جنس القوى المحكومة بالموت والحياة وهو اللَّه الحي الذي لا يموت.

ولماذا هنا «يحيي» قبل «ويميت» وفي كثير سواها «يميت ويحيى»؟ لأن هذه في مقام إثبات الحياة بعد الموت، ونمرود ناكر اصل المحيي والمميت فضلًا عن اليوم الآخر، إذاً فلا يناسبه إلا «يحيي ويميت» الذي هو ملموس لكل أحدٍ.

ثم ومن هؤلاء الذي أحياهم اللَّه هو نمرود نفسه، وتراه يرى نفسه أحياها بنفسه؟

وكذلك سائر الأحياء، فلا مجال له ان يدعي لنفسه الإحياء، ولكنه اخذ يلوي قصة الإحياء والإماتة بتوسعة من النماردة وسواهم-:

«قال أنا أحيي وأميت».

ويكأنه هو المحيي والمميت ككل، اذ لم يعطف قوله بقول إبراهيم اشراكاً لنفسه باللَّه في الإحياء والإماتة، بل «انا ..» دون «وانا ..».

فحتى وان عطف نفسه باللَّه في ذلك لم يكن إحياءه وإماتته فعلة ربانية، فان كل احد له سلطة مَّا على آحاد بإمكانه ذلك الإحياء والإماتة، ان يقتل غير المحكوم عليه بالقتل، ثم يبقى المحكوم عليه به كما فعله نمرود، وقد يروى انه قال له ابراهيم: أحي من قتلته إن كنت صادقاً. «1»

ذلك! فضلًا عن ان يكون له- فقط- كل إحياء وإماتة بكل صورهما، فمن هو المحيي له نفسه- إذاً- إلا اللَّه، ثم ومن هو المحيي والمميت حقاً- ككل- إلا اللَّه، وما مثاله إلا تقديماً لما يقدر عليه كثير أمثاله ودونه بكثير.

وهنا لم يكن من الصالح الرسالي في ذلك الظرف الهرج والمرج من السلطة النمرودية،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن المجمع وقد روي عن الصادق عليه السلام ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 46

الحاجبة للعقول والحلوم، ان يسترسل في جدل حول المعني من الحياة والموت، والقصد من الإحياء والاماتة، مع غبي قوي يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة.

ولكيلا يأخذ نقضه الناقص الجاهل القاحل مأخذَه من أوهام هاوية من شعبه، ممن تبهره سلطته الزمنية فيحسب باطله حقاً، ينتقل من هذه الحجة المحتاجة الى تفهم، إلى حجة أخرى لا تحتاج إلى تفهم، وإنما يكفيها الحس مهما كان حيوانياً ف:

حقيقة ملموسة كونية هي بمرئَى ومعلَم ذوي الأبصار، دون ان تتخلف ولامرة يتيمة، يكفى لإدراتها حيونة الإبصار مهما كانت من انسان او حيوان، فلا مجال- اذاً- للحيونة النمرودية ان تحول بينها وبين دلالتها على اللَّه، ولا مجال في أية مماراة. فقال:

«فان اللّه يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر».

يوسف عليه السلام يتطلب لنفسه وزاره الاقتصاد اصطلاحاً لحاله وبامكانه اصلاح رسالي خلاله‏

«وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ». «1»

وهكذا يتجلى الإنسان في أكمله وأنقصه في قصص القرآن التي لا تقص لمجرد قَصِّ التأريخ وأداء الفن القصصي، بل‏ «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» فانما تُساق لتعالج قصة العقيدة والداعية عبرةً وعظة، في واقعة تتناسق فيها جميع المؤثرات والمؤشرات والواقعيات في نفوس بني الإنسان.

هنا يصدر الأمر الملكي مرة ثانية «ائتوني به» ولكنه في هذه المرة يستخلصه لنفسه حيث يرى إخلاصه في عمله ودرايته وأمانته: «أستخلصه لنفسي» فلو استجابة في الأولى لم يستخلصه إذ لم يعرفه بذلك الإخلاص والأمانة والرزانة، واستخلاص الملك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 12: 54

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 47

هو الصدارة الثانية بعده كرئاسة الوزراء امّا ذا من القمة الثانية.

إنه في هذه المرة خلاف الأولى لا يطلبه ليرى تأويل الرؤيِّ، أو ليسمعه كلمة الرضا لصاحب السموِّ الملكي، وليعفو عنه ويطلق سراحه، وإنما ليستخلصه لنفسه معتذراً إليه عما كان عليه ومفوضاً إليه ما سيكون.

.. هنا الملك يطلب إلى من لا يتهافت على خروجه من السجن، ولا يتفاوت عنده السجن وخارج السجن، إلّا أن يخرج قبل خروجه عن تهمة الخيانة، وإلّا أن يخرج قبل خروجه عن تهمة الخيانة، وإلّا فالسجن أحب اليه من عفوه دون براءَة، كما كان أحب إليه مما يدعونه إليه.

يطلب الإنسراح عن السجن ممن اخذ يفتي برؤياه لصالح المملكة، ويحكم كقائد اوّل لإصلاح الحالة الاقتصادية عند توترها وتبعثرها وتعثّرها، وهكذا يكون رجالات الحق والصدق والدعات الى اللَّه، لا يخضعون للأمر الواقع المفروض عليهم أياً كان، فلا يذلون عن عزهم، ولا يترذلون أمام السلطات الباطلة المفروضة عليهم، ولا يحيدون عن موقفهم الرسالي، ولا يفرق لديهم السجن وخارجه، ولكي يبرزوا الحق كما يليق به ويحق، دون مسّ من كرامته وكراماتهم، ودون نكص على عقبيهم انتقاصاً لحق الدعوة والداعية.

فيا ليت رجالًا- ولا رجال- يمرغون كل كرامة على أقدام الطغات- بمطلق سراحهم- متسابقين متهافتين على نظرة رضى وكلمة ثناء، ليتهم يعتبرون بأحسن القصص، وليعلموا أن العزة والإباء يدرُّ عليهم أضعافاً من إدرار التمرغ والتزلُّف والإنحناء أمام ذوي السلطة والكبرياء «وكذلك مكّنَا ليوسف في الأرض ... ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون». «1»

«.. فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين مكين» خلاف ما قبل اليوم لمّا طلب إليه للمرة الأولى «ائتوني به»! لستَ أنت اليوم الفتى العبراني المُشرى‏ بثمن بخس دراهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 12: 57

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 48

معدودة، لعبة العزيز وامراته، وإنما أنت «لدينا اليوم مكين» ذو مكانة عالية مرموقة، ولا أنت المهدَّد بالسجن أو عذاب اليم، وإنما انت «لدينا اليوم امين»، وتراه في ملتقاه مع الملك أخذ يتملق له بقولة او فعلة كما يفعله رجال الحاشية؟ كلا ولا في شطر كلمة، فالنص «فلما كلمه» فالملك هو البادى‏ء بالكلام اللهم إلا بسلام والسلام، وفي ذلك الكلام الملكي الهام: «إنك اليوم لدينا مكين أمين» نرى كل مراتب العزة والإكرام، دون ألفاظ مرسومة خاوية في المواجهات العادية، وإنما كلام مكين أمين، حيث الملك ليس ليهاب أحداً او يماريه حى يجاريه في كلمة خاوية المُرام.

هنا مثلث التأكيد للمكانة والأمانة، المستفاد من حرف التأكيد وتقدم الظرفين، يؤكد له المكانة والأمانة الخاصة المتميزة، والسلطة الصالحة لإدارة أمور المملكة وهي بحاجة جذرية ماسة إلى تلك المكانة والأمانة، ولا سيما في تلك الظروف الحرجة المهرجة، وفي الحق يلمح من كلامه هذا حكم صدارته العليا بعده.

«قال اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظٌ عليم». «1»

«إني حفيظ» لشتات الأمور ومتفرقاتها لأجمع شملها، ولمجموعاتها عن تمزقها وشتاتها، حفيظ للمعادلة الإقتصادية في السبعين الرخوة والشداد، حفيظ في كلما تحتاجه خزائن الأرض من صالح الإنماء والمصرف، فالحفيظ على الحرمات والنواميس في تلك الظروف المحرجة، هو بأحرى حفيظ على المصالح الإقتصادية!.

«إني حفيظ عليم» فمن حفيظ غير عليم، يحاول في الحفظ ولكنه لا يعلم، فقد يكون ما يفسده على جهله أكثر مما يصلحه كصُدفة، ومن عليم غير حفيظ، يعلم ويخالف علمه إلى جهالة، أم لا يحافظ على المصلحة الجماعية، إذ لا يلاحظ إلّا شخصه وشخصيته وصالحه، ولكني «حفيظ عليم» كركنين أساسيين لمن يجعل على خزائن الأرض.

وتراه لماذا يتطلب إلى الملك ذلك المنصب دون أن يصبر حتى ينصبه هو كما يراه؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 12: 55

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 49

علّه ما كان ليعلم أية مصلحة في الملك هي أصلح ليجعله عليها؟ فهو- بعد ما يتأكد أنه لديه مكين أمين، وبطبيعة الحال يحتاجه لأمرٍ مّا لمصلحة البلد- فهو يدله على ما هو الأصلح في تلك الظروف الصعبة الملتوية، كمواصلة صالحة لما يريده منه المَلِك، حيث الأزمة القادمة وسِني الرخاء التي تسبقها، هي بأمسِّ الحاجة إلى الحفظ والصيانة على علم واسع ودراية، لذلك يختار ذلك المنصب المناسب الضروري لحفظ البلد عن التفكك، الذي لا بديل عنه كما هو عليه السلام لذلك المنصب، فلا يطلب إلى المَلِك وزارة البلاط الملكي، ولا أية وزارة إلّا وزارة الإقتصاد والتنمية والإصلاح الزراعية، التي كانت تحلِّق حينذاك على كافة الوزارات، وفي الحق هي رئاسة الوزارات كلها حسب الظروف الراهنة!.

فبالرغم من أنَّ تصدي أمر الإقتصاد في ذلك الظرف الحرج تَورُّطٌ في مختلف الصعوبات، يختاره الصديق لنفسه، وهناك أمور أريح، ولصالحه الشخصي أصلح، لأنه حسب واجبه الرسالي كان حصيناً في اختيار اللحظة المرهقة ذات التبعة الضخمة، فيكون مسئولًا عن إطعام شعب بكامله والشعوب المجاورة، ليؤدي واجبه الرسالي عدلًا ناصعاً ناصحاً للجماهير، وعلّه على ضوئه يجلب أنظار المحاويج إلى شرعة اللَّه.

فليس من السهل تكلُف ذلك العب‏ءِ الثقيل، ولأقل تقدير في أربعة عشر سنة التي قد تكلِّف في مصطرع المراجعات والمنازعات رأس الرئيس وحياته ومصرعه، المنصب الذي يحيد عن تقبله سائر الحاشية الملكية، حيث ترجِّح الأريحية وحياة الترف والرعونة.

أفبعد ذلك كله يخلج ببال، أن كيف يزكي المصدِّيق نفسه واللَّه تعالى يقول‏ «فلا تزكوا أنفسكم» يزكي قائلًا: «إني حفيظ عليم»؟ أم كيف يطلب إلى فرعون المشرك الظالم أن يجعله على خزائن الأرض؟ ومعونة الظالمين حتى في عدلهم هي من المحرمات القطعية؟!.

إن أمر الصديق هنا أبعد أعماقاً وأوسع آفاقاً من هذه الضوابط الناظرة إلى الناس‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 50

العاديين، فإنه يرتكن على ركن الرسالة والدعوة إلى اللَّه، ولا بد للرسول ان يزكي نفسه بما زكّاه اللَّه تعالى لتحل رسالته محلها من القلوب، وإنما التزكية المحرمة هي للنفوس غير المزكّاة، أو التي تأخذها بتزكيتها رعونات وطنطنات، دون النفوس المطمئنة باللَّه التي زكاها اللَّه بما رحمها «إن النفس لامارة بالسوء إلّا ما رحم ربي» أوَ ليست النفس المرحومة باللَّه مزكاة!.

ولان زكاة النفس من نعمة الرب فلا بد لصاحبها أن يحدث بها «وأما بنعمة ربك فحدث» لا سيما في مقامات الضرورة لإظهار الحق والدعوة إليه وتطبيقه، دون التظاهر بالحق وأنت مبطل أو معجب: «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل اللَّه يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلًا» «1» «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى». «2» وقد زكى اللَّه نفس الصديق وهو أعلم به وهو يريد مكانته وتمكُّنه في الأرض: «وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض ..». «3»

ومن ثم ليس طلبه إلى المَلِك أن يجعله على خزائن الارض إلّا ليعدل حسب الشرعة الالهية فيمن لا يقرون بحق اللَّه وشرعته، وإزالة الظلم ثم تقليله من المفروض على عواتق الدعاة إلى اللَّه! وليجد ظرفاً صالحاً للدعوة الرسالية وذلك من أهم الظروف الواسعة والمجالات الفاسحة.

ثم الضرورات تبيح المحظورات، فحتى لو كانت قيادة خزائن الأرض والرئاسة عليها في الملكية الفرعونية محظورة للصديق، لكانت أقل المحظورين حيث الضرورة الرسالية تفرضها.

وقد قبل الإمام الرضا عليه السلام ولاية عهد المأمون لنفس الضرورة وأحرى، فلما يُسأل:

يا بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إن الناس يقولون: إنك قبلت ولاية العهد مع إظهارك الزهد في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 49

(2). 52: 32

(3). نور الثقلين في تفسير العياشي وقال سليمان قال سفيان قلت لابي عبداللَّه عليه السلام ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم اذا اضطر إليه اما سمعت قول يوسف «اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم» وقول العبد الصالح: «وانا لكم ناصح امين»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 51

الدنيا؟ يقول عليه السلام: قد علم اللَّه كراهتي لذلك فلما خُيِّرت بين قبول ذلك وبين القتل اخترت القبول، ويحهم أما علموا أن يوسف عليه السلام كان نبياً ورسولًا فلما دفعته الضرورة إلى تولي خزائن الأرض قال: «إجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم» ودفعتني الضرروة إلى قبول ذلك على إكراه وإجبار بعد الإشراف على الهلاك، على أني ما دخلت في هذا الأمر إلّا دخول خارج منه فإلى اللَّه المشتكى وهو المستعان‏ «1» واين ضرورة من ضرورة، والحكمة فيهما والحكم واحدة على اختلاف الدرجة.

والامام ابو عبداللَّه الصادق عليه السلام يقول لأقوام يظهرون الزهد ويدعون الناس ان يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف: أين أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام ثم يوسف النبي عليه السلام حيث قال لملك مصر «اجعلني على خزائن الأرض إني حفظ عليم» فكان من أمره الذي كان أن اختار مملكة المَلِكَ وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحق ويعمل له فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه!. «2»

وفي الحق إنما الحكم للَّه‏ومن يمثِّل حكم اللَّه من رسله وأوليائه، والحاكمون على الشعوب دونهم كلهم طغات، ومن المفروض على من له أهلية الحكم تكريس الطاقات في كافة الحَلَقات لإزالة هذه السلطات وتأسيس الحكم الحق قدَر المستطاع، أم-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 432 ج 99 في عيون الأخبار باسناده عن الريان بن الصلت الهروي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام فقلت له يا بن رسول اللَّه ان الناس يقولون ... وفيه حجاج اخرى له مما شاةً ومجارات عن عيون الاخبار باسناده عن الحسن بن موسى قال: روى اصحابنا عن الرضا عليه السلام انه قال له رجل: اصلحك اللَّه كيف صرت الى ما صرت اليه من المأمون- وكأنه انكر ذلك عليه- فقال له ابو الحسن الرضا عليه السلام يا هذا ايهما افضل النبي او الوصي؟ فقال: لا بل النبي، قال: فايهما افضل مسلم او مشرك؟ قال لا بل مسلم، قال: فان العزيز عزيز مصر كان مشركاً وكان يوسف عليه السلام نبياً وان المأمون مسلم، وانا وصي، ويوسف سأل العزيز ان يوليه حين قال: «اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم» وأنا اجبرت على ذلك، وقال عليه السلام في قوله: «اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم» قال: حافظ لما في يدي عليم بكل لسان‏

(2). المصدر الكافي القمي باسناده عن مسعدة بن صدقة عن ابي عبداللَّه عليه السلام حديث طويل يقول فيه لا قوام ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 52

ولأقل تقدير- التقليل من ظلمهم في سلطاتهم، فإزالة السلطة الظالمة المغتصِبة وتقليلها هما مفروضان دوماً على عواتق المؤمنين باللَّه وبرسالاته.

فمن يندِّد بمثل يوسف الصديق والإمام الرضا عليهما السلام كفقيه ينقد ائمة الفقه ورسله، إنه في الحق ليس له فقه بطبيعة الفقه ورسالته الجماهيرية، وفقه الإسلام الناصع هو فقه الحركات والبركات، محلقاً على كل فقه وفقيه، ومطبِّقاً شِرعة اللَّه في سياسته الجماهيرية والسلطة الشرعية والزمنية، دون فكاك له عن السياسة، وهؤلاء الذين يفصلون الدين عن السياسة في الحق لم يعرفوا الدين ولا السياسة، وبهذه الجهالة فسحوا كافة المجالات القيادية الزمنية لرجالات السياسة غير الديِّنين، ورجال الدين هم في الوقت نفسه وعاظ السلاطين، والفقهاء الذين يحصرون الشرعة الإلهية في مدارس وأوراق وحلقات الدروس وفي المساجد وحفلات الوعظ والتعزية، التي هي تحت هذه السلطات السياسية الجهنمية.

إن الفقه الإسلامي لم يُنشأ ليُنشى‏ء أمة في فراغ، ويعيش ويعيِّش في فراغ، لا تتمثل فيه عناصر المواقف الخاصة بأجوائها، والبيآت والملابسات التي ينشأ فيها، منعزلًا عن السياسات والملابسات والأحكام الزمنية، مدروساً في فراغ مثالي لا يمثل في المجتمع حتى نفسه.

لقد جاء الإسلام بشرعة كاملة الجهات ليحكم بها العرض الجغرافي في الطول التاريخي، أفبإلامكان تطبيق هذه الشريعة بلا قيادات زمنية تتجمع فيها كافة الصلاحيات للحكم على الشعوب؟!.

وكذلك كل شرعة الهية في كافة الرسالات، فلم يكن ليوسف الصديق- بعد تمشيه في هذه الطريق الملتوية الشاقة الطويلة- لم يكن له أن يبقى مكتوف اليدين عن أية عملية إصلاحية، والجو الملكي يستقبله ويستدعيه: «وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين امين» وحين يصل أمره إلى ذلك المكانة والتمكين، عليه كواجب رسالي أن يرشد الملك إلى الأصلح للشعب من‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 53

المناصب المطروحة لديه ويقول: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم»!. «1»

ولئن سُئلنا كيف بالإمكان تطبيق النظام الإلهي في التراكيب العضوية الجاهلية واللّادينية، فلا تحرك الشرعة الإلهية في ذلك التركيب العضوي العارم إلّا ضدها، واللا تتحرك في فراغ، فلنصبر لإصلاح التركيب العضوي حتى يصلح الحكم على أساسه ولا يكون ذلك إلا في زمن المهدي القائم من آل محمد صلى الله عليه و آله!.

فالجواب أن الناس على دين ملوكهم، فالسلطة هي التي تصنع أعضاءها وتراكيبها الصالحة مهما طال الزمن، ومهما ظلت بعض الأعضاء فاسدة، فما يدرك كله لا يُترك كله! وإذا كان الإصلاح الرسالي قائماً على أساس التركيب العضوي الصالح، وذلك الصلاح ليس إلا على ضوء الرسالات الإلهية، فهو الدور المصرح المستحيل، بل والرسالات التي تحمل أعباء الاصلاحات لا تحلّ إلّا في مجتمع فاسد هو بحاجة إلى إصلاح، وحملة الرسالات هم الذين يصنعون التركيب العضوي الذي هو من أسس الحكم، ثم يحكمون بحكم أوسع، كما صنعه الرسول صلى الله عليه و آله بادى بدء في العهد المكي، ثم في العهد المدني أنشأ دولة الإسلام بذلك التركيب الذي أنشأه من ذي قبل ووسَّعه في المدينة.

والصديق يرى الجو يومذاك صالحاً لإصلاحٍ مّا حيث الحاجة إليه في الإصلاح الإقتصادي ذريعة تفرض عليه كونه على خزائن الأرض، ليمتلك بها قلوب أهل الأرض، فيحكم بشرعة اللَّه في الأرض.

«وكذلك مكّنَّا ليوسف في الأرض يتبوَّء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين\* ولأجر الآخرة خيرٌ للذّين آمنوا وكانوا يتّقون». «2»

«وكذلك» الذي فعله يوسف في رحلته الشاقة الطويلة، منذ البئر حتى البلاط

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين في تفسير العياشي وقال سليمان قال سفيان قلت لأبي عبداللَّه عليه السلام ما يجوز ان يزكي الرجل نفسه؟ قال: نعم اذا اضطر اليه اما سمعت قول يوسف «اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم» وقول العبد الصالح: «وانا لكم ناصح امين»

(2). 12: 56- 57

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 54

الملكي مستخلَصاً للملك، «وكذلك» الذي فعلنا بيوسف من تعليم الأحاديث وأنباء الغيب الرسالية، وإرائته برهاننا وصرف السوء عنه والفحشاء.

«وكذلك» الذي فعله اخوته والعزيز وامراته ونسوة في المدينة، والذي ظن أنه ناج والمَلِك. وحتى «كذلك» المكانة التي حصّلنا له في الجو الفرعوني، بهذه المعدات المثلثة المقدرة المقررة من قبلنا.

«كذلك مكنا ليوسف في الارض ..» مكانة مكينة، وإمكانية متينة، حيث يُجعل على خزائن الأرض فيصبح عزيزاً لحد يتوارى في ظله العزيز، فلا نسمعه حتى نهاية القصص إلّا له، دون الذي اشتراه من مصر حيث يخاطبه إخوته: «يا ايها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ..» «1»- «يا ايها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة ..». «2»

أترى العزيز الأول مات او قتل او عزل فاحتل الصديق مكانته؟ لا فحسب بل وتوارى المَلِك ايضاً إلّا مرة،: «ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلّا أن يشاء اللَّه ..».

أجل إن مكانة يوسف وإمكانيته في الأرض جعلته هو العزيز في كل المملكة لحد توارى كل عزيز من ملك فضلًا عن العزيز!.

أترى تلك المكانة المرموقة ليوسف كانت من اللَّه؟ فلماذا تطلَّبه الصديق من المَلِك! أم كانت من الملك؟ فكيف ينسبها اللَّه إلى نفسه! ولا دلالة هنا على أنه جعله على خزائن الأرض.

«كذلك مكنا» تدل أن الملك إستجابة إلى مطلوبه، وأنه كان من تمكين ربه، فالعبد يدبر وقد دبر الصديق بما قدم وما سئل، واللَّه يقدِّر كما قدر تمكينه في الأرض بما دبَّر، مما يبرهن بوضوح أن سؤاله ذلك من الملك كان بمرضات اللَّه تدبيراً، فكان من مرادات اللَّه تقديراً، وتوافق الأمر ان في تمكينه في الأرض! حيث حوّل قلبَ الملك ووجهه إلى تلك الواجهة فكان ما سأله وأراده اللَّه.

نرى في طول الخط تتحول أسباب ذُله إلى عزه برحمة خفية إلهية تجلت أخر أمره،!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 12: 78

(2). 12: 88

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 55

فقد حسده إخوته فجعلوه في غيابت الجب ليغيب عن ذلك الإكرام والحب، فاخذته السيارة ليشروه للعزيز، فأكرم اللَّه مثواه في بيت العزيز، وكادت به النسوة وامراة العزيز لإدخاله في صغار الفجور أو «ليسجنن وليكونن من الصاغرين» فأصبح عزيزاً في السجن، يؤوِّل الروءَّ، وقد جعله اللَّه ذريعة لتخلُّصه عن التهمة وخلاصه عن السجن، لحدّيثني الملك تطلبُّه إليه ويستخلصه لنفسه، ويجعله على خزائن الأرض، فيتوارى في ظل عزته العزيز الذي اذله، وكل عزيز.

لقد مكن اللَّه ليوسف أوّل مرة حين دخل بيت العزيز حيث قال لإمرأته‏ «أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث واللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» «1» «ولما بلغ أشده‏ آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين». «2» وكأنه آنذاك- فقط- تمكين الخلاص عن غيابت الجب إلى أرض البلاط، والتمكين العلمي والرسالي ولمّا يَحِن حين تمكينٍ لسلطته الزمنية تطبيقاً عزيزاً لرسالته.

ولكنما الآن يمكِّنه بعد ذلك التمكين، في الأرض، أرض المملكة وحواليها، لحد يتبوء منها حيث يشاء، دون مشية فوقية تحده فيما يشاء، إذ أصبح مطلق الإختيار في كل أرض المملكة، كأن له السلطة العليا، ولم يكن الملك لو كان له كون- إذ ذاك- أو كيان، إلّا صورة فاضية وسلطة خاوية ليست له إرادة دون إرادته ولا مشيئة فوق مشيئته!.

لقد تعاضدت أعضاد الدولة والملة بأسباب قاطعة وتظاهرت وتواترت لخفضه فلم يزدادوه إلّا عزاً، ولم يكن إلا ما أراده اللَّه‏ «واللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» وهنالك حصحص حق الآية: «إن يمسسك اللَّه بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا رادَّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم». «3»

أتراه لماذا «مكنا ليوسف» دون «مكناه» كما في آخرين في آيات أخرى؟:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 12: 31

(2). 12: 22

(3). 10: 107

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 56

إن التمكين «له» أوسع مكانة وإمكانية من تمكينه، فقد مكّن- بوجه عام- كل من في الأرض فيها: «ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش ..» «1» وهذا من تمكين إمكانية إستعمار الأرض واستثمارها دون منع عنها وتمنُّع منها، ومن ثم مكانة فوقها تخص الماكن فيما يتوجب عليه دون إحراج أو إخراج: «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وللَّه عاقبة الأمور» «2» وهذا التمكين على قدر الماكن من تطبيق واجبه الشخصي، وآخر جماعي لا يُحوِجه إلى أكثر من تطبيقٍ مّا قل او كثر، دون حاجة إلى سلطة زمنية، وإلا لما وجبت هذه الأربع على الأمة، حال «ولتكن منكم أمة ...»!.

ثم التمكين «له» نراه في يوسف كما هنا، وفي ذي القرنين: «إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شي‏ء سبباً» «3» حال أن فيه نفسه بالنسبة لصناعة السد، غير المحتاجة الى سلطة واسعة زمنية يقول:: «ما مكني فيه خير فأعينوني بقوة» «4» دون «ما مكني له».

وفي السلطة العالمية للذين آمنوا «وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ..» «5» دون «نمكينهم في دينهم»، كما وفي وعد الإمامة ووراثة الأرض للمستضعفين المؤمنين:

«ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون». «6»

وذلك التمكين لهم هو السلطة الصالحة لأنبياء إسرائيلين، كموسى وداود وسليمان ومن تبعهم بإحسان، ويوسف هذا يقدمهم فيه: «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض» وهو يسبق هؤلاء كلهم في ذلك التمكين المكين الأمين.

«وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء ..» وليس فقط تبوُّء الدار المكان، بل وتبوء الإيمان ورفع أعلامه، فإن تبوُّء الدار حاصل لمن يشتريها أيّاً كان،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 10

(2). 22: 41

(3). 18: 84

(4). 18: 95

(5). 24: 55

(6). 28: 6

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 57

فذلك- إذاً- تبوُّء وتمكن رسالة الإيمان على ضوء النبوة السلطة الزمنية، بإمكانية واسعة ومكانة شاسعة دونما تحدد أو تهدد. «1»

«نصيب برحمتنا من نشاء» لو أنه يشاء ويعمل له فيصلح لإصابة الرحمة، وهو من المحسنين «ولا نضيع أجر المحسنين» لا في الدنيا ولا في الآخرة «ولأجر الآخرة خيرٌ» لأنها هي دار الأجر والجزاء، وهنا دار التكليف والبلاء «للذين آمنوا» لا فحسب الإيمان كعقيدة مخبوئة في الجنان بل «وكانوا يتقون» على طول الخط في معارك الحياة، يتقون المحاظير فردية وجماعية، وليرفرفوا أعلام التقى، ويخفضوا منارات الطُغى، ومن «رحمتنا» هنا هي جماعٌ من المكانتين الروحية والزمنية كما حصل ليوسف وأضرابه، وليس كل المحسنين ليُصابوها، وليس حرمان المحرومين عنها ضياعاً لأجرهم، فلهم أجرهم في الآخرة عياناً وبياناً، وأجرهم في الدنيا وبدون سلطة زمنية هو النصرة الإلهية في غَلَبَ البرهان، والتصبُّر على كل حرمان في سبيل الإيمان: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»! ف «اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات رحمة اللَّه فإن للَّه‏عز وجل نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده واسألوا اللَّه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم». «2»

وقد تلمح «نصيب» بأن الجمع بينهما في الدنيا ليس إلا كصدفة قاصدة «من نشاء» حسب ما تقتضيه المصلحة الجماعية، ولسوف تصبح الرحمتان هامتان وعامتان ومنقطعتا النظير في زمن القائم المهدي من آل محمد صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين!.

من هنا تدور عجلة زمن سلطة الزمنية طوال السبع الأولى سنوات الرخاء، دون أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الإصحاح 41 من تكوين التورات تباعاً لما سلف ما يلخص كالتالي: «ان فرعون استحسن كلام يوسف وتعبيره واكرمه واعطاه امارة المملكة في جميع شؤنها وخلع عليه بخاتمه والبسه ثياب بوص ووضع طوق ذهب في عنقه واركبه في مركبه الخاصة ونودي امامه ان اركعوا واخذ يوسف يدير الامور في سني الخصب ثم في سني الجدب احسن ادارة

(2). الدر المنثور 4: 25- اخرج الحكيم الترمذي وابن ابي الدنيا في الفرج والبيهقي في الاسماء والصفات عن انس عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله انه قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 58

تذكر القصص ما هو دور الصديق فيها، ولا كيف أدار جهاز الدولة المخولة إليه، اللهم إلا ما أفاده من قبل: «إني حفيظ عليم» ثم ولا يذكر العزيز ولا الملِك إلّا مرة مشيرة: «في دين الملك» فضلًا عن رجال المُلك والحاشية، مما يلمح أن الأمر بكامله وكله صار إلى يوسف، بارزاً مبارزاً على مسرح الحوادث ومصرع الكوارث، كأنه هو الآمر الناهي لا سواه، حيث يضطلع بالأعباء كلها في الأزمات الخانقة الخافقة، فقد تصدق- على ضوء هذه التلميحة- الرواية القائلة بعد مقابلة طائلة ان «قال له الملِك إن ذلك لشرفي وفخري ألّا أسير إلّا بسيرتك، ولا أحكم إلّا بحكمك، ولولاك ما قويت عليه ولا اهتديت له وقد جعلت سلطاني عزيزاً ما يرام وأنا أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأنك رسوله فأقم على ما وليتك فإنك لدينا مكين أمين». «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد مضى ما يشبهه من التورات والرواية في نور الثقلين 3: 425 عن المجمع عن الطبرسي في كتاب النبوة بالاسناد عن احمد بن محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن الياس قال سمعت الرضا عليه السلام يقول: واقبل يوسف على جمع الطعام في السبع السنين المخصبة مكبسة في الخزائن فلما مضت تلك السنون واقبلت السنون المجدبة اقبل يوسف على بيع الطعام فباعهم في السنة الاولى بالدراهم والدنانير حتى لم يبق بمصر وما حولها دينار ولا درهم الا صار في ملك يوسف.

وباعهم في السنة الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق بمصر وما حولها حلي ولا جواهر الا صار في ملكه، وباعهم في السنة الثالثة بالدواب والمواشي حتى لم يبق بمصر وما حولها دابة ولا ماشية الا صار في ملكه، وباعهم في السنة الرابعة بالعبيد والاماء حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا امة إلا صار في ملكه وباعهم في السنة الخامسة بالدور والفناء حتى لم يبق في مصر وما حولها دار ولا فناء إلا صار في ملكه، وباعهم في السنة والسادسة بالمزارع والانهار حتى لم يبق بمصر وما حولها نهر ولا مزرعة إلّا صار في ملكه وباعهم في السنة السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر وما حولها عبد ولا حر إلا صار عبداً ليوسف-

فملك احرارهم وعبيدهم واموالهم وقال الناس ما رأينا ولا سمعنا بملك اعطاه اللَّه من الملك ما اعطى هذا الملك حكماً وعلماً وتدبيراً، ثم قال يوسف للملك: ما ترى فيما خولني ربي من ملك مصر واهلها؟ اشر علينا برأيك فاني لم اصلحهم لافسدهم ولم انجهم من البلاء ليكون وبالًا عليهم ولكن اللَّه نجاهم على يدي، قال الملك: الرأي رأيك.

قال يوسف: اني اشهد اللَّه واشهدك ايها الملك اني قد اعتقت اهل مصر كلهم ورددت عليهم اموالهم وعبيدهم، ورددت عليك الملك وخاتمك وسريرك وتاجك على ان لا تسير الا بسيرتي ولا تحكم الا بحكمي، قال له الملك: ان ذلك ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 59

يا عُظماه كيف يصبح العبد السجين مالكاً لمولاه فيعبِّده للَّه؟ اجل و «ان الحر حرّ على جميع أحواله، ان نابته نائبة صبر لها وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسِر وقُهِرَ واستبدل بالعسر يسراً كما كان يوسف الصديق الأمين عليه السلام لم يضر حريته ان استعبد وقهرَ واسر، ولم يضره ظلمة الجب وحشته وما ناله- أن منَّ اللَّه عليه فجعل الجبار العاتي له عبداً بعد أن كان له مالكاً فارسله ورحم به أمة، وكذلك الصبر يعقب خيراً، فاصبروا ووطنوا أنفسكم على الصبر وتوجروا». «1»

داود وسليمان الملك رب هب لي ملكا لا ينبغى لاحد

عرض حافل لمُلك سليمان وسلطته الروحية الرسالية مع الجن والانس والطير فهم يوزعون، في حلقات من حياته المنقطعة النظير مع الطير والنمل وملكة سبإ، تبرز سلطته الملَكية بجنب سلطانه الرسالي، تبييناً لعدله في سلطانه الجامع غير الجامح، قصصاً حافلة بحركات ومشاعر ومشاهد، نبراساً ينير الدرب على الزعماء في كل حقل كيف يجب عليهم رعاية الرعايا والتجنب عن الخطايا:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيَمانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ». «2»

«لقد» تأكيدان اثنان لوَهبة العلم الربانية، و «آتينا» في جمعية الصفات تاكيدة ثالثة تلمح لمختلف صنوف العلوم الربانية، الممكن ايتاءها للصالحين الخصوص، ثم «علماً» منكَّراً تأشير إلى فخامة ذلك العلم، كما و «آتينا» تشير إلى انه ليس مما يحصل بتحصيل متعوِّد، بل هو إشراق رباني الى قلوب الطاهرين على قدر الفاعليات والقابليات «علماً» ومعرفة باللَّه يتبع العقيدة الصالحة والعمل الصالح «علماً» يعلم صاحبه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 434 ح 108 في اصول الكافي باسناده عن ابي بصير قال سمعت ابا عبداللَّه عليه السلام يقول ..

(2). 27: 15

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 60

مصدَره، متجهاً إلى اللَّه، منفقاً له في مرضات اللَّه، مقرِّباً له إلى اللَّه، دونما صدٍّ للقلب عن اللَّه، زائغاً عن مصدره ومورده، لا يثمر إلّا شقاوة، لأنه منقطع الصلة صادراً ووارداً، وبعيداً عن النور مادة.

وهنا نعرف موقف الواو في «وقالا ...» كانها عطف على محذوف معروف من «علماً» هذا، وهو العقيدة الصالحة والعمل الصالح: «آتينا علماً»- فاعتقداه وعملا به «وقالا الحمد للَّه ..» فذلك الحمد باللسان يتبع الحمد بالجنان والأركان، شكرا على عطية المَلِك المنان، و «فضلنا» ليس فقط في مجرد العلم، إذ لا فضل في مجرده عن أثماره، بل هو الذي قال اللَّه عنه «انما يخشى اللَّه من عباده العلماء»-: باللَّه و «ان اكرمكم عند اللَّه اتقاكم» علم التقوى والتقوى في العلم جناحان يطير بهما العبد الصالح إلى قمم المعرفة والكمال.

ثم وليس «فضلنا» هنا- فقط- بما علمنا مجرداً عما يرام منه مادة وفاعلية، بل «فضلنا» بما يفضِّل عباداً على عباد وقمتهُ التقوى، و «على كثير من عباده المؤمنين» تعقيبة رقيبة على ذلك التفضيل في علم وسواه، انه في العبودية والايمان، دون العلم الفاضي عنهما، وانما هو الفائض منهما، الصادر عنهما، والوارد موارد الحق المُرام فيهما.

ولقد أشير إلى العلم المؤتى لداود في‏ «وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب» «1» ولسليمان‏ «ففهمناها سليمان وكلًا آتينا حكماً وعلماً» «2» فيهما المؤتَيان حكماً وعلماً، يشملان قمماً معرفية فُضِّلا بها على كثير من عبادة المؤمنين.

اجل وهم من القلة القليلة بين «عبادة المؤمنين»: «اولئك المقربون. في جنات النعيم. ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين» «3» فتلك الثلة وهذه القلة القليلة «من عباده المؤمنين».

ومن فضل داود المشار إليه ب «فضلنا»: «ولقد آتينا داود منا فضلًا يا جبال أو بي معه والطير وألنَّا له الحديد» «4» «ولسليمان الريح عدوها شهر ورواحها شهر». «5»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 38: 20

(2). 21: 79

(3). 56: 14

(4). 10

(5) 34 12

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 61

فقد كان داود يرتل مقاطع من الزبور فيتجاوب به ذرات الكائنات مِن حوله، مما يدل على العبودية العريقة القمة، وسليمان المسخر له الريح والجن والإنس بامر اللَّه قضيةَ طاعة اللَّه كما قال اللَّه: عبدي أطعني حتى اجعلك مَثَلي انا اقول للشي‏ء كن فيكون، اجعلك تقول للشي‏ء كن فيكون!.

لذلك لمّا «سأل رجل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن افضل الأعمال فقال: العلم باللَّه والفقه في دينه وكررها عليه، فقال: إنها تشمل سائر الطير دونما استثناء، مهما برزت الهدهد في ذلك المسرح.

وهل إن «منطق الطير» هنا تختص علمه بمنطقها بين سائر الحيوان؟ فكيف علِّم منطق النملة! ألأنها كانت من طيرها فتشملها «الطير»؟ ولا يقال لذوات الأجنحة منها طير!.

أم لأن النلمة اختصت بهذا النص بين الحيوان غير الطير، فلم يعلم منطق سائر الحيوان إلّا النملة؟ .. ليس لنا إلّا متابعة النص، فقد علِّم منطق الطير والنملة ثم لا ندري هل علِّم منطقاً آخر ام لا؟ اللهم إلّا أن تلمح‏ «وأوتينا من كل شي‏ءٍ إنَّ هذا لهو الفضل المبين» و «من كل شي‏ء» شي‏ء من العلم بمنطق سائر الحَيوان بل وسائر الكائنات‏ «1» وشي‏ءٌ من المِلك والمُلك.

اجل «من كلِّ شي‏ء» لا تعني البعض الذي يعرفه الكلّ علماً فطرياً أو تعلماً، وانما «اوتينا» كعطاء خاص رباني كما «آتينا داود وسليمان علماً» فذلك المؤتى له من كل شي‏ء، شي‏ءٌ من العلم الخاص والقدرة الخاصة أمّا هيه من المخبؤِ تحت ستار الغيب، لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) المجمع روى الواحدي بالاسناد عن جعفر بن محمد عن ابيه عليهما السلام قال: اعطي سليمان بن‏داود ملك مشارق الأرض ومغاربها فملك سبعمأة سنة وستة أشهر، ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والانس والشياطين والدواب والطير والسباع وأعطي علم كل شي‏ءٍ ومنطق كل شي‏ءٍ وفي زمانه صنعت الصنائع العجيبة التي سمع بها الناس وذلك قوله «علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شي‏ء إن هذا لهو الفضل المبين»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 62

يعلمها إلّا من علمه اللَّه، و «إن هذا لهو الفضل المبين» حيث يبين اختصاص الفضل على سائر العالمين، إذ لا يناله أحد إلّا بما يؤتيه اللَّه لا سواه.

إلّا أن هنا فرقاً بين «علمنا منطق الطير» و «أوتينا من كل شي‏ءٍ» حيث الأول تلمح انه علِّم منطق الطير ككل، والثانية لمكان «مِن» التبعيض تختص علمه وقدرته بالبعض، فقد علِّم- إذاً- بعض المنطق من سائر الحيوان وسواها، كما أوتي البعض غير العلم كما العلم، وليس منطق الطير كلَّ ما يُسمع منها، فقد يكون صوتاً دون معنى كما قد يكون منا، وقد لا يكون صوتاً نسمعه كما في النمل واضرابها، فما يناله الإنسان من الصوت انما هو عدد محدود من إلإرتعاش الصوتي وهو كما يقال ما بين ستة عشر ألفاً إلى اثنين وثلاثين ألفاً في الثانية، والخارج منها في الجانبين خارج عن حدود سمعه، وقد تنطق الطير أو سائر الحيوان دون صوت، وإنما باشارات تلغرافية أو الرادار كما نراها من النمل وسائر الحيوان، فلا يختص المنطق بما له صوت، بل يعمه مسموعاً لنا وسواه، أم رمزاً لا يُسمع، والنطق هو إبراز ما في الباطن بآلة ظاهرة لساناً وسواه، ام رمزاً لا يُسمع، والنطق هو إبراز ما في الباطن بآلة ظاهرة لساناً وسوا، و «علمنا منطق الطير» تعم مثلث النطق.

اجل وللطير منطق كما لكل حيوان حيث الكل امم كما نحن: «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شي‏ء ثم الى ربهم يحشرون». «1»

ذلك! لضرروة التفاهم بينها لإدارة الشئون الحيوية لها، وليس للإنسان التعرُّف إلى منطقها مهما حاول وزاول، لأنه من الأسرار الربانية يعلِّمها من يشاء!.

وحين يعلَّم سليمان منطق الطير ويوتى من كل شي‏ء فباحرى الرسول صلى الله عليه و آله والأئمة من آله الطاهرين عليهم السلام اجمعين، أحرى بهم ان يعلّموا منطق الطير ويؤتَوا من كل شي‏ء «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 6: 38

(2). نور الثقلين 4: 77 في الخرائج والجرائح قال بدر مولى الرضا عليه السلام ان اسحاق بن عمار دخل‏على موسى عليه السلام فجلس عنده واستأذن عليه رجل من خراسان فكلمه بكلام لم اسمع بمثله كأنه كلام الطير، قال اسحق: فأجابه موسى عليه السلام بمثله ولغته إلى أن قضى وطره من مسائله فخرج من عنده فقلت: ما سمعت بمثل هذا الكلام! فقال عليه السلام: هذا كلام قوم من أهل الصين وليس كل كلام أهل الصين مثله ثم قال: اتعجب من كلامي بلغته؟ فقلت: هو موضع العجب! قال عليه السلام: اخبرك بما هو اعجب منه ان الامام يعلم منطق الطير ونطق كل ذي روح خلقها اللَّه تعالى وما يخفى على الإمام شي‏ء.

أقول «لا يخفى على الامام شي‏ء» قد يعني لغة كل شي‏ء لا كل شي‏ء من كل شي‏ء فانه خاص باللَّه الذي لا يعزب عن علمه شي‏ء.

وفيه عن المناقب لابن شهر آشوب محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول: «علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شي‏ء» أقول: وهذا يؤيد تبعيض العلم وكل شي‏ء من كل شي‏ء.

وفيه عن بصائر الدرجات بسند عن الثمالي قال كنت مع علي بن الحسين عليهما السلام فانتشرت العصافير وصوتت فقال: يا أبا حمزة أتدري ما تقول؟ قلت: لا قال: تقدس ربها وتسأله قوت يومها ثم قال: يا با حمزة «علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شي‏ء».

وعنه عن زرارة عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال قال امير المؤمنين عليه السلام لابن عباس: إن اللَّه علمنا منطق الطير كما علم سليمان بن داود، ومنطق كل دابة في بر وبحر. وفي تفسير البرهان 3: 201 محمد بن الحسن الصفار في بصائر الدرجات بسند متصل عن بن جعفر عن ابيه قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: استوصوا بالصنانيات خيراً يعني الخطاف فانه آنس طير الناس بالناس ثم قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: اتدرون ما تقول الصنانية إذ هي ترنمت تقول بسم اللَّه الرحمن الرحيم الحمد للَّه‏رب العالمين حتى تقرء ام الكتاب فإذا كان في آخر ترنمها قالت ولا الضالين.

أقول: والروايات في أنهم علموا منطق الطير وأوتوا من كل شي‏ء علّها متواترة.

وقد يعني ان علمهم عليهم السلام أوسمع من علمه كما عن نفس المصدر عن الفيض بن المختار قال سمعت ابا عبداللَّه عليه السلام ان سليمان بن داود قال: «علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شي‏ء» وقد واللَّه علمنا منطق الطير وعلم كل شي‏ء اقول: ولكن الكل نسبي لا يعني ككل ما يعلمه اللَّه، وانما البعض الأكثر شمولًا مما علم وأوتى سليمان‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 63

فانهم ائمة سليمان ومَن فوقَه من النبيين، وما هم بعالمين كل شي‏ء خلافاً لما يروى‏ «1» وترى «علمنا وأوتينا»- وهو شخص- أهي من سنة الرعونة والكبرياء في الملوك؟ وسليمان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن البصائر الدرجات احمد بن محمد بن خالد عن بعض رجاله عن ابي عبداللَّه عليه السلام وتلا رجل عنده هذه الآية «وعلمنا منطق الطير وأوتينا من كل شي‏ء» فقال ابو عبداللَّه عليه السلام ليس فيها «من» انما هي «اوتينا كل شي‏ء» اقول: انه مضروب عرض الحائط لمخالفته القرآن وكما في روايات العرض‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 64

من افضل الصالحين! قد يعني نفسه واباه داود، ام ومن معه من النبيين وسائر المعصومين عليهم السلام، وكما «آتينا داود وسليمان علماً».

وقد تلمح «علمنا وأوتينا» برجاحة الإعلان بما أنعم اللَّه أو اختص بكرامته، كما «واما بنعمة ربك فحدث» شرط ألّا تمازجه رعونة وكبرياء فان اللَّه منها براءٌ، بل هو هنا اعلان رسالي تدليلًا بذلك العلم على رسالته الى الناس، فليس فقط تحديثنا بنعمة ربه راجحاً غير واجب.

فقد أذاع سليمان هذه العطية الربانية للناس تحدثاً بنعمة اللَّه دون مباهاة ولا تنفُّجٍ على الناس، وكما يدل عليه بتعقيبه «ان هذا لهو الفضل المبين».

وليس منطق الطير وسائر الحيوان- ككلٍّ- بالساذج الحيواني دون العقول الإنسانية، وكما النملة والهدهد تبرزان هذه الحقيقة، ان لها معارف كما للإنسان ام وقد تكون أصغى وأوفى، وأنها تسبِّح بحمد ربها كما نسبِّح‏ «كل قد علم صلاته وتسبيحه» «1» «وكلن لا تفقهون تسبيحهم». «2» «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 24: 41

(2). 17: 44

(3). نور الثقلين 4: 78- المناقب عن تفسير الثعلبي قال الصادق عليه السلام قال الحسين بن علي عليهما السلام: إذا صاح النسر قال: يا ابن آدم اعش ما شئت آخره الموت، وإذا صاح الغراب قال: ان في البعد عن الناس انساً- وإذا صاح القنبر قال: اللهم العن مبغضي آل محمد صلى الله عليه و آله وإذا صاح الخطاف قرء الحمد للَّه‏رب العالمين ويمد الضالين كما يمدها القاري‏ء. وفيه في مناقب ابي جعفر الباقر عليه السلام وسمع عصافير تصحن قال: تدري يا ابا حمزة ما يقلن؟ قلت: لا- قال: يسبحن ربي عز وجل ويسألن قوت يومهن.

وعن بصائر الدرجات بسند عن فضيل بن يسار عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال: كنت عنده إذ نظرت إلى زوج حمام فهدر الذكر على الانثى فقال لي: أتدري ما يقول؟ قلت: لا- قال يقول: يا سكني وعرسى ما خلق اللَّه أحب إليّ منك إلّا ان يكون مولاي جعفر بن محمد. وفيه بسند عن سليمان من ولد جعفر بن ابي طالب قال: كنت مع ابي الحسن الرضا عليه السلام في حائط له إذ جاء عصفور فوقع بين يديه واخذ يصيح ويكثر الصياح ويضطرب فقال لي: يا فلان تدري ما يقول هذا العصفور؟ قال قلت: اللَّه ورسوله وابن رسوله اعلم قال: انها تقول ان حية تريد ان تأكل فراخي في البيت فخذ معك العصا وادخل البيت واقتل الحية، قال: فأخذت النبعة- وهي العصا- ودخلت إلى البيت وإذا حية تجول في البيت فقتلتها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 65

وإنما الميِّزة البارزة للإنسان بين سائر الحيوان هو التقويم الأحسن فيه قلباً وقالباً، وانه لا يقف لحدٍّ، فله التكامل الى قمم عليا من الكمال وأعلى من الملائكة المقربين، وللحيوان- ككل- مقام محدود، وحتى بالنسبة للحيوان الذي يتكامل وقليلٌ ما هو، وان الكمالات الإنسانية روحية وسواها تتبنى المساعي على قدرها، والحيَوان اوتيت المعرفة باللَّه غريزياً في كل وظائفها «كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه»!.

«وحشر لسليمان جنوده من الحنِّ والإنس والطَّير فهم يوزعون». «1»

الحشر هو اخراج جماعةٍ عن مستقرهم بازعاج ودفعٍ جماعة، وهكذا يحشر الجنود المتفرقون في مختلف مستقراتهم لهدف الغزو، أو عرضهم أمام قائدهم أمّاذا؟ والإيزاع هو المنع، وهنا الحبس عن تفرقهم وحشرهم ان «يحبس اولهم على آخرهم». «2» فقد اصبح جنوده من الأقسام الثلاثة محشورة مع بعض، دون سماح لهم بالتفرق والرجوع إلى مستقراتهم لفترة مقصودة فيما أهمه.

و «من» هنا تبعِّض الجن والإنس والطير، فلم يكن الكلُّ بأسرهم جنودَه، فمن يبقى بعدهم اجمع حتى يحاربهم؟ أيحارب الحَيَوان الوحش أو الملائكة أمّن هم؟ ولم يتجاوز ملكه ما يعرف ألآن بفلسطين ولبنان وسوريا والعراق إلى ضفة الفرات! والشيطان- وهو من الجن وزعيم مردة الشياطين- لم يكن من جنوده، ومنهم محاربون له معارضون:

«واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا»، «3» ثم الشياطين العمال لم يكونوا كلهم من جنوده، بل‏ «والشياطين كل بناء وغواص» «4» «ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملًا دون ذلك وكنّا لهم‏ حافظين» «5» ومنهم من لم يطلع عليهم كمملكة سبإ حتى أخبره الهدهد!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 27: 17

(2). نور الثقلين 4: 82 القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام في الآية ..

(3). 2: 102

(4). 38: 37

(5). 21: 82

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 66

ولاية النبي (ص) على المؤمنين‏

«النَّبِىُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً». «1»

آية وحيدة منقطعة النظير، تختص ولاية عامة للنبي على المؤمنين، وامومة ازواجه لهم، واولوية اولى الارحام بعضهم ببعض من المؤمنين والمهاجرين، تضم في هذا المثلث أحكاماً عدة جماعية سياسية واقتصادية أمّاهيه؟

ولاية النبي على المؤمنين؟

«النبي أولى بالمؤمنين من انفسهم» ضابطة مطلقة عامة ثابتة بين محور النبوة وشعاع الايمان، فهو «اولى» قضية النبوة، وهم مولّى عليهم قضية الايمان، وهو صلى الله عليه و آله لا ينفصل عن ولايته ولا تنفصل عنه حيث النبوة لزامها، ولكن الايمان قد ينفصل عمن يتنحى عن ولايته صلى الله عليه و آله وكما يروى عنه صلى الله عليه و آله: «والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس اجمعين»!.

وليست هي مجرد ولاية الحب مهما كان اصلًا من قضيتها، بل هي مطلق الولاية في مطلق الامور على مطلق الأنفس المؤمنة، عقيدة وحباً وقولًا وعملًا أماذا من متطلبات الولاية الأولوية المطلقة!.

إن هذه النبوة القمة تقتضي اولوية قمة، كما الايمان بدرجاته يقتضي تحمل تلك الاولوية حسب الامكانيات.

اترى ان هذه الولاية المحمدية قد تُعمي مصالح الامة جماعات وفرادى لمصلحة ذاتية شخصية؟ كلّا! ف- «النبي اولى» وليس «محمد اولى» فهذه الاولوية ليست إلا لتخدم مصالح الرسالة والمرسل إليهم جماعات وفرادى، دون مصلحة لشخص محمد صلى الله عليه و آله فانما مصالح رسولية ورسالية ومصالح للمؤمنين، وكلها لصالح الايمان فصالح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 33: 6

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 67

المؤمنين، جماعات وفرادى، تصد عنهم اخطاءً عامدة وجاهلة وتصلح الامة كما يرضاها اللَّه حيث الولاية اسلامياً هي أن يلي كل قوي من المسلمين ضعيفهم، عقيدياً او علمياً او خلقياً او عملياً، اماذا من مختلف الوهبات والكسبيات جبراناً لنقصه، فقد يكون المسلم وليّاً من جهة ومولَّى عليه من اخرى، كالأعلم بالنسبة للاتقى، فانه وليه علمياً، ولكنه مولى عليه عملياً، وهلم جرأ في سائر الاولياء والمولى عليهم حسب مختلف الولايات.

والسمة العامة فيها كلها صالح المولى عليه حيث لا يقدر على تحصيله كما يجب او يُحب، وهذه الموالات هي في صيغة اخرى تعاونٌ على البر والتقوى، وضد الشر والطغوى، تعليماً او امراً ونهياً او حملًا على فعل المعروف وترك المنكر.

فليس للولي أياً كان أن يتامَّر على المولى عليه لصالحه الشخصي بسند انه قوي، اللّهم إلّا لصالح المولى عليه افراداً وجماعات، والى السلطة الزمنية على ضوء الاسلام حيث الزعيم خادم الرعية، دون ان يبتغي من الزعامة مالًا او منالًا إلّا اصلاح الرعية، وتوجيههم الى الأصلح فالاصلح في مختلف الحقول الاسلامية المحلِّقة على كافة المصالح.

الولايات العشر في الاسلام:

هنالك ولايات خاصة واخرى عامة على المؤمنين كلها تنحو منحى مصالحهم معنوية ومادية جماعية وفردية، ك: «1- الولاية على الايتام، 2- والسفهاء، 3- والمجانين، 4- والزوجات، 5- والاولاد، 6- والمتخلفين، «1» 7- وعلى كل الأمة من الفقهاء، 8- وائمة الدين، 9- والرسول، 10- وولاية اللَّه!.

كل هذه ولايات على من لا يحيط علماً او طاقة على مصالحه، فالولاية المعصومة من بينها مطلقة وكما تدل عليه آية الولاية: «انما وليكم اللَّه ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكوة وهم راكعون» «2» وآية الطاعة: «اطيعوا اللَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). دليله قوله تعالى «المؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يامرونهم بالمعروف وينهونهم‏عن المنكر»

(2). 5: 55

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 68

واطيعوا الرسول واولى الامر منكم». «1»

والولايات الاخرى محدودة بحدود المصالح، وللمولى عليهم الإعتراض والإستيضاح إن اشتبه عليهم أمرها او تاكّدوا من خلاف المصلحة فيها.

ثم تشترك هذه العشر في الولاية الشرعية على اختلاف درجاتها وضيقها وسعتها، وتختصّ ولاية المعصومين الشرعية بانها مطلقة محكمة دونما استثناء لانها تمثل ولاية النبي الممثلة لولاية اللَّه واما الولاية التشريعية والتكوينية فهما من اختصاصات الربوبية، فهو- فقط- المشرع لا سواه «شرع لكم من الدين وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك ...» وهو المكون خلقاً وتدبيراً لا سواه «الا له الخلق والامر ..».

ولاية النبي صلى الله عليه و آله هي الاولوية بانفس المؤمنين، فتحتل الدرجة الثانية من العشر بعد الولاية الإلهية، فهو أولى بكل مؤمن من نفسه وأهله وماله وعرضه، وكلها لصالح النبوة والمولى عليهم على ضوء النبوة العادلة، ولاية عامة تشمل رسم مناهج الحياة الفردية والجماعية في كافة حقولها، فلا ولاية مع ولايته، حيث لا تساوى ولا تسامى، اذ تحلِّق بعد ولاية اللَّه على الولايات كلها، على سائر الاولياء والمولى عليهم كلهم.

قد تتحقق الولاية دون اولوية بانفس المولّى عليهم منهم كما في سائر الولايات الخاصة والعامة، إلّا المحمديين من العترة المعصومين عليهم السلام‏ «2» ولكنما الآية تثبت ولاية الاولوية له صلى الله عليه و آله بأنفس المؤمنين مما يقدّمه صلى الله عليه و آله عليهم في النواميس المهمة كلها: نفساً وعقلًا وديناً وعرضاً ومالًا لصالح النبوة والمولّى عليهم، فصالح النبوة هو صالحهم جميعاً.

فكما يحب على كل مؤمن الحفاظ على هذه النواميس حباً لها وايماناً، كذلك عليهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 59

(2). الدر المنثور 5: 182 اخرج ابن ابي شيبة واحمد والنسائي عن بريدة قال غزوت مع علي‏اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذكرت علياً فنقصته فرأيت وجه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تغير وقال يا بريدة الست اولى بالمؤمنين من انفسهم قلت بلى يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» اقول وأنها كلمة متواترة عنه صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 69

- وبأحرى- الحفاظ عليها من النبي صلى الله عليه و آله تقديماً لجانبه على جوانبهم، وكما اللَّه جعله اوَلى بهم وعلى حد قوله صلى الله عليه و آله: «ما من مؤمن إلّا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة» «1» ومن هذه الولاية قوله صلى الله عليه و آله: «أنا اولى بكل مؤمن من نفسه فايما رجل مات وترك ديناً فإليَّ ومن ترك مالًا فلورثته» «2» فليس له من اموال المؤمنين شي‏ءٌ إلّا ما تلزمه المصلحة الجماهيرية الاسلامية كالضرائب المستقيمة وغير المستقيمة وهي كلها لصالح المسلمين.

ثم اذ يأمر الرسول صلى الله عليه و آله بشي‏ءٍ فلا تخلُّف عنه نَظرة الإذن من غيره ولياً وسواه كما كان في غزوة تبوك‏ «3» ومن خلفيات هذه الولايةً الاولويةِ المطلقةِ أن لوراى النبي صلى الله عليه و آله صالحاً في تطليق زوجتك طلقها دون استئمارك، ام صالحاً في حَملك على عمل دون أجر او باجر، ام دفع مال بمقابل او دون مقابل، اماذا مما لك فيه الولاية نفساً واهلًا ومالًا وحالًا، فهو أولى بك منك، فضلًا عما ليس لك فيه ولاية، فهو فيه اولى منك في بعدين اثنين ولكنه لم يعهد عنه امثال هذه التصرفات خلافاً لمرضات المؤمنين وان كانت له بسناد ولايته المطلقة المخوَّلة.

ثم الولاية الجماهيرية هي له احرى من الشخصية، حيث النبوة تنحو منحى الجماهير قبل الأشخاص، وهي لصالح مجموعة الامة قبل افرادها، وصالح الجماعة في ولاية وسواها أهم من صالح الأفراد.

ومن اهم الاهداف في ضابطة الولاية هنا هي الإمرة «4» ألّا يَخَلد بخَلَد المؤمنين فرادى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر اخرج البخاري وابن جرير وابن ابي حاتم وابن مردويه عن ابي هريرة عن‏النبي صلى الله عليه و آله قال: ... اقرءوا ان شئتم «النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم ..»

(2). المصدر اخرج احمد وابو داود وابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه و آله: ... ومثله ذيل الحديث‏السابق ولكن فيه: من ترك مالًا فلعصبة ..

(3). في المجمع وروي ان النبي صلى الله عليه و آله لما اراد غزوة تبوك وامر الناس بالخروج قال قوم: نستأذن‏آبائنا وامهاتنا فنزلت هذه الآية

(4). نور الثقلين 4: 238 عن علل الشرايع باسناده الى عبد الرحمن لقصير عن ابي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول اللَّه عز وجل «النبي اولى ...» فيمن نزلت هذه الآية قال: نزلت في الإمرة ان هذه الآية جرت في الحسين بن علي عليه السلام وفي ولد الحسين فنحن اولى بالامر وبرسول اللَّه صلى الله عليه و آله من المؤمنين والمهاجرين، قلت: لولد جعفر فيها نصيب؟ فقال: لا- فعددت اليه بطون عبد المطلب كل ذلك يقول: لا- ونسيت ولد الحسن فدخلت عليه بعد ذلك فقلت: هل لولد الحسن عليه السلام فيها نصيب؟ فقال: لا يا ابا عبد الرحمن ما لمحمدي فيها نصيب غيرنا.

ورواه مثله عنه في الكافي وروايات اهل البيت في ذلك بعديد اسماء اولى الامر متواترة.

ومن ذلك ما رواه القمي باسناد متصل عن سليم بن قيس قال سمعت عبداللَّه بن جعفر الطيار يقول: كنا عند معاوية انا والحسن والحسين وعبداللَّه بن عباس وعمر بن سلمة واسامة بن زيد فجرى بيني وبين معاوية كلام فقلت لمعاوية سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: انا اولى بالمؤمنين من انفسهم ثم اخي علي بن ابي طالب اولى بالمؤمنين من انفسهم فاذا استشهد فالحسن بن علي اولى بالمؤمنين من انفسهم ثم ابني الحسين من بعده اوى بالمؤمنين من انفسهم وستدركه يا حسين ثم تكملة اثنتى عشر اماماً تسعة من ولد الحسين قال عبداللَّه بن جعفر واستشهدت الحسن والحسين وعبداللَّه بن عباس وعمر بن ام سلمة واسامة بن زيد فشهدوا لي عند معاوية قال سليم وقد سمعت ذلك من سلمان وابي ذر والمقداد وذكروا لي انهم سمعوا ذلك من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 70

وجماعات التقديم او التقدم بين يدي الرسول صلى الله عليه و آله في اي امرٍ من امورهم حتى وان شاورهم مصلحياً كما أمره اللَّه، فالأمر أمره والرأي رأيه، لان الإمرة الشاملة على المؤمنين هي إمرته.

فلو رآى المؤمنون باجمعهم صلوحاً في أمر من حرب او صلح أماذا؟ ورآى الرسول خلافهم ف- «النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم» فلا لهم او عليهم إلّا ما يراه دونهم.

ولقد جرت هذه الإمرة النبوية في الائمة الاثني عشر بدليل الكتاب والسنة وعلى حد قول باقر العلوم عليه السلام «ما لمحمدي نصيب غيرنا» فهم لا سواهم «اولي الامر منكم» الذين افترض اللَّه طاعتهم بإمرتهم بعده وبعد رسوله: «اطيعوا اللَّه واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ..».

ولقد احتل حديث خلافة الإمرة النبوية في علي عليه السلام يوم الغدير، قمة التواتر بين المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعيهم‏ «1» وكذلك حديث التهنئة من الشيخين في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اخرج العلامة الأميني في الغدير نزول آية التبليغ عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم الغدير في علي بن‏ابي طالب عليه السلام عن ثلاثين مصدراً من اخواننا وان رواة الغدير من الصحابة (120) صحابياً ومن التابعين (84) وان طبقات الرواة في حديث الغدير من ائمة الحديث وحفاظه والاساتذة (260) نسمة والمؤلفون فيه (26) راجع علي والحاكمون ص 34

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 71

قولهما لعلي عليه السلام: «بخ بخ لك يا علي اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة «1» تلو ما قال النبي صلى الله عليه و آله: الست اولى بكم من انفسكم قالوا بلى قال «فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه» مما يبرهن جلياً أن مكانته من المؤمنين هي نفس مكانة الرسول إلا في الوحي والنبوة.

فإمرة الاولوية والولاية المطلقة تختص بمحمد صلى الله عليه و آله والمحمديين من عترته المعصومين، ثم لا إمرة إلّا شورى بين المؤمنين، سواء أكانت إمرة الفتوى او الزعامة السياسية، فانها مهما كانت عليمة تقية عادلة فليست معصومة عن أخطاء، ولانها لا بد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قد روى حديث التهنئة فيمن رواه الحافظ ابو بكر عبداللَّه بن محمد بن ابي شيبة عن البراءبن عازب واحمد بن حنبل في مسنده 4: 281 عنه والحافظ ابو العباس الشيباني عنه والحافظ ابو يعلى الموصلي عنه والحافظ ابو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره 3: 428 عن ابن عباس وابن عازب والحافظ احمد بن عقدة الكوفي في كتاب الولاية بالاسناد عن سعد بن ابي وقاص والحافظ ابو عبداللَّه المرزباني البغدادي عن ابي سعيد الخدري والحافظ علي بن عمر الدارقطني البغدادي والحافظ ابو عبداللَّه بن بطة الحنبلي عن البراء بن عازب والقاضي ابو بكر الباقلاني البغدادي في التمهيد في اصول الدين ص 171 والحافظ ابو سعيد الخركوشي النيسابوري في شرف المصطفى عنه والحافظ احمد بن مردويه الاصبهاني في تفسيره عن ابي سعيد الخدري وابو اسحاق الثعلبي في تفسيره والحافظ ابن السمان الرازي عن ابن عازب والحافظ ابو بكر البيهقي عنه والحافظ ابو بكر الخطيب البغدادي بسندين صحيحين عن ابي هريرة ص 232- 233 والفقيه ابو الحسن بن المغازلي في المناقب وابو محمد احمد العاصمي في زين الفتى والحافظ ابو سعد السمعاني في فضائل الصحابة عن ابن عازب وحجة الاسلام ابو حامد الغزالي في سر العالمين ص 9 وابو الفتح الاشعري الشهرستاني في الملل والنحل واخطب الخطباء الخوارزمي الحنفي في مناقبه ص 94 وابو الفرج بن الجوزي الحنبلي عن ابن عازب وفخر الدين الرازي الشافعي في تفسيره الكبير 3: 636 وابو السعادات مجد الدين بن الاثير الشيباني في النهاية 4: 246 وابو السعادات مجد الدين بن الاثير الشيباني في النهاية 4: 246 وابو الفتح محمد بن علي النظري في الخصائص العلوية عن ابي هريرة وعز الدين ابو الحسن بن الاثير الشيباني عن ابن عازب وثلاثون آخرون امّا زاد ذكرنا أسمائهم في علي والحاكمون ص 81- 82

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 72

منها في استمرارية الإمرة الاسلامية، فلا بد من كونها في نطاق الشورى بين الرعيل الأعلى حتى تقل اخطاءها وكما يروى الامام علي عن الرسول صلى الله عليه و آله «اجمعوا العابد من امتي فاجعلوا امركم شورى». «1»

والشورى في امور المؤمنين هي من سبل الايمان فتركها قطعٌ لسبيل الايمان حسب درجات الامر الذي يتطلب الشورى.

فولاية الفقهاء محدودة لمكان اخطاءهم قاصرة او مقصرة، فان ثبت للمولى عليهم وهم غير الفقهاء أنهم اخطأوا في شي‏ء حرم اتباعهم فيه إلّا ان يقنعوهم، وان لم يثبت فاتباعهم مفروض.

ثم لا ولاية لفقيه على فقيه مهما اختلفت درجاتهم، ففي الاحكام الشرعية كل فقيه ولي نفسه ومن ليس بفقيه كما وفي المسائل السياسية الزمنية فليس ولي امر الامة زمن الغيبة إلّا الشورى من الرعيل الاعلى، بل وفي الاحكام الشرعية المرجع هو الشورى دون الأشخاص.

«وازواجه امهاتهم» .. تنزيل لازواجه منزلة امهاتهم، ولولا اية حجابهن عنهم‏ «وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ...» بل وزيادة على سائر المؤمنات كما هنا وفي خضوع القول‏ «ولا تخضعن بالقول فيطمع الذين في قلبه مرض» ولولا امكانية تسريحهن‏ «واسرحكن سراحاً جميلًا» حيث تنفصل عنهن الامومة بانفصال الزوجية، لولاهما لكان التنزيل يعم من امومتهن كونهن محارم لهم فلا حجاب، فانما الأمومة هنا في وجوب حرمتهن كما الامهات، وحرمة نكاحهن كما والنص يخصصها بالذكر «ما كان لكم ان تؤذوا رسول اللَّه ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابداً» فالامومة النسَبية لها وجوب حرمتها وحرمة زواجها ومحرميتها وميراثها، وللرضاعية كل ذلك إلّا ميراثها، وللرسالية ليست إلّا الاوليانِ وهما الاولان فيما يسبق الى الاذهان من اختصاصات الامومات، فاما المحرمية فتنفيها آية الحجاب: «واذا سألتموهن متاعاً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع آية الشورى في سورتها ج 24- 25 من: الفرقان‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 73

فسألوهن من وراء الحجاب» ثم الميراث تنفيه الآية في ذيلها: «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب اللَّه» ولولاهما ايضاً في نفيهما لم يشملهما التنزيل، حيث التنزيل لا يوازي الحقيقة، ولان المقام مقام فائق الاحترام فلا يناسبه الميراث والتكشف. فلان التنزيل خص في مورد الحجاب ولم يذكر له موردٌ إلّا حرمة نكاحهن فقد انفصم عراه وانحل فتله الشامل لكافة اختصاصات الامومة واختص بالمنصوص منها وحرمتهن كما الامهات، فهذه امومة شعورية وشعارية وراء حرمة زواجهن!.

وهل إن ذلك التنزيل مستمرٌ مهما تخلفن عن ساحة الرسالة، بل وعارضنها واسبحن محادات لها؟ لان هذه الأمومة ذات علاقتين، علاقة بالرسول اذ يتأذى ان تُؤذى ازواجه ويُنكحن، وعلاقة بهن اذ هن من حرمات الرسول صلى الله عليه و آله فانطلاقهن عن ساحة الرسالة بفاحشة مبينة تتهدم تلك الساحة المباركة فلا يتاذى إذاً من ان ينكحن بعده ولا ألّا يحترمن كامهات، اذاً ففي انطلاقهن هذا سماحٌ لطلاقهن.

وقد يروى عن القائم المهدي عجل اللَّه تعالى فرجه الشريف: «ان اللَّه تقدس اسمه عظم شأن نساء النبي صلى الله عليه و آله فخصهن بشرف الأمهات فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يا ابا الحسن إن هذا الشرف باق لهن ما مّن اللَّه على الطاعة فايتهن عصت اللَّه بعدي بالخروج عليك فأطلق لها في الأزواج واسقطها من تشرف الامهات ومن شرف امومة المؤمنين»!. «1»

وكان حقاً له أن يُسقط حقه بطلاقهن عن هذا الشرف فيما يضيع حقه في اولويته على المؤمنين بالخروج على امير المؤمنين ومثيله في اولويته تلك في سُدّته العليا وإمرته المنصوصة عليهم.

ترى إذا كانت ازواجه امهاتهم أليس- إذاً- هو اباهم في اصل الحرمة الوالدية فلماذا «النبي اولى ...» وليس «ابوهم»؟. «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 338 ح 17 في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى سعد بن عبداللَّه القمي عن الحجة القائم عليه السلام حديث طويل وفيه: قلت: فاخبرني يا مولاي عن معنى الطلاق الذي فرض رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حكمه الى امير المؤمنين عليه السلام قال عليه السلام: ان اللَّه تقدس اسمه ..

(2). في الدر المنثور 5: 183 اخرج عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة انهم قرأوا الآية باضافة «وهو اب لهم» اقول: وهو معروض عرض الحائط لكونه خلاف المتواتر الموجود من القرآن وان «النبي أولى بالمؤمنين» تعني فوق الابوة فلا حاجة الى ذكرها وليس مثله الا مثل القائل «محمّد رسول اللَّه وهو مؤمن»!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 74

ان أولويته المطلقة اولى من الأبوية، فانه اولى من ابويهم ومن كل ولي لديهم! فهو الأب الاوّل للمؤمنين وولده الامة درجات اعلاها عليٌ عليه السلام، فهو الاب الثاني للامة وكما سائر الائمة عليهم السلام ومن ثم سائر الآباء، وقد صح عنه صلى الله عليه و آله «انا وعلي ابوا هذه الامة»! «1»

«وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً». «2»

هنا تلميحة ان قد مضى ردح من الزمن يتوارث فيه المسلمون بالايمان والهجرة، ذلك ولمّا تستقر الدولة الإسلامية، فقد أخى الرسول صلى الله عليه و آله بين المهاجرين والانصار، وكان هذا الإخاء صلة عريقة فريدة في تأريخ التكافل العقائدي لحدّ قام مقام قرابة الدم، وارتفع فيه المدّ الشعوري الى ذروة عالية، وقد اخذ مأخذ الجِدِّ، قائم مقام قرابة الدم اوزاد، ولقد كان ذلك الإخاء العميق ضرورياً بادى ذي بدء حفاظاً على هذه النشأة الوليدة الايمانية، وتماسكة بقوة صارمة في تلك الظروف الإستثنائية، وحتى تقوم الدولة على سوقها فتزول الضرورة الوقتية من ذلك الإخاء القائم مقام الدم، فيبقى وراء التوارث كأشد ما كان على طول الخط.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 238 ح 18 في كتاب علل الشرايع باسناده الى علي بن الحسن بن فضال عن ابيه قال: سألت ابا الحسن عليه السلام فقلت له: لم كني النبي صلى الله عليه و آله بابي القاسم؟ فقال: لانه كان له ابن يقال له قاسم فكني به قال قلت: يا ابن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فهل تراني اهلًا للزيادة؟ فقال: نعم اما علمت ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: انا وعلي ابوا هذه الامة؟ قلت: بلى قال: اما علمت ان علياً عليه السلام قاسم الجنة والنار؟ قلت: بلى- قال: فقيل له ابو القاسم لا ابو القسم الجنة والنار فقلت: وما معنى ذلك؟ فقال: ان شفقة النبي صلى الله عليه و آله على امته كشفقته صلى الله عليه و آله لانه وصيه وخليفته والامام بعده فلذلك قال صلى الله عليه و آله انا وعلي ابوا هذه الامة وصعد النبي صلى الله عليه و آله المنبر فقال: من ترك ديناً او ضياعاً فعليّ واليّ ومن ترك مالًا فلورثته فصار بذلك اولى من ابائهم وامهاتهم وصار اولى بهم منهم بانفسهم وكذلك امير المؤمنين عليه السلام بعده جرى ذلك له مثل ما جرى لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله‏

(2). 33: 6

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 75

فلما استتب امر الدولة واستقرت في مختلف حقولها الجماعية والسياسية والاقتصادية والعقائدية عاد النظام الحقوقي الاسلامي في التوارث بين اولى الارحام إلى حالته التي «كان ذلك في الكتاب مسطوراً».

اولوية النبي صلى الله عليه و آله بالمؤمنين من انفسهم وفي المحمديين من أولي أمره، دائبة ثابتة بشاكلتها المعصومة في فترة الرسالة والإمامة، ومن ثم في الشورى من الرعيل الاعلى في العابد من الامة بشاكلة غير معصومة.

وامومة ازواجه باقية ما لم يتخلفن عما عليهم، فبانطلاقهن عنه سماح الطلاق لصاحب الإمرة بعده وكما في طلاقه صلى الله عليه و آله نفسه.

والاخوة المورثة باقية ردحاً حتى تستتب امر الدولة ويقر قرارها.

ثم لهذه الآية واجهتان: خاصة قد تعني الاولوية في إمرة الرسول صلى الله عليه و آله بعده، فاولوا ارحامه بعضهم اولى ببعض في كتاب اللَّه من سائر المؤمنين من الأنصار والمهاجرين.

فهنالك اولويتان اثنتان، أولاهما اولوية ذوي ارحامه صلى الله عليه و آله من سائر المهاجرين والانصار، والاخرى الاولوية بين ارحامه انفسهم، فعليٌّ اولى من آل عباس، والحسنان اولى من سائر ولد الامام، وولد الحسين عليه السلام اولى من ولد الحسن، وزين العابدين اولى من سائر ولد الحسين، ومن ثم سائر الائمة عليهم السلام حتى القائم المهدي (عجل اللَّه تعالى فرجه) اولوية بالانتصاب، وكما الرسول صلى الله عليه و آله منتصب في اولويته بالمؤمنين من انفسهم، كل ذلك بوحي من اللَّه «كان ذلك في الكتاب مسطوراً» وعله امّ الكتاب او اللوح المحفوظ امّاذا من كتاب اللَّه. «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد مضى شطر من الاحاديث في الآية «اولوا الارحام» واليكم شطراً آخر، ففي تفسير البرهان 3: 291 ح 2 عن الكافي عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال: لا تعود الامامة في اخوين بعد الحسن والحسين عليهما السلام ابداً انما جرت من علي بن الحسين عليه السلام كما قال اللَّه «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب اللَّه» فلا تكون بعد علي بن الحسين الا في الاعقاب واعقاب الأعقاب.

وفيه ح 13- ابن بابويه باسناده عن عبد الاعلى بن اعين قال: سمعت ابا عبداللَّه عليه السلام يقول: ان اللَّه خص علياً بوصية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وما يصيبه له فاقر الحسن والحسين عليهما السلام له بذلك ثم وصية للحسن وتسليم الحسين للحسن عليه السلام ذلك حتى افضى الامر للحسين عليه السلام لا ينازعه فيه احد له من السابقة مثل ما له واستحقها علي بن الحسين يقول اللَّه عز وجل «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب اللَّه» فلا تكونن بعد علي بن الحسين عليه السلام الا في الاعقاب واعقاب.

وفيه ح 14 عنه باسناده عن ثابت الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام عن ابيه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: فينا نزلت هذه الآية «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب اللَّه» وفينا نزلت هذه الآية «وجعلها كلمة باقية في عقبة» والامامة في عقب الحسين عليه السلام الى يوم القيامة ...

وفيه ح 15 عنه باسناده عن اسماعيل بن عبداللَّه قال قال الحسين بن علي عليه السلام: لما أنزل اللَّه تبارك وتعالى لى هذه الآية «واولوا الارحام ..» سألت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن تأويلها فقال: واللَّه ما يعني بها غيركم وانتم اولوا الارحام فاذا مت فابوك علي اولى بي وبمكاني فاذا مضى ابوك فاخوك الحسن عليه السلام فاذا مضى الحسن فانت اولى به فقلت يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومَن بعدي؟ قال: ابنك علي اولى بك من بعدك فاذا مضى فابنه محمد اولى به فاذا مضى محمد فابنه جعفر اولى به من بعده وبمكانه فاذا مضى جعفر فابنه موسى اولى به من بعده فاذا مضى موسى فابنه علي اولى به من بعده فاذا مضى علي فابنه محمد اولى من بعده فاذا مضى محمد فابنه على اولى به من بعده فاذا مضى علي فابنه الحسن اولى به من بعده فاذا مضى الحسن وقعت الغيبة في التاسع من ولدك فهذه الائمة التسعة من صلبك اعطاهم اللَّه علمي وفهمي طينتهم من طينتي ما لقوم يوذوني فيهم لا انالهم اللَّه شفاعتي اقول: وتاويل آية اولى الارحام بذلك بالغ حدّ التواتر وفيما نقلناه الكفاية كنموذج.

وفي الملحقات الاحقاق 3: 418 ذكر نزولها في علي وائمة اهل البيت جماعة من ائمة الحديث منهم الترمذي في مناقب مرتضوي 62 نقل اتفاق المفسرين على نزولها في علي لانه الذي كان مؤمناً ومهاجراً وابن عمه ومنهم ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة 95

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 76

ومن ثم تنتقل الاولوية بالرحم عن عنوانها المشير بعد الإمرة المعصومة، الى الاولوية بالشورى، وأولوية الشورى في إمرة السياسة والفتوى، ف- «اولوا الارحام» عنوان مشير في الإمرة المعصومة المنتصبة حيث الرحم- فقط- ليس ليختص بنفسه الإمرة إلّا للأصلحية المنضمَّة إليه وهي الأصيلة، ثم هو في الميراث عنوان للحكم بالاولوية فيه حيث الرحم وقربه هو موضوع الحكم لكونه الرحم، وهو في إمرة الشورى عوان بين الاشارة والموضوعية، اشارة الى الاقربين إلى أهل بيت الرسالة علماً وتقوى ارحاماً وغير ارحام، وهي بنفسها الموضوعية حيث الاقربية إليهم في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 77

روحية الرحم هي موضوع الاصلحية في الإمرة.

ف- «اولوا الارحام» تعني اولي ارحام النبي صلى الله عليه و آله نسبياً وروحياً، ثم اولي ارحامه روحياً، ومن ثم اولى ارحام المؤمنين نسبياً، تجمع هذه الثلاث وتعنيها، قضية المناسبة في ادب اللفظ وحدب المعنى!.

ترى اذ تعني الآية فيما تعنيه الاولوية بالإمرة بين اولى ارحام الرسول صلى الله عليه و آله فلماذا «اولى ببعض» لا «من بعض»؟- لانها تعني اولويات عدة هذه منها فلذوي ارحام الرسول صلى الله عليه و آله اولوية الإمرة من غيرهم، ومن بينهم انفسهم، وكذلك الاولوية في الميراث بين اولي الارحام ككلٍّ من المؤمنين والمهاجرين نسخاً للتوارث بالاخوة، ومن بينهم انفسهم الاقرب فالاقرب.

ف- «اولى ببعض من ..» هنا تعني اولوية في الامر عكس ما كان «النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم» انهم اولى بالنبي في امرته بعده من غيرهم، وبعضهم اولى ببعض في ميراث الإمرة من غيرهم، فعلي اولى بالنبي صلى الله عليه و آله من غيره كما الحسنان اولى بعلي من غيرهما وهلّم جراً الى قائمهم، اولوية ذات بعدين، ممن سوى اولى الارحام، وممن سواهم بينهم، الأقرب فالاقرب فيما يحملون من معنى الرسالة وحقيقتها.

فللاولوية واجهتان: خاصة تخص اولي ارحام النبي صلى الله عليه و آله بينهم انفسهم ومَن سواهم، وعامة تعم اولي الارحام كلهم في اولوية الميراث تعني تفاضلًا بينهم وبين من سواهم من المؤمنين والمهاجرين نسخا للتوارث بالأخوة، وتفاضلًا بينهم انفسهم بالقريب والأقرب، فانهم طبقات لا ترث كل تالية مع وجود السابقة، ضابطة عامة صارمة في كل توارث. اللهم إلا في الزوجين اذ يشاركان كل طبقات الميراث.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 78

يومر محمد بخروجه عن الزمل الى القيام الرسالى مرجعية دينية وسياسية

«يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ\* قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا» «1»

يؤمر نبي اللَّه صلى الله عليه و آله- بعد أمره بقراءة الوحي: «اقرأ بسم ربك» وبعد حمله الرسالة الكبرى- يؤمر هنا بالقيام ليلًا وبالسبح الطويل نهاراً، ويؤمر في المدثر بقيام الإنذار وتكبير الرب، وعلّ القيام الثاني هو السبح الطويل نهاراً، والقيام لتهيؤ الثاني: «إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قليلًا. إن لك في النهار سبحاً طويلًا» فلعيش الرسول الاقدس حياته قياماً دون فتور، وسبحاً في بحر المجتمع المتلاطم، لينجّي الغرقى فانه سفينة النجاة.

يوحي النص «المزمل» بأنه كان متزملًا حين الأمر، ولماذا؟ وفي رمضاء الحجاز! لا بد وأنه من وطأة وفجأة، أوطأة الوحي الثقيل الذى بزغ له قبل قليل؟ كما قيل‏ «2» أم الحملة العنيفة السافرة في وجهه من صناديد قريش؟ «3» كما توحي له آيات من السورة:

«واصبر على ما يقولون .. ذرني والمكذبين» فتزمل من رعشة الوطئة، فأمر بالقيامين في المزمل والمدثر، قياماً لتنفيذ الرسالة ومجابهة عراقيلها، دون أن يتزمل ويتدثر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 73: 1- 2

(2). ادركته رجفة الوحي حتى جثى وهوى الى الارض وانطلق الى اهله يرجف يقول «زملوني. دثروني» ففعلوا وظل يرتجف مما به من الروع واذا جبرائيل يناديه «يا ايها المزمل. يا ايها المدثر»

(3). الدر المنثور 6: 276- اخرج البزار والطبراني في الاوسط وابو نعيم في الدلائل عن جابرقال اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سموا هذا الرجل اسما تصدر الناس عنه فقالوا: كاهن- قالوا ليس بكاهن، قالوا: مجنون- قالوا: ليس بمجنون- قالوا: ساحر- قالوا: ليس بساحر- قالوا: يفرق بين الحبيب وحبيبه فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه و آله فتزمل في ثيابه وتدثر فيها فأتاه جبرائيل فقال: يا ايها المزمل يا ايها المدثر.

(تفسير الفرقان- ج 29- م 14)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 79

«قم» إنه لا يناسبك التزمل والتدثر، فليكن دثارك القيام وزميلك الإقدام ليلك ونهارك، «قم الليل إلا قليلا» قدر الضرورة الذي يساعدك في قيامك، فليكن مبدؤك القيام حتى في أوقات المنام رغم أن الناس نيام.

أنت تتلفف بثوب لتنام دفعاً لهمّ الإيذاء، وغم الاستهزاء، وتخفيفاً من وقعة الوحي؟

لا! بل عليك القيام، والإستعانة بالصبر والصلاة ومكافحة الكروب العظام، والنوائب الجسام.

«قم الليل إلا قليلًا» قم للأمر العظيم والقول الثقيل الذي سيلقى عليك، والعبى‏ء المهيأ لك، قم فقد مضى وقت النوم، قم فأنت لست لتعيش لنفسك، ولقد عرف الرسول صلى الله عليه و آله هذا الأمر مسبقاً من ملامح الوحي وقدّره، فقال لخديجة رضى الله عنه- وهي تدعوه أن يطمئن وينام-: «مضى عهد النوم يا خديجة»!.

أجل- انه مضى وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الشاق والسبح الطويل في بحر المجتمع المتلاطم.

«قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا\* نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا\* أَوْ زِدْ عَلَيْهِ» «1»

يخيَّر نبي اللَّه في قيام الليل ونومه بين مقادير أربعة: 1- قيام الليل إلا قليلًا: ثلثيه فما فوق، فأكثر القليل منه ثلثة ثم أقل وأقل‏ «2» 2- نصفه، وهو ليس قليلا من الليل، وإنما نصفه عدلًا بين قيامه ونومه إذا احتاج اليه، 3- أقل من النصف، أن ينقص من نصف القيام قليلًا 4- أكثر من النصف أن يزيد على نصف القيام، فأكثر الواجب في قيامه من ثلثي الليل وما فوقها، وأقله أقل من النصف قليلًا، وبينهما متوسطات ومنها نصفه.

نرى التركيز هنا وهناك على قيام الليل- أيا كان- دون تصريح بنومه الا ايحاء الضمائر: «قم الليل إلا قليلًا» ابتداء بقيام ثلثي الليل، ثم «نصفه» أو قم نصفه «أو انقص‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 73: 2- 4

(2). فما يروى ان القليل المستثنى من الليل هو نصفه خطأٌ او جهل من الروات لا المروي عنه‏كما رواه في المجمع عن الصادق عليه السلام قال: القليل النصف‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 80

منه قليلًا»: انقص من نصف القيام قليلًا «أو زد عليه»: زد على نصف القيام، فنصيب النقص ليس إلا قليلا، ونصيب الزيادة إلا قدر المستطاع.

فطالما الليل سكن ونوم للناس لاستراحة البدن، ولكنه قيام لرسول اللَّه إلى الناس ليشد وطأه ويقيم قيله، تأزيراً لقوة القلب والروح، وتقويماً لنطق اللسان.

فعلى رسول اللَّه قيام الليل قدر المستطاع، كله أحياناً وأكثره أخرى ونصفه أحياناً وينقص منه قليلًا أخرى، ولكنما الزيادة على النصف قدر المستطاع هو المرغوب الأصل «أو زد عليه».

فأكثر الواجب إذاً قيامه ثلثي الليل «قم الليل إلا قليلًا» كما ويؤيده «إن ربك يعلهم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه» فليكن الواجب مخيراً بين ثلثيه ونصفه وثلثيه فأقله ثلث الليل «أو انقص منه قليلًا» فنقص القليل من النصف ثلث النصف، فيبقى ثلث الليل. «1»

«أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» «2» ولماذا ثلثا الليل، ولماذا الزيادة على النصف والنصف أيضاً، الصلاة الليل ولا تشغل إلا سويعات؟ كلا- وإنما الزيادة لترتيل القرآن، تخلقاً بأخلاق اللَّه في تنزيله: «وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلًا» «3» وفي ترتيله: «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك‏ لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا». «4»

وترتيل القرآن هو ارساله بسهولة واستقامة، سهل التعبير، مستقيم المعنى وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله «إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلا وبيّنه تبييناً، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذَّه هذَّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحرّكوا به القلوب، ولا يكونن همّ أحدكم آخر السورة». «5»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نفرض ان الليل 12 ساعة فنصفه 6 ساعات فاذا نقص منها ساعتان يبقى اربع ساعات وهي نصف الليل المفروض‏

(2). 73: 4

(3). 17: 106

(4). 25: 32

(5). الر المنثور 6: 277 اخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعا عنه صلى الله عليه و آله واخرجه العسكري في المواعظ عن علي عليه السلام عنه صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 81

أقول: وهذا من مقربات الفهم ومجذبات الإتباع، فقد فرق اللَّه القرآن طوال البعثة دون أن ينزله جملة واحدة، ليثبت به فؤاد الرسول وليقرأه على الناس على مكث، ورتله عليه بتسهيل التعبير والمعنى ليرتله هو أيضاً ترتيلًا، وهو يعم اللفظ والمعنى تعبيراً وأداءً وسبكا وكيفية، «1» كل ذلك لسهولة الإلقاء والتلقي متحللًا عن كافة الصعوبات هنا وهناك، وهذا هو معنى الإعجاز في فصاحة التعبير وبلاغة المعنى، فليس التشابه في بعض الآيات من قصور الدلالة، وإنما من قصور المستدل ونبوغ المعنى، وعلى حد تعبير الامام الرضا عليه السلام «المتشابه ما اشتبه علمه على جاهله».

«إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» «2» فما هذا القول الثقيل الذي سيلقى عليه، ولكي يتلقاه عليه أن يقوم لياليه مصلياً مرتلا للقرآن؟.

هل هو القرآن ولو بعضاً منه؟ وقد نزل عليه بعضه وأمر بترتيله! أم هو البعض الباقي:

أكثره؟ فما هو الفرق بين قليله وكثيره، وكله ثقيل بأي معنى قيل! أم هو القرآن المحكم النازل عليه ليلة القدر، بين هذه السورة وبينها أقل من شهرين؟ علّه هو، إضافة إلى باقي القرآن المفصل، ففي القرآن المحكم النازل عليه دفعة واحدة، الملقى عليه ليلة القدر، ان فيه ثقلًا ليس في مفصله النازل عليه نجوماً طوال البعثة، ثم يتلوه ثقل الباقي من مفصله وهو أكثره، وفي وحدة القول هنا «قولًا» وانه يلقى «سنلقي» شاهدٌ لفظي على أنه القرآن المحكم، إضافة إلى القرينة المعنوية المسبقة.

ان القرآن قول ثقيل لعظم قدره، ورجاحة فضله، وخلوده، دون أن يمسه نسخ أو تحريف، وقد يثقل الأمة المتمسكة بحبله، المنفذة لأحكامه، ولذلك سماه الرسول صلى الله عليه و آله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وعن الامام الصادق عليه السلام ان الترتيل هو ان تتمكث فيه وتحسن به صوتك، وفي الدر المنثور 6: 277 عن النبي صلى الله عليه و آله قال: يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرا وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها وفيه سئل صلى الله عليه و آله اي الناس احسن قراءة؟ قال: الذي اذا سمعته يقرا رايت انه يخشى اللَّه‏

(2). 73: 5

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 82

أكبر الثقلين وأعظمها وأطولهما وأتمهما فيما تواتر عنه، وسمى عترته الثقل الأصغر.

ولقد كان القرآن ثقيلا لدى اللَّه في أم الكتاب‏ «وانه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم» «1» فعُلوّه هناك وحكمته: ثقله، ثم نزل ليلة القدر دفعة، ثم طوال البعثة نجوماً، نزل ثقيلا على الرسول صلى الله عليه و آله حيث يقول: «فما من مرة يوحى إليّ إلا ظننت أن نفسي تقبض» «2» «فانه كان يتغير حاله عند نزوله ويعرق، وإذا كان راكباً تبرك راحلته ولا تستطيع المشي» «3» وهذا ثقله في القرآن المفصل، ثم القرآن المحكم المجمل النازل ليلة القدر يزداده ثقلين 1- نزوله دفعة دون تفاصيل، 2- القاءه عليه دون وساطة ملك الوحي، إذ لم يكن بينه وبين اللَّه أحد، إذ فالقول الثقيل الذي سيلقى عليه هو القرآن المحكم، إضافة إلى باقي المفصل النازل عليه مفصلا: ثقلا على ثقل.

هذا ثقله في وحيه وقبله، ثم هو ثقيل في ميزان الحق- فان موازينه ثقيلة لا تخف أبداً- ثقيل في تطبيقه، ثقيل على الاخفّاء الناكرين له، فلا بد من ثقله في قلبه المنير لحدّ يفرغ قلبه عما سواه من مقال كما فرغ عمن سوى اللَّه، ولقد أثر في قلبه هكذا ولحدّ كان يثقل على قالبه، فصاحب هذا القلب بحاجة في تلقي هذا الفيض الثقيل إلى مِراس في تزكية قلبه بقيام لياليه بترتيله وذكر اللَّه.

هذا هو القول الثقيل، فإن القرآن ليس في معناه ثقيلًا ولا في تفهمه وتذكره: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر» فقوله- إذاً- ثقيل من حيث المقول، وكيفية إلقائه، وعرقلات تنفيذه.

إنه لا بد للرسول إلى الناس كافة- وكثير منهم من النسناس- أن يحمل هذا القول الثقيل، لأن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى ثقيل، والإستقامة على هذه الرسالة الشاملة الأخيرة وراءَ الهواتف والجواذب والمعوقات والعراقيل، إنها لثقيل ثقيل، فلا بد له في ميادين الكفاح من حمل هذا القول الثقيل، فليتزود من قيام الليل لتلقي هذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 43: 4

(2). الدر المنثور 6: 278 عن عائشة عنه صلى الله عليه و آله‏

(3). نور الثقلين 5: 447 عن عبداللَّه بن عمر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 83

الثقيل، ولكي يسبح في نهاره الطويل الطويل سبحاً طويلًا.

«إنا سنلقى عليك قولًا ثقيلًا» ثقيل المصدر والصدور، ثقيل المحتد والدوام، ثقيل المنزل والنزول، ثقيل التنفيذ مستحيل الأفول، على سلاسة تعبيره، ونفاذ أمره وعبيره.

«إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلًا». «1»

فرض عليك- كرسول إلى الناس كافة- قيام الليل لدوافع ومنافع عدة: 1- «إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا» فلا بد له من التهيؤ، 2- «إن لك في النهار سبحاً طويلًا» لا يبقى لك معه مجال القيام بالصلاة وترتيل القرآن، 3- «إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلًا»: فناشئة الليل هي العبادة التي تنشأ بعد العشاء، نشوءَ النور في الظلام، فالعبادة التي هي وليدة الليل وناشئته، تفضل على عبادة النهار من حيث الوطء والقيل، ولقد كان قيام الرسول صلى الله عليه و آله بعد العشاء بسويعات منامه القليل، وهو اذ أمر بقيام الليل كان أمراً بقيامه: عن النوم، وبالعبادة، تهجداً في أثنائه، وترتيلًا للقرآن في آنائه.

«هي أشد وطأ»: مواطاة: يواطي‏ء فيها السمعُ القلبَ، واللسانُ العمل، لقلة الشواغل العارضة، واللوافت الصارفة، ولأن البال فيه أجمع، والقلب أفرغ، فالقراءة فيه أقوم، والصلاة اسلم.

هي أشد مواطأة هكذا، ولأنها أشد وطأة: أوعث مقاماً وأصعب مراماً، فان مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش، بعد كدّ النهار وسبحه الطويل، لها وطأتها وشدتها التي لا يطيقها إلا المخلَصون، فناشئة الليل ووطأته أشد.

«وأقوم قيلًا» لأن قيله ثقيل إلا على الخاشعين، وأنه يصدر من لباب القلب وخالق القلب أعلم بمداخله و أوتاره، وما يتسرب اليه ويوقع عليه، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً، فللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة شفافيتها ولترتيل القرآن نورانيتها: إذاً فوطأتها أشد، وقيلها أقوم، فإعدادها لسبح النهار- الطويل- أتم.

«إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا» «2» ولا يناسب السبح إلا في غمرات المياه المضطربة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 73: 6

(2). 73: 7

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 84

الواسعة الفسيحة، فان لك اضطراباً في غمرات المجتمع، وتقلباً في هجماته، ومتصرفاً ومتسعاً، ومذهباً منفسحاً، تقتضي فيه أوطارك، وتبلغ مآربك، وتنجي الغرقى من ورطات الغمرات العميقة، وتحارب أمواجه الضاربة في الأعماق المضطربة، فهذا السبح الطويل في نهارك، بحاجة إلى تسبيح طويل في ليلك، تسبيح يعدك للسبح، ولكي تنجو من ورطاته، وتنجي الناس جميعاً من غمراته، فانك سفينة النجاة!.

«وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا» «1»: فقيامه صلى الله عليه و آله يشمل ناشئة الليل، بصلاته وترتيل القرآن، وذكر اسم الرب، والتبتل اليه تبتيلًا، وليأخذها زاداً في سبحه الطويل.

«واذكر اسم ربك»: ولأنك تحمل في رسالتك بلاغ الربوبية والتربية الإلهية، فعليك أن تذكر اسم ربك بقلبك، فهو مصدر الذكر ومورده أولًا وبقالبك: بلسانك وجوارحك وفي كافة تصرفاتك، ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر، واكمله الصلاة فأنها كلها ذكر اللَّه وتحميده وتمجيده وتعظيمه بالأقوال والأفعال والإشارات.

«وتبتل اليه تبتيلا» .. هكذا ذكرٍ شامل كامل يبتِّلك إلى ربك، فالانقطاع إلى اللَّه على قدر الواقع من ذكر اللَّه، والتبتل إلى الرب هو الانقطاع الكلي عما سواه والاتجاه التام اليه، والإنفلات من كل شاغل وخاطر، لكنما المرجو من تبتلك أن يحمل معه التبتيل «وتبتل اليه تبتيلًا» لا «تبتلا» تبتلا لك يحمل تبتيلًا لمن أرسلت اليهم، فكما كان قيامك بالليل تهيؤاً لتلقي القول الثقيل، ولتسبح نهارك الطويل، كذلك ليكن تبتلك للتبتيل.

فليس الإتيان بالتبتيل هنا لمجرد رعاية الوزن والتجميل «طويلا. تبتيلا» فالقرآن كتاب معنى قبل أن يحمل الوزن في التعبير، وقد يناسب وزن المعنى وزن التعبير كما هنا «وتبتل اليه تبتيلا» تبتلا ينحو في طياته منحى التبتيل لتنقطع إلى اللَّه، لك كمحمد، وللمرسل اليهم كرسول، فكما على الرسول أن يتبنى شخصه ليصلح الرسالة ضمن صناعة نفسه كعبد شكور، فعليه- كرسول- أن يتبنّى المجتمع الذي أرسل اليهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 73: 8

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 85

ثم هناك نكتة أخرى هي أدق وأرقى: أن المنقطع إلى اللَّه مشغول عما سواه والمنقطع إلى ما سوى اللَّه مشغول عن اللَّه، فالجمع بين التبتل- وهو الاشتغال التام باللَّه- وبين التبتيل، وهو الاشتغال بغير اللَّه ليقطعهم عما سوى اللَّه: ان هذا الجمع لصعب مستصعب، لكنما الرسول يؤمر في تبتله بالتبتيل، ففي حين انه مشتغل باللَّه عما سواه، إنه يشتغل بما سواه لتوجيههم إلى اللَّه، وهذا هو مقام الجمع في الوحدة والوحدة في الجمع، يسبح نهاره طويلا في الدعوة إلى اللَّه، ويلاقي الصعوبات والحرمانات في اللَّه، وهو متبتل إلى اللَّه ومبتِّل سواه عما سوى اللَّه، فذكره ذكر واحد، وعمله واحد، طالما يختلف في صور الصلاة وترتيل القرآن وذكر اللَّه، وفي الجهاد والدعوة إلى اللَّه، فإنه ينحو في هذا السبح الطويل منحى اللَّه، فتبتُّله تبتيل، وتبتيله تبتُّل!.

ولطيفة ثالثة: هي أن التبتل هو تقبل للبتْل، والتبتيل هو فعله، فقد يعنى بالأول قبوله العصمة الإلهية في انقطاعه إلى اللَّه، وبالثاني محاولته لانقطاعه من سوى الله سواه إلى اللَّه، والنتيجة ان انقطاعه الخاص إلى اللَّه ليس من فعله هو فحسب، وليس تسييراً إلهياً فحسب، وإنما هو أمر بين أمرين، جذبة إلهية متممة لمحاولة الانجذاب والانقطاع إلى اللَّه، وكما العصمة في كل مراحلها ليت إلهية خالصة ولا بشرية خالصة، إنما هي سعي حسب المستطاع من المعصوم في البداية، ثم جذبة الهية، ثم سعي ثان يوافق ويساير تلك العصمة الخاصة الإلهية.

فحاصل المعنى من الآية أنه صلى الله عليه و آله أمر بتبتل التبتيل: ينقطع إلى اللَّه على ضوءِ توفيق اللَّه، وسعيه هو كما يناسب تبتل العصمة، وفي نفس الوقت يبتِّل غيره الى اللَّه، ثم لا يشغله الاشتغال بغير اللَّه في رسالته، عن اللَّه، معان ثلاثة هامة تعنى من كلمات ثلاث «وتبتل إليه تبتيلًا».

وليكن كذلك «واذكر اسم ربك»: انه ذكره تعالى في نفسه وأعماله وعلاقاته الشخصية مع اللَّه «واذكر ربك في نفسك» وذكره في نفس الوقت لمن أرسل اليهم‏ «وقل لهم في أنفسهم قولًا بليغاً» «1» دون تفاوت بين الذكرين، فانهما ذكر واحد للَّه، كما ان تبتله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 63

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 86

واحد للَّه.

«رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا». «1»

لئن سئلت: لماذا التبتل اليه وحده لا سواه؟ فالجواب أنه «ربك» لا فقط بل و «رب المشرق والمغرب»: العالم كله بما أنه لا يخلو من شارق وغارب أياً كان، فالكون كله بين مشرق ومغرب، لا يخلو عنها أي كائن، ولأنه رب الكائنات أجمع. ف «لا إله إلا هو» ولربوبيته المطلقة وألوهيته الوحيدة «فاتخذه وكيلًا» فالتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في الكون كله، وهو وحده الثمرة المباشرة للاعتراف بوحدانيته، والرسول المنادى بالقيام وبالسبح الطويل نهار الدعوة، إنه في حاجة ماسة لعبئة الثقيل في طريقه الشاق الطويل، إلى تبتل إلى ربه وتوكل عليه، ولكي يكافح كافة العراقيل في سبيله.

بديهي أن الانسان وكل كائن أياً كان، لا يستطيع أن يحيى حياة سعيدة ويُحيي غيره بها، بطاقاته الشخصية، فلا بد له من وكلاء وأعون، وبما أن من سوى اللَّه كيانهم الفقر إلى اللَّه، لا يملكون إلا ما ملَّكهم اللَّه، فلا غنى في توكيلهم مهما كانوا أقوياء، فهم بين قاصر ومقصر، فكيف يتوكل عليهم وإنما اللَّه وحده هو الذي يحق أن يُتخذ وكيلا، ولا يَتخذ هو وكيلا، وبينما نحن موكِّلون وموكَّلون، لم يكن اللَّه إلا وكيلا، فيما اتخذناه وكيلا وما لم نتخذه وكيلا: فالوكالة هي الاعتماد- فيما تقصر عنه القدرة والعلم والحياة- على من له هذه القدرات أكثر من الموكل، أو ما يقصر عنه الوقت لكثرة الأشغال، والخلق كلهم قاصرون في هذه وتلك: مهما كان البعض أقوى من البعض، ولذلك يتوكل الضعيف على القوي، ولكنه لا غنى في هذه الوكالة القاصرة، وإنما الوكالة الإلهية هي الكافية الكافلة لما نبغيه، بعد ما كلّت مساعينا عن الوصول إلى المأمول، ما لم يكن خلاف الحق والمصلحة: «ومن يتوكل على اللَّه فهو حسبه إن اللَّه بالغ أمره قد جعل اللَّه لكل شي‏ء قدراً». «2»

إن أسس الوكالة الناجحة غير الفاشلة، لا توجد إلا في اللَّه لا سواه: من سعة العلم:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 73: 8

(2). 65: 3

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 87

«وسع ربنا كل شي‏ء علما على اللَّه توكلنا» «1» والعزة والحكمة: «ومن يتوكل على اللَّه‏ فان اللَّه عزيز حكيم» «2» والحكم في التكوين والتشريع: «إن الحكم إلا للَّه‏عليه توكلت‏ وعليه فليتوكل المتوكلون» «3» وانه المرجع للأمر كله: «وإليه يرجع الأمر كله فاعبده‏ وتوكل عليه» «4» ولحياته السرمدية: «وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح‏ بحمده» «5» وبصورة جامعة لأنه اللَّه لا إله إلا هو كما في عشرات الآيات، وهو خالق كل شي‏ء وبذلك هو الوكيل على كل شي‏ء دون توكل، وعلى ما نبغيه مما له نسعى وإياه نطلب بالتوكل: «خالق كل شي‏ء فاعبده وهو على كل شي‏ء وكيل» «6» فلولا وكالته تعالى على كل شي‏ء لخرجت إلى اللاشي‏ء، ولولا التوكل عليه لكلت المساعي دون الوصول إلى ما نبغيه من شي‏ء.

إنه ليست هناك وكالة إلهية لأحد على أحد ولا للرسول: «إنما أنت نذير واللَّه على كل شي‏ء وكيل» «7» اللهم إلا وكالات فاشلة جزئية لا غنى فيها عن الوكالة الإلهية، ولا تعني وكالةُ اللَّه بطلان المساعي والأسباب، وإنما نقصانها، ولذلك تتم الأسباب والمساعي بالتوكل على اللَّه خالق الأسباب والساعين‏ «وكفى باللَّه وكيلا». «8»

فالمسموح فيه هو السعي وتوكيل الغير بغية الوصول إلى المأمول، والمحظور هو التوكل على غير اللَّه، على نفسه أم سواه، فاللَّه يُوكّلَّ ويتوكَّلُّ عليه، ومَن سواه يوكل ولا يتوكل عليه، وعلينا وكلاء وموكلين جميعاً أن نتوكل على اللَّه في إطارات ثلاث: نتوكل عليه فيما نعمل رجاء النجاح، ونتوكل عليه فيما نأمل من وكلائنا، ويتوكل وكلائنا على اللَّه فيما توكلوا فيه من موكليهم، فإليه يرجع الأمر كله. وكفى باللَّه وكيلا.

«وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا\* وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 89. م‏

(2). 8: 49

(3). 12: 67

(4). 11: 123

(5). 25: 58

(6). 6: 102

(7). 11: 12

(8). 4: 81

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 88

وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا». «1»

إن الصبر على تقولات الكافرين، وهجرهم هجراً جميلا، وعلى تكذيبهم لهذه الرسالة السامية، كل ذلك دليل أن المزمل نزلت بعد المدثر، نزلت بعد ظهور الدعوة ومجابهتها العراقيل ونعرات الفرية والتكذيب، كما وان السبح الطويل نهاره، دليل على أن المزمل نازلة بعد تطبيقه القيام السافر العام في المأمور به في المدثر، وبذلك تؤيد الرواية الثانية أنه صلى الله عليه و آله تزمل ذعراً ساخطاً على تقولات قريش في ندوتهم الكافرة: انه ساحر أو مجنون نتربص به ريب المنون.

فهنا يؤمر الرسول بالصبر والهجر الجميل والتمهيل القليل، بدل الجزع أو المقابلة بالمثل أو التنكيل، وانه صبرٌ لصالح الدعوة، لا صبر المسايرة والاستسلام، صبر يحمل كل جميل في الدعوة، للداعي والمدعوين.

فالأمر بالصبر هنا يعني عدم الجزع الدافع الى الفرار عنهم: «فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت» «2» «.. إذ ذهب مغاضباً» «3» خروجاً عن الدعوة وفراراً عن المرسل اليهم، وكذلك عدم التزمل والوقوف عن الدعوة، أو النقص فيها والتهمل عنها:

«واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم اللَّه» «4» وعدم التحزن عليهم: «واصبر وما صبرك إلا باللَّه ولا تحزن عليهم» «5» وعدم الاستعجال لهم بالدعاء عليهم: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم» «6» وأن يكون استقامة في الدعوة واتكالًا فيها على نصر من اللَّه: «واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا» «7» لا صبر المسايرة والطاعة لهم والانفلات عن الدعوة: «فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً». «8»

وأخيراً الصبر عليهم نظرة النقمة الإلهية على الصامدين منهم في الكفر: «فاصبر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 73: 10- 11

(2). 68: 48

(3). 21: 87

(4). 10: 109

(5). 16: 127

(6). 42: 35

(7). 52: 48

(8). 76: 24

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 89

صبراً جميلا. انهم يرونه بعيداً. ونراه قريباً». «1»

فالصبر منه جميل، كهذه، ومنه قبيح: كالصبر على هدر الأموال والنفوس وانتهاك الدين والناموس وجاه الظالمين، والصبر على نقص الدعوة وانتفاضها عن المدعوين والصبر على الظلم والضيم، والصبر على ما للانسان أن يدافع عنه: وإنما عليه الصبر الجميل والهجر الجميل والكلام الجميل والسكوت الجميل والنصيحة الجميلة التي تضم كل جميل في الدعوة، وليس الهجر الجميل إلا هجراً عن الهجر والتنكيل حتى يحكم اللَّه، والهجر في تقولاتهم اللاذعة، عن المقابلة بالمثل، ولا خروجاً عنهم وعن دعوتهم.

إن الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله لم يكن ليحارب المكذبين بداية الدعوة، لقلة العَدد والعُدَّة، ولما تكمل الدعوة! ولذلك أمر بتأجيل الجهاد إلى زمن الهجرة، حين تكمل العدة والعدة:

«واتبع ما يوحى اليك حتى يحكم اللَّه» «2» وقد حكم اللَّه بالجهاد منذ الهجرة، وحكم على الكافرين بالنار منذ الموت وليوم القيامة، ولقد كانت أخلاقه صلى الله عليه و آله جميلة مع الناس كافة على طول الخط، لحد يعفو عن الكفار عند فتح مكة المكرمة وهم في قبضته علهم يؤمنون، أو يندمون على ما فعلوا وافتعلوا.

«وذرني والمكذبين أولي النعمة» الذين يزدادون تكذيباً لأنهم مترفون: والنَّعمة هي التنعم مرة، وهي هنا الحياة الدنيا، والنِّعمة هي الحالة الحسنة الشاملة للحياتين:

«كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونَعمة كانوا فيها فاكهين. كذلك وأورثناها قوماً آخرين» «3» ذلك لأنهم‏ «بدلوا نَعمة اللَّه كفراً وأحلوا قومهم دار البوار» وهذا هو تبديل النِّعمة نَعمة عليهم ونقمة «جهنم يصلونها وبئس القرار» ذرني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 70: 6

(2). 10: 109

(3). 44: 28

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 90

وإياهم، فأنا حسبهم.

«مهلهم قليلا» بينك وبين الهجرة الحاسمة جذورهم بالجهاد، وبينهم وبين قتلهم أو موتهم إلى عذاب النار وبئس القرار.

فلقد كان صبره جميلا على طول الخط، وامهاله القليل جملا، وكله بأخلاقه وتصرفاته جميلا أينما كان، فحق له قول اللَّه «وإنك لعلى خلق عظيم».

فحمل الرسالة الإلهية وتنفيذها ببلاغها بحاجة إلى صبر جميل: صموداً واستقامة للوصول إلى المغزى في سبيلها الشاق الطويل، فالصبر للرسول- هكذا- زاد وعتاد، وجُنة وسلاح، وملجأ وملاذ، بجانب ما عنده من وسائل الدعوة وتدابيرها، صبراً مع النفس وشهواتها وانحرافاتها وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها، وصبراً مع أعداء الدعوة وكيدهم، وصبراً مع المؤمنين، على قلتهم، وقلة صبرهم، وكثرة استعجالهم، وصبراً مع عامة النفوس التي لا تخلو من تسرعات في حق أو باطل.

«ومهلهم قليلا» ولو مهلتهم عمر الدنيا فهو قليل، فكيف بأعمارهم التي ليست إلا قليلًا في قليل، وكيف بإمهالهم إلى زمن الهجرة و هو أقل من القليل، فلتصبر هناوهناك صبراً جميلا، ولتمهلهم قليلا:

«إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيماً\* وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً». «1»

فلدينا من أنكال ما ليس لديك مهما كان نكالك عليهم شديداً.

إن أنكال النار وقيودها وأغلالها هي التي قدموها لأنفسهم يوم الدنيا إذ كانوا انكالًا في سبيل اللَّه، وكانت عليهم اغلال الشهوات فاثّاقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، فأكملت شهواتهم يوم الدنيا، ثم ظهرت أَنكالًا يوم الدين جزاءً وفاقاً.

«طعاماً ذا غصة»: الذي يمزق الحلوق و يحرق الحناجر، كما كانت حياتهم غصة و كان الحق شجى في حلوقهم، كما كانوا شجى في حلوق المؤمنين وقذى في اعينهم، وبصيغة شاملة كانت حياتهم عذاباً أليماً على الدعوة والداعين والمدعوين، فانتقلت إلى عذاب أليم عليهم يوم الدين:

«يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلًا». «2»

رجفة الأرض والجبال- هذه: هي الرجفة الأولى المدمرة لها، ثم تتلوها الرجفة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 73: 12

(2). 73: 13

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 91

الثانية الرادفة لها، المحيية لأمواتها: «يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة» ومواصلة الرجفتين تجعل الأولى كأنها الثانية، ولأنها بداية القيامة، فتعتبر الأولى- وهي رجفة الإماتة- كأنها يوم انكال، والطعام ذو غصة والعذاب الأليم، وهي كلها بعد الرجفة الثانياً: الإحياء!.

وعلى أثر هذه الرجفة المدمرة تصبح الجبال كأنها «كانت» منذ كانت «كثيباً مهيلا»:

«يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزواللَّه الواحد القهار» والكثيب المهيل هي الرمل المتراكم المنقلب أسفله أعلاه، فكما تخرج أثقالها في زلزالها، كذلك الجبال تقلب في ترمّلها وتدمّرها، فتظهر قواعدها الأعماق رملا متراكما محترقاً.

فإذ تتفتت الأرض و تنهار، و تكثب الجبال و تحتار، فكيف إذاً تكون أحوال الناس المهازيل الضعاف في قبضة العزيز القهار؟

«إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا\* فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلًا». «1»

«رسولًا شاهداً عليكم»: تلقياً لما تقولون وتعملون وتفكرون يوم الدنيا وإلقاءً لهذه الشهادة يوم الدين، فكما أن لكل أمة شهيد هو رسول لهم: كذلك- وبأحرى- رسولنا شاهد عليكم بأكمل معاني الشهادة، وشاهد كذلك على كافة الشهداء والمشهود عليهم يوم الدين: «ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء» «2» فهو يتحمل شهادتهم يوم الدنيا ويؤديها كما تحمّل، يوم الدين.

«كما أرسلنا إلى فرعون رسولًا» فرسالة محمد صلى الله عليه و آله أشبه برسالة موسى ممن سواه، وكما تحكم بهذه المماثلة السامية آية تورانية تحمل بشارة مهمة للرسول الأقدس محمد صلى الله عليه و آله وها هي باللغة العبرانية:

«نابي‏ء آقيم لاهِم مِقِرِبْ إحيحِم كِمُوشِه وِنَاتَتِّي دِباري بِفِيو وِيدَبِر إلو هيم إت كال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 73: 15- 16

(2). 16: 89

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 92

أشِر أصَّونو». «1»

«نبيٌ أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى وأضع كلامي في فمه لكي يلغهم جميع ما آمره به». «2»

وهذه المماثلة هي في استقلال الشريعة، وان كتابه من وحي اللَّه لفظاً ومعنى وفيما أصيب محمد من كفار قومه كما أصيب موسى من آل فرعون، فأخذه اللَّه أخذاً وبيلا:

ثقيلا هو وابل العذاب كالمطر الجارف، وهنا الآية تتهدد العصاة الطغاة على الرسالة المحمدية بالأخذ الوبيل، يهزُّ قلوبهم هزّاً ساحقاً، ويخلعها بعد رجفة الأرض وكثب الجبال المهيل، علهم يتذكرون ويحذرون من أخذة الدنيا والآخرة، فليأخذوا حذرهم بين الأخذتين في هذه الحياة القصيرة، فليتقوا هنا بأس اللَّه قبل أن يأتيهم:

«فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً\* السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا». «3»

ولنفرض أنكم اتقيتم عذاب اللَّه يوم الدنيا، أم لم يأتكم فيها «فما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم» «فكيف تتقون إن كفرتم» ومتم على الكفر «يوماً» يوم الرجفة الطامة التامة، من وقعته وشدته: «يجعل الولدان شيباً» فانه الهول الذي تنشق منه السماء وتخر الجبال هدّاً، فكيف بالولدان الضعاف، فتراهم كأنهم شيب من بياض نواصيهم وانحداب ظهورهم، وانكماش جلودهم، لا لخطيئة اقترفوها فانهم قاصرون، وإنما هذه طبيعة هذا اليوم التي ترتسم في الطبيعة الصامتة أيضاً، ففي الانسانية الحيةَ اولى! وإذ يصبح الولدان شيباً وهم قاصرون فكيف بالكفار المذكبين وهم مقصرون، فهناك وقعة تتقى هي عذاب اللَّه، تتقى بالإيمان باللَّه، ووقعة لا تتقى، وليست هي عذاباً، وإنما توحي بشدة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفر التثنية 18: 17

(2). التفصيل الى كتابنا «رسول الاسلام في الكتب السماوية» ص 33

(3). 73: 17- 18

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 93

بالغة لا تبقي ولا تذر، وهي رجفة الإماتة والتدمير، فالولدان الذين هم أطفال، لو جاز أن يشيبوا لرائع خطب، أو طارق كرب، لشابوا في هذا اليوم لعظيم أهواله وفظاعة أحواله، وإنها وقعة هي كعذاب: «السماء منفطر به» تنفطر به السماء وتنشق وتكشط وترجع رجعاً، فكيف لا يفطر هذا الإنسان الهزيل الذليل؟ «كان وعده مفعولًا» لا هوادة فيه ولا رجعة منه!:

«إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا». «1»

وإنها تذكرة بالغة لمن أراد أن يتذكر، فمن شاء الإدَّكار اتخذ إلى ربه سبيلًا قدره، ومن شاء أن يسلك سبيلا إلى ربه فزادهُ أن يتذكر، إن السبل إلى اللَّه كثيرة وكذلك إلى الشيطان: «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» «2» وأنجح السبل الى اللَّه هو صراطه المستقيم، ثم ما دونه من السبل من حق اليقين وعين اليقين وعلم اليقين والظن، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.

يؤمر محمد بخروجه عن تدثره الى قيامه الرسالي «سورة المدثر- مكية- وآياتها ست وخمسون»

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ‏\* يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ\* قُمْ فَأَنذِرْ\* وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ\* وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ». «3»

إن المدثر من فواتح الوحي، فهي بعد الآيات الخمس الأولى من العلق، وعلها بعد الحمد أيضاً، وإذ تحتمل السورة- كالكثير من أمثالها- عدم نزولها دفعة واحدة، لذلك فآيات التوعيد والتنديد بالوحيد، الذي كان بآيات اللَّه عنيداً، والتي تتحدث عن سائر الكافرين، بعد الآيات السبع الأولى من السورة، إنها لا تتنافى وكون هذه السبع هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 73: 19

(2). 6: 153

(3). 74: 1- 4

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 94

النازلة بداية الوحي المفصل، بعد الخمس من علق والسبع المثاني من الحمد أيضاً.

«يا أيها المدثر»: لقد تدثر الرسول الأقدس صلى الله عليه و آله إثر ما أوحيت اليه الخمس والسبع، تدثر من وقعة الوحي المفاجى‏ءِ الثقيل، وعلى حدِّ المروي عنه صلى الله عليه و آله قال: «جاورت بحراء فلما قضيت جواري فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجثثت منه رعبا فرجعت فقلت: دثروني فدثروني فنزلت «يا أيها المدثر» «1» هذا وكما كان متدثراً عن قيام البلاغ منذ كان حتى زمن الرسالة، فكان عليه- إذاً- دثاراً فوق دثار، فأمر بالتحلل عنهما إلى الإنذار.

إن الدثار ما يلبس فوق الشعار وأصل المدثر والمتدثر تدثراً بثيابه لينام أو ليستدفي‏ء، وما تدّثره في الرمضاء، إلا لما أخذته من رعشة الوحي وهيبته، كأن زالت حرارته بغزارة الوحي ورعشته، فتدثر وكان حقه أن يتدثر، وبما أن مكوثه هكذا بداية الوحي ولو قليلًا، يخيل أنه مسموح له الدثار نوماً أو تدفؤاً، يؤمر آنذاك بالقيام عنه إلى الانذار، فلا عليه ولا له وهو رسول أن يكون نائماً دثوراً مستتراً مستدفئاً، وإن كان من وقعة الوحي، فليتعود القيام والإقدام طالما العراقيل تحول بينه وبين القيام، وليعش القيام حياته: روحياً وجسدانياً وعقلياً وعمليا، وبكل ما يملكه وما ملَّكه ربُّه من طاقات وإمكانيات، فالعمر قصير، والسير عسير، ودافع القعود كثير، فلا يسمح له إذاً- الدثار- أي دثار، دثار الجسم والروح، دثار الانذار والتبشير، فليتجرد عن الدُّثْر كلها، إلى الانذارات كلها.

وقد تتحمل السورة كلها أنها أنزلت بعد ما شاعت دعوة الرسول وواجهته السفاسف والأقاويل السوء: أنه مجنون أو كاهن أو شاعر، وكل ذلك من طواغيت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 280 عن جابر بن عبداللَّه الانصاري، وفيه ان المدثر اول ما نزل من القرآن‏اي: بعد الخمس من العلق ويلمح له قوله صلى الله عليه و آله هنا «الذي جاءني بحراء» اذا فهذا مجيئه الثاني- وعلى الاول كان يحمل سورة الحمد اضافة الى الخمس كما تدل على البسملة بالبيان المسبق في سورة العلق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 95

قريش: أبو جهل وأبو لهب وأبو سفيان والنضر بن الحرث وأمية بن خلف والعاص بن وائل الوليد بن مغيرة الذي تسميه آيات الآتية وحيداً، وانتهى دور التكذيب اليه بما نقلته الآيات، فلما سمع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذلك اشتد عليه ورجع إلى بيته محزوناً فتدثر بثوبه فأنزل اللَّه السورة.

فهذه دثر ثلاثة تتحملها الآيات: دثاره قبل البعثة، ودثاره بداية الوحي من رعشته، ودثاره إثر هذه الهجمات، والرسول يؤمر في هذه الدثر الثلاثة أن يقوم بالانذار مهما كان الدثار، قياماً يستصغر فيه كل دوافع القعود وعراقيل الإنذار:

«قم» فلقد مضى وقت القعود والدثار، وحان زمن القيام والإنذار «قم» للَّه‏قانتاً بين الجموع المحتشدة الفالتة عن ذكر اللَّه وطاعته‏ «وقوموا للَّه‏قانتين» «1» وأقم الدين‏ «وان‏ أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» «2» واقم الوزن أياً كان‏ «وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان» «3» «واقم الصلاة» «4» فانها عمود الدين، قم وأقم واستقم‏ «فادع‏ واستقم كما أمرت». «5»

«فانذر» وليكن الانذار بداية القيام، فانه «قوماً لدّاً»، فان التبشير هو بعد الإنذار، بعد ما تلين القلوب للايمان وتتقي: «فانما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً» «6» «لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك» «7» فمن تأثر بالانذار فهو المنذر المبشر «إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب» «8» «انما تنذر من اتبع الذكر وخشي‏ الرحمان بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم». «9»

فلئن أثر الانذار كان بعده ومعه التبشير، وإلا فلماذا التبشير؟ والانذار هو اظهر ما في الرسالات الإلهية، تنبيهاً للخطر القريب الذي يرصد الغافلين الشاردين السادرين في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 228

(2). 42: 13

(3). 55: 9

(4). 11: 114

(5). 42: 15

(6). 19: 97

(7). 28: 46

(8). 35: 18

(9). 36: 11

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 96

الضلال، علهم يخافون العذاب الأليم، ومن ثم البشارة باللطف والعطف العميم.

«وربك فكبر» إن الفاء هنا توحي بشرطية مقدرة: «ان كان هو ربك فكبره» فلزام الايمان بربوبيته تكبيره كما يلائمها، وليس تكبيره فقط قول: اللَّه أكبر فكثير هؤلاء الذين يقولونه ولا يكبرون الرب في عقول مصغريه المشركين به ولا في أعمالهم أنفسهم، فتكبير الرب غير التكبير لفظياً للرب، وإن كان يشمله قول «اللَّه أكبر» كما يروى عنه صلى الله عليه و آله. «1»

«وربك فكبر» ربك وحده؛ فهووحده الكبير المتعال الذي يستحق التكبير دون سواه، يوحي بهذا الإنحصار تقديم المفعول «ربك» على فعله «كبر» فكل شي‏ء بجنب اللَّه صغير، واللَّه وحده هو الكبير، وكل صغير يكبر عرضياً بالتكبير، واللَّه هو ذاته كبير، وإنما الأمر بالتكبير يعني تعظيمه عند الجاهلين به أو المعاندين والناكرين له، تكبيراً في عقولهم، بياناً للواقع، لا تكبيراً لواقعه، وليستعد الرسول خوضه في هذه المعركة تصغيراً لكل كيد وكل حول وقوة وكل معاكسة وكل عقبة وعرقلة، تكريساً لكافة الطاقات العقلية والمنطقية وسواها، وليعلم الجاهلون باللَّه والمتجاهلون، ان اللَّه هو الكبير المتعال- ف «لم يكن ولي من الذل وكبره تكبيراً»: «2» تكبيراً يليق بساحته، ويصغر كل من سواه بجنبه، تكبيراً في عقولهم وضمائرهم وفطَرهم وفكَرهم وواقع كيانهم في تفكيرهم وتصرفاتهم، ولكي يرى ويلمس أنه الكبير المتعال في خلقه فيعيشوا ذللا بجنبه وفي طاعته: «عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال» «3» المتعالي عن أن يكبر عن صغر، أو يتكبر عليه أحد ينازعه في ملكه، أو يستقل عنه أحد في كيانه- ف «هو العلي الكبير» «4»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 281- اخرج ابن مردويه عن ابي هريرة قلنا يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كيف نقول اذا دخلنا في الصلاة، فانزل اللَّه «وربك فكبر» فامرنا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ان نفتتح الصلاة بالتكبير- اقول هذا هو النزول الثاني للاية، فانها نزلت اولا بداية الوحي قبل الصلاة وقبل ابي هريرة، وليس هذا الا من تطبيق الآية على ادنى مراحل التكبير

(2). 17: 111

(3). 13: 9

(4). 22: 62

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 97

لا عن صغر مسبق- ف «إن اللَّه كان علياً كبيراً»: «1» كينوتة أزلية، لا يشاركه فيه أحد، وكما لا يعني تكبير اللَّه تعالى هنا أنه أكبر ممن سواه، فلا كبير سواه حتى يكون هو أكبر منه، وكذلك قول «اللَّه أكبر» لا يعنيه، فان كونه أكبر من غيره تصغير له، وإشراك لغيره معه في الكبر، وإنما يعني- على حد تعبير باقر العلوم عليه السلام- «أنه أكبر من أن يوصف» وإن كان بوصف أنه أكبر ممن سواه!.

«وثيابك فطهر»: إن كانت هي ثيابك فطهرها: فالفطرة مجبولة على تطهيرها.

«ثياب- ك» و «ك» لا يختص البدن، وإنما يعمه والروح، والروح أحرى هنا، ولا سيما أن الخطاب موجَّه إلى الرسول صلى الله عليه و آله، والرسالة الإلهية هي روحانية المصدر والفعل والمفعول، طالما تشمل الناحية الجسدانية أيضاً.

فلكل إنسان ثلاثة أثواب 1- ثوب الجسد المتصل به، شعاراً ودثاراً، 2- ثوبه المنفصل عنه: زوجته التي اعتبرت لباساً كالعكس‏ «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن» 3- وثوب الروح وهو لباس التقوى‏ «يا أيها الناس إنا أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير» «2» وهذه الطهارة الثلاثية للإنسان تجعله في قمة الطهارة والنزاهة، فبإمكانه هجران الرجز كل رجز.

فمن طهارة الثياب تنظيفها عن الدنس والنجس، وترتيبها بحيث لا تتعرض للأدناس، كالثياب الطوال التي تجر الأرض فتتقذر هي، وتقذر أيضاً خلق أصحابها إذ تخلق فيهم الخيلاء والكبرياء، وهذا من تفسير الظاهر للآية وكما فسرها أئمة أهل البيت عليهم السلام «فطهر- أي فقصر» وكما أن من تطهيرها أيضاً لبسها بحيث لا تكون لباس الشهرة أو لهزء، تطهيراً لأصحابها عن التعرض للبهت والغيبة، وكذلك تطهيرها عن أن تكون من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 34

(2). 7: 26

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 98

مصادر محرمة: سرقة أو خيانة أو بخساً أم أياً كان من وجوه الحرام.

هامة الامور الدينية والسياسية شورى بينهم‏

«وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ». «1»

بعد الإيمان باللَّه فتوكل على اللَّه واجتناب كبائر الإثم والفواحش والغفران إذا ما غضبوا، بعده هذه الخطوات الخمس إلى اللَّه يأتي دور الإستجابة لربهم و .. ألأنهم لم يستجيبوا لربهم وحتى الآن؟ إذاً فما هذا الإيمان بإيمان بما فيه جانبان إيجابيان وسلبيات ثلاث «آمنوا .. يتوكلون- يجتنبون .. واذا ما غضبوا ..»؟!.

إن الإستجابة للرب هنا هي المَكينَة المتينة التي لا عوج لها، فكثير هؤلاء الذين يؤمنون وعلى ربهم يتوكلون، وكبائر الإثم والفواحش يجتنبون، وإذا ما غضبوا هم يغفرون، ولكنهم بعدُ لم يستجيبوا بكيانهم ككل لربهم، إلّا أن يستجيبوا حقاً تداوماً لما استجابوا: «الذين استجابوا للَّه‏والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم» «2» «للذين استجابوا لربهم الحسنى ..» «3» استجابة لا تقف لحد العقيدة ومظاهر من الأعمال الإيمانية وإنما التي تحيي: «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا للَّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم». «4»

هنا على محور الإستجابة لربهم يأتي دور إقام الصلاة أولًا كصِلة عريقة بين المستجيب وربه، ثم أمر جماعي لصالح المسلمين: «وأمرهم شورى بينهم» حفاظاً على كيانهم، ومن ثم «مما رزقناهم ينفقون» في كلتا الصلتين الإلهية والبشريَة، تكريساً لكافة الإمكانيات.

«وأمرهم شورى بينهم».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 42: 38

(2). 3: 172

(3). 13: 18

(4). 8: 24

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 99

آية لا ثانية لها في القرآن كله إلّا ما تأمر الرسول أن يشاورهم في الأمر: «فبما رحمة مِّن اللَّه لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك فأعطف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على اللَّه إن اللَّه يحب المتوكلين» «1» فهذه في شورى الرسول معهم وتلك في شوراهم فيما بينهم وأين شورى من شورى؟!.

ليست مشاورة الرسول إياهم في الأمر إلا تشجيعاً لهم وتدبيراً لحاجتهم إليه كمعلم يشاوَر، لا حاجة منه إليهم فإنه كرسولٍ وحيٌ كلُّه فكيف يشاور غيره فيتبعهم؟

ونص الآية «فإذا عزمت» يرجع الأمر إليه في النهاية كما البداية «2» وكما قال صلى الله عليه و آله حين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 159

(2). نور الثقلين 1: 405 ح 414 في تفسير العياشي احمد بن محمد عن علي بن مهزيار قال: كتب الي ابو جعفر عليه السلام ان سل فلاناً ان يشير علي ويتخير لنفسه فهو يعلم ما يجوز في بلده وكيف يعامل السلاطين فان المشورة مباركة قال اللَّه لنبيه في محكم كتابه «.. وشاورهم في الامر ..» فان كان ما يقول مما يجوز كنت أصوِّب رأيه وان كان غير ذلك رجوت ان اضعه على الطريق الواضح ان شاء اللَّه «وشاورهم في الأمر» يعني الإستخارة.

وفي النسائي قسامة 40 «ان النبي استشار الناس» وفي حم 3- 243 «استشار رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في أسارى يوم بدر» أقول: ولا تعني استشارته إياهم إلا ما تعنيه استشارة اللَّه إياه صلى الله عليه و آله كما في حم 5/ 393: «ان ربي تبارك وتعالى استشارني في أمتي».

وفي سنن الترمذي عن النبي صلى الله عليه و آله إذا كانت امراءكم خياركم واغنياءكم سمحاءكم واموركم شورى بينكم فظهر الأرض خير من بطنها.

وفي الوسائل 8: 224 عنه صلى الله عليه و آله استرشدوا العاقل ولا تعصوه فتندموا، وفيه عنه صلى الله عليه و آله لمّا سئل عن الحزم ما هو؟ قال صلى الله عليه و آله مشاورة ذو الرأي واتِّباعهم. وفيه 8: 409 عنه صلى الله عليه و آله لا مظاهرة أوثق من المشاورة ولا عقل كالتدبير.

وفي النهج الخطبة 214 عن الإمام علي عليه السلام فلا تكفوا عن مقالة بحق او مشورة بعدل.

وفي الوسائل 8: 429 في وصيته عليه السلام الى ابنه محمد بن الحنفية: اضمم آراء الرجال بعضها الى بعض ثم اختر اقربها من الصواب وابعدها من الارتياب قد خاطر بنفسه من استغنى برأيه ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ.

وعنه عليه السلام واستشر العاقل من الرجال الورِع فإنه لا يأمر إلا بخير واياك والخلاف فان في مخالفة الورِع العاقل مفسده في الدين والدنيا.

وعن الامام زين العابدين في الحقوق الخمسين: واما حق المستشير فان حضرك له وجه رأي جهدت له في النصيحة واشرت عليه بما تعلم انك لو كنت مكانة عملت به وذلك ليكن منك في رحمة ولين فان اللين يؤنس الوحشة وان الغلطة يوحش موضع الانس وان لم يحضرك له رأي عرفت له من تثق برأيه وترضى به لنفسك دللته عليه وارشدته اليه فكنت تأله خيراً ولم تدخر نصحاً ولا حول ولا قوة الا باللَّه واما حق المشير عليك فلا تتهمه فيما وافقك عليه من رأيه اذا اشار عليك فانما هي الآراء وبصرف الناس فيها واختلافهم فكن في رأيه بالخيار اذ اتهمت رأيه فاما إتهمته فلا تجوز لك اذا كان عندك ممن يستحق المشاورة ولا تدع شكره على ما بدا لك من إشخاص رأيه وحسن رأيه وحسن وجه مشورته فاذا وافقك حمدت اللَّه وقبلت ذلك من اخيك بالشكر والارصاد بالمكافأة في مثلها ان فزع اليك ولا قوة الا باللَّه، الوسائل 8: 426 وعنه صلى الله عليه و آله ما يستغني رجل من مشورة ومن أراد امراً فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الامور وفي النهج باب الحكم الرقم 321 قال وقد اشار ابن عباس على الامام علي ما لم يوافق رأيه: لك ان تشير علي وأرى فإن عصيتك فاطعني‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 100

نزلت هذه الآية: «أما إن اللَّه ورسوله الغنيان عنها ولكن جعلها اللَّه رحمة لأمتي من استشار منهم لم يعدم رشداً ومن تركها يعدم غياً». «1»

ان الرسول يحكم بين الناس بما اراه اللَّه: «إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك اللَّه ولا تكن للخائنين خصيماً» «2» ولا يعني الحكم بينهم- فقط- أحكام العبادات والعلاقات الشخصية وإن كان يشملها، ولكن «بين الناس» تلمح او تصرح بالأحكام الجماعية، سياسية أمّاذا، إذاً فاحكامه بين الناس كلها مما أراه اللَّه، فهل هو بعدُ بحاجة إلى ما أراه الناس؟.

كل ما يقوله الرسول أو يفعله وحي يوحى‏ «وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى» «3» وإذا كانت صناعة فلك نوح بأعين الوحي وفيها نجاة الأبدان، أفليست إذاً صناعة الأمة الإسلامية بقيادة حكيمة بأعين الوحي وفيها نجاة الأبدان والأرواح:

«فاوحينا إليه أن إصنع الفلك بأعيننا ووحينا». «4»

وكيف يتبع الرسول رأى الشورى تاركاً رأي الوحي و «إن أتبع إلّا ما يوحى إلي ..» «5» «قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كتاب الشورى بين النظرية والتطبيق ص 30

(2). 4: 105

(3). 53: 4

(4). 17: 86

(5). 10: 15

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 101

يؤمنون». «1»

ثم وكيف يكون للمؤمنين التقدم بين يدي اللَّه ورسوله‏ «يا ايها الذين آمنوا لا تُقدِّموا بين يدي اللَّه ورسوله» «2» «وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان اللَّه وتعالى عما يشركون» «3» «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللَّه ورسوله‏ أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص اللَّه ورسوله فقد ضل ضلالًا مبيناً». «4»

ثم وما هي المصلحة في إرجاع أمر المسلمين إلى الشورى وبينهم الرسول والوحي متواتر يقضي كل حاجة، فلماذا يكلَّف حامل الوحي أن يستوحي المؤمنين في الأمر، هل في أمر الرسالة؟ وهو وحي يوحى! أم أمر المرسل إليهم؟ ويكفيهم أمر الرسالة! أو أمر الأحكام ف «إن الحكم إلّا للَّه» «5» أم أمر القيادة السياسية وهو مما أراه اللَّه!.

فلا شورى يتخذ الرسول رأيها وإنما تشير الشورى لمن بعد الرسول والوحي منقطع كما يروى عن علي عليه السلام: «قلت يا رسول اللَّه الأمر ينزل بنا بعدك لم ينزل فيه قرآن ولم يُسمع منك فيه شي‏ءٌ؟ قال: اجمعوا له العابد من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوه برأي واحد» «6» فهنا جمع للعابد من الأمة، أن يجعلوا أمرهم شورى بينهم، شورى جماهيرية تجمع العابد من أمة الاسلام لكي يتشاوروا في المشكوك حكمه، ولا يعني العابد القشريَّ المتقشِّف، وإنما الذي يعيش عبادة اللَّه وطاعته، ويتبنَّى شرعة اللَّه في حياته علمياً وعقائدياً وأخلاقياً وعملياً أم ماذا.

فليس كل مسلم أهلًا للشورى في الأحكام شرعية أو سياسية، وإنما الواجب على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 203

(2). 49: 1

(3). 28: 67

(4). 23: 36

(5). 6: 57

(6). الدر المنثور 6: 10 اخرج الخطيب في رواة مالك عن علي رضى الله عنه قال: ... اقول: هنا الرسول‏ناظر الى مجموعة المسلمين حيث ليس بينهم واحد من المعصومين، فليس يشمل واجب الشورى بين العابدين من امة الاسلام زمن الائمة المعصومين كما لا يشمل زمن الرسول صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 102

الجماعة المسلمة انتخاب النخبة العابدة ولكي يتشاوروا فيما يحتارون من أمر الأمة.

ثم «وأمرهم» يُبحث عنها في أمرين: «هم» و «أمرهم» أما «هم»، فهم المؤمنون أجمع بسند الإيمان، وشورى بينهم هو أوضح سبل الإيمان، فلا يعني إلَّا أمر الإيمان.

وأما «امرهم» فهل تعني شيئَهم فإنه من معانيه؟ ولا محصَّل له شيئاً أياً كان!.

أم «أمرهم» وِجاه نهيهم؟ وليس إلّا لأولي الأمر، ولا يختص أمرهم بالأمر فإنه يعم النهي والأمر! وليس فيه شورى.

أم «امرهم» في ولاية الأمر؟ وهو تضييق لأمرهم دون دليل، مهما كان من أمرهم وأهمه!.

أم «أمرهم» هو فعلهم في جانحة وجارحة، شخصية أم جماعية؟ وليس كل فعلهم بحاجة إلى شورى بينهم! فمنه الواضح الذي لا غبار عليه، ومنه ما يتضح بتأمل دون حاجة إلى شورى، ومنه ما لن يتضح على أية حال، ولا مجال في هذه الثلاث للشورى.

ثم ومنه الغامض المختلَف فيه بينهم، من أمور شخصية أم جماعية، سياسية وسواها، فلأن المؤمن غير المعصوم- أياً كان- ليس مطلقاً في العلم والعرفان فليستعِن بالشورى الصالحة، ومن أهم الأمور الإيمانية انتخاب النخبة الصالحة لقيادة الأمة في كل مجالاتها، ومنها أحكام القيادة المختلف فيها، سواء السياسية منها والأحكامية، فإنهما من أصدق مصاديق «أمرهم» حيث يتطلبان «شورى بينهم» فلا أمرَ لهم هكذا إلّا شورى بينهم، كما هو قضية الحصر في «وأمرهم شورى بينهم» فالأمر الذي يمضي دون شورى ليس إلَّا إمراً وغيّاً!.

و «الشورى» من شار العسل: إستخرجه من الوقْبة واجتناه، وأشرني على العسل أعنِّي، والمِشوَر: عود يكون مع مستشار العسل، فحُصالة الشورى الإسلامية هي العُسالة المستخرجة من وقبة آراء النخبة الصالحة.

وترى الشورى مصدر الشَّور، مثل الرُجعى؟ أو هو الأمر الذي يُتشاور فيه إسما لمادة الشَّور؟ أم هي فُعلى من الأشور صفة للمراجعة أو الحوار، ف «أمرهم- حوار- شورى» يستشيرون بعضُهم البعضَ ممن له رأي في حوار متواصل شورى كأفضل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 103

وأحوط ما يكون، ولكي يتَّبع من الأقوال أحسنها: «فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللَّه وأولئك هم أولوا الألباب» «1» إذاً فأمرهم لا يتخطى «شورى بينهم» أن يستبد أحدهم بِرهانه، او يستقل ببرهانه، وإنما الشورى والشورى فقط هي سبيل المؤمنين في معتركات الآراء الحيوية.

ترى وما هو أمرهم الشورى؟ هل هي الأمور الشخصية، أو الجماعية، أم هما؟ قد تعنيهما «أمرهم» حيث تعني الجميع والمجموع، وهي لمكان «هم .. بينهم» نص في المجموع ظاهر في الجميع.

وما هو «أمرهم» حيث يتطلَّب إيمانُهم أن يكون شورى بينهم؟ إنه ولاية أمر السياسة والديانة! حيث الأمر منه الإمارة، ومنه فعلهم، وطبعاً لا كل فعلهم وإنما المشكوك صوابه ونجاحه، يزيحون شكه بشورى بينهم حيث يتبناها العلم والإيمان على ضوء القرآن والسنة، فليس كل أمرهم شورى، فمنه ضروري الصواب لا يحتاج إلى شورى، وإنما أمرهم المشكوك صوابه بعد الإياس عن الحصول على صوابه من مَصادره، هذا الأمر شورى بينهم.

فالشورى إذاً سبيل المؤمنين ومن أفضلها فيما لا سبيل إليه قاطعاً- لتبين الحق، لا سيما في الأمور الجماعية الإسلامية- إلّا بالشورى الصالحة، سواءاً أكان أمر الولاية الإسلامية من المرجعية الدينية والسياسية ومن سائر الأمور، ومن أهمها أمر الفتوى في معترك آراء الفقهاء، فعليهم إزالة المفاصلات أو تقليلها بالشورى بين الرعيل الأعلى منهم، ولكي يُحصل على الوحدة بينهم، أو يؤخذ برأي الأكثر منهم، فاتِّباعه هو اتباع الأحسن.

هذا النص على مكيته يتبنى حياتاً جماعية متراصة في دولة كريمة إسلامية تدير شؤونها الشوراآت الصالحة بين من لهم آراء صالحة، لكل حقلٍ أهلُه ولكِّ أهل حقله، أن يجعلوا أمرهم في حوار بالتي هي أحسن لكي يستخرجوا رأياً صائباً ثاقباً ليس فيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 39: 18

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 104

خطأ أو يقل.

ولكي يتأدبوا بأدب الشورى ويتدربوا فيها يؤمر الرسول صلى الله عليه و آله على عصمته «وشاورهم في الأمر» تدريباً لهم فيما عليهم كسبيل دائبة لا حِوَل عنها والرسول فيهم، فكيف إذا غاب عنهم وذووه المعصومون، فهم إذاً بأمس الحاجة إلى الشورى.

والروايات القائلة أن الرسول صلى الله عليه و آله شاورهم في بعض الأمور فترك رأيه إلى آراء الاكثرية أمّاهيه، إنها مخالفة لعقلية الوحي الحافلة لكل المصالح الجماهيرية، الكافلة لحاجيات الأمة ومطاليبهم كما تخالف نصوصاً من الكتاب والسنة.

و «امرهم شورى بينهم» تصبغ الحياة الإسلامية بهذه الصبغة المتكاملة المتكافلة لصالح المسلمين، كطابع مبتكَر ليس له مثيل، حيث المشاركون في الشورى ليس في كل أمر كل من يشهد الشهادتين، وإنما «العابد من أمتي» على حدّ تعبير الرسول صلى الله عليه و آله لكي يشير فيما يستشار بما عرفه من عقلية إسلامية أم ماذا.

فالشورى طابع ذاتي للجماعة المؤمنة، وسمة مميزة لهم، وسبيل إيماني يسلكونها في حياتهم‏ «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً». «1»

ليس يعني «أمرهم شورى بينهم» ألّا أمر لهم ولا شغل إلّا شورى، وإنما الأمر الذي فيه يتحيرون، ويتخيرون لصوابه بعد قصور العقليات الفردية ولا سيما في الأمور الجماعية، يتخيرونه «شورى بينهم» استخراجاً لصالح الرأي من وقبة الآراء، كما يُستخرج العسل من وقبته فيصبح خالصاً دون خليط، كذلك الأمر في الشورى الصالحة.

والشورى في أمور المسلمين درجات، شورى لصالح الجماعة المسلمة، وللدولة الإسلامية، وشورى لصالح الأفراد، وتلك ممتازة عن هذه وأهم منها أهمية الجماعة على الفرد، وفي القسمين لا شورى في الضروريات المتفق عليها، وإنما فيما تختلف فيه الفُتيا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 115

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 105

لاختلاف الإستنباطات عن أدلتها، أحكاماً شرعية أم سياسية، أصلية أم في شاكلة تطبيقها، فليس الشكل الذي تتم به الشورى مصبوباً في قوالب حديدية لا تتغير، وإنما يُترك للصورة الملائمة لكل زمان وبيئة، كما النّظُم الإسلامية كلها ليست أشكالًا جامدة.

في الشوراآت الفردية إنما يستشار المؤتمن‏ «1» الأخصَّائي فيما يستشار، وفي الجماعة انما يتشاور الجماعة المعنية العارفة بما يُتشاور فيه، ثم يؤخذ بالأكثر رأياً فإنه أحسن قولًا، ولا تعني الأكثرية في الكمية هنا إلّا دعماً للكثرة الكيفية.

فللشورى ضوابط عدة تجمعها «العابد من أمتي» كما في حديث الرسول صلى الله عليه و آله حيث يتبنَّى طاعة اللَّه وعبادته في الشورى، أن تكون على خُبرة وعقلية وعلم واطلاع وأمانة واضطلاع‏ «2» ف «لا ظهير كالمشاورة» «3» إذاً، كما أنها تكسر الظهر إذا لم تتوفر فيها شروطها.

وإذا كانت المشورة في أمور شخصية بحاجة إلى هذه الضوابط، ففي الأمور الجماعية أحق وأحرى.

فالشورى في الفُتيا الأحكامية تقتضي الرعيل الأعلى من أهل الفتوى حتى يحاوروا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في د- ادب 114 عن النبي صلى الله عليه و آله قال: المستشار مؤتمن وفي المجمع روي عنه صلى الله عليه و آله: ما من‏رجل يشاور احداً إلَّا هدي الى الرشد (5: 584 نور الثقلين)

(2). وفي الدر المنثور 6: 10 قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: من اراد امراً فشاور فيه وقضى هدي لأرشد الامور وقال سليمان بن داود عليه السلام لابنه يا بني! عليك بخشية اللَّه فانها اعانة كل شي‏ء يا بني لا تقطع امراً حتى توامر مرشداً فانك اذا فعلت ذلك رشدت عليه يا بني عليك بالأول فان الاخير لا يعدله.

وفي سفينة البحار 718 عن الصادق عليه السلام: لا تستشر السفلة في امرك واياك والخلاف فان خلاف الورِع العاقل مفسدة في الدين والدنيا وقيل لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما الحزم؟ قال: مشاورة ذوا الرأي واتّباعهم وعن الصادق عليه السلام ما يمنع احدكم اذا ورد عليه ما لا قبل له به ان يستشير رجلًا عاقلًا له دين وورع وقال: ان المشورة لا تكون إلا بحدودها فمن عُرف بحدودها وإلا كانت مضرتها على المستشير اكثر من منفعتها له فاولها أن يكون الذي يشاوره عاقلًا ثانيها ان يكون حراً متديناً ثالثها ان يكون صديقاً مواخياً والرابعة ان تُطلعه على سرك فيكون علمه به كعلمك بنفسك ثم يستر ذلك ويكتمه فانه اذا كان عاقلًا انتفعت بمشورته واذا كان حراً متديناً جهد نفسه في النصيحة لك، وإذا أطلعته على سرك فكان علمه به كعلمك تمت المشورة وكملت النصيحة

(3). نهج البلاغة ح 54 وفي ح 113 لا ظهير اوثق من المشاورة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 106

في جد واجتهاد وقوة وسداد للحصول على رأي واحد فأحسن، أو اكثرية فحسن، فاتباعها إذاً إتباع للقول الأحسن، فلا يصلح إتباع رأي واحداً وإن كان أفضلهم.

كما الشورى في الفُتيا السياسية تتطلب ذلك الرعيل من أهلها على ضوء الكتاب والسنة، وهم نواب المجلس النيابي للشورى الإسلامية.

وبما أن الزمالة بين الدين والسياسة عريقة جوهرية أم هو هي وهي هو، فعلى الرعيل الأول أن يكونوا ساسة وإن لم يصبحوا بتلك المثابة، وإن كان الأخصائيون في السياسة الإسلامية هم الأولوية من الأخصائيين في الفُتيا الأحكامية، فيحكم- إذاً- الفقهاء فقهياً والساسة سياسياً على رعاية الفقهاء الأحكاميين ف «العلماء حكام على الملوك والملوك حكام على الناس» وكما نرى في طالوت إذ بعثه اللَّه ملكاً على بني اسرائيل لقيادة الحرب على رعاية نبي لهم.

ترى ومن ذا الذي يعرفهم فيعرِّفهم للجماعة المسلمة، من أولاء وهؤلاء حيث يجمعها «العابد من أمتي»؟ طبعاً إنهم العارفون من المسلمين في كل من الحقلين «اجمعوا له العابد من أمتي» وكيف يجمعون؟ طبعاً بالشورى بينهم «واجعلوه»: هذا الجمع «بينكم شورى» والمخاطبون- بطبيعة الحال- هم العارفون ميزانية العلم والتقوى في الرعيلين على اختلاف مراتبهم.

إن معرفة التقوى السياسية والتقيِّ السياسي لا تتطلب أكثر من لمس للسياسة الإسلامية وإخلاص إيماني ممن ينتخبونه، فنواب المسلمين في مجلس الشورى الإسلامية هم نخبة سياسة إسلامية، يجعل المسلمون ككل أمرهم شورى بينهم، ثم هم يجعلون أمور المسلمين شورى بينهم.

ولكن معرفة التقوى العلمية بحاجة إلى ارتحال مراحل من علم الدين يميز بها الغث عن المسلمين، فالرعيل الأعلى من أهل الفتوى هم نخبة ينتجها أهلوها أم أهل العلم أجمع.

هذان من أهم الأمور الإسلامية التي يجب أن تحصل بالشورى الصالحة، حيث‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 107

يتبنَّيان الخلافة الإسلامية في حقلي الفتوى والسياسة فتديران أمور الدولة الإسلامية وتدبِّرانها

ثم المسؤوليات الجماعية الأخرى في هذه الدولة المباركة أيضاً تكون «شورى بينهم» لكل حقلٍ أهل، فوزير الصحة لا ينتخبه إلّا الأطباء المسلمون العارفون بشؤون الصحة ومتطلبات الوزارة فيها، كما وزير التربية والمالية والدفاع أم من ذا؟ فلكلٍّ شورى خاصة تصلح لانتخاب نُخبتها للحصول على بُلغتها دون هرج مرج لا يدري أيٌ من أين.

ولماذا الشورى والشورى فقط تتبنَّى أمرهم، وفيهم الأعاظم من فقهاءهم وهم خلفاء الرسول والأئمة من عترته عليهم السلام، فبأيديهم إذاً إزمة الأمور؟.

هناك في حل الأمور أبعاد أربعة: 1- الوحي الرسالي، وهو مختص بالرسول صلى الله عليه و آله 2- العلم الرسالي وهو خاص بأئمة أهل البيت عليهم السلام 3- وحي الشورى في الرعيل الأعلى من الخلفاء العامين للرسول والأئمة 4- الفتاوى الخاصة لكلٍّ من هؤلاء.

نحن نعيش زمن انقطاع الوحي وخلافة العصمة، فهل نأخذ بفتوى واحد من ذلك الرعيل: الأعلم الأورع الأتقى الأشجع الأبصر أم من ذا؟ والتعرُّف إلى شخصية هكذا غير يسير، وقد يكون من المستحيل، أولا تجتمع عليها الآراء، وبذلك تنفصم عرى الوحدة الإسلامية، وإذا عُرِفت وتوحدت الكلمة في اتباعها، فلا يخلو هذا العبقري من أخطاء، وعلينا أن نزيلها بالشورى، حيث الطاقات المتداخلة المتشاورة أقرب إلى الصواب، وهي أحسن قولًا، كما وتُوحِّد القيادة الروحية السياسية في أهل الشورى، حيث البُعد الثاني فيها هو الأخذ بالأكثر، فعلى المسلمين أجمع اتِّباعه، وإن كانت القلة من أهلها لا يتبعونها إلّا في الأحكام الجماعية السياسية أم ماذا؟.

فكل أمر ينزل بالمسلمين بعد زمن الوحي وزمن حملة الوحي، ما لم ينزل فيه قرآن في نصه، ولم يُسمع من الرسول بخصوصه، فليَجمع المسلمون العابدَ من أمة الإسلام بشورى عامة، حتى يحّل العباد المنتخبون مشكلة هذا الأمر ب «شورى بينهم»: حيث‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 108

تقرِّبهم إلى الحق زلفى، وتنوب مناب عقلية العصمة شيئاً كثيراً.

ولان ضمير الجمع في «شورى بينهم» راجع إلى‏ «الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون. والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة ..» فإنما الشورى الصالحة لأمرهم بين من يحمل هذه المواصفات الخمس، وهم النخبة الصالحة من شورى الأمة الصالحة، ثم وهؤلاء الاكارم ينتخبون فيما بينهم الرعيل الأعلى من فقهاء الأمة، الأحسن رأياً وقولًا حيث هم افضل فقهاً وعدلًا وفضلًا. ثم وهؤلاء ينتخبون فيما بينهم رئيس الشورى وقائد الأمة، شورى ثالثة هي سلالة الأخريين، ثم هناك الشورآت المتواصلة على رعاية القائد المنتخب لتقرير مسير الأمة ومصيرها أحكامياً وسياسياً دون أن يستبد القائد برهان القيادة لفقدان العصمة.

ولا موقع للأكثرية في ميزان الحق، إلّا الأكثرية بين الأقلية الصالحة فإن‏ «اكثر الناس لا يعلمون» «1» و «لا يشكرون» «2» و «لا يؤمنون» «3» و «لا يعقلون» «4» و «يجهلون» «5» «وما يتبع أكثرهم إلا ظناً» «6» «وما يؤمن أكثرهم باللَّه إلا وهم مشركون» «7» «وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين» «8» «ولكن أكثرهم للحق كارهون» «9» «فأبى أكثر الناس إلا كفوراً» «10» «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل اللَّه» «11» «وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإنْ وجدنا أكثرهم لفاسقين». «12»

إذاً فالشورى الصالحة ليست إلّا بين الأقلية الصالحة العالمة الشاكرة العاقلة المؤمنة المتبعة علماً العادلة المحبة للحق الهادية المتعهدة، ويجمعها الفقيه الزاهد البصير الخبير.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 7: 187

(2). 2: 243

(3). 11: 17

(4). 6: 37

(5). 6: 111

(6). 10: 36

(7). 12: 106

(8). 7: 102

(9). 43: 87

(10). 17: 89

(11). 6: 116

(12). 7: 102

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 109

«ومما رزقناهم ينفقون» إنفاقاً في هذه السبيل وكل سبل اللَّه، إنفاقاً لعقلياتهم وتجربياتهم، أفكارهم وعلومهم، أموالهم وكل ما يملكون من طاقات ذاتية أو منفصلة، ولكي يحلُّوا مشاكلهم التي لا حِوَل عنها ولا مرجعَ معصوماً لها.

إن مكية آية الشورى- ولم تكن هناك دولة إسلامية ولم تخلد بخلد احد الا الرسول- وان المسلمين يعيشون الرسول، وحَصر أمرهم في «شورى بينهم»- تدلنا على مدى أهمية الشورى، حيث تعم الحيوية الإسلامية في كل عصر ومصر، ومهما كان في غنى عنها زمن قيادة العصمة، ولكن عليهم التدرب فيها فقد نرى الشورى في شاكلتها ونتاجها في أبعاد اربعة.

1- يستشير المحتار ذا رأي صائب لكي يحصل على الرأي المختار دون خطإٍ كما يُستشار العصوم، «1» او قليل الخطا، كما يستشار غيره.

2- يشاور المعصوم غيره ليدله على خطاءِه ويرشده الى صوابه دائبة للمسلمين، وعقلية منفصلة لهم تساعد عقلياتهم الذاتية، ولكي تنبع فكرتهم فتنبغ بالتقاء الآراء واصطحكاكها، كما أمِرَ الرسول صلى الله عليه و آله: «وشاورهم في الأمر» ولا رأيَ مطاعاً فيها إلا رأيه وعزمه: «فاذا عزمت فتوكل على اللَّه».

3- يتشاور من هم على سواء أو كادَ، ولكي تجتمع عقلياتهم على ركيزة واحدة، إزالة لأخطاء وخلافات، فتوحيداً للرأي أم تقريباً للآراء، وأخيراً إذا بقي اختلاف أخذاً بأكثرية الآراء، حين تدل على أقربية الرأي إلى الحق، فلا مكانة للعِدَّة إلّا إذا دلت على عُدَّة، ولا نفضل الأكثر عِدَّةً هنا إلّا لدلالته على الأكثر عُدةً، فإذا تساوى الفريقان عِدَّة نفضِّل الأقوى رأياً وهو الذي فيه الأقوى رأياً، وحتى إذا اختلفا عِدةً قد نفضل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان 4: 128 علي بن ابراهيم القمي قال قال في اقامة الإمام «واقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم» أي يقبلون ما امروا به ويشاورون الإمام فيما يحتاجون اليه في امر دينهم كما قال اللَّه «ولو ردوه الى الرسول والى اولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم».

اقول: «بينهم» لو خص بشورى الإمام كان حق التعبير وامرهم ان يشاوروا .. ولكنها لشمولها كافة الشوراآت الأربع فالجامع بينها هو «بينهم»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 110

الأقل لو كان فيه الأعلم الأعقل، وهكذا نُتابع القول الأحسن، وفي الأكثر هو مع الأكثر حيث المتشاورون أضراب.

4- يتشاور من ليسوا على سواء، ليفيد الأقوى من دونه كما ويستفيد ممن دونه.

والشورى فيما سوى الأولى بحاجة إلى تحضير قبلها، أن يفكِّر أهلوها قلبها فيم يتشاورون، ثم بالشورى يتفاوضون ويستنجدون.

وحُصالة البحث في حقل الشورى أنها سبيل دائبة هي لزام الإيمان فيما لم يتبين رشده بوحي أم سواه، من أحكام شرعية أم سياسية، ومن انتخاب النخبة في كل حقل، يُتبنَّى في كل ذلك العقلية الإسلامية في كاملها بكافة الجهات، ولكي يحصل بالشورآت الإسلامية ركامات من العقليات المجتنات من وقباتها، من عسيلات الآراء حيث تستخلص من مزيجات لا تصلح.

فلا شورى في انتخاب الرسول صلى الله عليه و آله والأئمة بعد الرسول حيث الإنتصاب بوحي اللَّه يغني عن الإنتخاب، ولا في الأحكام الضرورية شرعية وسياسية، حيث الشورى ضرورة عند الإضطرار، وإنما الشورى في انتخاب النخبة التي تتشاور فيما تحتار فيه الأمة الإسلامية وهم «العابد من أمتي» ثم هم يتشاورون فيما يصلح الأمة ويخرجها عن الحيرة، حيث يوضِّح الحق جماهيرياً ويوحد كلمة المسلمين على القول الأحسن، دون تفرُّد واستبداد.

فالشورى تنوب مناب ما نخسره من غياب العصمة، فإنها إجتهاد متراصٍّ دائب يجعل من المسلمين مفكرين متفاوضين في أفكارهم، دون أن يظلوا أجساداً بلا ارواح لا يفكرون ولا يتدبرون.

فكما العصمة في القيادة صالحة ضرورية لتبني أساس الإسلام، كذلك الشورى النائبة عن العصمة حيث تسد عن كل نائبة، هي أيضاً صالحة لاستمرار الحيوية البنائة الإسلامية، غير الجامدة.

فحين ما نخسر قيادة العصمة زمن الغيبة، نربح بديلَها إستمرارية عصمة الشورى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 111

حين تعصمنا عن التمزق والإنزلاق، وتقليلًا من أخطاء القيادة غير المعصومة، ثم لا يضر الأمة الإسلاميةَ أخطاءها القليلة وِجاه عوائدها الكثيرة، ومن أهمها صراع العقليات الإسلامية وسباقها على ضوء الكتاب والسنة والسياسة حيث تصنع أمة صارمة متكاملة غير جامدة.

وكما نرى القرآن المبين- على بيانه النور المتين- يُحَرِّضنا على التدبر في آياته، ولكي نستنبط من خفياته، سبراً لأغواره، ولكي نحصل بكل جد واجتهاد، على ما أسرّه، دون أن يوضِّح لنا كل شي‏ء وضح النهار، كيلا تبطل عقولنا، أو تجمد أفكارنا، بل نكون دائبين في التدبر والتفكير، ولكي يصنع أمة لها حَيَويتُّها البنَّائَة، في استقلاليتها وقوامتها، قائمة على سوقها على ضوء القرآن والسنة المحمدية صلى الله عليه و آله.

فعصمة القرآن ثم السنة القاطعة تعصم المسلمين عن التفلُّت والإنحراف، إذا عاشوا القرآن في شورى دائبة من النخبة العابدة، دونما استبداد واستقلال فاستغلال الكتلة المؤمنة، وإنما الشورى والشورى فقط تكفل تلك الحيوية المجيدة المستغنية عن كل شارد ووارد، حضوراً لمختلف شعوب المسلمين في مصالحهم الجماعية، أخذاً لأزِمَّتهم بأيديهم، فلا يحكمهم إلَّا اللَّه ومن يحكم بحكم اللَّه، ف «إن الحكم إلّا للَّه»!.

فلنكرِّس طاقاتنا كلها للشوراآت المتواصلة عبر زمن غيبة القيادة المعصومة، ولكي نقوم على سوقنا ونحيى حياةً طيبة سلمية إسلامية، لا استسلامية تقليدية ذليلة.

وترى إذا كانت الشورى هي المرجع زمن الغيبة الكبرى فما هو موقف ولاية الفقيه؟.

أقول: إن ولي الأمر أيضاً هو منتخب الشورى يرأسها على ضوء الشورى، وهو يلي أمر المسلمين ولاية محددة بها دون استقلال له فيما يرتأيه، فقد يتفق رأي الشورى أو أكثريتها المطلقة على واحدٍ من أهلها، فهو الذي يرأسها، أم يتفقون أو أكثرهم على أكثر من واحد، إذاً فحصيلة الشورى هي شورى الولاية والقيادة.

إنّ ولي الأمر- واحداً أو اكثر- هو الذي يحكم، لكنما الحكم ليس إلّا بالشورى،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 112

حيث تَجبُر الأخطاء الطارئة لشخص او اشخاص يُولَّون أمور المسلمين، دون استقلال لاحد ولا استبداد برأي.

إتباع الأحسن هو سبيل المؤمنين حيث يبشرهم اللَّه ويأمرهم‏ «فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللَّه وأولئك هم أولوا الألباب». «1»

أترى أن رأي الواحد غير المعصوم أحسن، مهما كان أعلم ممن سواه، أم الأكثرية من الرعيل الأعلى نتيجة الشورى؟ لا ريب أنها الأحسن فاتباعه قضيَّةُ اللب والهداية الإلهية.

أترى إذا تساووا أعضاء الشورى في فريقين اثنين فأي الفريقين أولى بالإتِّباع؟ هنا الأولوية للفريق الذي فيه القائد بميِّزة القيادة، وأنه هو الذي ينظر إلى الأصلح بحال الأمة عند تضارب ألآرا فعلى المؤمنين- ككل- الشورى العامة لانتخاب النخبة الصالحة لانتخاب أعضاء الشورى، وليكونوا الأمثل بين الأمة والأمثال فيما بينهم للحصول على الرأي الأحسن وليكون في العدد الأكثر عند التضارب دلالةٌ على الأحسن والأقرب إلى الحق.

ثم على هؤلاء انتخاب القائد الرئيسي للشورى، فان اتفقوا على رأي وإلّا فالأكثر عدداً، وإلَّا فالفريق الذي فيه الأعلم الأتقى لأن فيه الرجاحة عند تساوي العدد، وهكذا تسير الشورى مصيرها إلى انتخاب الأحسن فالأحسن لتقليل الأخطاء فالقيادة الأصلح لصالح الأمة «ومما رزقناهم ينفقون» إنفاقاً لكافة الطاقات والإمكانيات الصالحة لهذه القيادة المباركة على ء الكتاب والسنة.

وهل هناك مماثلة بين سيئة محدودة في زمن محدود وأثر محدود من مسي‏ء محدود، وبين سيئة لا محدودة من إله غير محدود؟ وأدنى المماثلة بين سيئة وسيئة مماثلة النهاية في سيئة محدودة في الكيف والأثر وإن لم يكن في الكم والزمن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 29: 18

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 113

جزاء سيئة سيئة مثلها عدلًا، وسيئة دونها أو عفو وإصلاح فضلًا ورحمة، فإذا يأمرنا اللَّه تعالى بالعفو عن السيئة إصلاحاً أم جزاءها المثل عدلًا فكيف يجازي هو ظلماً أن يخلِّد بسيئاتٍ أهلَها إلى غير نهاية، وما هذا إلا كذب مفترى «سبحان اللَّه عما يصفون»!.

ثم المماثلة بين السيئة والجزاء والسيئة المجازى بها لا تقتضي إلّا إعتداءً بالمثل، وليست هي إعتداء، وأما إذا كانت سيئة بنفسها دونما استثناء فلا، فمن ضربك تضربه كما ضرب مراعياً كمَّه وكيفه، وأما من زنى بحليلتك فليست جزاءه أن تزني بحليلته، وإنما هي الحد المحدد له في الشرع، والضابطة العامة هي أن السيئات المتعدية التي لا حدّ لها في المحرمة كمثل اللواط والزنا والسباب والإضلال ام ماذا فلا، وقد توحي «فمن عفى» أن السيئة هنا تعني ما تقبل العفو ممن أسي‏ء إليه، فلا تشمل إذاً مثل اللواط والزنا والإضلال، وإن شملت مثل القتل والسباب أم ماذا.

فاذا قال لك: أخزاك اللَّه، تقول له مثل قوله: أخزاك اللَّه، وإذا قال لك: أنت فاسق إهانة دون حجة، تقول له: أنت فاسق جزاءً بحجة ...

وأما إذا قذفك بما يوجب الحد، فليس لك أن تقذفه حيث يوجب الحد، وانما جزاءه الى اللَّه حيث سن حداً للقذف، وكما إذا زنى أو لاط أم أساء سيئة من أضرابهما مما يوجب الحد فجزاءه إلى اللَّه فيما حدَّد.

فلا تعني مماثلة سيئة سيئة أنك حرٌّ أن تجازى أية سيئة بمثلها، وإنما هي كضابطة، فقد يجوز لك أن تجازي بمثلها، وقد لا يجوز فاللَّه هو الذي يجازي بما سنَّ من حد أم ماذا، ومن ثم فهي محددة بما يجوز العفو عنها.

«وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ\* إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم\* وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ». «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 42: 41- 43

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 114

ليس على المنتصر بعد ظلمه من سبيل، سواء أكان انتصاره فرضاً أم راجحاً أم- وعلى أقل تقدير- مسموحاً، حيث الإنتقام أو الدفاع وجاه الظالم حق مشروع على أية حال.

قد يكون الإنتصار بعد الظلم من واجبات الإيمان‏ «والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون» فهنالك الإنتصار والإنتصار فقط، دون إنتظار فإنه إحتضار واهتدار، فحين يُظلم القرآن وشِرعته ويُظلم شعبه ورعيته فالإنتصار هنا واجب ذو بعدين، والإنظلام والسكوت محرم ذو بعدين و «ذلك بأن اللَّه لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «1» ف «حق من أساءك أن تعفو عنه، وإن علمت أن العفو يضر انتصرت» «2» كما والقائم عليه السلام ينتصر للإسلام. «3»

معضلة الحكم‏

نرى في هذا الدرس الحاضر ملامح لائحة لنموذجين من نماذج الناس، المرائي المنافق الشرير الذلق اللسان، يعجبك قوله بمظهره ويسؤك فعله بمخبره:

«وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ». «4»

«يعجبك» يروقك ويسرك (قوله في الحياة الدنيا) عرضاً لها واعراضاً في قالته عنها كزاهد متحمس وتقي مخلص، أم (يعجبك في الحياة الدنيا) عجاباً من ظاهر القول في ظاهره الحياة الدنيا «قوله» وأما الحياة العليا التي أنت تعيشها وذووك، فلا يعجبك قوله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 8: 53

(2). نور الثقلين 4: 585 عن الخصال 125 في الحقوق المروية عن علي بن الحسين عليه السلام ... ثم يستدل بالآية «ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل»

(3). المصدر 127 في تفسير القمي بسند عن ابي جعفر الباقر عليه السلام في الآية

(4). 2: 204

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 115

فيها، (ويشهد اللَّه على ما في قلبه) أنه يوافق قوله «و» الحال أنه (هو ألد الخصام) واللدود هو الشديد اللدد: صفحة العنق، حيث لا يتلوى إلى حق، فضلًا عن الألد، والخصام هم المخاصمون المنازعون، حيث يتعلق كل واحد بخصم الآخر وجانبه ويجذب خصم الجوالق من جانب، فجمع المعنى والمعنى الجمع: وهو أشد عنقاً استقلالًا فيما يهوى، واستغلالًا له كما هوى في خصام الدنيا وزينتها، مخاصماً لدوداً كل حق، مجاذباً كل باطل، لا يأتي منه أي خير، فحياة كلها تجمعها (ألد الخصام في الحياة الدنيا) و (أبغض الرجال إلى اللَّه الألد الخَصِم). «1»

ذلك المنافق النحس النجس لما يتكلم «في الحياة الدنيا» «يعجبك قوله في الحياة الدنيا» «وهو ألد الخصام في الحياة الدنيا» ثالوث منحوس يشكل حياته بأسرها.

لسانه ذلق طلق «في الحياة الدنيا» وكأنه زاهد معرض عنها، وقلبه حالق خَلِق حيث يبيع الدين بالدنيا، فحين يواجه النبي صلى الله عليه و آله مقبلًا إليه بقوله: «جئت أريد الإسلام ويعلم اللَّه أني لصادق فيعجب النبي في ظاهر قوله، ثم يخرج من عنه فيمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر فيحرق الزرع ويعقر الحمر. «2»

وحين يغيب عنه يضلل من معه في حقل الجهاد «يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا! لا هم قعد وافي أهلهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم». «3»

فالمخاطب هنا كل المسلمون- بدرجاتهم- على مدار الزمن الرسالي، لا خصوص الرسول أم ومعاصروه، و «الناس» هم كافة المنافقين بدركاتهم على مدار الزمن الرسالي، مهما واجه أحدٌ منهم أم جماعة الرسول صلى الله عليه و آله والدين معه في زمنه، فالآية تنزل في رجل أو رجال ثم تكون عامة بعد كلمات وسع نطاق لفظه، فإنما العبرة بمطلق اللفظ أو عمومه، لا خصوص المورد، وإلَّا لمات القرآن كله، إذ مات الذين ورد بشأنهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 239 عن عائشة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: ...

(2). هنا روايات عدة في الدر المنثور وفي نور الثقلين أن الآية نزلت بشأن الأخنس بن شريق الثقفي حليف لبني زهرة أقبل إلى النبي صلى الله عليه و آله المدينة وقال: جئت أريد الإسلام ... فأنزل اللَّه الآية

(3). ففي الدر المنثور 1: 228 عن ابن عباس قال: لما أصيب السرية التي فيها عاصم ومرثد قال رجال من المنافقين: .... فأنزل اللَّه «ومن الناس ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 116

ولقد ورد بشأنهم الشائن في كتب السماء كتفصيل لهذه الآية أحاديث قدسية، منها:

إن الرب تبارك وتعالى قال لعلماء بني إسرائيل: يفقهون لغير الدين ويعلمون لغير العمل، ويبتغون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون مسوك الضأن ويخفون أنفس الذئاب، ويقفون القذى من شرابكم ويبتلعون أمثال الجبال من المحارم، ويثقلون الدين على الناس أمثال الجبال، ولا يعينونهم برفع الخناصر، يبيضون الثياب ويطيلون الصلاة وينتقصون بذلك مال اليتيم والأرملة، فبعزتي حلفت لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأي ذي الرأي وحكمة الحكيم. «1»

ويا لمنافق- هو من ألد الخصام- من سيطنة مدروسة حتى ليكاد يضلل الصالحين بقولته اللينة المرنة، يصور نفسه إليك خلاصة من الخير وكلاسة من الإخلاص للَّه والتجرد والحب والترفع عن دانية الدنيا، تعجبك ذلاقة لسانه ونبرة صوته ببيانه، ثم «ويشهد اللَّه على ما في قلبه»، زيادة في الإغواء «وهو ألد الخصام» تزدحم نفسه بكل خصومة ولدد، وهو من كل خير بدَدٌ.

ذلك، ومن ثم لمَّا يأتي دور الإمتحان، الذي به يكرم المرء أو يهان تراه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 238- أخرج أحمد في الزهد عن وهب أن الرب تبارك وتعالى قال. وفيه اخرج سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد المقبري أنه ذاكر محمد بن كعب القرظي: فقال: أن في بعض كتب اللَّه أن للَّه‏عباداً ألسنتهم أحلى من العسل وقلبهم أمر من الصبر لبسوا لباس مسوك الضأن من اللين يجترون الدنيا قال اللَّه: أعلي يجترون وبي يفترون وعزتي لابعثن حيران فقال محمد بن كعب هذا في كتاب اللَّه «ومن الناس ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 117

بعث النبيين يهدف الحكم بين المختلفين والمتخلفين‏

«كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». «1»

الأمة هي من الأم: القصد، فهي جماعة ذات قصد واحد، وقد تُطلق على الفرد الذي له همامةُ جماعةٍ ذات قصد واحد، أم إمامة جماعة، وله الهمة العالية التي تخلق أمة على منهجه ومنهم إبراهيم: «إن إبراهيم كان أمة قانتاً للَّه‏حنيفاً ولم يك من المشركين» «2».

وترى «أمة واحدة» هنا- بالنسبة للناس ككلٍ- هي أمة الهداية، أنهم كلهم كانوا على هدىً قبل بعث النبيين؟ وهذه مستحيلة في نفس الذات، فإن مختلف الأهواء والرغبات الإنسانية هي أسس عوامل الإختلاف الشاسعة بين الناس! وحين لم تجمع الناس و لن يجتمعوا- على هدىً بدعوات الرسل، فكيف تجتمع- إذاً- دون دعوة رسالية!.

ثم إذا كان القصد من بعث النبيين القضاء على الخلافات الإنسانية، فما هي الحاجة إليهم وهم على هدى! رغم أن الرسالات جعلت الناس في شطري الهداية والضلالة:

«وما اختلفت فيه إلا لذين أوتوه» وأنهم جاءوا لرفع خلافات دائبة بينهم: «وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه»! فما هي الهدى الواحدة بينهم؟!.

أم هي أمة الضلالة، أنهم كانوا ككلٍّ كفاراً؟ وتراهم كلَّهم بماذا كفروا ولم يبعث بعدُ نبيون حيث: «فبعث اللَّه النبيين ..»! ثم وكيف يمكن الإجماع على ضلال الكفر لو كفروا بشرعة إلهية، وحملة الشِّرعة هم على هدى من ربهم، ولا يخلوا المرسل إليهم- لو كانت رسل- من إستجابةٍ مَّا للرسالات! وحتى قبل الدعوات الرسالية، ليس الناس كلهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 213

(2). 16: 20

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 118

كفاراً بمبدء الفطرة والعقلية الإنسانية!.

فلم يكونوا- إذاً- لا مهتدين ولا كفاراً، بل «كانوا ضُلَّالًا لا مؤمنين ولا كافرين ولا مشركين» «1» حيث الدعوات الرسالية هي التي تخلق هذه الأمم الثلاث، والبشرية قبلها «أمة واحدة» متماثلين في أصل الضلال عن الهدى الرسالية، وهذا هو الذي يستتبع بينهم خلافات حسب مختلف الأهواء والرغبات «فبعث اللَّه النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» على كونهم أمة واحدة، في الضلالة عن هدي الوحي، مهما كانوا مهتدين برسل الفِطَر والعقول، فإنها لا تكفي هدىً لابقة لائقة بالإنسان بحيث تصبح الإنسانية أمة واحدة كاملة، إذاً فوحدة الأمة البشرية قبل بعث النبيين لا تعني عدم الإختلاف بأسره، بل وحدة في الضلالة عن هدي الوحي كما ولم يكونوا كافرين إذ لا وحي به يكفرون.

هذا! ولكن ما هو الجواب عن سؤال: متى كان الناس أمة واحدة فبعث اللَّه النبيين؟

وقد بزغت الإنسانية برسالة الوحي، فآدم الرسول هو أوّل إنسان من هذه السلسلة، ثم من ولده وأحفاده كشيث وإدريس، وقد كان نبياً حسن النص‏ «وأذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً» «2» وكما تلمح آيات أو تصريح بأنبياء قبل نوح: «أولئك‏ الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح» «3»، ثم وكيف يجوز في حكمة اللَّه ورحمته أن تظل البشرية ردحاً من الزمن أمة واحدة في ضلال ثم يبدو اللَّه أن يبعث النبيين، فيحتجون- إذاً- على اللَّه كما قال اللَّه: «ورسلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلًا لم نقصصهم عليك وكلم اللَّه موسى تكليماً\* رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 208 في تفسير العياشي عن يعقوب بن شعيب قال سألت أبا عبد اللَّه عليه السلام عن‏الآية فقال: كان الناس قبل نوح أمة واحدة فبدا اللَّه فأرسل الرسل قبل نوح، قلت: أعلى هدىً كانوا أم على ضلالة؟ قال: كانوا على ضلالة قال: بل كانوا ضلالًا لا مؤمنين ولا كافرين ولا مشركين، و عن المجمع وروي عن الباقر عليه السلام أنه قال: كانوا قبل نوح أمة واحدة على فطرة اللَّه لا مهتدين ولا ضُلالًا فبعث اللَّه النبيين‏

(2). 16: 56

(3). 19: 58

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 119

يكون للناس على اللَّه حجة بعد الرسل وكان اللَّه عزيزاً حكيماً» «1»- «ولو أنا أهلكناهم‏ بعذاب من قبله لقالوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولًا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخرى» «2».

ذلك! وإلى آيات أخرى تنص على تحليق الرسالات الإلهية على الأمم كلها دون إبقاء: «ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن أعبدوا اللَّه» «3» «ولكل أمةٍ رسول فإذا جاء رسولهم قُضي بينهم» «4»- «لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه» «5» «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» «6».

فمتى كان الناس- إذاً- أمة واحدة ضلالًا فبعث اللَّه النبيين ..؟!

قد تعني «أمة واحدة» للناس، وحدتهم في الضلال:- لا على هدى كاملة ولا كافرين- أنهم كانوا في الفترة الرسولية بين آدم وإدريس، أم وبين إدريس ونوح عليهما السلام، فلم يكن في تلك الفترة نبيٌ صاحب كتاب شرعة ولا نبوة، وإنما دعوة رسالية لا رسولية في فترة بعيدة من الزمن جعلت الناس في الأكثرية الساحقة ضُلالًا قاصرين بتقصيرهم في التحري عن الدعوة الرسالية الموجودة، مهما كان الوصول إليها والحصول عليها صعباً.

«فبعث اللَّه النبيين» أصحاب كتاب الشرعة الذي فيه تفاصيل زائدة على وحي الرسالة الخاصة بإرشاد الفطرة والعقلية الإنسانية إلى هداهما الخالصة.

فقد كانت في مثل هذه الرسالة كفاية للإنسان البدائي، دون حاجة ماسة ضرورية إلى تفاصيل أحكام النبوة المذكورة في كتابات النبوات.

فالأنبياء هم أصحاب كتابات الوحي الحاملة للشرعة الأحكامية زيادة على الرسالة الفطرية والعقلية، وليس الرسل كلهم يحملونها، كما ويذكر النبيون مع الكتاب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 165

(2). 20: 134

(3). 16: 36

(4). 10: 47

(5). 22: 67

(6). 35: 24

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 120

دون الرسل إلا النبيون منهم.

إذاً فلم تمض على البشرية زمن الفترة الرسالية «لئلا يكون الناس على اللَّه حجة» بل هي إما فترة رسولية، أم فترة الأنبياء أو النبوات، كما الأخيرة كانت بين المسيح عليه السلام ومحمد صلى الله عليه و آله: «لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ...»- «لتنذر قوماً ما أنذر آباءهم فهم غافلون».

ولئن سأل سائل هل كان النبيون قبل نوح- وهم أصحاب كُتب- كانوا من أولى العزم؟ وهم خمسة! أم لا؟ فكيف كانت لهم شرائع مستقلة مهما كانت لواحد منهم كإدريس! قلنا: النبوة مهما استلزمت كتاب الوحي ولكنها كتاب أكمل من كتاب الرسالة وهما مشتركان في عدم حمل شرعة سوى تدل العقل والفطرة، أم أن العزم بكامله ليس إلَّا في الخمسة.

وقد تعني «كان» فيما عنت كوناً منسلخاً عن الزمان، ناظراً- فقط- إلى كيان الإسنان، أنه «أمة واحدة» في الضلال- وعلى طول خط الحياة بخطوطها وخيوطها- ما لم يهتد بوحي النبوات الربانية، فلا تكفيه الفطرة والعقلية الإنسانية لإخراجه عن متاهة الضلالة وتيه الغواية، كيف ولم يخرج عنها تماماً على ضوء الدعوات الرسالية، ففريق لم يؤمنوا، وفريق تفرقوا وأختلفوا في نفس الشرعة التي هي عامل الوحدة.

ثم الإختلاف اثنان، اختلاف قبل النبوات هو طبيعة الحال القاصرة، فطرةٌ بعصمتها الإجمالية، وعقلية خاطئة غير معصومة، واختلافٌ بعد النبوات بين حملة الشرائع بعد النبيين، وبين المحمول إليهم من جراء خلافاتهم في كل شرعة شرعة.

هذا، كما و «ما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا» «1» قد تنظر إلى الإختلاف الثاني وهو في الدين، بعد الإختلاف الأول الذي اقتضى بعث النبيين.

كما وآيتنا تصريح بهذين الإختلافين فالأول هو المستفاد من: «ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه» اختلافاً على وحدتهم في أمة الضلالة، فالهدف الاقصى والاسمى من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 10: 19

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 121

«بعث اللَّه النبيين» هو الحكم بين الناس المختلفين في أهوائهم ورغباتهم، والثاني يستفاد من: «وما اختلف فيه»- أي في كتاب النبوة- «إلا الذين أوتوه» علماءَ وجهالًا، حيث تذرعوا بعامل الوحدة لبثِّ الإختلاف فيما هو الداعي إلى الوحدة، كما اختلفوا في القرآن في أبعاد أخراها الرجوع إليه كأصل ورأس للزاوية.

فهناك قبل إنزال الكتاب، أم قبل النظر المهتدي إلى الكتاب، إختلاف أوَّل هو طبيعة الحال، قضية مختلف الأهواءِ والرغبات من ناحية، وقصور الفِطَر والعقول من أخرى.

ثم هنا اختلاف ثان هو في الكتاب، إختلافاً في تصديقه، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، واختلافا آخر بعد تصديقه، تثاقلًا عليه دون انتقال إلى الشرعة التالية، كاليهود المتثاقلين على شرعتهم تكذيباً للمسيح، والمسيحيين المتثاقلين على شرعتهم تكذيباً للقرآن، أم اختلافاً في الكتاب في حقله نفسه، إرجاعاً إليه كأصل، أم تركاً له إلى روايات وأقاويل لا أصل لها، ثم اختلافاً في الإرجاع، تحميلًا عليه آراء زينوها وراء الكتاب، أم رجوعاً إليه كما هو، تفسيراً بنفسه.

«وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه بغياً بينهم» فالذين أوتوه هنا- بطيعة الحال- هم علماء الكتاب، لا الموحى إليهم إذ لا اختلاف بينهم ولا بغي، ولا الناس الجهال حيث لا يؤتوا إلا تكليفاً به ببيان علماء الكتاب.

فقد حملهم البغي بينهم على الإختلاف فيه، بين تكذيب واختلاف وإرجاع إلى غيره، ثالوث يجمعه إهمال الكتاب عن أصالته في حقل الشرعة الإلهية.

والإختلاف في الكتاب: الشرعة- أصلًا وفرعاً- قد يكون بغياً وتقصيراً، وهو المندد به هنا وفي سواه، وأخرى قصوراً، ثم القصور قد يكون من مخلَّفات التقصير من القاصرين أو الذين سبقوهم، أم هو قصور مطلق مطبق، ولا يُعذر إلا الآخرون، ولو روعي الكتاب كأصل في كل فرع وأصل، ولا سيما بتشاور في تفهمه، قلت الخلافات في الكتاب.

وإنما تنشأ الإختلاف الكثيرة في الكتاب من عدم الرجوع إلى الكتاب كما هو حقه،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 122

وعدم التأمل فيه حقه، ومن هنا تُقبل الفتن على أهل الكتاب ثم لا تزول إلا بالرجوع إلى الكتاب حقه وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله: «فإذا أقبلت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه حبل اللَّه المتين وسببه الأمين لا يعوج فيقام ولا يزيغ فيستعتب من جعله خلفه ساقه إلى النار ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ...».

والهدى الإلهية للذين آمنوا لما اختلفوا- الذين أوتوه بغياً بينهم- ليست إلا على ضوء الإيمان بالكتاب، والرجوع إليه كرأس الزاوية في شرعة اللَّه، والعمل به وتطبيقه، فهنا يأتيه الهدى الفرقان: «إن تتقوا اللَّه يعل لكم فرقاناً ..».

وقد أمر اللَّه بالوحدة على ضوء كتاب الشرعة وندد بالمختلفين: «وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد» «1» «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم‏ البينات» «2» «وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين الذين اختلفوا فيه» «3» «إن هذا القرآن‏ يقص على بني إسرائيل أكثر الذى هم فيه مختلفون» «4».

ولقد أخذ حملة القرآن الذين حُمّلوه يختلفون فيه لحد أخذوا يبحثون عن تحريفه وصيانته، وعن حجية ظاهرة أم عدمها، وعن الإفتاء بنصه أو ظاهره إذا خالف شهرة أو إجماعاً أو روايات، وإلى أن ألغوه عن بكرته سناداً إلى أنه لا يفهم منه مراده، أم خوفةً من الإنزلاف في تفسيره بالرأي، وما أشبه ذلك من عوامل إبعاده عن حوزاته، وإقلاعه عن روضاته، وهنا يتجلى شكاة الرسول‏ «وقال الرسول يا رب أن قومي أتخذوا هذا القرآن مهجوراً».

وفي خضم الخلافات في كتاب الشرعة، بادئة من حملتها ومنتهية إلى سائر المكلفين‏ «فهدى اللَّه الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق» كما وعد اللَّه‏ «إن تتقوا اللَّه يجعل لكم فرقاناً» فالإيمان الصالح غير الدخيل ولا المصلحي التجاري، إنه أساس الفرقان عند اختلاف الناس في كتاب الهدى، حملةً ومحمولًا إليهم‏ «واللَّه يهدي من يشاء إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 176

(2). 3: 105

(3). 16: 64

(4). 27: 76

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 123

صراط مستقيم»: من يشاءه اللَّه وهو من يشاء هدىً بعد هدى في الفتن الدينية العارمة التي تجعل من العلماء جهالًا فضلًا عن الجهال إلَّا من هدى اللَّه بهداه الصالحة المعبر عنها هنا ب «الذين آمنوا»، فلا يخلو أي مكلف في أي عصر أو مصر عن هدىً ربانية في مثلثها، فطرية وعقلية، وعلى ضوئهما هدىً شرعية، مهما كانت شِرعة أولي العزيم، أمَّا دونها كما كانت بين آدم ونوح عليهما السلام.

ففي زمن الفترة الرسولية لا تجد فترة رسالية، حيث الشريعة السابقة محكمة فيها مهما صعب الوصول إليها والحصول عليها، فإن «أفضل» الأعمال أحمزها».

وقد تعني «كان الناس أمة واحدة» فيما عنت أنهم كانوا ضلالًا لردح من الزمن، وقد يكون بين آدم وإدريس عليهما السلام فإن إدريس أول النبيين وما كان آدم إلا رسولًا، ومن ثم نوح ومن بعده من أولى العزم وسائر النبيين‏ «1»، حيث النبوة هي الرفعة فهم- إذاً- أولوا الرفعة والمنزلة بين المرسلين، ومن ميزاتهم أن لهم كتاباً: «وأنزل معهم الكتاب بالحق ...».

ولقد بزغت النبوة القوية بولاية العزم من نوح عليه السلام كما دلت عليه آيات، فهم حملة الشرائع المستقلة، فلم يكن أحد من النبيين سواهم- فضلًا عن المرسلين- أصحاب شرائع مستقلة، وقد شرحنا في سورة نوح‏ «2» وجهة الشرعة الإلهية قبل نوح عليه السلام.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 208 في تفسير العياشي عن مسعدة عن أبي عبد اللَّه عليه السلام في الآية فقال كان‏ذلك قبل نوح، قيل: فعلى هدىً كانوا؟ قال: لا كانوا ضلالًا وذلك بأنه لما انقرض آدم عليه السلام وصالح ذريته بقي شيث وصيه لا يقدر على إظهار دين اللَّه الذي كان عليه آدم وصالح ذريته وذلك أن قابيل توعده بالقتل كما قتل أخاه هابيل فسار فيهم بالتقية والكتمان فأزدادوا كل يوم ضلالًا حتى لم يبق على الأرض معهم إلا من هو سلف ولحق الوصي بجزيرة في البحر يعبد اللَّه فبدا اللَّه تبارك وتعالى أن يبعث الرسل ولو سئل هؤلاء الجهال لقالوا قد فرغ من الأمر فكذبوا إنما هو شيى‏ء يحكم به اللَّه في كل عام ... قلت افضلال كانوا قبل النبيين أم على هدى؟ قال: لم يكونوا على هدى كانوا على الفطرة التي فطرهم عليها لا تبديل لخلق اللَّه ولم يكونوا ليهتدوا حتى يهديهم اللَّه أما تسمع يقول إبراهيم: «لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين» أي ناسياً للميثاق‏

(2). ج 29 الفرقان 5: 114 حيث تحدثنا فهيا حول أولى الشرائع الإلهية المستقلة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 124

وقد تشبه هذه الأمة الواحدة قبل نوح، الأمة الواحدة قبل محمد صلى الله عليه و آله زمن الفترة بينه وبين المسيح (ع)، مهما اختلفت فترة عن فترة وضُلال عن ضُلال.

ولقد كانت النبوات المصحوبة بكتابات الوحي، ولا سيما لأولي العزم، هي محاور الدعوات الربانية، والنبيون هم أقل من المرسلين بكثير، فكل نبي لا بد وهو رسول وليس كل رسول نبياً.

ذلك، ولقد بحثنا في طيات الفرقان حول الرسالات والنبوات وتحليقها على كل الأمم على ضوء آياتها فلا نعيد.

«... فهدى اللَّه الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق» ومنهم الامة المهتدية الإسلامية حيث هداهم اللَّه لما اختلفوا- هؤلاء الكتابيون- من الحق، إذ أوتوا القرآن المهمين على كل سبق، وكما يروى عن حامل لواء الحق: «نحن الأولون والآخرون، الأولون يوم القيامة وأول الناس دخولًا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا اللَّه لما اختلفوا فيه من الحق فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا اللَّه فالناس لنا فيه تبع فغدٌ لليهود وبعد غدٍ للنصارى» «1» فالذين آمنوا ملحدين أو مشركين أم هوداً أو نصارى، آمنوا بشرعة الإسلام المتمثلة في القرآن، فهم المهديون لما اختلفوا من الحق بإذنه، حيث القرآن هو ميزان الحق.

وأما الذين كفروا من أهل الكتاب وسواهم فظلوا فيما ضلوا مرتكسين، لم يكن اللَّه ليهديهم إذ لم يؤمنوا بالهدى تهديهم، مهما ساد الفرق بين العلماء المقصرين والأميين القاصرين، ولكنه فرق في العذاب واللا عذاب، دون أن يُهدى القاصرون، ثم فرقة ثالثة هم عوان بين ذلك، إذ قلدوا علمائهم وهم يعلمون أنهم خائنون.

«واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»: يهدي من يشاء الهدى فيشاء اللَّه هداه، وجهان موجهان حيث المفعول مقدر يتحملهما دون اختصاص.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 1: 242- أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي‏هريرة في الآية قال قال النبي صلى الله عليه و آله: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 125

فالهدى الربانية في خضم الخلافات العارمة الضالة المضللة، إنها فرقان من اللَّه ووعدها المؤمنون المقتون: «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا اللَّه يجعل لكم فرقاناً» «1».

فهنالك فرقان على ضوء الإيمان بالقرآن فإنه فرقان بين كل حق وباطل، وثم هنا فرقان على ضوء التقى بعد الإيمان، فإنها فرقان بين مختلف المذاهب الإسلامية، وفرقان بين كل المسالك الإيمانية.

فالتقى والإيمان الصالح هما جناحان يطير بهما المؤمن التقي إلى آفاق الفرقان، كلما ازدادا ازداد وكلما نقصا نقص‏ «واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

إن كتابات السماء- سوى القرآن- صرفت عن جهات أشراعها، وهيمنة القرآن عليها يبين الغث عن السمين والخائن عن الامين.

وكتاب الوحي في كل أمة هو المحور الأصيل يقاس عليه كل ما سواه فيُعرف الأصيل عن الدخيل، فلم ينزل كتاب الوحي ليمحو فوارق الإستعدادات والمواهب والطرائق والوسائل، إنما جاء ليحتكم الناس إليه فيما هم فيه مختلفون.

فالإسلام يضع القرآن ليحكم بين الناس- كل الناس- فيما اختلفوا فيه قضية اختلاف الرغبات، ثم يحكم بين من أوتوا الكتاب فاختلفوا فيه أم اختلفوا عنه، ليحكم بينهم، فهو قاعدة البشرية جمعاء، فما قامت البشرية على القرآن فوحدة على الحق، وما أن خرجت عنها وقامت على قواعد أخرى فهذا هو الباطل على قدر انحرافه عن حق القرآن وانجرافه في البطلان، ولو ارتضاه الناس جميعاً في فترة من فترات التاريخ السوداء، فليس الناس هم أنفسهم الحكم في الحق والباطل، إنما هو إله الناس فيما ينزل على رسله إلى الناس، وسائر حملة الدين الحنيف تبييناً للقرآن وما وافق القرآن من السنة، دونما أي تدخل للآراء الفاضية عن برهان الحق وحق البرهان.

ومن أعضل الداء بين جماعة ممن أوتوا الكتاب أن يختلفوا فيه من بعد ما جاءهم البينات بغياً بينهم، فهم في الحق ليسوا بمؤمنين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 8: 29

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 126

الطاعة المطلقة خاصة باللَّه وبرسول اللَّه‏

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ‏ا 20 وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَايَسْمَعُونَ» «1»

«أطيعوا اللَّه» فيما يأمركم وينهاكم «ورسوله» فيما يحمل إليكم من طاعة اللَّه «ولا تولوا عنه»: عن اللَّه أصالة وعن رسوله رسالة، فإفراد الضمير قاصد إلى تلك الأصالة أن ليست طاعة الرسول مستقلة أو مشتغلَة عن طاعة اللَّه، «وأنتم تسمعون» أنباء ما قد سلف من المتولين عن اللَّه ورسوله، والمطيعين اللَّه ورسوله، و «تسمعون» أوامر اللَّه تترى في كتابه وعلى لسان رسوله.

«ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا» كالمنافين «وهم لا يسمعون» عقيدياً وعملياً، فإنما يسمعون سمع النفاق دون وفاق، وكالكفار المستهزئين بما يسمعون: «وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا» «2» فهم‏ «لهم آذان لا يسمعون بها» «3» كافرين أو منافقين‏ «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير» «4» أم ومؤمنين متخلفين قدر ما هم يشابهونهما في عدم سمعهم لما يسمعون.

فقد تعني «وهم لا يسمعون» جمعاً من المكيين الذين آمنوا أوّل مرة ثم أخرجوا مع المشركين إلى بدر إلتحاقاً إلى الرسول صلى الله عليه و آله أم نَظِرة الإلتحاق بالفرقة الغالبة، فلما رأوا قلة المسلمين قال نفر منهم «غر هؤلاء دينهم ..» وأما الذين خرجوا إلى بدر مع الرسول صلى الله عليه و آله فهم خُلَّص ذو خلَّطٍ مهما كانوا درجات.

وحين تكون طاعة الرسول كطاعة اللَّه مفروضة طليقة والتولي عنه كالتولي عن اللَّه مرفوض طليق فما هو الجواب عن «حيلولة عمر بينه صلى الله عليه و آله وبين كتابةصيته صلى الله عليه و آله في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 11: 21

(2). 8: 31

(3). 7: 179

(4). 67: 10

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 127

مرض وفاته»؟ «1» والوصية حق لكل مسلم فضلًا عن النبي الذي يعني في وصيته تحويل هامة الأمور الرسالية إلى من يرضاه اللَّه! و «لقد لُدَّ في مرضه وهو غير راض». «2»

«إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ». «3»

إن الشرَّ المعني هنا ليس إلّا في حقل التكليف الإنساني ومن أشبه، فالتعبير هنا ب «الدواب» دون «الناس» أو «الجنة والناس» تنديد بهؤلاء النسناس الذين هم في الحق دوابٍّ بل هم أضل: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون با أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون». «4»

ف «الدواب» هنا مطلقة تشمل خيرها وشرها، من حيوانها وإنسانها وغيرهما، والشر الطليق بينها «الصم البكم الذين لا يعقلون» شراً بين خير من الدواب أو شراً بقصور أم تقصير.

فطالما البهائم لها آذان ولكنها ليست لتسمع سمع الإنسان، وهي مهتدية بفطرتها كما فطر اللَّه، ولكن هؤلاء الدواب الناس النسناس لهم آذان وألسنة وهم بسوء صنيعهم لايسمعون إنسانياً ولا ينطقون، فقد قطعوا عن أنفسهم النحيسة الإنسانية النفسية، نحيسة بئيسة تعيسة جعلتهم «شر الدواب» بصورة طليقة! حيث سدوا منافذ الإدراك ظاهراً على آذانهم، واذاعتها على ألسنتهم، وباطناً على قلوبهم، وأهم الواردات المعرفية هي الواردة من الاسماع: «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير». «5»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة نقلًا عن بخ- ك 3 ب 39 قاك 58 ب 6، ك 64 ب 83 ك 75 ب 17 ك 96 ب 26 مس- ك 25 ب 22 قد- ج 2 ق 2 ص 36 و 324 و 336 قا حم- أوّل ص 232 و 293 و 324 و 336 قا 355 ثالث ص 346

(2). المصدر- ك 76 ب 21 مس- ك 39 ح 85 و 86 عد- ج 2 ق 2 ص 31 حم- أول ص 209 سادس ص 53 و 118 و 438 هش- ص 1007

(3). 11: 22

(4). 7: 179

(5). 67: 10

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 128

وشر الدواب هؤلاء الأنكاد لهم «الصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان ..

وذلك ميِّت الأحياء» «1»- أولئك «لم يستضيئوا بأضواء الحكمة، ولم يقدحوا بزناد العلوم الثاقبة، فهم في ذلك كالأنعام السائمة، والصخور القاسية» «2»- «منهوماً باللذة، سَلِس القيادة للشهوة، أو مغرماً بالجمع والإدخار، ليس من رعاة الدين في شي‏ءٍ، أقرب شي‏ءٍ شبهاً بالأنعام السائمة». «3»

إن اللَّه تعالى لم يخلق دابة شريرة في أصلها، فلم يخلق الشيطان شيطاناً وإنما جناً كسائر الجان، ثم هو الذي شيطن نفسه بسوء صنيعه، كما لم يخلق الكافر كافراً، وكذلك سائر الدواب الشريرة، اللّهم إلّا شراً قاصراً هو قضية كون الكائن مخلوقاً إذ لا يمكن أن يُخلق ما هو خير مطلق كما اللَّه.

ذلك، فالدواب الشريرة في حقل «شر الدواب الصم ..» هي المقصرة في شرها فأين تقصير سائر الدواب وتقصير الصم البكم، فقضية خلق الإنسان في أحسن تقويم والشرعة التي تقومه أكثر صاعداً في المعارج، ألا يعمل شراً أم يعمل أقل من سائر الدواب، فأما إذا يعاكس الإنسان أمره إرتداداً إلى أسفل سافلين فهو «شر الدواب» بصورة طليقة وكما يقول اللَّه عنه «فحملها الإنسان انه كان ظلوماً جهولًا» مهما كان حمل الأمانة خيانة من سائر الكائنات كثيرة، فهو بجنب حمل الإنسان ضئيل قليل. وتعبير عن الصم البكم بالدواب تعبير لهم بارتجاعهم إلى كيان الدواب الشريرة أضل سبيلًا، فلا يحق لهم إسم الإنسان أو الناس بل هم الدواب النسناس.

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ». «4»

هنا «لو» تحيل أن يعلم اللَّه فيهم خيراً إذ لا خير فيهم حتى يُعلم، فهنا مساوات بين علم اللَّه شيئاً وواقعه، وبين عدمه وعدم واقعه لأنه بكل شي‏ءٍ محيط.

فحين لا سمع لهم وهم صمٌّ بسوء فِعالهم وإختيارهم، فلا يحق إسماعهم الحق الذي هم عنه معرضون، إذاً- والحال هذه- «ولو أسمعهم» اسمع قلوبهم وشرحها لما تسمعه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 85/ 155

(2). 106 و 40

(3). 147 ح/ 595

(4). 11: 23

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 129

آذانهم «لتولوا» عما أسمعو «وهم معرضون» عن الحق المُرام. ف «إذا أراد اللَّه بقوم خيراً أسمعهم ولو أسمع من لم يَسمع لولَّى كأن لم يسمع ..». «1»

فليس «ولو أسمعهم» وارداً مورد سمع القبول، وإلّا لاستحال التولي والإعراض، إنما هو مورد سمع التمُّنع لهؤلاء الدواب الصُّم البكم الذين لا يعقلون.

وقد قيل إنهم سألوا الرسول صلى الله عليه و آله أن يحيي لهم قصي بن كلاب وغيره من موتاهم ليخبروهم بصحة نبوته، ولكنه تعالى علم منهم أنهم لا يقولون قولهم هذا إلا تعنتاً وعناداً، فحتى لو أسمعهم كلام موتاهم تصديقاً لهذه الرسالة «لتولوا وهم معرضون».

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ». «2»

«. استجيبوا للَّه‏وللرسول» «ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون»، «إذا دعاكم لما يحييكم» وكيف «لما» دون «إلى ما»؟ علَّه كما الصراط المستقيم حيث يُهداه أو يهدى له أو يهدي إليه، مثلث متدرجة الزوايا في حقل الهدى.

فهنا «لما يحييكم» لمحة إلى لزام الحياة لما يدعوكم بكل وصل: أصل دون أي فصل فاصل.

والحياة الموعودة هنا بالدعوة ليست- بطبيعة الحال- هي الحياة الحاصلة قبل الدعوة والإستجابة، كالحياة الحيوانية والإنسانية الفطرية والعقلية أماهيه من حياة معطاة قبل أي دعاء واستجابة.

ثم وليست هي حياة طليق الإيمان أيضاً حيث المخاطَبون هم المؤمنون، إذاً فهي فوق أصل الإيمان بدرجاته المتكاملة على ضوء الإستجابة في مختلف حقول الدعوة الربانية، كالحياة الحاصلة بالجهاد في سبيل اللَّه وهي‏ «إحدى الحسنيين» «3» قاتلًا ومقتولًا ف: «لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 141 في أصول الكافي بسند متصل عن سلمة بن محزر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن من علم ما أوتينا تفسير القرآن وأحكامه وعلم تغيير الزمان وحدثانه، إذا أراد اللَّه ... ثم أمسك هنيئةَ ثم قال: ولو وجدنا أوعية أو مستراحاً لقلنا واللَّه المستعان‏

(2). 11: 24

(3). 9: 52

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 130

تحسبن الذين قتلوا في سبيل اللَّه أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» «1» وهذه حياة متميزة عن سائر الحياة لأهل البرزخ.

هذا، ولكن لا تختص الحياة الموعودة بحياة الشهداء، كما لا تختص الدعوة لما يحييكم بالجهاد، بل هي الدعوة العامة القرآنية بكل حقولها.

ذلك والأحياء بهذه الحياة: «أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه» «2»- «أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الظلمات» «3»- «من عمل‏ صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»: «4» أطوار من الحياة بعد حياة الإيمان: تثبيتاً للإيمان ومزيداً له وتأييداً بروح منه وسائر الحياة الطيبة علماً ومعرفة وإيماناً، ف «الذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم». «5»

وبصيغة واحدة المجاهدة في سبيل اللَّه هي التي تحييكم: «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون باللَّه ورسوله وتجاهدون في سبيل اللَّه بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون». «6»

إذاً ف «استجيبوا .. إذا دعاكم لما يحييكم» و «إذاً» هذه مستمرة على مدار الدعوات الربانية بالقرآن والسنة، فانها تحييكم مهما اختلفت درجات إحياءها حسب درجات أحياءها وموادها، وقد شهد بحق هذه الحياة الرسولية والرسالية المحمدية من غير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 169

(2). 58: 22

(3). 6: 122

(4). 16: 97

(5). 47: 17

(6). 61: 11

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 131

المسلمين كثير. «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يقول الشاعر الفرنسي «لامارتين» 1790- 1869 وهو من مشاهير الشعراء الفرنسيين وزعيم الحركة الرومنطيقية- يقول بحق هذا النبي العظيم:

«إن حياةً مثل حياة محمد وقوة كقوة تأمله وتفكره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وشدة بأسه في لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان، وإيمانه بالظفر، وإعلاء كلمته، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية، إن كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعاً أو يعيش على باطل-

فهو فيلسوف، خطيب، ورسول، ومشرع، وهادي الإنسان، إلى العقل، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب، ومؤسس دين لا فرية فيه، ولا صور، ولا رقيات، ومنشى‏ء عشرين دولة في الأرض، وفاتح دولة روحية في السماء وتمتلى‏ء بها الأفئدة- فأي رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثل ما أدرك، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ» (أخرجه المهندس زكريا هاشم زكريا في: المستشرقون والإسلام ص 272- أنظر كتاب أحمد السيد (محمد نبي الإنسانية) دار الشروق ص 76).

ويقول ويل ديورانت- المؤلف الأمريكي، صاحب قصة الحضارة-: وإذا حكمنا للعظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به دياجير الهمجية حرارة الجو وجدْب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الفرض نجاحاً لم يدانيه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به، واستطاع في جيل واحد ان ينشى‏ء دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم. (قصة الحضارة- ترجمة محمد بدران- الجزء الثاني المجلد الرابع ص 6).

وفي دائرة المعارف البريطانية تحت مادة «محمد»: محمد بن عبداللَّه مؤسس الدين الإسلامي- ولد في مكة عام 570 ميلادية ومات عام 632، وقليلون هم الرجال الذين أحدثوا في البشرية الأثر العميق الدائم الذي أحدثه محمد، لقد أحدث أثراً دينياً عميقاً لا يزال منذ دعا إليه حتى الآن هو الإيمان الحي، والشريعة المتبعة لأكبر من سُبع سكان العالم. على أن أثره التاريخي يبدو بالأكثر عندما نذكر أنه في أقل من عشرين سنة منذ بدأ دعوته قوّض دعائم إمبراطوريتين عقيدتين وهما الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية، مؤسساً على أنقاضها حضارة جديدة-

ولقد أرسى منذ جاء بدعوته- التي هي عقيدة وشريعة- قواعد بناء المجتمع الإجتماعية والسياسية، وقد أعقب موته أن سجل خلفاءه الأحاديث التي رويت عنه، وأدق التصرفات والأفعال التي قام بها، فاتخذ المؤمنون من هذه الأحاديث نبراساً ومثلًا أعلى يحتذونه في حياتهم اليومية جيلًا بعد جيل (أحمد السيد: محمد نبي الإنسانية- دار الشروق ص 72).

وجاء في كتاب (مختصر تاريخ الإنسانية) لمؤلفه ه. ج. ويلز: كان يمكن لأي‏متنبى‏ءٍ تاريخي يستعرض حياة بشر في مستهل القرن السابع الميلادي، أن يتوقع بحق أنه لن تمضي بضعة قرون حتى تقع كل أوروبا وآسيا تحت سيادة المغول والتتار، فلم يكن في أوروبا الغربية أي إشارة تدل على إمكان قيام النظام فضلًا عن الوحدة، والامبراطوريتان البيزنطية والفارسية كانتا في طريقهما نحو الإنحلال والدمار-

ولكن هذا المتنبي كان سيخطى‏ء في تقديره، فقد اشتعلت دنيا الصحراء والبدو بمائة عام من المجد عندما بسط العرب سلطانهم ومدوا حكمهم ولغتهم من اسبانيا إلى حدود الصين، مقدمين للعالم ثقافة جديدة، ومنشئين ديناً لا يزال حتى اليوم أحد القوى الحيوية في العالم-

وكان محمد بن عبداللَّه هو الذي أشعل الجزيرة العربية ودفعها لتحقيق ذلك كله، والذي ظل حتى سن الأربعين لا يميز نفسه بشي‏ءٍ غير عادي عن بقية معاصريه، (أخرجه أحمد السيد في: محمد نبي الإنسانية، المصدر نفسه ص 73)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 132

ثم «واعلموا أن اللَّه يحول بين المرء وقلبه» حيلولة صالحة لمن يستحقها بتلك الإستجابة الإيمانية، وطالحة جزاءً وفاقاً للذين زاغوا فأزاع اللَّه قلوبهم وعلى حد المروي عن الرسول صلى الله عليه و آله: «يحول بين المؤمن والكفر ويحول بين الكافر والمهدى» «1» فلو أن قلب المؤمن حاول التقلب إلى الردى حال بينه وبينها، ويعاكس أمر الكافر إلى الردى.

ذلك، ومما يحييكم، الداخل في دعوة اللَّه والرسول، ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام كما يروى. «2»

وعلى أية حال: «ولقد خلقنا الإنسان ونحن نعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» «3» فاللَّه أقرب إلى قلوبنا منا إليها:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يار نزديكتر از من به من است‏ |  | وين عجب‏تر كه من أز وى دورم‏ |

ذلك، ف «كلٌّ ميسَّر .. صاحب النار ميسَّر لعمل النار وصاحب الجنة ميسر لعمل الجنة»: «1» إذ «كلًا نُمدَّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً». «2»

أجل، كلٌّ ميسر وليس مسيَّراً، وليست الحيلولة الربانية بين المرء وقلبه مؤمناً أو كافراً، إلا بما يختاره صاحبه تيسراً لما يهواه، دون ما يختاره اللَّه له أو عليه تسييراً خلاف هواه «وما ربك بظلام للعبيد».

فالحيلولة الربانية بين المرء وقلبه تحلق على كل مرءٍ بقلبه، ولأن القلوب هي أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة الحواس والحواس أئمة الأعضاء، فلا تفويض لعباد اللَّه في أفعالهم كما لا جبر، وللَّه تعالى الدور الأصيل في تحويل القلوب عدلًا وفضلًا، حيلولة بين إمام الأئمة والمأمومين في مخمس الكيان الإنساني في هذا الحقل.

وليس «اللَّه يحول» يعني انه بذاته يحول بين المرء وقلبه، فإنما هي علمه ومشيئته الحائلة بينهما، فصلًا بين المرء وبين قلبه، فانه فصل بين قلبه كإمام الأئمة وبين المأمومين العقول والأفكار والحواس والأعضاء.

فحين يحنُّ المؤمن خلاف هواه إلى شرِّ أو يحن إلى ترك خير ف «اللَّه يحول بين المرء وقلبه» تقليباً له إلى خير أم ترك شر، ويعاكسه الكافر، قضيةَ الجزاء العدل.

فرغم أن القلوب أئمة العقول والعقول أئمة الأفكار والأفكاء أئمة الحواس والحواس أومة الأعضاء، «3» رغم ذلك للَّه‏المشية الحكيمة بين القلوب وسائر الخمسة تدبيراً صالحاً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج أبو الشيخ عن أبي غالب قال سألت ابن عباس عن هذه الآية قال: قد سبقت بها عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذ وصف لهم عن القضاء فقال لعمرو غيره ممن سأله من أصحابه: اعمل فكل ميسر .. قال: وما ذلك التيسر؟ قال صلى الله عليه و آله صاحب النار ... وفي نور الثقلين 2: 141 عن تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام في الآية يقول: بين المؤمن ومعصيته أن تقوده إلى النار وبين الكافر وبين طاعته أن يستكمل بها الإيمان واعلموا أن الأعمال بخواتيها، وفيه عن كتاب التوحيد عن أبي عبداللَّه عليه السلام في الآية قال: يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق، وفي رواية أخرى عنه عليه السلام: لا يستيقن القلب أن الحق باطل أبداً ولا يستيقن القلب أن الباطل حق أبداً

(2). 17: 20

(3). وبنقل آخر في مستدرك نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «العقول أئِمةالأفكار والأفكار أئمة القلوب والقلوب أئمة الحواس والحواس أئمة الاعضاء» (مستدرك 176) ولكن الآية تؤيد ما ننقله في المتن كراراً، حيث المحاور الأصيلة هي القلوب، وحصائل العقول والأفكار والصدور لما تدخل في القلوب تغربَل وتخلص.

وقد يوجه الوجهان توافقاً بينهما في وجهين، ان للعقول قوساً صعودياً وآخر نزولياً، فالصعودي إنها أسس الأفكار ثم الأفكار أسس القلوب آمرة للحواس ثم الحواس آمرة للأعضاء.

والقوس النزولي ان القلوب تأمر العقول والعقول تأمر الأفكار والأفكار تأمر الحواس والحواس تأمر الأعضاء، فالآمرية الأخيرة إذاً هي للحواس حيث تأمر الأعضاء، ثم بداية الصعود من العقول، ثم نزول الأمر من القلوب إلى العقول إلى الأفكار. تأمل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 134

على ضوء ما يقدمه المرء من معدَّات وما يعنيه في أصل التصميم الصميم خيراً أو شراً، وصالح الحيلولة الآلهية هو حيلولة العلم فإنه أقرب إلينا منا، وحيلولة القيومية، فإنه أقوم لنا منا، وحيلولة الإرادة إيجابياً أو سلبياً في صالحنا وطالحنا كما هو قضية العدل أو الفضل، توحيداً لربوبية التأثير، وحين يحول اللَّه بين المرء وقلبه، فبأحرى له أن يحول بين المرء وكل قواته ومراداته، بين بصره ومبصره، بين سمعه ومسموعه، بين ذوقه ومذوقه، بين حسه ومحسوسه، وبين كل كيانه وما يهواه، وحيلولته بين المرء وقلبه هي حيلولة بينه وبين كل كيانه، وهو القائل «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» منه إلى نفسه وحياته ككل، وهذه الحيلولة الشاملة هي من قضايا ملكه الطليق للكائنات كلها.

وليس يكفي للمرء أن يعقل صحيحاً، فكثير هؤلاء الذين يعقلون ثم لا تطمئن قلوبهم بما عقلوه لأن قلوبهم مقلوبة مطموسة مركوسة فلا تستجيب.

ذلك، ويوجه آخر تعني هذه الحيلولة أن اللَّه لا يغيب عن أي قلب مهما تناكر وتجاهل، فقد يغيب عن القلب أي حاضر أو غائب ولا يغيب اللَّه عنه قضية الفطرة المجبولة على معرفة اللَّه، فلا عاذرة في عدم استجابة اللَّه «إذا دعاكم لما يحييكم».

فقد تعرفه القلوب، ويعرف هو القلوب وما في القلوب، وهو يقلبها كيف يشاء، فهو المرجع والملجأ في تقلب القلوب فالعقول فالأفكار فالحواس فالأعضاء «لا إله إلَّا هو

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 135

فأنى تؤفكون».

وهذا المقطع القاطع من آية الإستجابة هذه يحلِّق على جذور المعارف الربانية، قاطعاً أعذار المتجاهلين المتكاسلين دعوة اللَّه، قالعاً غِرة النفاق، وغرور الإيمان الوفاق، أن المؤمن- أياً كان- ليس ليستقل في إيمانه فتزول به نكبة الغُرور نكسة للغَرور، وهو عبارة أخرى عن «قل اللَّه ثم ذرهم في خوضهم يلعبون».

ذلك، ومن حيلولته تعالى بين المرء وقلبه قربه إليه أقرب من نفسه إلى نفسه، ف «نحن أقرب إليه من حبل الوريد». «1»

ومنها ما ينسيه ما ذكره أو يذكره ما نسيه، فإن القلب بين أصبعي الرحمان، ومنها أن يزيل عنه عقله وتمييزه، حيلولة لإزالته، أم لتخفيفه، أم ولتثبته، فلا فاعلية للقلب ولا عطلة إلا بإرادته تعالى حسب القابليات والفاعليات، وهكذا يحول بين قلب الكافر وبينه تمجيداً لصميم قصده السي‏ء الخطر، كما يحول بين قلب المؤمن وبين نفسه تأييداً له في فعل الخير وترك الشر تكويناً، كما ويحول تشريعاً بالأمر والنهي حيث الإيمان قيد الفتك.

وتلك الحيلولة المؤمنة تعني إمحاء ما يناحر الإيمان أو يُضعفه وكما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله تفسيراً لآية المحو والإثبات: «يمحو الكفر ويثبت الإيمان، ويمحو النكرة ويثبت المعرفة، ويمحو الغفلة ويثبت الذكر، ويمحو البغض ويثبت المحبة، ويمحو الضعف ويثبت القوة، ويمحو الجهل ويثبت العلم، ويمحو الشك ويثبت اليقين، ويمحو الهوى ويثبت العقل على هذا النسق ودليله «كل يوم هو في شأن» محواً وإثباتاً». «2»

حيلولات ربانية تناسب ساحة قدسه تعالى قضية وحدانيته الوحيدة غير الوهيدة فيما يحصل من خلقه أم لا يحصل.

ولعمر إلهي الحق إنها صورة رهيبة يتمثلها القلب بين أصبعي الرحمان- رحمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 50: 16

(2). مجلة العرفان العدد الثالث المجلد 61 ص 395 عنه عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 136

وغضباً- يقلبه كيف يشاء حسب المساعي صالحة وطالحة لأصحاب القلوب .. صورة تستوجب اليقظة الدائمة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته، تحذراً من كل هاجسة فيه واجسة، تعلقاً دائماً باللَّه، واستجابة له ولرسوله مخافة تقلبه في سهوة أو غفلة أو دفعة، ففراراً إليه مما سواه.

ولقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على محتده القمة عن اللَّه يكرِّر دعاءه: «اللّهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فكيف بنا ونحن نحن المجاهيل الضعفاء الفالتون.

ف «اللّهم داحيَ المدحوات وداعم المسموكات، وجأئل القلوب على خطريها: شقيها وسعيدها «1» ثبت قلوبنا على دينك.

فقلوب المؤمنين المطمئنين باللَّه تتقلب إلى الرشد والنور، وقلوب مَن سواهم تتقلب إلى النار «قاسية عن حظها، لاهية عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعني سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها» «2» «فالصورة صورة إنسان، والقلب قلب حيوان ..

وذلك ميت الأحياء» (85)-

ف «أين القلوب التي وُهبت للَّه، وعوقدت على طاعة اللَّه» (142)-

«فلو شعلَت قلبك أيها المستمع بالوصول إلى ما يهجم عليك من تلك المناظر المونَقة، لزهِقت نفسك شوقاً إليها، ولتحملتَ من مجلسي هذا إلى مجاورة أهل القبور استعجالًا بها، جعلنا اللَّه وإياكم ممن يسعى بقلبه إلى منازل الأبرار برحمته» (163)- و «أخذ اللَّه بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر» (171)-

«وإن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن إذا أراد أن يتكلم بكلام تدبره في نفسه، فإن كان خيراً أبداه، وإن كان شراً واراه، وإن المنافق يتكلم بما أتى على لسانه، لا يدري ماذا له وماذا عليه، ولقد قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (174)-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 70

(2). نهج البلاغة الخطبة 81/ 2/ 143. وكذلك التي تتلوها بارقامها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 137

«ولكن اللَّه يختبر عباده بأنواع الشدائِد، ويتعبدهم بأنواع الَمجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فُتُحاً إلى فضله، وأسباباً ذُلُلًا لعفوه، فاللَّه اللَّه في عاجل البغي، وآجل وَخامة الظلم، وسوء عاقبة الكِبر، فإنها مصيدة إبليس العظمى، ومكيدته الكبرى، التي تُساور قلوب الرجال مساورة السموم القاتلة، فما تكدي أبداً، ولا تشوي أحداً، لا عالماً لِعلمه، ولا مُقِلًا في طمره، ومن ذلك ما حرس اللَّه عباده المؤمنين بالصلوات والزكوات، ومجاهدة الصيام في الأيام المفروضات، تسكيناً لأطرافهم، وتخشيعاً لأبصارهم، وتذليلًا لنفوسهم، وتخفيضاً لقلوبهم، وإذهاباً للخيلاء عنهم» (190)-

ف «أحيِ قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوِّه باليقين، ونوره بالحكمة، وذلله بذكر الموت، قرره بالفناء، وبصِّره فجائع الدنيا، وحِذّره صولة الدهر وفُحشَ تقلُّب الليالي والأيام، وأعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين» (270)-

فياللَّه من ذلك القلب المتقلب الذي أحتل الإمامة الكبرى في كيان الإنسان ككل، ف «لقد عُلِّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وذلك القلب- بضعة من روحه- وله موراد من الحكمة وأضداد من خلافها، فان سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص، وإن مَلكه اليأس قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا نسي التحفظ، وإن ناله الخوف شغله الحَذَر، وان اتسع له الأمن استلبته الغِرَّة، وإن أفاد مالًا أطغاه الغنى، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع، وإن عضَّته الفاقة شغله البلاء، وإن جهده الجوع قعد به الضعف، وإن أفرط به الشَبَع كظَّتة البِطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد» (108 ح).

و «إن للقلوب شهوة وإقبالًا وإدباراً، فأتوها من قبل شهوتها وإقبالها، فإن القلب إذا أكره عمي» (193 ح)-

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 138

«وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» 8: 25. «1»

انها فتنة شاملة حاملة الذين عدلوا إلى الذين ظلموا، أوَليس هذا ظلماً بالذين لم يظلموا أن يسوَّوا بالذين ظلموا في هذه الفتنة؟ أم كيف تُتقى وتقوى العدول هي خير وقاية، فإن كان هؤلاء غير متقين فهم من الذين ظلموا.

وإن كانوا متقين فكيف- إذاً- يتقون؟ إنها فتنة وليست- فقط- عذاباً حتى لا يمشل غير الذين ظلموا، فتنة شاملة وإختبار هي للذين ظلموا شرٌ ودمار، ولكنها لغير الظالمين فتنة عليهم أن يتقوها ويقوا أنفسهم منها حتى يتخلصوا عنها ناجحين، مهما هلكت فيها أبدانهم وَفنيت أموالهم.

فالفتن الربانية أنماط وأشكال يتعاكس الأمر فيها للذين اتقوا على الذين ظلموا، فقد تكون فتنة خير وسعة، وأخرى فتنة شر وضيق‏ «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» «2» فالذين آمنوا واتقوا هم ناجحون والذين فسقوا وطغوا هم ساقطون: «ومنهم من يقول إئذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا». «3»

فمن جملة الفتن التي «لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» فتنة الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه و آله‏ «4» وعن النبي صلى الله عليه و آله قال: أخبرت أنهم أصحاب الجمل‏ «5» وفتنتهم في ليلة القدر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 11: 25

(2). 21: 35

(3). 9: 49

(4). نور الثقلين 2: 142 عن العياشي عن عبدالرحمن بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: أصابت الناس فتنة بعد ما قبض اللَّه نبيه‏حتى تركوا علياً وبايعوا غيره، وهي الفتنة التي فتنوا بها وقد أمرهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله باتباع علي عليه السلام والأوصياء من آل محمد عليهم السلام. وفي ملحقات أحقاق الحق 3: 546 عن النيشابوري تفسيره 9: 134 بهامش تفسير الطبري. وفيه 14: 399 عن الحسكاني في شواهد التنزيل 1: 206 بسند متصل عن ابن عباس قال: لمّا نزلت هذه الآية قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: من ظلم علياً مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء قبلي، وعن الزبير بن العوام أنه قرأ هذه الآية فقال: ما شعرت أن هذه الآية نزلت فينا إلا اليوم، يعني يوم الجمل في محاربته علياً، وفيه عن ابن عباس في الآية قال: حذر اللَّه أصحاب محمد صلى الله عليه و آله أن يقاتلوا علياً

(5). المصدر عن العياشي عن إسماعيل السرى عن النبي صلى الله عليه و آله: ..، وفي تفسير الفخر الرازي 15: 149 عن السدي نزلت في أهل بدر اقتتلوا يوم الجمل وروي أن الزبير كان يساير النبي صلى الله عليه و آله يوماً إذ أقبل علي رضى الله عنه فضحك إليه الزبير فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: كيف حبك لعلي؟ فقال يا رسول اللَّه أحبه كحبي لولدي أو أشد، فقال: كيف أنت إذا سرت تقاتله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 139

هل هي ماضية أم مستمرة «1» وما أشبه من فتن صعبة ملتوية تجعل المتوسطين في الإيمان حيارى، فضلًا عن البسيطين كفتنة الرماة يوم أحد، وهنالك مجالة حق التقوى حفاظاً على صالح الهدى.

ولقد تعترضكم فتن تزلزل فيها أركان الإيمان، ما ليس لها بُقية إلّا بكامل التقوى والإيمان: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين معه متى نصر اللَّه ألا إن نصر اللَّه قريب». «2»

ف «يا أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة» «3»- «فإن الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كل نفس بما قسم لها من زيادة أو نقصان فإن رأى أحدكم لأخيه غفيرة- زيادة- في مال أو نفس فلا تكونن له فتنة (خ 23)-

و «كن في الفتنة كابن اللبون- رضيع الناقة- لأظهرٌ فيُركب ولا ضرع فيُحلب» (ح) و «لا يقولن أحدكم: اللَّهم إن أعوذ بك من الفتنة، لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من استفاد فليستفد من مضلات الفتن فإن اللَّه سبحانه يقول: «واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة» (93 ج).

«أما بعد أيها الناس، فأنا فقأت عين الفتنة ولم يكن ليجترى‏ء عليها غيري بعد أن ماج غيهبها، واشتد طَلَبها، فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألونني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في أصول الكافي بإسناده إلى أبي عبداللَّه عليه السلام عن علي بن الحسين عليهما السلام حديث‏طويل وفيه: ثم قال في كتابه «واتقوا فتنة ..» في «إنا أنزلناه في ليلة القدر» يقول: إن محمداً صلى الله عليه و آله يموت يقول أهل الخلاف لأمر اللَّه عزَّ وجلّ: مضت ليلة القدر مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فهذه فتنة أصابتهم خاصة

(2) 2: 214

(3) الخطبة 5

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 140

عن شي‏ءٍ فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئَة تهدي مائة وتُضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومُناخ رِكابها ومحط رِحالها ومن يُقتل من أهلها قتلًا ومن يموت منهم موتاً، ولو فقدتموني ونزلت بكم كرائِه الأمور وحوازب الخطوب لأطرق كثير من السائلين، وفشل كثير من المسؤولين، وذلك إذا قلَّصت حربُكم، وشمرَّت عن ساق، وكانت الدنيا عليكم ضيقاً تستطيلون معه أيام البلاء عليكم، حتى يفتَح اللَّه لبقية الأبرار منكم-

إن الفتن إذا أقبلت شبَّهت، وإذا أدبرت نبَّهت، يُنكرنَ مقبلات، ويُعرفن مُدبرات، يَحُمن حومَ الرياح، يصبن بلداً ويخطئن بلداً-

ألا وان أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية، فإنها فتنة عمياء مُظلمة عمَّت خُطَّتها، وخُصَّت بليَّتها، وأصاب البلاء من أبصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها، وأيم اللَّه لتجدُنَّ بني أمية لكم أرباب سُوءٍ بعدي كالناب الضروس، تَعذِم بغيها، وتخبِط بيدها، وتَزبِن برجلها، وتمنع دَرَّها، لا يزالون بكم حتى لا يَتركوا منكم إلا نافعاً لهم، أو غير ضار بهم، ولا يزال بلاءهم عنكم حتى لا يكون انتصار أحدكم منهم إلا كانتصار العبد من ربه، والصاحب من مستصحِبه، ترد عليكم فتنتهم شَوهاء مَخشيَّة، وقِطعاً جاهليةً، ليس فيها منار هدى، ولا عَلَم يُرى، نحن أهل البيت منها بمنجاة، ولسنا فيها بدعاة، ثم يفرجها اللَّه عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفاً، ويسوقهم عُنفاً، ويسقيهم بكأس مصبَّرة، لا يعطيهم إلا السيف، ولا يُجلسهم إلا الخوف فعند ذلك تود قريشٌ بالدنيا وما فيها لو يرونني مقاماً واحداً، ولو قدرَ جزْر جَزورٍ لأقبل منهم ما أطلُب اليومَ بعضَه فلا يعطوننيه». «1»

«فاتقوا سكرات النعمة، واحذروا بوائق النَقمة، وتثبتوا في قَتام العِشوة وإعوجاج الفتنة، عند طلوع جنينها، وظهور كمينها، وانتصاب قطبها، ومَدار رَحالها، تبدو في مدارج خفية، تؤول إلى فظاعة جلية، شِبابُها كشِباب الغلام، وآثارها كآثار السلام،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 92

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 141

تتوارثها الظلمة بالعهود، أولهم قائد لآخِرهم مقتد بأولهم، يتنافسون في دنيا دنية، ويتكالبون على جيفة مريحة، وعن قليل يتبرءُ التابع من المتبوع، والقائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، ويتلاعنون عند اللقاء، ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرَّجوف، والقاصمة الزَّحوف، فتزيغ قلوب بعد استقامة، وتضِل رجاءٌ بعد سلامة، وتختلف الأهواء عند هجومها، وتلتبس الآراء عند نجومها، من أشرف لها قصمته، ومن سعى فيها حطمته، يتكادمون فيها تكادم الحُمُر في العانة، قد اضطرب معقود الحبْل، وعمي وصية الأمر، تغيض فيها الحكمة، وتنطق فيها الظَلَمة، وتدق أهلَ البدو بِمسحَلها، وترضُّهم بكلكلها، يضيع في غُبارها الوُحدان، ويهلك في طريقها الركبان، ترِد بمُرّ القضاء، وتحلْب عبيط الدماء، وتثلم مَنار الدين، وتنقض عقد اليقين، تهرُب منها الأكياس، وتدبِّرها الأرجاس، مرعادٌ مِبراق، كاشفة عن ساق، تُقطع فيها الأرحام، ويفارَق عليها الإسلام، بريُّها سقيم، وظاعنها مقيم». «1»

ذلك، ومن واجهة أخرى لأن خطاب التحدير التحظير عام يعم كافة المؤمنين، إذاً ف «فتنة» عامة تشملهم أجمع بما ظلم ظالمهم، كفتنة التفرق والتمزق من المفرقين بين المسلمين، والإتقاء فيها درجات، منها التقوى عن الدخول في الفتنة مسايرة معها أم عملًا أو عمالة لها، ومنها الصد عنها نهياً عن نكيرها قدر المستطاع، ففتنة المنكر الجماعي تشمل غير الظالمين الذين ظلوا عنها ساكتين لا يقومون بواجب الأمر والنهي، وتشمل- شيئاً مَّا- القائمين بهما إذا لم يتمسكوا بكامل التقوى إمساكاً على إيمانه، وكما تشمل القُصَّر العاجرين عن الأمر والنهي، والتقوى العامة المفروضة على الكل في هذه الفتن ألّا يسقطوا فيها، ثم المفروضة على الخاصة أن يزيلوها أو يقلِّلوها.

ففي فتنة السلطات غير الشرعية زمنية وروحية تتساقط الشعوب بين أيديها قدَر تخاذلها أمامها، تسايراً معها، أم تركاً للمعارضة الممكنة ضدها، أم فسحاً لمجال ظهورها في مظاهرها، والتقوى العامة المفروضة على كل المؤمنين في هذه الفتن أن يتقوا السقوط

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 151

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 142

فيها تجاوباً معها، حفاظاً على بقية الإيمان وبغيته، ومعارضتها قدر المستطاع.

وهنا «لا تصيبن» نهي مؤكد بالثقيلة، لمحة إلى ثقل الفتنة الشاملة، وقد نفيت عن إصابة الظالمين خاصة، لأنها فتنة عامة تعني- بطبيعة حالها- المجموعة، والواجب في حقلها درجات من التقوى قدر المستطاع إزالة إياها أم- لأقل تقدير- عدم السقوط فيها.

ذلك، وبوجه عام واجب المؤمنين أمام الفتنة الظالمة عامة وخاصة أن يصدوا عنها بداية واستمرارية، أم- لإقل تقدير- ألَّا يسايروها ويتماشوا معها أو يسقطوا فيها.

فالجماعة التي تسمح لفريق منها بظلم في أية صورة من صورها، أو تسكت متجاهلًا عنه، ولا تقف في وجهه، إنها جماعة تستحق أن تؤخذ بجريرة الظالمين.

إذاً ف «اتقوا» صدورَ فتنة، أم تزايدها، أم المزايدة فيها، أم السكوت عنها بعدما حصلت، أم التأثر بها، فواجب التقوى أمام هذه الفتن العامة درجات حسب الإمكانيات، لا- فقط- الإتقاء عن التأثر بها.

«فتنة لا تصيبن الذي ظلموا منكم خاصة» لأنها فتنة عامة، أم شارك فيها غير الظالمين إلى الظالمين، فأصبحوا معهم من الظالمين المستحقين لها.

الفرقانين حاصلا على البغية الصالحة، الخليصة غير الخليطة، ولصاحب الفرقان الأول قدر ما يتقن من وسيلة الوصول إلى الحق، ولصاحب الثاني وصول أقوى، ولفاقدهما خوآءٌ وبواء، فطالما الفرقان الأول وسيلة غير طليقة ولكنما الثاني معه وصيلة طليقة كما وعد اللَّه.

«واعلم أنه من يتق اللَّه يجعل له مخرجاً من الفتن ونوراً من الظلم، ويخلِّده فيما اشتهت نفسه، ويُنزله منزل الكرامة عنده، في دار اصطنعها لنفسه ..» «1»- «.. ألا فصونوها وتصوَّنوا بها، وكونوا عن الدنيا نُزَّاهاً، وإلى الآخرة وُلّاهاً، ولا تضعوا من رفعته التقوى، ولا ترفعوا من رفعته الدنيا» «2»-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 181

(2). الخطبة 189

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 143

«أما بعد فإني أوصيكم بتقوى اللَّه الذي ابتدأ خلقكم، وإليه يكون معادكم، وبه نجاح طلبتكم، وإليه منتهى رغبتكم، ونحوَه قصدُ سبيلكم، وإليه مرامى مفزَعكم-

فإن تقوى اللَّه دواء داءِ قلوبكم، وبصر عمى أفئدتكم، وشفاء مرض أجسادكم، وصلاح فساد صدوركم، وطَهور دنس أنفسكم، وجلاء عَشَا أبصاركم، وامنُ مَفزع جأشكم، وضياء سَواد ظلمتكم- .. فمن أخذ بالتقوى عَزَبت عنه الشدائِد بعد دنوِّها، واحلولت له الأمور بعد مرارتها، وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها، وأسلهت له الصعاب بعد إنضبابها، وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها، وتحدَّبت عليه الرحمة بعد نفورها، وتفجرت عليه النَعَم بعد نضوبها، ووبلت عليه البركة بعد إرذايادها» «1»-

أجل فالتقوى هي الزاد، عُدة للطريق الملتوية الصعبة، حيث تحيي القلوب وتوقظها وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة والوقاية، كاشفة منحنيات الطريق ودروبه مدَّ البصر والبصيرة، دون غبْش للشبهة الحاجبة للرؤية.

وإنها فرقان في كل خليط، كاشفة منعرجات الطريق، فطالما الهوى ينشر الغبش وتُعمي المسالك وتُخفي الدروب، فالتقوى هي متراس ونبراس تنير الدرب على السالكين، مزيلة كل غبش.

«فاتقوا اللَّه في من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ورجِل فعمِل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبر فاعتبر، وحذِّر فحذر، وزُجِر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتاب، واقتدى فاحتدى، وأُرِي فرأى، فأسرع طالباً، ونجا هارباً، فأفاد ذخيرةً، وأطاب سريرةً، وعمَّر مَعاداً، واستظهر زاداً ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته، وقدَّم أمامَه لدار مُقامه-

فاتقوا اللَّه عبادَ اللَّه جَهةَ ما خلقكم له، واحذروا منه كُنه ما حذركم من نُفسه، واستحِقوا منه ما أعد لكم بالتنَّجز لصدق ميعاده، والحذَر من هول معاده ...-

فهل ينتظر أهل بَضاضة الشباب إلا حواني الهَرَم، وأهل غضارة الصحة إلا نوازل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 196

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 144

السَقَم، وأهل مدة البقاء إلا آوِنة الفناء، مع قريب الزِّيال، وأزوف الإنتقال، وعَلَز القلق، والَم المَضَض، وغُصص الجَرَض، وَتلَّفُّت الإستغاثة بنصره الحَفَدة والأقرباء، والأعزة والقرناء، فهل دفعت الأقارب، أو نفعت النواحب، وقد غودر في محلة الأموات رهيناً، وفي ضيق المضجع وحيداً، قد هتكت الهوام جِلدته، وأبلت النواهك جِدَّته، وعفَّت العواصف آثارَه، ومحا الحَدَثانُ معالمَه، وصارت الأجساد شحِبة بعد بضتها، والعظام نَخِرة بعد قوتها، والأرواح مرتهنةً بثقل أعباءها، موقنة بغيب أنباءها، لا تُستزاد من صالح عملها، ولا تُستعتب من سي‏ءِ زلَلِها-

أَوَ لستم أبناءَ القوم والآباء وإخوانَهم والأقرباء؟ تحتذون أمثلتهم، وتركبون قِدَّتهم، وتطأون جادَّتهم، فالقلوب قاسية عن خطها، لاهيةٌ عن رشدها، سالكة في غير مضمارها، كأن المعنىَّ سواها، وكأن الرشد في إحراز دنياها». «1»

ذلك، وليس «فرقاناً» يختص بفرقان خاص، فانه ككل ما يفرق بين الحق والباطل قرآناً ورسول القرآن وفاروق الأمة بعده وهو علي عليه السلام.

فكما أن تقوى اللَّه تستجلب فرقان اللَّه بكل ما يعنيه، كذلك تستجلب فاروقاً بعد النبي صلى الله عليه و آله يفرق بين الحق والباطل في مضطرب الأحوال وتشتت الحال، ولذلك سماه الرسول صلى الله عليه و آله فيما تواتر عنه «فاروقاً» «2» وهكذا «من فارق علياً عليه السلام فقد فارق اللَّه». «3»

ومن غريب الوفق العددي بين «الفرقان» و «بني آدم» أن كلًا مذكور سبع مرات في القرآن، فنعرف مدى الوفق بين بني آدم والفرقان شريطة تقوى اللَّه، فكلما زادت التقوى زاد صاحبها فرقاناً من اللَّه وبرهاناً مبيناً.

وليس يختص «فرقان» لمن اتقى بحقل القرآن، بل هو فرقان في كافة الحقول وهذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 82

(2). ملحقات إحقاق الحق 4: 26- 31، 34- 35، 284، 331، 345، 369- 370، 386 و 7: 372 و 15: 283- 286، 292- 294، 305- 308، 431، 341- 345 و 20: 259- 261، 263، 298، 333، 459، 466، 472، 509، 546- 548

(3). المصدر 4: 139 و 5: 291 و 6: 395- 400 و 16: 601- 605 و 21: 545- 549

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 145

ميزة ثانية لفرقان اللَّه بطليق مفعوله، عن مصطلح الفرقان المختص بمعرفة معاني القرآن والسنة.

الداعية الرسولية تهدَّد ولا تحدَّد

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ». «1»

ذلك في دار الندوة، مجلس الشورى لصناديد قريش حيث اجتمع فيه أربعون منهم أو يزيدون، تشاوراً في أمر الرسول صلى الله عليه و آله كيف يعالجون موقفه الدعائي، صداً عن دعاياته المستمرة المختلخلة المتجلجلة بين الناس بتزايد بالغ شكل خطراً حاسماً على قبيل الإشراك.

وحصيلة الآراء الأولى هي ثالوث‏ «لثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك» ثم توافقت على «يقتلوك» ثم النتيجة الحاسمة لذلك التصميم «يخرجوك».

حيث نبهه اللَّه بما مكروه من قتلهم إياه فخرج إلى غار ثور وبات علي عليه السلام على فراشه، ثم هاجر صلى الله عليه و آله بعد ثلاثة أيام إلى المدينة.

وتلك الهجرة الهاجرة هي منقطعة النظر بين كل بشير ونذير بما فيها من خوارق عادات، حيث خرج أمام المهاجمين، آخذاً بيده كفاً من تراب، رامياً إلى وجوههم بقوله:

شاهت الوجوه،- كما فعله في بدر الكبرى-، متوجهاً إلى غار ثور، وحفاظاً عليه، قطعاً لاحتمال كونه فيه رغم ظاهر الأثر من أقدامه المباركة تؤمر العنكبوت أن يسدل ستاراً ضخماً على باب الغار ما يخيِّل إلى الناظر أنه شغل سنين!.

وهكذا «إن لا تنصروه فقد نصره اللَّه إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن اللَّه معنا فأنزل اللَّه سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ..». «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 8: 30

(2). 9: 40

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 146

في ذلك المسرح المنقطع النظير- إلا ما كان بحق المسيح عليه السلام- نرى للرسول صلى الله عليه و آله صاحبين بين أصحابه، صاحب ينام على فراشه مضحياً بنفسه نفس الرسول صلى الله عليه و آله بما أختاره صلى الله عليه و آله لتلك التضحية وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وقد نزلت بشأنه آية الشراء: «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات اللَّه واللَّه رؤوف بالعباد» «1» بصورة مستقلة.

وصاحب يصاحبه في الغار حالة الفرار من مكر الكفار، ولا تنزل بشأنه إلا «إذ يقول لصاحبه لا تحزن أن اللَّه معنا ...». «2»

فلقد بات علي عليه السلام على فراش الرسول صلى الله عليه و آله والخطر هاجم، وصاحبه أبو بكر إلى الغار والخطر ناجم، ثم نجد علياً عليه السلام، مُقِدماً بكل بُدّ لتلك التضحية دونما تخوف، ولا نجد صاحبه في الغار إلَّا متخوفاً ومعه الرسول صلى الله عليه و آله وقد يأتي نبأ الموقفين حين نأتي على تفسير آية الغار.

هنا الرسول صلى الله عليه و آله وعلي عليه السلام يتعانقان ولا يرضي علياً عليه السلام إلا أن تَسْلم نفس الرسول صلى الله عليه و آله بهذه التضحية، وقد يروي عنه نظم في ذلك النظم:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| «وقيت بنفسي خير من وطى‏ء الحصا |  | ومن طاف بالبيت العتيق والحجر |
| محمد لما خاف أن يمكروا به‏ |  | فوقّاه ربي ذو الجلال من المكر |
| وبت أراعيهم متى ينشرونني‏ |  | وقد وطِّنت نفسي على القتل والأسر |
| وبات رسول اللَّه في الغار آمناً |  | هناك وفي حفظ الإله وفي ستر |
| أقام ثلاثاً ثم زمَّت قائِص‏ |  | قلايص يفرين الحصا أينما تفرى‏ «3» |

ولقد ذاق الرسول صلى الله عليه و آله والذين معه في أخريات سنيَّه بمكة أشد ألوان الأذى بحجر أبي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 207

(2). 9: 40

(3). قال عبيد اللَّه بن أبي رافع وقد قال علي عليه السلام يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في الغار ثلاثاً .. وفي الدر المنثور بتقاوت يسير عن الحاكم عن علي بن الحسين عنه عليهم السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 147

طالب سنين أربع، ولما صمموا على قتله بدار الندوة بدأت الهجرة المباركة مزودة بتسليات لخاطره القريح وقلبه الجريح منذ دخوله الغار «ان اللَّه معنا» ومن ثم‏ «وكأين من قرية هي أشد من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم». «1»

ثم له وللذين هاجروا معه: «والذين هاجروا في اللَّه من بعدما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون\* الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون». «2»

ولكيلا يحزن على ذلك الهجران في هجرته الهاجرة «يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فأعبدون» «3» «وأصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلًا». «4»

لقد اجتمعت قريش في دار الندوة مرتين بين اجتماعاتهم اللعينة، هما ألعنها، مرة للمعاهدة على حصره صلى الله عليه و آله والذين معه في شعب أبي طالب‏ «5» وأخرى إلى إثباته أو قتله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 47: 13

(2). 17: 42

(3). 29: 56

(4). 73: 10

(5). بحار الأنوار 19: 1- 4 اجتمعت قريش في دار الندوة وكتبوا صحيفة بينهم ألا يواكلوا بني‏هاشم ولا يكلموهم ولا يبايعوهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا إليهم ولا يحضروا معهم حتى يدفعوا إليهم محمد صلى الله عليه و آله فيقتلونه وإنهم يد واحدة على محمد يقتلونه غيلة أو صراحاً، فلما بلغ ذلك أبا طالب جمع بني هاشم ودخلوا الشعب وكانوا أربعين رجلًا فحلف لهم أبو طالب بالكعبة والحرم والركن والمقام إن شاكت محمداً شوكة لاثبتن عليكم يا بني هاشم وحصن الشعب وكان يحرسه بالليل والنهار فإذا جاء الليل يقوم بالسيف عليه ورسول اللَّه صلى الله عليه و آله مضطجع ثم يقيمه ويضجعه في موضع آخر فلا يزال الليل كله هكذا ويوكل ولده وولد أخيه به يحرسونه بالنهار فأصابهم الجهد وكان من دخل مكة من العرب لا يجسر أن يبيع من بني هاشم شيئاً ومن باع منهم شيئاً أنتهبوا ماله، وكان أبو جهل والعاص بن وائل السهمي والنضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط يخرجون إلى الطرقات التي تدخل مكة من رأوه معه مرة نهوه أن يبيع من بني هاشم شيئاً ويحذرون إن باع منهم أن ينهبوا ماله وكانت خديجة (رضي اللَّه عنها) لها مال كثير فأنفقته على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في الشعب، ولم يدخل في حلف الصحيفة مطعم بن عدي بن نوفل ابن عبد المطلب بن عبد مناف وقال: هذا ظلم وختموا الصحيفة بأربعين خاتماً ختمها كل رجل من رؤساء قريش بخاتمه وعلقوها في الكعبة وتابعهم على ذلك أبو لهب وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يخرج في كل موسم فيدور على قبائل العرب فيقول لهم: تمنعون لي جانبي حتى أتلو عليكم كتاب ربكم وثوابكم الجنة على اللَّه وأبو لهب في أثره فيقول: لا تقبلوا منه فإنه ابن أخي وهو كذاب ساحر، فلم يزل هذا حالهم وبقوا في الشعب أربع سنين لا يأمنون إلا من موسم إلى موسم ولا يشترون ولا يبايعون إلا في الموسم وكان يقوم بمكة موسمان في كل سنة: موسم العمرة في رجب وموسم الحج في ذي الحجة فكان إذا اجتمعت المواسم تخرج بنو هاشم من الشعب فيشترون ويبيعون ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني وأصابهم الجهد وجاعوا وبعث قريش إلا أبي طالب قصيدته اللامية فلما سمعوا هذه القصيدة أيسوا منه وكان أبو العاص بن الربيع- وهو ختن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله- يأتي بالعير بالليل عليها البر والتمر إلى باب الشعب ثم يصبح بها فتدخل الشعب فيأكله بنو هاشم وقد قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لقد صاحرنا أبو العاص فاحمدنا صهره، لقد كان يعمد إلى العير ونحن في الحصار فيرسلها في الشعب ليلًا ولما أتى على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في الشعب أربع سنين بعث اللَّه على صحيفتهم القاطعة دابة الأرض فلحست جمع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت «باسمك اللهم» ونزل جبريل على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأخبره بذلك فأخبر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أبا طالب فقام أبو طالب ولبس ثيابه ثم مشى حتى دخل المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه فلما أبصروه قالوا: قد ضجر أبو طالب وجاء الآن ليسلم ابن أخيه فدنا منهم وسلم عليهم فقاموا إليه وعظموه وقالوا: قد علمنا يا أبا طالب إنك أردت مواصلتنا والرجوع إلى جماعتنا وأن تسلم أبن أخيك إلينا، قال: واللَّه ما جئت لهذا ولكن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن اللَّه تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابة الأرض فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم اللَّه فابعثوا إلى صحيفتكم فإن كان حقاً فأتقوا اللَّه وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم وإن كان باطلًا دفعته إليكم فإن شئتم قتلتموه وإن شئتم استحييتموه فبعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة وعليها أربعون خاتماً فلما أتوا بها نظر كل رجل منهم إلى خاتمه ثم فكوها فإذا ليس فيها حرف واحد إلا «باسمك اللهم» فقال لهم أبو طالب: يا قوم اتقوا اللَّه وكفوا عما أنتم عليه فتفرق القوم ولم يتكلم أحد ورجع أبو طالب إلى الشعب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 148

أو إخراجه ثم اجتمعوا على قتله.

ولقد باهي اللَّه جبريل وميكائيل بتضحية علي عليه السلام ليلة المبيت في الأخوة المحمدية العلوية عليهما السلام‏ «1» وقد يروى عنه عليه السلام قوله في قصة المبيت: فأسرعت إلى ذلك مطيعاً له‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وفيه 46 ل قال أمير المؤمنين عليه السلام في جواب اليهودي الذي سأل عما فيه من علامات‏الأوصياء فقال فيما قال: وأما الثانية يا أخا اليهود فإن قريشاً لم تزل تخيل الآراء وتعمل الحيل في قتل النبي صلى الله عليه و آله حتى كان آخر ما اجتمعت فيه ذلك يوم الدار: دار الندوة، وإبليس الملعون حاضر في صورة أعور ثقيف فلم تزل تضرب أمرها ظهراً لبطن حتى اجتمعت آراءها على أن ينتدب من كل فخذ من قريش رجل ثم يأخذ كل رجل منهم سيفه ثم يأتي النبي صلى الله عليه و آله وهو نائم على فراشه فيضربونه جميعاً فأسيافهم ضربة رجل واحد فيقتلوه فإذا قتلوه منعت قريش رجالها ولم تسلمها فيمضي دمه دهراً، فهبط جبرئيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه و آله فأنبأه بذلك وأخبره بالليلة التي يجتمعون فيها والساعة التي يأتون فراشه فيها وأمره بالخروج في الوقت الذي خرج فيه إلى الغار فأخبرني رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالخبر وأمرني أن أضطجع في مضجعه وأقيه بنفسي فأسرعت إلى ذلك مسروراً لنفسي بأن أقتل دونه فمضى صلى الله عليه و آله لوجهه وأضطجعت في مضجعه وأقبلت رجالات قريش موقنة في أنفهسا أن تقتل النبي صلى الله عليه و آله فلما أستوى بي وبهم البيت الذي أنا فيه ناهضت بسيفي فدفعت عن نفسي بما قد علمه اللَّه والناس، ثم أقبل على أصحابه فقال: أليس كذلك؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين.

وفيه 52 شي‏ء عن زرارة ومحمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام أن قريشاً أجتمعت خرج من كل بطن أناس ثم انطلقوا إلى دار الندوة ليشاوروا فيما يصنعون برسول اللَّه صلى الله عليه و آله فإذا هم بشيخ قائم على الباب وإذا ذعبوا إليه ليدخلوا قال: أدخلوني معكم قالوا: ومن أنت يا شيخ، قال أنا شيخ من مضر ولي رأي أشير عليكم فدخلوا وجلسوا وتشاوروا وهو جالس وأجمعوا أمرهم على أن يخرجوه فقال: ليس هذا لكم برأي. إن أخرجتموه أجلب عليكم الناس فقاتلوكم، قالوا: صدقت ما هذا برأي، ثم تشاورا فأجمعوا أمرهم على أن يوثقوه قال: هذا ليس بالرأي إن فعلتم هذا ومحمد رجل حلو اللسان أفسد عليكم أبناءكم وخدمكم وما ينفعكم أحدكم إذا فارقه أخوه وابنه أو إمرأته ثم تشاوروا فاجمعوا أمرهم على أن يقتلوه، يخرجون من كل بطن منهم بشاهر فيضربونه فأسيافهم جميعاً عند الكتفين ثم قرأ الآية «وإذا يمكر بك ...».

وفيه في قصة المبيت قول الرسول صلى الله عليه و آله لعلي: إن الروح هبط علي بهذه الآية آنفاً يخبرني أن قريشاً أجتمعت علي المكر بي وقتلي وأنه أوحى إلي عن ربي عزَّ وجلَّ أن أهجر دار قومي وأن أنطلق إلى غار ثور تحت ليلتي وأنه أمرني أن آمرك بالمبيت على ضجاعي- أو قال:- مضجعي لتخفي بمبيتك عليه أثري فما أنت قائل وصانع؟ فقال علي عليه السلام: أو تسملن بمبيتي هناك يا نبي اللَّه؟ قال: نعم فتبسم عليٌّ ضاحكاً وأهوى إلى الأرض ساجداً شكراً لما أنبأه به رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من سلامته فكان علي عليه السلام أول من سجد شكراً للَّه‏وأول من وضع جبهته على الأرض بعد سجدته من هذه الأمة بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلما رفع رأسه قال له: إمض لما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي ومرني بما شئت أكن فيه كمسرتك واقع منه بحيث مرادك وأن توفيقي إلا باللَّه وقال: وإن ألقي عليك شبه مني أو قال: شبهي، قال: إن يمنعني نعم، قال: فأرقد على فراشي وأشتمل ببردي الحضرمي ثم إني أخبرك يا علي أن اللَّه تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم ومنازلهم من دينه فأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل وقد أمحتنك يا ابن أم وأمتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم عليه السلام والذبيح اسماعيل عليه السلام فصبر صبراً فإن رحمة اللَّه قريب من المحسنيين، ثم ضمه النبي صلى الله عليه و آله إلى صدره وبكى إليه وجداً به وبكى عليٌّ عليه السلام جشعاً لفراق رسول اللَّه صلى الله عليه و آله واستتبع رسول صلى الله عليه و آله أبا بكر وهند بن أبي هالة ...

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 150

مسروراً، فالكتاب والسنة- كلمة واحدة- متجاوبات في أفضلية الموقف المشرِّف لمبيت الإمام علي عليه السلام على موقف أبي بكر في الغار، حيث المدار ليس هو الصحبة في المكان، إنما هو التضحية في الحفاظ على الصاحب‏ «1».

«وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». «2»

هنا «قد سمعنا» تعني سمع الأذن دون القبول بسمع القلوب والعقول- رغم ما حققوه ب «قد» كأنهم واعون ما سمعوا- إنما هو سماع للهزء بما يسمعون كذريعة لقيلتهم الغيلة:

«لو نشاء ...» ولحصرهم آيات اللَّه المتلوة عليهم بأساطير الأولين، وترفعِهم- بزعمهم- عن الأساطير، يُحيلون على أنفسهم أن يقولوا مثل هذا زغم إمكانيتهم ذاتياً لقوله كما يتقولون‏ «3» وكأنهم يترفعون أن يعارضوا هذه الأساطير بأساطير أمثالها إذ لا يعتبرونها مما يعارض لضالتها، وبعدهم عن الأساطير!.

ف «لو» هنا صدٌ عن السؤال: قولوا مثل هذا، كما أن «نشاء لقلنا» هدم لصرح الربانية لهذه الآيات البينات، وما أنحسه مواجهة لآيات اللَّه، وما أضله البسطاء الذين لا يعتقون!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 55 ما جماعة عن أبي المفضل معنعناً عن مجاهد قال: فخرت عائشة بأبيها ومكانه مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في الغار فقال عبد اللَّه بن شداد بن الهاد: وأين أنت من علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قام في مكانه وهو يرى أنه يُقتل؟ فسكتت ولم تحر جواباً

(2). 8: 31

(3). في الدر المنثور 3: 180 عن السدي قال: كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع‏سجع أهلها وكلامهم فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي صلى الله عليه و آله والقرآن فقال: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين، وفيه عن سعيد بن جبير قال: قتل النبي صلى الله عليه و آله يوم بدر صبراً عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أسيري فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: كان يقول في كتاب اللَّه ما أقول، قال: وفيه أنزلت هذه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 151

وهنا يبقى سؤال، هل إن إبطال هذه الآيات أحرى للعاقل في محكمة العقل كما تدذَعون، أو التورط فيما تستائون- زعَم أنه من الأساطير- لذلك الإبطال حتى تتخلصوا من عب‏ء هذه الدعوة المتلاحقة ويتخلص الآخرون؟ إذاً فهذه وتلك هي من الدعاوي الهاوية الخواء الغاوية البواء، وليست الدعوى بمجردها مهما كانت براقة، بالتي يواجه بها البرهان فهي هيه من أساطير الأولين، دون آيات اللَّه البينات التي تملك على صدقها من كافة البراهين، وإنما السكوت عن ردهم فيما أدعوا لظاهر بطلان دعواهم دونما نكير، حيث الدعوى المجردة ولا سيما هذه الطائلة الغائلة ليست بالتي ترد على آيات اللَّه البينات التي هي بأنفسها أدلة لربانيتها مصدراً وصادراً.

ذلك، وقد وصل العناد من هؤلاء الأنكاد والأوغاد لحد تطلبوا لأنفسهم من اللَّه الهلاك إن كان هذا هو الحق:

«وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ». «1»

دعاء غريب يصور حالة راسبة من العناد ضد الحق المُرام، إيثاراً للهلاك على الإذعان بالحق، حيث فسدت جبلتهم بالكبرياء الجامحة، وأخذتهم العزة بالإثم فحسبهم جهنم وبئس المهاد.

هنا «إن كان هذا» لا تختص بمشار إل‏يه خاص فقد تعني كافة المتعنتين القائلين هذا، الغائلين، سواء أكان في مسرح الآيات الربانية الإسلامية- ككل- أم سواها، أم في مسارح خاصة في حقل الإسلام كولاية الامر بعد الرسول صلى الله عليه و آله، أنهم- ككل- ودون أيَّة هوادة يرجحون عذاب اللَّه على تصديق آية من اللَّه لا يهوونها، وهذه هي الخطوة الأخيرة الشيطانية التي يخطوهم بها الشيطان.

ذلك، وجواباً عن أمثال هذه الشطحات الزور والغُرور من أحابيل الغرور:

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ». «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 8: 32

(2). 8: 33

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 152

فكون الرسول صلى الله عليه و آله فيهم- رغم أنهم ناكروه- إنه صيانة لهم عن عذاب اللَّه مقترحاً وسواه، وصيانة أخرى على طول الخط- كان فيهم الرسول أم لم يكن فيهم- «وهم يستغفرون» ف «ليعذبهم» محطٌّ لسلب محدَّد ب «وأنت فيهم» ولكن «معذبهم» سلب طليق «وهم يستغفرون» سواءً أكنت «أنت فيهم» أم لم تكن.

فتلك هي الرحمة المحمدية العالمية أن اللَّه لا يعذب الكافرين به ما هو فيهم، ثم يتوب عن ذلك وهم يستغفرون» فقد «كان في الأرض إمانات من عذاب اللَّه سبحانه فرفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به، أما الأمان الذي رفع فهو رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأما الأمان الباقي فالإستغفار ...» «1» فقد كان مماته إلى حياته خيراً لنا «2» لهذين الأمانين.

وترى العذاب المنفي «ما دمت فيهم» هو مطلق العذاب الشامل لقتلهم؟ وقد قتل جمع منهم في غزوات!

إنه عذاب الإستئصال كما لم يعذبوا به ما كان صلى الله عليه و آله عنهم وهم لا يستغفرون، بعذاب الإسئتصال وما أشبه، الواقع على سالفة الأمم المتخلفة عن شرعة اللَّه.

وليس عذاب القتال ينافي كونه صلى الله عليه و آله رحمة للعالمين، فإن فسح المجال للمكذبين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 153 وحكى أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام أنه قال: كان ... قال اللَّه جلّ من قائل «وما كان اللَّه ليعذبهم ...»

(2). المصدر 151 في روضته الكافي عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إن لكم في حياتي خيراً وفي مماتي خيراً، قال: فقيل يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أما حياتك فقد علمنا فمالنا في وفاتك؟ فقال: أما في حياتي فإن اللَّه عز وجل يقول: وما كان ليعذبهم وأنت فيهم، وأما في مماتي فتعرض علي اعمالكم فأستغفر لكم.

وفي الدر المنثور 3: 181- أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أنزل اللَّه علي أمانين لأمتي «وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم وما كان اللَّه معذبهم وهم يستغفرون» فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.

وفيه 182- أخرج أحمد والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، قال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني، وفيه عنه صلى الله عليه و آله قال: من أكثر من الإستغفار جعل اللَّه له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقة من حيث لا يحتسب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 153

الفاتنين ينافي أصل الرحمة الأصلية المحمدية حيث يستأصل دعوته، وإنما هي الرحمة لا تشكل زحمة على الذين آمنوا.

أجل، إنها رحمة ربانية- إكراماً لمحمد صلى الله عليه و آله- تشملهم فتمهلهم فلا يأخذهم اللَّه عجالة بعذاب الإستئصال الإستعجال، مهما يؤخذون بسائر العذاب قضية صدهم عن سبيل اللَّه وعن المسجد الحرام، فصدهم بقتال وسواه عما يصدون، فليس ليصدهم عن ذلك العذاب وما يدعونه من كونهم ورثة إبراهيم وسدنة البيت الحرام، أم لأنهم أولياء اللَّه، فإنهم أعداء اللَّه وأعداء البيت الحرام ومغتصبوه، وليس البيت الحرام ميراثاً حتى لو كان ميراثاً من إبراهيم، بل هو البيت العتيق عن كل اختصاص بوجه خاص، اللهم إلا الأولياء المتقين.

ذلك فقد يعذبهم اللَّه دون هذين الشرطين دون عذاب الإستئصال «وأنت فيهم» «وهم يصدون عن المسجد الحرام»:

«وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ». «1»

فليس- فقط- لأنهم أميون‏ «ألا يعذبهم اللَّه» وهم لا يتقون، «وما لهم ألا يعذبهم اللَّه» ولست أنت فيهم ولا هم يستغفرون اللَّه و «هم» على كفرهم وتكذيبهم بآيات اللَّه‏ «يصدون عن المسجد الحرام» دونما حق يُحق لهم ذلك الصد.

ذلك! «و» الحال أنهم «ما كانوا أولياءه»: اللَّه، ولا كانوا أولياء المسجد الحرام من قبل اللَّه «إن أولياءه»: اللَّه، والمسجد الحرام «إلا المتقون» فإنما لأولياء اللَّه وأولياء المسجد الحرام من أولياء اللَّه أن يصدوا من سواهم عن المسجد الحرام، ف «إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا». «2»

فالصادُّون عن المسجد الحرام، المشركون باللَّه، هم أصول الفتنة ضد الموحدين وشرعة التوحيد، فلا يُسمح لهم بذلك الصد، بل ويعذبهم اللَّه بأيدي المؤمنين حرباً كما يعذبهم بما يشاء كيف يشاء حفاظاً على العاصمة التوحيدية عن ذلك الصد الظالم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 8: 34

(2). 9: 28

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 154

الغاشم.

ذلك‏ «ولكن أكثرهم لا يعلمون» أنهم‏ «ما كانوا أولياءه» و «لا يعلمون» أنهم معذبون و «» إن أولياءه إلا المتقون».

أجل، «ألا إن أولياء اللَّه هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذ نظر الناس إلى ظاهرها وأشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، ورأوا إستكثار غيرهم منها إستقلالًا، ودركهم لها فوتاً، أعداءٌ ما سالم الناس، وسِلمُ ما عادى الناس، بهم عُلم الكتاب وبه علموا، وبهم قام الكتاب وبه قاموا، لا يرون مرجواً فوق ما يرجون، ولا مخوفاً ما يخافون» «1».

ذلك، وحين يصد أعداء اللَّه أولياءه عن المسجد الحرام، فما هم فيه فاعلون؟.

«وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ». «2»

تلك اللعينة هي صلاتهم باللَّه إشراكاً به، وبأهل اللَّه صداً عن المسجد الحرام كفراً به، وهذه صلاتهم عن البيت «مكاءً وتصدية» تصفيراً وتصفيقاً «3» هما من اللهو واللغو المناسبين لمسارح الفسق والرقص، وفي أقدس مكان من أمكنة الوحي والعبادة، وذلك ثالوث منحوس، وفي مستحقات العذاب: تكذيب بآيات اللَّه، وصدٌ عن المسجد الحرام، ومكاء وتصدية فيه‏ «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون».

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ». «4»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الحكمة: 422

(2). 8: 35

(3). المصدر 183- أخرج الطستي عن ابن عباس ان نافع بن الأزرق قال له أخبرني عن قوله‏عز وجل «إلا مكاءً وتصدية»، قال: المكاء صوت القنبرة والتصيدة صوت العصافير وهو التصفيق وذلك أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة كان يصلي قائماً بين الحجر والركن اليماني فيجي‏ء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ويصيح أحدهما كنا يصيح المكاء والآخر يصفق بيديه تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته‏

(4). 8: 36

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 155

وهذه طبيعة الحال النحسة لقبيل الكفر أنهم يصرفون كل طاقاتهم، و «وينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل اللَّه» صداً للمؤمنين باللَّه تضليلًا لهم، أم وصداً عن تطبيق أحكام اللَّه كما يصدون عن المسجد الحرام، وصداً للمستضعفين المتحرين عن الحق، أو الحائرين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فكيانهم ككلٍّ هو الصد عن سبيل اللَّه.

ذلك «فسينفقونها» فيما يهوون ويشتهون‏ «ثم تكون عليهم حسرة» في الدارين، فلا فقط «حسرة» بل «ثم يغلبون» غلباً بعد الحسرة وقلة بعد الكثرة، هنا وفي الأخرى، ثم مصيرهم إلى النار «والذين كفروا إلى جهنم يحشرون».

«لَيمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ». «1»

«... إلى جهنم يحشرون» مع بعضهم البعض متميزين عن أهل الجنة «يميز اللَّه الخبيث من الطيب» في ذلك الحشر كما تميزوا يوم الدنيا عن الطيبين، «ويجعلٍ الخبيث بعضه على بعض» ظلمات بعضها فوق بعض- «فيركمه جميعاً» في ذلك الحشر الحاشد، ثم‏ «فيجعله في جهنم ...».

فترة رسولية لا رسالية

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنْ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ». «2»

«يبين لكم»- «كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب» سلباً لخرافات وانجرافات و «يبين لكم» قصّاً عليكم‏ «أكثر الذي هم فيه يختلفون» و «يبين لكم» ما تختص به هذه الشرعة الأخيرة، فقد بَيَّنت لكم‏ «يبين لكم» أن هذا الرسول يبين كل شي‏ء تحتاج إليه الأمة الرسالية إلى يوم الدين: «ولقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 8: 37؟

(2). 5: 19

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 156

لقوم يؤمنون» «1»- «وهذا بصائر من ربكم وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون». «2» «ولكن‏ تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شي‏ء وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون». «3»

ذلك بصورة عامة «وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون». «4»

فتبين القرآن- وعلى ضوءه السنة- يحلِّق على السلبيات المفروضة في الشرعة الأخيرة «لتبين الذي أختلفوا فيه» والإيجابيات المؤاتية لشرعة الخلود: «وهدى ورحمة» وهنا «يبين لكم» تعمهما.

«يبين لكم على فترة من الرسل» التي بعَّدتكم بطبيعة حال الفترة الرسولية عن طبيعة الرسل والرسالات الإلهية: (أرسله على حين فترة من الرسل وإختلاف من الملل وانقطاع من السبل ودروس من الحكمة وطموس من أعلام الهدى والبيات). «5»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 7: 52

(2). 10: 57

(3). 12: 111

(4). 16: 64

(5). نور الثقلين 1: 602 في الكافي بسند عن عبد العظيم بن عبد اللَّه قال سمعت أبا الحسن عليه السلام يخطب بهذه الخطبة: الحمد للَّه‏العالم بما هو كائن- إلى أن قال-: وأن محمد صلى الله عليه و آله عبده ورسوله المصطفى ووليه المرتضى وبعثه بالهدى أرسله ...

أقول: والروايات في سني تلك الفترة مختلفة بين/ 500 سنة و 600 سنة، كما هي مختلفة في أن فيها رسلًا أم لا والمصدقة من الاخيرة، تصدقها آية الفترة أن هذه السنين كانت خلواً من الرسل، مهما كان فيها أوصياء غير معصومين وعلماء.

وإليكم بعضاً من هذه الأحاديث ففي نور الثقلين 1: 602 عن تفسير القمي سأل نافع بن الأزرق أبا جعفر محمد بن علي عليهما السلام فقال: أخبرني كم بين عيسى ومحمد عليهما السلام من سنة! فقال: أخبرك بقولي أو بقولك؟ قال: أخبرني بالقولين جميعاً. قال: أما بقولي فخمسمائة وأما بقولك فستمائة، وفيه عنه عن بشير النبال عن أبي عبد اللَّه عليه السلام قال بينا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله جالساً إذ جاءته امرأة فرحب بها وأخذ بيدها وأقعدها ثم قال: ابنة نبي ضيعه قومة خالد بن سنان دعاهم فأبوا أن يؤمنوا، وفيه عن كمال الدين وتمام النعمة عن الصادقين مثله وفيه فصافحها وأدناها وبسط له رداءه ثم أجلسها إلى جنبه ثم قال: «هذه ابنة نبي ضيعه قومه خالد بن سنان العبسي وكان اسمها محياة بنت خالد بن سنان» أقول: أخذ بيدها فصافحها، مما يطرد الروايتين مع أنهما خلاف نص آية الفترة، وفيه عن كمال الدين عن أبي عبد اللَّه عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله يقول في حديث: وأوصى عيسى إلى شمعون بن حمون الصفا وأوصى شمعون إلى يحيى بن زكريا وأوصى يحيى بن زكريا إلى منذر وأوصى منذر إلى سليمة وأوصى سليمة إلى بردة ثم قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ودفعها إليَّ بردة وأنا أدفعها إليك يا علي.

أقول: ومما يحير العقول قول الصدوق بعد ذلك هذه الاحاديث في كمال الدين: يعني الفترة أنه لم يكن بينهما رسول ولا نبي ولا وحي ظاهر مشهور كمن كان قبله وعلى ذلك دل الكتاب المنزل أن اللَّه عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه و آله على حين فترة من الأنبياء والأوصياء ولكن قد كان بينه وبين عيسى عليهما السلام أنبياء وأئمة مستورون خائفون منهم خالد بن سنان العبسي نبي لا يدفعه دافع ولا ينكره منكر لتواطى‏ء الأخبار عن الخاص والعام وشهرتهم عندهم وكان بين مبعثه ومبعث نبينا صلى الله عليه و آله خمسون سنة، أقول: لا معنى لخفاء الرسول والنبي حيث الإجهار من لزامات الرسالة، ثم الفترة تقتضي انقطاع الرسالة جاهرة وخافية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 157

فتعالوا الآن معي لنقضي فترة في الحصول على المعنى من‏ «فترة من الرسل» إذ لم تأت في القرآن إلا هذه المرة اليتيمة.

فالفتور لغوياً هو سكون بعد حِدَّة ولين بعد شدة، وضعف بعد قوة، ففترة من الرسل تعني إنقطاعاً في سلسلة الوحي بإنقطاع الرسل لردح من الزمن، إلّايوجد رسول فاتر في رسالته، وفترة الرسالة هي سكونها بعد حراكها بانقطاع رسلها الداعية، فحين تنقطع الرسالة بدعاتها الرسل، لفتور القوة الدعائية، ولا سيما بين الألدَّاء من الأقوم، فعند ذلك الطامة الكبرى وكما يروى عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام من خطبة له: «أرسله على حين فترة من الرسل وطول هجعة من الامم وإعتزام من الفتن وإنتشار من الأمور وتلظٍ من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، على حين إصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، وإغورار من ماءها، قد درست منار الهدى، وظهرت أعلام الردى، فهي متجهمة لاهلها، عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة وطعامها الجيفة ودثارها السيف ...». «1»

«بعثه والناس ضلال في حيرة وخابطون في فتنة قد استهوتهم الأهواء، واستنزلتهم الكبرياء، وأستخفتهم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر وبلاءٍ من الجهل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة باب الخطب 156- 157

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 158

فبالغ صلى الله عليه و آله في النصيحة، ومضى على الطريقة ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة. «1»

ولئن سأل سائل هلا تكون «فترة من الرسل» خلواً عن حجة الرسالة نقضاً لبالغ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أقول: وهنا خطب أخرى كالتالية: «إلى أن بعث اللَّه سبحانه محمد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لإنجاز عدته وتمام نبوته، مأخوذاً على النبيين ميثاقه، مشهوراً سماته، كريماً ميلاده، وأهل الأرض يومئذٍ ملل متفرقة، وأهواءً منتشرة، وطرائق متشتتة، بين مشبِّه للَّه‏بخلقه، أو ملحد في السمة، أو مشير إلى غيره، فهداهم به من الضلال، وأنقذهم بمكانة من الجهالة ...» (الخطبة 1/ 32) ..

«أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامح، والأمر الصادع، إزاحة للشبهات، وإحتجاجاً بالبينات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثلات، والناس في فتن انجذم فيها حبل الدين، وتزعزعت سواري اليقين، واختلف النجر، وتشتت الأمر، وضاق المخرج، وعمي المصدر، فالهدى خامل، والعمى شامل، عُصي الرحمن ونُصر الشيطان، وخُذل الإيمان فأنهارت دعائمه، وتنكرت معالمه، ودرست سُبُله، وعفت شركه، أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله، بهم سارت أعلامه وقام لواءُه، في فتن داستهم بأخفائها، ووطئتهم بأظلافها، وقامت على سنابكها فهم فيها تائهون حائرون جاهلون مفتونون، في خير دار وشر جيران، نومهم سهود، وكحلهم دموع، بأرض عالمها ملجم، وجاهلها مكرم» (3: 36)

«إن اللَّه بعث محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شرِّ دين وفي شر دار، منيخون بين حجارة خُشن، وحيات صُمٍّ، تشربون الكدِر وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة» (36، 73).

«أرسله لإنفاذ أمره وإنهاء عذره وتقديم نُذُره» (181، 1، 136).

«وطال الأبد بهم ليستكملوا الخزي ويستوجبوا الغير، حتى إذا احلولق الأجل واستراح قوم إلى الفتن، وأشالوا عن لقاح حربهم، لم يمنوا على اللَّه بالصبر، ولم يستعظموا بذل أنفسهم في الحق، حتى إذا وافق وارد القضاء إنقطاع مدة البلاء، حملوا بصائرهم على أسيافهم، ودانوا لربهم بأمر واعظهم» (148- 263).

«أرسله بحجة كافية، وموعظة شافية، ودعوة متلافية، أظهر به الشرائع المجهولة، وقمع به البدل المدخولة، وبين به الأحكام المفصولة» (159، 286).

«بعثه حين لامكم قائم، ولا منار ساطع، ولا منهج واضح» (194، 385).

«ثم إن اللَّه سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه و آله بالحق حين دنى من الدنيا الإنقطاع، وأقبل من الآخرة الإطلاع، وأظلمت بهجتها بعد إشراق، وقامت بأهلها على ساق، وخشُن منها مهاد، وأزف منها قيادٌ، في إنقطاع من مدتها، وإقتراب من أشراطها، وتصرم من أهلها، وإنفصام من حلقتها، وإنتشار من سببها، وعفاءٍ من أعلامها، وتكشف من عورتها، وقِصر من طولها، جعله اللَّه بلاغاً لرسالته، وكرامة لامته، وربيعاً لأهل زمانه، ورِفعة لأعوانه، وشرفاً لأنصاره» (196، 390)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 159

الحجة فإعذاراً للمعتذرين وحجةً للناس على اللَّه رب العالمين، فإنهم: «رسلًا مبشرين ومنذرين لئلًا يكون للناس على اللَّه حجة بعد الرسل وكان اللَّه عزيزاً حكيماً» «1» فلا بد من حجة رسولية أو رسالية بين المكلفين لئلا يكون للناس على اللَّه حجة.

والجواب أن «فترة من الرسل» لا تعني خلواً من حجج الرسالات فإن صيغتها «فترة من الرسالات» دون «الرسل» فلا تعني «فترة من الرسل» إلا فترة من إبتعاث الرسل وحججهم باقية، مهما صعب الوصول إليها للتحريف، والتجديف في كتابات الرسل، والمؤمنون الصالحون علماءَ وسواهم يهتدون بهدي اللَّه إلى الوحي الأصيل كيفما كان التحريف.

فما مثل العائشين في «فترة من الرسل» إلا كمثل العائشين بعد خاتم الرسل صلى الله عليه و آله إلى يوم الدين، والفارق ليس في أصل الحجة المحلقة على كل الأدوار، إنما هو في وضوح المحجة للوصول إلى الحجة في الأخرين، وصعوبتها في الأولين وسهولتها في الآخرين.

فالناقد البصير زمن الفترة الرسولية بإمكانه التخلص عن كل دخيل دجيل وإن صعب، فأفضل الأعمال أحمزها، ثم المتخلف عن شرعة اللَّه في هذه الفترة ليس ليحاسب كما المختلف عنها في زمن الرسل أو الرسالة الباهرة بحججها.

ذلك، فقد كان الطريق للوصول إلى حجة الوحي مفتوحاً زمن الفترة للذين يتطرقون إليه، ولا سيما وأن الراسخين في العلم من أهل الكتاب يعلمون الأصيل من وحي الكتباب عن الدخيل: «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك ...» «2» فالعوام منهم المهتدون المؤمنون عليهم الإقتداء بهؤلاء الراسخين في العلم منهم، ثم العوام الآخرون مصيرهم مصير هؤلاء الذين يحرفون الكتاب أم هم راضون، إذاً فالحجة الرسالية لم تفتر في زمن الفترة الرسولية، وإحدى الحجتين كافية لقطع العذر، ولكن الرحمة تقتضي ألا يكتفى في الحجة البالغة بما هي غارقة في لجة التحريف، فليزل بعد هذه المحرفات كتاب يبقى وحياً أصيلًا دون أي دخيل، مناراً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 165

(2). 4: 162

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 160

للعالمين إلى يوم الدين.

ذلك، وبصورة عامة إن سيرة الرسالة سائرة على مدار زمن التكليف دونما تجافٍ عنها وإن لحظة واحدة، فقد «أصطفى سبحان من ولد آدم أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لما بدّل أكثر خلقه عهد اللَّه إليهم، فجهلوا حقه، وأتخذوا الأنداد معه، وأجتالتهم الشياطين عن معرفته، وأقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكِّروهم منسيِّ نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويُروهم الآيات المقدَّرة، من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تُفنيهم، وأوصاب تُهرمهم، وأحداث تتابع عليهم. ولم يُخل سبحانه خلقه من نبيّ مرسل، أو كتاب منزل، أو حجة لازمة، أو محجَّة قائمة، رسلٌ لا تقصَّر بهم قلة عددهم، ولا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمَّي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء وخلفت الأبناء». «1»

ذلك، «وليقيم الحجة به (آدم) على عباده، ولم يُخلهم بعد أن قبضه، مما يؤكد حجة ربوبيته، ويصل بينهم وبين معرفته، بل تعاهدهم بالحجج على ألسن الخيرة من أنبياءه، ومتحملي ودائع رسالاته قرناً فقرناً، حتى تمت بنبينا محمد صلى الله عليه و آله حجتُه، وبلغ المقطع عُذْره ونُذُرُه». «2»

وهكذا «فاستودعتهم في أفضل مستودع، وأقرَّهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الارحام، كلَّما مضى منهم سلف قام منهم بدين اللَّه خَلف، حتى أفضت كرامة اللَّه سبحانه إلى محمد صلى الله عليه و آله ... أرسله على حين فترة من الرسل، وهفوة عن العمل، وغباوة من الأمم ...». «3»

فقد «بعث اللَّه رسله بما صخهم به من وحيه، وجعلهم حجة له على خلقه، لئلا تجب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطة 1: 31

(2). الخطبة 89/ 3/ 174

(3). الخطبة 92/ 185

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 161

الحجة لهم يترك الإعذار إليهم، فدعاهم بلسان الصدق إلى سبيل الحق-.

ألا إن اللَّه كشف الخلق كشفة، لا أنه جهل ما أخفوه من مصون أسرارهم، ومكنون ضمائرهم، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، فيكون الثواب جزاءً والعقاب بواءً». «1»

«وبعث إلى الجن والإنس رسله، ليكشفوا لهم من غطاءها:- الدنيا- وليحذِّروهم من ضرَّائها، وليضربوا لهم أمثالها، وليبصروهم عيوبها، ويهجموا عليهم بمعتبر من تصرف مصاحها وأسقامها، وحلالها وحرامها، وما اعد اللَّه للمطيعين منهم والعصاة، من جنة ونار، وكرامة وهوان» ... «2»

«فيها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عُمرُه عليه حجة» «3» «فقد أنذر اللَّه إليكم بحجج مسفرة ظاهرة، وكتب بارزة العذر واضحة». «4»

«اللهم بلى لا تخلو الارض من قائم للَّه‏بحجة، إما ظاهراً مشهوراً، أو خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج اللَّه وبيِّناته، وكم ذا وأين أولئك؟ أولئك الأقلون عداً، والأعظمون عند اللَّه قدراً، يحفظ اللَّه بهم حججه وبيِّناته حتى يودعوها نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم». «5»

أجل «... قد جاءكم ... أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير» فمن مهامِّ الأهداف في هذه الرسالة الأخيرة هو قطع الأعذار عن بكرتها عن «أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير» فقد قضت علينا الفترة الرسالية وحرفت كتب السماء عن جهات أشراعها، فلا هي معصومة تصلح الرجوع إليها والإعتماد عليها، ولا «جاءنا» بعد الرسل والكتب السالقة «من بشير ولا نذير» معصوم يعتمد عليه مهما كان العلماء كثرة، ولكنهم كانوا منجرفين بالجوارف ومنخرفين بالخوارف إلا القليل من الضعفاء في مسرح الدعوة.

فلقد ضعفت الدعوة والدعاية وابتعدت الحجة زمن الفترة لحد كادت أن تكون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 142/ 255

(2). الخطبة 181/ 330

(3). الخطبة 62/ 118

(4). الخطبة 134. 79

(5). 147 ح/ 595

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 162

حجة الضالين بالغة- ولن تبلغ- فابتعث اللَّه ذلك الرسول العظيم بهذه الرسالة العظيمة قطعاً لكل الاعذار والحجج منذ بزوغها إلى يوم الدين.

فلو لا هذه الرسالة واستمر زمن الفترة لكانت الحجة على اللَّه- وعوذاً باللَّه- واقعة، ولضل المكلفون عن بكرتهم إلا القليل القليل من الأوحدي ذوي البصائر والنُّهى.

«فقد جاءكم بشير ونذير» وذلك البشير النذير الأخير هو المهيمن بكتابه على كل بشير سالف ونذير بكتاباتهم، لولاه لانفصمت أعلام الهدى عن بكرتها وأنطمست.

«واللَّه على كل شي‏ء قدير» ومن أهم الأشياء التي تحتاج إلى قمة عالية من القدرة ابتعاث رسلو يقطع طافة الأعذار في كافة الحقول لكافة الأمم عن بكرتها، اذ خلصهم بأسرهم عن أسرهم.

وهنا «أن تقولوا» لا تخاطب- فقط- أهل الكتاب، بل وبأحرى غيرهم من عامة المكلفين، فلو لا ذلك البشير النذير الأخير لقضي على بشارة الوحي ونذارته عن بكرتها، حيث الكتب السالفة محرَّفة فلا تصلح لدعوة صالحة، فليس لمتحري الحق أن يتحراه عن سابقه، ولا حاضره، ثم المكلفون منذ الفترة إلى يوم الدين تبقى لهم هذه الحجة العاذرة ثابتة صادقة: «ما جاءنا من نذير».

ذلك وكما أن هذه الرسالة بين العرب تقطع أعذارهم: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ‏ا 154 وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ‏ا 155 أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ا 156 أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ».

فهذه الرسالة السامية هي قاطعة الأعذار في الطول التاريخي والعرض الجغرافي.

في هذه الرسالة تتجاوب براهين الرسالة العامة والخاصة، فقد كتب اللَّه على نفسه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 163

الرحمة، ولا سيما رحمة الهداية على ضوء الوحي، ومن الرحمة الربانية في حقل الشرعة أن تكون وحيدة تجمع كافة المكلفين، فما هي هذه الشرعة الوحيدة الصالحة ببراهينها وواقعها لإسعادهم عن بكرتهم.

الخطوة الأولى لسائر الرسالات- لو لا القرآن- فاشلة، إذ لم تبق من حجج الرسل باقية واقية تصلح للإحتجاج بها، فإن آياتهم الرسولية انقرضت معهم، ثم وآياتهم الرسالية، هي كتبهم اصبحت- ومنذ أمد بعيد- محرفة عن جهات أشراعها، ولا نجد إلا القرآن العظيم الجامع في نفسه الحجة الرسولية والرسالية، المهيمنة لما سبقه من رسل ورسالات.

و «يبين لكم» وما أشبه ككل تعم تبيين كلَّما يحق تبيينه من الحق من ظاهر أو باطن دونما استثناء، فالقيلة الغائلة الصوفية أن وراء الشريعة حقيقة لا تُنال إلا بطقوس خاصة أخرى غير قشور الشريعة، هذه إزراء باللَّه تعالى كأنه قصَّر في مادة الإرسال، وإزراء بالرسول صلى الله عليه و آله كأنه قاصر في ذلك البلاغ.

فإن كان مما يقولونه هو من الباطن حقاً لكان المشرع أحق بإعلانه كما يعلنون، وإن لم يكن هو الحق فماذا بعد الحق إلَّا الضلال فأنَّى يؤفكون.

كلَّا، إن الباطن، الحق كله مطوى في الظواهر الدينية، كلما أقيمت كالمرسوم في شرعة اللَّه ظهرت تلك الحقائق قدرها واللَّه من وراء القصد.

وفي رجعة أخرى إلى الآية انتباهات تالية:

في إختصاص الخطاب هنا بأهل الكتاب لمحة باختصاصهم أكثر ممن سواهم بتلك النعمة الرسولية حيث‏ «يبين لكم على فترة من الرسل» فإنهم هم المبتلون ببلية التحريف والإختلاف قاصرين ومقصرين، فهذه لهم بشرى سارَّة أن يجيئهم هذا الرسول الذي يبين لهم- كما للعالمين- كل شي‏ء.

ثم «من الرسل» جمعاً محلّى باللام تستغرق فترة منهم كلَّهم إلَّا الذي جاء أخيراً، فلتكن فترة متصلة بمجيئه، دون فترة أو فترات سابقة منفصلة عنه، كما وأن «فترة»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 164

منكرَّة تشير إلى وحدة هذه الفترة.

ثم هنا «فترة من الرسل» تدل- فقط- على فترة رسولية، ولا ورسالية حيث الفترتان هما قاضيتان على حجة بالغة إلهية في تلك الفترة ...

فمما لا يريبه شكٌ ضرورة حجة بالغة إلهية رسولية أو رسالية في كل أدوار التكليف، والجمع أبلغ لانضمام الداعية المعصومة إلى مادة الدعوة الرسالية المعصومة.

فحينما «أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه .. (44) ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون (45) .. وجعلنا ابن مريم وأمه آية .. (50)» وذلك بعد طوفان نوح عليه السلام حينذاك- وهو الردح العظيم من الزمن الرسولي والرسالي- كانت الأمم تعيش الحجتين البالغتين.

ثم في «فترة من الرسل» عاش المكلفون حجة رسالية محرَّفة كان بالإمكان الحصول على أصيل الوحي فيها من الدخيل.

ومن ثم في زمن الرسول محمد صلى الله عليه و آله وعترته المعصومين عليهم السلام عاشوا الحجتين كما السابقين قبل الفترة، وفي زمن الغيبة الكبرى يعيشون الحجة الرسالية البالغة غير المحرفة وهي القرآن العظيم.

وطالما أصل التكليف في أية شرعة إبتلاء، فالذين عاشوا أكثر من شرعة واحدة كان لهم إبتلاءٌ ثان هو النقلة إلى شرعة أخرى، والعائشون الفترة الرسولية بين المسيح ومحمد عليهما السلام لهم ثان هو إبتلاء هم بشرعة محرفة، وهكذا نجد مختلف الإبتلاآت إضافة إلى أصل كل شرعة، مهما اختلفت ألوان هذه الإبتلاآت.

ولكنما الحجة البالغة الإلهية القاطعة للأعذار عاشت كافة المكلفين، مهما زادت بإضافة الحجة الرسولية، أم نقضت بتحرُّف الحجة الرسالية، ولكن أصل الحجة الممكن الوصول إليها محفوظ على مدارات الزمن الرسالي بأسرها دونما إستثناء، مهما كان في الرسالة الأخيرة «إنفاذ أمره، وإنهاء عذره وتقديم نذره» «1» ف «أوصيكم بتقوى اللَّه الذي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 81/ 1/ 126

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 165

أعذر بما أنذر، وأحتج بما نهج وحذركم عدواً نفذ في الصدور خفياً» ... «1»

وهنا «أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير» قطع لعذر القوة في البشارة والنذارة لمكان الفترة الرسولية والتحريف الرسالي في هذه الفترة، فبقاء هذه الفترة هو إبقاءٌ لقاصر الحجة البالغة مهما كان قاطعاً للأعذار ردحاً من الزمن، فأما أن تستمر هذه الفترة أكثر مما أستمرت أم وإلى يوم الدين فقد كان لذلك العذر من مكان، ولكن‏ «فقد جاءكم بشير ونذير» رسولي إلى مادة مديدة من تلك البشارة والإنذار هي القرآن العظيم.

ذلك، وكما يقول اللَّه تعالى عن فترة الاختلاف والإختلاق: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ». «2»

فالمختلفون المختلقون والذين أتبعوهم تقليداً أعمى هم، المقصرون، والقاصرون هم القاصرون على أية حال مهما اختلف المجال، ثم «الذين آمنوا» مهديون بهدي اللَّه لِما اختلف المقصرون فيه من الحق.

فرغم التحريفات المتنوعة في كتابات الوحي السالقة، فهنا في ميدان الإيمان دور دائر للهدى الربانية، حيث المؤمن ينظر بنور اللَّه واللَّه ضامن هداه.

إذاً فمهما كان الوصول إلى الهدي في زمن الفترة الرسولية والتحريفات الرسالية، صعباً مستصعباً، فالحجة البالغة الرسالية فيها باقية مهما كانت صعبة الوصول وشددية الحصول، فالإبتلاآت الربانية ضروب في مختلف الشرائع والمكلفين والأدوار الرسالية، ولكلٍّ قدرُ سعيه ووعيه.

إذاً فلا يعني دور الفترة إنقطاع الحجة عن بكرتها حتى تكون للناس على اللَّه حجة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 881/ 2/ 145

(2). 2: 213

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 166

حيث الغرقي فيها كثيرة في اللجة.

فالضرورة القائمة على مدار زمن التكليف هي ضرورة وجود الحجة الرسالية سواء أكانت معها رسل أم لا، وضرورة تواتر الرسل قبل الرسالة الأخيرة، إنما هي للحفاظ على صالح الرسالة المعصومة غير المنحرفة، فقد عاشت البشرية أدواراً أربعة غير خالية عن حجة ربانية، ففي تواتر الرسل تلاحقهم حفاظ على سليم الدعوة الرسولية والرسالية، لمكان التبيين لكل التحريفات الكتابية بمنطق الوحي.

ثم في زمن الفترة الرسولية عن بكرتها والفترة الرسالية الظاهرة بتحرُّف كتب السماء، كان اللَّه مع هؤلاء الذين آمنوا «فهدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه واللَّه يدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

ومن ثم في زمن الرسالة الإسلامية، المنقسمة إلى أدوار ثلاثة، تجد العصمة الرسالية المتمثلة في القرآن خالدة على مدار الزمن الإسلامي إلى يوم الدين، مهما اختلفت صور القيادة الرسولية، عصمة زمن الرسول صلى الله عليه و آله وسائر المعصومين عليهم السلام، وتالية تلو العصمة زمن الغيبة الكبرى، حيث المدار الأصيل في كل هذه الأدوار الثلاثة هو الثقل الأكبر:

القرآن العظيم.

فأين فترة الحجة الربانية عن بكرتها في أيِّ دور من أدوار زمن التكليف؟.

وترى حكمة الإبتلاء في تبدل الشرائع كيف لا تستمر إلى يوم الدين؟

لأن للإبتلاء صوراً عدة، منها تبدل الشرائع وله حدٌ مّا هو التبدل إلى شريعة كاملة كافلة لكل الحاجات إلى يوم الدين وهي شرعة القرآن العظيم، ففيها ما في الشرائع وزيادة، ثم فيها ابتلاآت أخرى من أهمها بلية الغيبة الكبرى، حيث لا تقل عن بليات الشرائع بالحجج الرسولية لحاضري الرسل.

فقد ابتليت الأمم الرسالية- إضافة إلى مشترك الإبتلاء في نفس الرسالة- بابتلاآت ثلاث متمايزة في شكلياتها، متحدة في أصولها، فقد ابتليت شطراً باختلاف الشرائع، وردحاً بفترة من الرسل، والأخير هو الإبتلاء بالغيبة الكبرى بطول أمدها،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 167

فقد انقضى دور الإبتلاء بعديد الشرائع وفترة الرسل فابتليت الأمة الاخيرة بالغيبة الكبرى، ولا تقل عما قبلها من نوعي الإبتلاء، اللَّهم الا من ابتلاء الفترة الرسولية.

ذلك، مهما كان البعض لهم ابتلاء واحد كأصل الشرعة فيمن لم يعيشوا إلا شرعة واحدة رسولًا ورسالة، أم وثانياً ما عاشوا أكثر من شرعة رسولًا ورسالة، أم وثالثاً فيمن عاشوا إلى ذلك زمن الفترة أو زمن الغيبة الكبرى.

الخلافة الرسولية انتصابية

«إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». «1»

جملة معترضة إعترضت بين قالتي موسى لهم، تجمع في تنديدها بني إسرائيل إلى آل فرعون، فيا يا بني إسرائيل «إن هؤلاء» الفرعونيين وسائر الوثنيين «متبرَّ» منقطع «ما هم فيه» من عبادة آلهة دون اللَّه «وباطل وما كانوا يعملون».

وما كل من يسمع إلى هذه القصة «إن هؤلاء» من بني إسرائيل ... فهم قوم بوار تبار حيث تركوا عبادة اللَّه الواحد القهار إلى عبادة خلقه الضعاف النحاف.

«قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ\* وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ». «2»

فيا سبحان اللَّه قوم أنجاهم اللَّه من عبودية الطاغية، وجاوز بهم البحر وأهلك عدوهم وأراهم الآيات العظام ثم سألوا رسول التوحيد الشرك دون فصل! ولقد جاء من نظراءهم بصورة أخف من هذه الأمة حيث «خرجنا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قبل حنين فمررنا بسدة فقلت يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، كان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها- وكانت تُعبد من دون اللَّه- فقال النبي صلى الله عليه و آله: اللَّه أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 139

(2). 7: 141

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 168

إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم». «1»

فيا أغبياء! «أغير اللَّه أبغير إلهاً» لكم «وهو» الذي‏ «فضلكم على العالمين» بمكرمات «و» أذكر منها «إذا أنجيناكم من آل فرعون ... وفي ذلكم» السوم من العذاب‏ «بلاءٌ من ربكم عظيم» حيث إبتلاكم به لردح من الزمن ثم تمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل لينظر كيف يعملون.

هنا عرض لقصة المواعدة الموسوية وفي طه مثلها باختلاف يسير في التعبير، وبينهما بعض الميزات الخاصة بكلّ فصلنا التي ل «طه» فيها، وهنا قول فصل حول آيته ما يخصها.

«وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِاخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ». «2»

هنا عديد المواعدة مذكر دون «طه»: «وواعدناكم جانب الطور» «3» ولكنها في البقرة: «وإذا واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون». «4»

ف «أربعين» هناك هي مجموع المواعدتين المتصلتين، و «ثلاثين» هنا هي ظاهرة أولى للمواعدة دون حصر حيث «وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة «5» ف «ثلاثين»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 114 عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا ...

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني من طريق كثير بن عبد اللَّه بن عوف عن أبيه عن جده قال: غزونا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عام الفتح ونحن ألف ونيف ففتح اللَّه له مكة وحنيناً حتى إذا كنا بين حنين والطائف أرض شجرة دنوا عظيمة سدر كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون اللَّه فلما رآها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله صرف عنهم في يوم طائف إلى ظل هو أدنى منها فقال له رجل: يا رسول اللَّه إجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إنها السنن قلتم، والذي نفس محمد بيده كما قالت بنو إسرائيل: إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة

(2). 7: 142

(3). 20: 80

(4). 2: 51

(5). نور الثقلين 2: 61 عن أبي جعفر الباقر عليهما السلام أن موسى قال لقومه: إني أتأخر عنكم ثلاثين‏يوماً ليتسهل عليكم ثم زاد عليهم عشراً وليس في ذلك خلف لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة فقد تأخر ثلاثين قبلها، وفيه عن الفضل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: لهذا الأمر وقت؟ فقال: كذب الوقاتون كذاب الوقاتون كذب الوقاتون إن موسى عليه السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعدهم ثلاثين يوماً فلما زاده اللَّه على الثلاثين عشراً قال قومه: قد أخلفنا فصنعوا ما صنعوا فإذا حدثناكم الحديث فجاء على ما حدثناكم به فقولوا: صدق اللَّه، وإذا حدثناكم الحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا: صدق اللَّه تؤجروا مرتين.

وفي تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن موسى عليه السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعدهم ثلاثين يوماً فلما زادا له على الثلاثين عشراً قال قومه: أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 169

هي في صيغة التعبير كانت إمتحاناً لبني إسرائيل دون أن يعلموا «وأتممناها بعشر» إبتلاء بهذه المتممة هل هم بعدُ على إنحرافهم الشركي أم أصلحوا أنفسهم فلا يضلون، ولكنهم ضلوا إلَّا قليلٌ بفتنتي مزيد العشر على الثلاثين. وعجل السامري: «قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامريُّ». «1»

وترى لا يستدل بظاهر العدد- إذاً- على ألَّا يُعنى أزيد منه كما لا يُعنى الأنقض. إن الأنقض هو خلاف النص، والأزيد قد يكون خلاف النص كما إذا كان العدد في مسرح الحصر فهو- إذاً- مصرح الحصر، كأن تُسأل ما عندك من الدراهم؟ فتقول: عندي عشرة، فإنها- إذاً- نص في لاعدد ينفي الأزيد كما ينفي الأنقص، وأخرى ليس خلاف النص، بل هو لأكثر تقدير ظاهر يقبل التحويل كأن تقول دون سؤال: عندي عشرة، فليس ينافيها أكثر منها حيث الأقل هو تحت الأكثر، وهكذا يعني قول اللَّه: «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر» فقد قال لهم موسى واعدني ربي ثلاثين ليلة، قبل أن تلحقها المواعدة الثانية، ومهما كانت الأولى ظاهرة في حصرها ولكن ليست بحيث يستدل بها على سلب مواعدة ثانية حتى إذا جاءت يقال: إن الأولى كاذبة، فقد تكون الأولى- كما هنا- لمصلحة تقتضيها، فلا يحتج بها على سلب الأخرى، مهما لا يحتج أيضاً على إيجابها، فلنسكت عما وراء العدد إيجاباً وسلباً، مهما يلمح بالسلب لما وراءه.

وهنا «ثلاثين ليلة» دورها دور السكوت عما وراءها، فإذا تأخر موسى السول كان ذلك دليلًا على وعد آخر يتلوها قبل أن يخبرهم موسى، ولا فرق- إذاً- بين «أتممناها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 20: 85

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 170

بعشر» بعد «ثلاثين ليلة» دون فصل بطرح الوحي، وبين ذلك الإتمام المستفاد من واقع التأخير لقوم موسى، والوحي الثاني بحمله لموسى نفسه.

ذلك، وحتى إذا كان العدد نصاً في الحصر ثم لحقته زيادة بنص آخر لا يكذَّب هذا الآخر فإن للنسخ مجالًا واسعاً حين نتأكد من النص الثاني، فضلًا عما هنا حيث العدد ليس نصاً في الحصر ولا ظاهراً بيناً، وإنما له لمحة الظهور.

وكضابطة في الأعداد وسائر القيود هي بين حالات ثلاث:

1- أن تدل قرائن على الحصر

2- أم على سلبه‏

3- أم لا دلالة على الحصر إيجابياً ولا سلبياً، وهنا «واعندنا موسى ثلاثين ليلة» من القبيل الثالث، مهما كان ظاهراً ظهوراً ما في الحصر، احتمالًا راجحاً لحصر المواعدة في (ثلاثين) ولكنه ليس حجة على كذب موسى بما «وأتممناها بعشر» أم كذب اللَّه وعوذاً باللَّه، حيث الأدلة القاطعة على كمال الصدق وتمامه في قول ا وقول رسول اللَّه، المبرهن على رسالته بآيات من اللَّه، هذه الأدلة تجعل ذلك الإحتمال اختمالًا وفي بوتقة النسيان، بل وحتى إذا ناقضت المواعدة الثانية الأولى فوجه النسخ موجه لا يدع مجالًا لفرية الكذب في الساحة الربانية والرسالية.

ذلك، فالقول: إن إثبات الشي‏ء لا ينافي ما عداه لا يصح إلَّا عند فقد القرائن على سلب أو إيجاب، فليست ضابطة تحلق على كل إثبات إنه لا ينفي ما عداه، إنما هو الإثبات غير الحاصر حدَّه بعدَّه أو مدَّه.

ثم المواعدة الخفية عن قوم موسى هل كانت خفية على موسى نفسه كما هم ثم أوحيت إليه بعد كمال الثلاثين، أم كان يعرفها عند المواعدة الأولى، دون سماح له أن يخبرهم بها؟ الظاهر أنه ما كان يعلمها كقومه على سواء، وإلّا لم تكن مواعدة ثانية، إنما هي مواعدة واحدة هي «أربعون ليلة».

إذاً ف «أتممناها بعشر» بمواعدة ثانية بعد الثلاثين أم ضمنه، دون أن تكون أوحيت إليه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 171

مع الأولى، اللهم إلا بتأويل أن اللَّه واعده الأولى أن يخبر بها قومه، ثم بعدها الثانية دون فصل ألا يخبرهم بها ابتلاءً لهم بما أثقلوا ببراهين الحق الحقيق بالتصديق، وهم مكذبوه، فهي- إذاً- من بلية الشر جزاءً وفاقاً، وعدلًا أوتوا من تلكم البراهين.

هذا، ولأن المواعدة كانت تشملهم أجمع حسب الجمع في طه: «واعدناكم» و « «وما أعجلك من قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى» فقد كانت المواعدة الأصلية هي ثلاثين ليلة ثم «وأتممناها بعشر» إتماماً للعدة المعنية بذلك العدد المبارك وعشر ذي الحجة.

وذلك وللأربعين عديداً ومعدوداً منزلتها في مختلف الحقول تكويناً وتشريعاً ف «ما أخلص عبد الإيمان باللَّه أربعين يوماً إلا زهده اللَّه في الدنيا وبصرّه داءها ودواءها وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه ..».

وهي هنا كما يروى ثلاثون ذي القعدة- حيث اتفقت هكذا حين المواعدة- وعشر من ذي الحجة، وما يروى سناداً إلى ثلاثين هذه أن ذا القعدة هي ثلاثون يوماً «1» هي خلاف الواقع المكرور، كما وأن «ثلاثين» في الآية لا تقرر نفس العدد لذي القعدة على مدار الزمن!.

وإنما اختص ذكر «ليلة» دون «نهاراً» أو «أياماً» ل «إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلًا» «2» فإن فيه اجتماعاً للحواس عن سائر التفرقات الحيوية المعيشية أكثر من النهار.

ويا للأربعين من موقف مشرف تكويناً وتشريعاً، فمن التكوين أن كل رحلة من رحلات الجنين أربعون يوماً، ثم وفي التشريع قد بابعث النبي صلى الله عليه و آله في لاأربعين من عمره، وهكذا- كما يروى- سائر النبيين عليهم السلام «وليس صاحب هذا الأمر من جاز أربعين» أي في صورة من له أربعون، «ومن شرب الخمر لم تحتسب صلاته أربعين يوماً» و «من قرأ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ثلاثون يوماً لقول اللَّه عز وجل: «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة» ومثله في الكافي عنه عليه السلام.

أقول: أمثال هذه التطرفات هي تذوقات غير مسنودة إلى دليل تفترى على المعصومين عليهم السلام!

(2). 6: 73

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 172

الحمد أربعين مرة في الماء ثم يصب على المحموم يشفيه اللَّه» و «إن العبد لفي فسحة من أمره ما بينه وبين أربعين سنة فإذا بلغ أربعين سنة أوحى اللَّه عزَّ وجل إلى ملكيه أني قد عمرت عبدي عرماً فغلظاً وشدداً وتحفظاً وأكتبا عليه قليل عمله وكثيره وصغيره وكبيره» و «إذا بلغ العبد ثلاثاً وثلاثين سنة فقد بلغ أشده وإذا بلغ أربعين سنة فقد بلغ منتهاه فإذا طعن في إحدى وأربعين فهو في النقصان وينبغي لصاحب الخمسين أن يكون كمن كان في النزع ...» «وأبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده» و «إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب مسح إبليس وجهه وقال: بأبي وجهه لا يفلح» و «من حفظ من أمتي أربعين حديثاً وجهه مما يحتاجون إليه من أمر دينهم بعثه اللَّه يوم القيامة فقيهاً عالماً» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أربعين حديثاً يعم القرآن والسنة، بل القرآن أحرى أن يكون حديثاً: «بأي حدث بعد اللَّه‏وأيته يؤمنون» ثم ولا يعني «حفظ» فقط حفظاً عن ظهر القلب، بل هو كامل الحفظ تعلماً وتخلقاً وتطبيقاً في الأصول الثلاثة وفي الفروع. عشرة في الفروع العشرة، وثلاثين في الأصول الثلاثة، فطالما الحفاظ كثير ولكنما الرعاة قليل.

وقد يروى «من بلغ أربعين ولم يتعض فقد عصى» فقد تعنى مثلث العصى لهندسة كمال الإنسان وهي عصى الفطرة والعقلية والشرعة، استقامة على هذه العصي ليقوم في دين اللَّه سليماً صالحاً.

ذلك وقد ورد «على أمتي» بديلًا عن «من أمتي» كما في البحار 2: 156 ح 8 في العيون 2: 37 ح 99 عن الرضا عليه السلام وابن زهرة في الاربعين 39 بالطريق الاول من السند رقم 40 ورواه الشهيد الأول ي‏مقدمة أربعين بالإسناد رقم 64 وأخرجه كنز العمال 10: 452 ح 29185- أخرجه أبن الجوزي بلفظه عن علي عليه السلام الدار قطني في العلل عن أبن عباس بلفظ «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه اللَّه فقيهاً عالماً»، وأخرجه ابن حبان في الضعفاء عنه وابن عدي وابن عساكر عن طرق عن أبي هريرة وابن الجوزي أيضاً عن أنس وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة مرفوعاً، وذكر في التخريج عدة من المحدثين المخرجين لهذا الحديث تركناه اختصاراً وكما يناسب موسوعتنا التفسيرية.

ومما يشهد على أن الحفظ لا يعني- فقط- حفظاً عن ظهر الغيب، بل هو الحفاظ لأربعين على العامة في أمر الدين فردياً وجماعياً، كنماذج من أصول الدين وفروعه، وما رواه في الخصال بسند عن جعفر بن محمد عن أبيه الحسين بن علي عليهم السلام قال: إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أوصى إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وكان فيما أصى به أن قال له يا علي!: من حفظ من أمتي أربعين حديثاً يطلب بذلك وجه اللَّه عزَّ وجلَّ والدار الآخرة حشرة اللَّه يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. فقال علي عليه السلام يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أخبرني ما هذه الاحاديث؟ فقال: أن تؤمن باللَّه وحده لا شريك له، وتعبده ولا تعبد غيره، وتقيم الصلاة بوضوء سابغ في مواقيتها، ولا تؤخرها فإن في تأخيرها من غير علة غضب اللَّه عزَّ وجلَّ، وتؤدي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إذا كان لك مال وكنت مستطيعاً وأن لا تعق والديك، ولا تأكل مال اليتيم ظلماً، ولا تأكل الربا، ولا تشرب الخمر ولا شيئاً من الأشربة المسكرة، ولا تزني، ولا تلوط، ولا تمشي بالنميمة، ولا تحلف باللَّه كاذباً، ولا تسرق، ولا تشهد شهادة الزور لأحد قريباً كان أو بعيداً، ولا تقبل الحق ممن جاء به صغيراً أو كبيراً، وأن لا تركن إلى ظالم وإن كان حميماً قريباً، وأن لا تعمل بالهوى، ولا تقذف المحضة، ولا ترائي فإن أيسر الرياء شرك باللَّه عزَّ وجل، وأن لا تقول لقصير يا قصير، ولا لطويل يا طويل، تريد بذلك عيبه، وأن لا تسخر من أحد من خلق اللَّه، وأن تصبر على البلاء والمصيبة، وأن تشكر نعم اللَّه التي أنعم بها عليك، وأن لا تأمن عقاب اللَّه على ذنب تصيبه، وأن لا تقنط من رحمة اللَّه، وأن دتوب إلى اللَّه عزَّ وجلَّ من ذنوبك فإن التائب من ذنوبه كمن لا ذنب له، وأن لا تصر على الذنوب مع الإستغفار فتكون كالمستهزئين باللَّه وآياته ورسوله، وأن تعلم أن ما أصابك لم يكن يخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن لا تطلب سخط الخالق برضى المخلوق، وأن لا تؤثر الدنيا على الآخرة، لأن الدنيا فانية والآخرة باقية، وأن لا تبخل على إخوانك بما تقدر عليه، وأن تكون سريرتك كعلانيتك، وأن لا تكون علانيتك وسريرتك قبيحة، فإن فعلت ذلك كنت من المنافقين، وأن لا تكذب ولا تخالط الكذابين، وأن لا تغضب إذا سمعت حقاً، وأن تؤدب نفسك وأهلك وولدك وجيرانك على حسب الطاقة، وأن تعمل بما علمت، ولا تعاملن أحداً من خلق اللَّه عزَّ وجلَّ إلا بالحق، وأن تكون سهلًا للقريب والبعيد، وأن لا تكون جباراً عنيداً، وأن تكثر من التسبيح والتهليل والدعاء وذكر الموت وما بعده من القيامة والجنة والنار، وأن تكثر من قراءة القرآن، وتعمل بما فيه، وأن تستغنم البر والكرامة بالمؤمنين والمؤمنات، وأن تنظر إلى كل ما لا ترضى فعله لنفسك فلا تفعله بأحد من المؤمنين، وأن لا تمل من فعل الخير، ولا تثقل على أحد، وأن لا تمن على أحدٍ إذا أنعمت عليه، وأن تكون الدنيا عندك سجناً حتى يجعل اللَّه لك جنة-. فهذه أربعون حديثاً من استقام وحفظها عني من أمتي دخل الجنة برحمة اللَّه، وكان من أفضل الناس وأحبهم إلى اللَّه عزَّ وجلَّ بعد النبيين والصديقين، وحشرة اللَّه يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

وفي الخصال عنه صلى الله عليه و آله: «من حفظ من أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً يوم القيامة» أقول: وأفضل السنة هو القرآن، أصلًا لسائر السنة.

وفي صحيفة الرضا عليه السلام عن آباءه عليهم السلام قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً ينتفعون بها بعثه اللَّه تعالى يوم القيامة فقيهاً عالماً» (العوالم 2- 3: 465- 468)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 173

وقد «بكى آدم أربعين صباحاً على الجنة» و «أنصبَّ الماء من نوح من السماء أربعين صباحاً» «وأحتبس الوحي عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أربعين يوماً» «وأعتزل صلى الله عليه و آله عن خديجة أربعين صباحاً لحملها بفاطمة عليها السلام وولادتها إياها» «وتاه قوم موسى في التيه أربعين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 174

سنة» «وأملى اللَّه لفرعون ما بين الكلمتين أربعين سنة ثم أخذه اللَّه نكال الآخرة والأولى» و «إذا مات المؤمن فحضر جنازته أربعون رجلًا من المؤمنين فقالوا: اللهم إنا لا نعلم منه إلا خيراً وأنت أعلم به منا، قال اللَّه تبارك وتعالى: قد أجزت شهادتكم وغفرت له ما علمت مما لا تعلمون» «1».

«وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». «2»

أنا مريد أن أنصحكم رسالياً دلالة إلى الحق المُرام، ولكن «لا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم» ربانياً حملًا على الحق ف «إنك لا تهدي من أحييت ولكن اللَّه يهدي من يشاء» ولا سيما «إن كان اللَّه يريد أن يغويكم» بما غويتم ختماً على قلوبكم: «فلما زاغوا أزاغ اللَّه قلوبكم» ف «الأمر إلى اللَّه يهدي ويضل». «3»

فقد يريد اللَّه أن أنصح لكم دلالة إلى حق السبيل في شرعة الرسالة، ثم ويريد أن ينفع نصحي للذين يتحرون عن الحق حتى إذا وجدوه استقبلوه وقبلوه، وهو يريد إغواء الذين يحيدون عن الحق ويعارضونه، وعلى أية حال لست أنا بربكم حتى أنفعكم بنصحي إلَّا دلالة أو أغويكم وإنما «هو ربكم وإليه ترجعون» هو ربكم لا سواه في المسير والمصير وليس لي من الأمر شي‏ء إلا أنّني نذير وبشير، واللَّه على كل شي‏ءٍ قدير.

وهنا في «إن كان اللَّه يريد أن يغويكم» لمحة إلى أن استحقاق عذاب الإستئصال هو من خلفيات إغواء اللَّه كما «إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القولم فدمرناها تدميراً» «4»- فإن أمر المترفين بما يأمر من طاعة ثقيلة للَّه، حِملًا وجاه عباد اللَّه، أمراً لهؤلاء الذين يعلم أنهم يفسقون، إنما يعني هذا الأمر- فيما يعني- إغواءَهم بما غووا، وإزاغتهم بما زاغوا كما «وقيَّضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هذه كلها مروية عن الرسول صلى الله عليه و آله وعترته عليهم السلام كما في سفينة البحار 1: 504- 505

(2). 11: 34

(3). نور الثقلين 2: 349 في تفسير العياشي عن أبن أبي نصر البزنطي عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في الآية قال: ..

(4). 17: 16

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 175

وما خلفهم وحق عليهم القول» «1» و «إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً». «2»

إذاً فإغواء اللَّه تعالى لا يعني إلا تخييبه سبحانه لمستحقيه من رحمته، لكفرهم وذهابهم عن أمره: «فخلف من بعدهم خلْف أضاعوا الصلاة وأتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً» «3» أي خيبة من الرحمة، وإرتكاساً في النقمة.

«أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بري‏ءٌ مما تجرمون». «4»

أتراها آية معترضة لما افتري على محمد صلى الله عليه و آله؟ والدور كله في هذه الآيات لنوح عليه السلام! أم هي نكاية على قوم نوح مستعرضة لمحمد صلى الله عليه و آله؟.

نقول: إنها تعليقة على فرية المفترين منذ نوح إلى خاتم النبيين، هي تحليقة على هذه الفرية الجاهلة على الرسل أنهم مفترون على اللَّه «إن أفتريته» على ربي رغم بينة الرسالة «فعليَّ إجرامي» وليس عليكم، فأنتم معذورون في إيمانكم بحجة لارسالة البينة أمام اللَّه، ثم «علي إجرامي» إن أفتريته، أمام اللَّه، حيث يأخذني بجرمي هنا وفي الأخرى، فهنا: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين\* ثم لقطعنا منه الوتين» «5» حفاظاً على شرعته من الفرية، فحين لا يأخذني هنا، كان ذلك برهاناً آخر لا مرد له على صدقي، حاضراً أمامكم حاذراً إياكم، إضافة إلى سائر البراهين- مهما غاب عنكم أن يأخذني اللَّه في الأخرى-: «أم يقولون افترى على اللَّه كذباً فإن يشاء اللَّه يختم على قلبك ويمحُ اللَّه الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور» «6» «أم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 41: 25

(2). 19: 83

(3). 19: 59

(4). 11: 35

(5). 69: 45

(6). 42- 24

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 176

يقولون أفتراه قل إن إفتريته فلا تملكون لي من اللَّه شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم» «1»- «أم يقولون أفتراه بل هو الحق من ربك‏ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون». «2»

سورة الأعراف مكية وآياتها 206

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ‏

«المص\* كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ\* اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ». «3»

ولاية مطلقة قرآنية خالدة

لقد سميت «الأعراف» بها، لأنها سيدة الموقف البارز لرجال الأعراف، حيث هم شؤونهم بارزة بالموقف الأعلى يوم القيامة على الأعراف، تعريفاً بفريقي الجنة والنار، وتقريراً لمصير كل بأمر اللَّه، ولأنها برجالها لم تُذكر في سائر الذكر الحكيم، كما هم القمة العليا بين الرساليين المعصومين، فهم منقطعوا النظير، ذكراً في القرآن ومحتداً عند الرحيم الرحمن بمن يرأسهم من هذا الرسول صلى الله عليه و آله.

ذلك، إضافة إلى سائر الأعراف في مختلف حقول المعرفة الأعراف المتميزة في هذه السورة عما سواها، وكما هي طبيعة الحال في كل سورة أنها تختص بميِّزات ومواقف خاصة ليست فيما سواها كما هي فيها.

ندرس على أعراف الأعراف موضوع العقيدة بمختلف حقولها، ومختلف العقليات المأمور بها، ومختلف القابليات والفاعليات والواقعيات في مسارحها.

وهنا من مواضيع العقيدة- البارزة- عرضها عبر التأريخ اللإنساني ككل، في مجال الرحلة الإنسانية إبتداءً بالجنة الإبتدائية الدنيوية، وانتهاءً إليها الأخروية لمن عمل لها، عرضاً لموكب الإيمان الوضي‏ء من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه و آله.

رحلة طويلة للغاية، تقطعها السورة مرحلياً في مقاطع عدة، واقفة عند المواقف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 46: 8

(2). 32: 3

(3). 7: 1- 3

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 177

الرئيسية، البارزة المعالم منها، درساً عابراً لِمعتبر، تذكراً لمدِّكر.

ومن مواقفها الرئيسية المعرفية تبيان واقع أحكام الفطرة بصيغة الحوار «ألست بربكم قالوا بلى ...» عبارة أخرى من آية الفطرة في الروم.

أعراف وأعراف ندرسها على ضوء الأعراف عقيدية وأحكامية، آفاقية وأنفسية، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وملامح السورة تؤيد نزولها كما هيه، أم ولأقل تقدير أنها مؤلفة كسائر التأليف القرآني زمن الرسول صلى الله عليه و آله وقد كان يقرأها في صلواته. «1»

المص‏

مقطع من الحروف المقطَّعة القرآنية، التي هي برقيات رمزية خاصة بمهبط الوحي و «هي مفاتيح كنوز القرآن» لا نعرف منها معنى إلَّا ما عرفه اللَّه لنا أو أهلوها المعصوم عليهم السلام، إبتداءً برأس الزواية الرسولية، وإنتاءً إلى الزاوية الأخيرة الرسالية.

لقد قيلت في «المص» أقوال- كما في غيرها- وغيلت أغوال، لا تستند إلى ركن وثيق، وإذا عنت فيما تعنيه معاني بحساب حروف الأعداد «2» فليست فوضى جزاف أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 67- أخرج سمويه في فوائده عن زيد بن ثابت قال: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقرأ في المغرب بطولي الطولين «المص»، وعنه أنه صلى الله عليه و آله قرأ في المغرب بالأعراف في الركعتين جميعاً، وأخرج البيهقي في سننه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه و آله قرأ سورة الأعراف ي‏صلاة المغرب فرقها في ركعتين‏

(2). نور الثقلين 2: 1 في معاني الأخبار بسند أتى رجل من بني أمية- وكان زنديقاً- جعفر بن‏محمد عليه السلام فقال له: قول اللَّه: «المص» أي شي‏ء أراد بهذا وأي شي‏ء فيه من الحلال والحرام، وأي شي‏ء مما ينتفع به الناس؟ قال: فاغتاظ من ذلك جعفر بن محمد عليه السلام فقال: أمسك ويحك! الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون كم معك؟ فقال الرجل: مأة وإحدى وستون، فقال له جعفر بن محمد عليهما السلام فإذا انقضت سنة إحدى وستين ومأة ينقضي ملك أصحابك، قال: «ننظر فلما انقضت إحدى وستون ومأة عام دخل المسودة الكوفة وذهب ملكهم» أقول: هذا طرف من الطرف «المص» بحساب خاص وليس فوضى جزاف.

وعن تفسير القمي حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رئاب عن محمد بن قيس عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن حي بن أخطب وأبا ياسر بن أخطب ونفراً من اليهود من أهل نجران أتوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا له: أليس تذكر أن فيما أنزل إليك «ألم»؟ قال: بلى، قالوا: أتاك بها جبرئيل من عند اللَّه؟ قال: نعم، قالوا لقد بعث اللَّه أنيباء قبلك ما نعلم نبياً منهم ما مدة ملكه وما أكل أمته غيرك!

قال: فأقبل حي بن أخطب على أصحابه فقال لهم: الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة فعجب ممن يدخل في دين مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة، قال: ثم أقبل على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال له يا محمد هل مع هذا غيره؟ نعم، قال: هات، قال: «المص» قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذا مأة وإحدى وستون سنة، ثم قال لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله هل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قالت: «الر» قال: هذا أثقل وأطول، الالف واحد واللام ثلاثون والراء مأتان فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم، قال: هات قال «المر» قال: هذا أثقل وأطول، الالف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والراي مأتان، قال: فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم قال: قد التبس علينا أمرك فما ندري ما أعطيت ثم قاموا عنه ثم قال أبو ياسر لحي أخيه وما يدريك لعل محمداً قد جمع هذا كله وأكثر منه فقال أبو جعفر عليه السلام: «إن هذه الآيات أنزلت منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات وهي تجري في وجوه أخر على غير ما تأول به حي وأبو ياسر وأصحابه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 178

يحسبها كل كما يحب ويهوى، إنما هي حسابات خاصة بين اللَّه ورسول الوحي ورسالته.

وهنا «كتاب أنزل إليك» بعد «المص» مما تلمح أن المخاطب بها خصوص الرسول صلى الله عليه و آله، ثم «فلا يكن في صدرك حرج منه» تلميحة أخرى أن «المص» تحمل- فيما تحمل- طمأنة لخاطره الشريف أنه ماض في سبيله، مجتازاً عقباتها وعقوباتها، بفضل من اللَّه ورحمته.

«كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ». «1»

«المص» هو «كتاب أنزل إليك» وهذا القرآن «كتاب أنزل إليك» وقد يعني ماضي النزول في «هذا القرآن» نازل محكمه ليلة القدر، إلى نازل تفصيله في مثلث الزمان، تلحيقاً لمستقبله بماضيه لتحقق وقوعه كماضيه، فنازل الثلاث من مراحل النزول يزيل عنه كل حرج، وفي «المص» طمأنة رمزية بهذه البشارة السارة، أم- فقط- نازل ماضيه حتى الآن حيث لا يكلف إنذاراً وذكرى إلَّا بما نزل بالفعل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 2

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 179

«فلا يكن في صدرك حرج منه» وترى بالإمكان كائن الضيق من نازل القرآن في صدره المنشرح بما شرحه اللَّه قبل نزول القرآن ليأهل له، ومنذ بزوغ نزول القرآن؟:

«ألم نشرح لك صدرك»!، ولقد شرح اللَّه صدره صلى الله عليه و آله قبل نزول القرآن لينزل عليه منشرحاً، وشرحه بهذا القرآن ما لم يكن يشرح بغيره، فكيف «فلا يكن في صدرك حرج منه» تعني واقع ذلك الحرج!.

هنا في مثلث الحرج المحتمل نفسياً، وبلاغياً كأصل، وبلاغياً أمام ردود الفعل من المنذرين، لا موقع للحرج المنهي إلا الثالث فإن «أنزل إليك» من ربك يطمئنه أنه وحي الرحمن وليس من وحي الشيطان أم خليط منهما ودخَل من دجَل حتى يتحرج في نفسه، فغير النازل من اللَّه يحرج في نفسه لمكان الخطأ، ف «لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين»، «1» «حرج منه لتنذر به» مهما كان «ذكرى للمؤمنين» دون أي حرج أو مرج.

ف «لتنذر به) هي ذات تعلقين ثانيهما «حرج منه» مهما كانت «وذكرى للمؤمنين» ذات تعلق واحد وهو «أنزل إليك .. ذكرى للمؤمنين».

وقد تحتمل «ذكرى للمؤمنين» ك «لتنذر» أنها ذات تعلق ثان، حيث الصعوبات في سبيل «ذكرى للمؤمنين» واقعة مهما كانت أقل من «لتنذر به».

إذاً ف «أنزل»- «لتنذر به وذكرى للمؤمنين»- «فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين».

وترى ما هو ور «ذكرى للمؤمنين» وغيرهم أحوج منهم إلى ذكرى ثم وهو ذكرى للعالمين؟: «إن هو إلا ذكرى للعالمين». «2»

«ذكرى» هنا هي كما «هدىً للمتقين» تعني حاصلها، فمن يتذكر بالذكرى، أو يزداد ذكرى على ذكرى، فهو من المؤمنين، مهما اختلف إيمان أول عن إيمان ثان، فالأول حال الإيمان حيث يفتش عنه، والثاني هالته بعد حالته حيث يزداد به ذكرى: «وذكر فإن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 10: 94

(2). 6: 90

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 180

الذكرى تنفع المؤمنين». «1»

فطالما الإنذار شامل يحلق على كافة المكلفين، ولكن لا دور للذكرى إلَّا لمن ألقى السمع وهو شهيد ف «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» «2» فهو «هدىً وذكرى لأولي الألباب». «3»

فالذين كانت فيهم أجهزة الإستقبال للذكرى مفتوحة، كان القرآن لهم ذكرى معروفة، ثم الذين أغلقوا على أنفسهم هذه الأجهزة هو عليهم عمىً: «وننزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً». «4»

فقد اختص الحرج المنهي عنه رفعاً أو دفعاً بما هو من قضايا الدعوة بملابساته أمام الناكرين، ولا سيما القوم اللدُّ الذين كان يعيشهم منذ بزوغها.

وصحيح أنه‏ «ما كان على النبي من حرج فيما فرض اللَّه له» «5» إلَّا أن ملابسات هذه الدعوة- المليئة بالأشواك والأشلاء والعقبات- هي التي قد تُحرج الداعية فتُحوِجه إلى إنشراح أكثر وإنفتاح أوفر في استقبال هذه الدعوة الملتوية.

ذلك، لأن هذا الكتاب بتلك الدعوة الصارمة الصامدة، صدعاً بما فيه من الحق، ومواجهةً للمرسل إليهم بما لا يحبون، ومجابهةً لعقائد وتقاليد ورباطات جاهلية، ومعارضةً لنُظُم وأوضاع، لذلك كله وما أشبه من ملابسات الدعوة، ليست طبيعة حال الداعية فيها إلا حرج واقع ليس ليزول إلّا بتصبُّر زائد، وصمود حائد، وتوفيق خاص من اللَّه، و «إن اللَّه تعالى لما أنزل القرآن إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: إني أخشى أن يكذبني الناس ويلثفوا- يكسروا- رأسي ويتركوه كالخبزة فأزال اللَّه الخوف عنه بهذه الآية». «6»

أو وحرج مستقبل في مستقبلات الدعوة عليه أن يطارده بتصبر وصمود بما وعده‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 51: 55

(2). 50: 37

(3). 40: 54

(4). 17: 82

(5). 33: 38

(6). نور الثقلين 2: 4 في مجمع البيان وقد روي في الخبر أن اللَّه.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 181

اللَّه النصر: «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد». «1»

لذلك «فلا يكن في صدرك حرج منه» لأنه «كتاب أنزل إليك» من ربك، فالذي أنزله إليك هو حاسب كل حساباته، فخذ يا صاحب الدعوة الأخيرة مسيرك إلى مصيرك، ولا تتحرج في مواقفك، ولا تتخرَّج إلا موفقاً محبوراً، فسر وعين اللَّه ترعاك.

وهنا «لا يكن» نهي عن أن يكون، وليس نهياً عما هو كائن، فقد تعني كما تعنيه‏ «فلا يَصَّدنَّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى» «2» في موسى، وفي أضرابها لأضرابه من الدعاة الرساليين، وبأحرى في هذا الرسول: ف «ما كان على النبي من حرج فيما فرض اللَّه له». «3»

و «لإن أشركت ليحبطن عملك ..» وما أشبه، إعلاناً جاهراً في هذه الإذاعة القرآنية ألَّا خُمود ولا رُكود ولا إرتجاع لهذه الداعية عن الدعوة، فليحسب الأعداء والمتاجرون كل حساباتهم، ولييأسوا عن القضاء عليه بمختلف المكائد والمصائد.

ثم ولو كان هنا واقع لذلك الحرج- لو خلي الرسول وطبعه- فهو كما كان لموسى أمام الدعوة الفرعونية حيث‏ «قال رب إشرح لي صدري .. قال قد أوتيت سؤلك يا موسى» «4» والنهي عن هذا الحرج يعني الأمر بإزالته بما هو يسعى، وما يرجوه من اللَّه، أم يعنيهما رفعاً ودفعاً، رفعاً لما كان، ودفعاً عما قد يكون من حرج في هذه السبيل الطويلة الملتوية الصعبة، فلقد نازلوه بضربات هدَّامه وواصلوا الدعايات المحتالة المتواصلة في تكذيبة لحدكان ينوي أن يترك بعض ما أوحي اللَّه فنزلت: «فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضايقٌ به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك» «5» «ولقد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 40: 51

(2). 20: 16

(3). 33: 38

(4). 20: 36

(5). 11: 12

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 182

نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون. فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين» «1» «ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون». «2»

وفي الحق إن ذلك الحرج هو حجر عثرة لكل داعية إلّا من عصمه اللَّه وهداه، وقد أُمر هذا الرسول العظيم بالصبر: «فاصبرو ما صبرك إلَّا باللَّه ولا تكن في ضيق مما يمركون» «3» والإستقامة «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك». «4»

فهذا «كتاب أنزل إليك .. لتنذر به وذكرى للمؤمنين» «فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين» فاشدد شِمرك، وتغاضَّ عن إمرك في أمرك، فلا يمنعك عنه أي مانع، ولا يفت عضدك في صراعه أي رادع، سِر فعين اللَّه يرعاك.

ذلك كما و «آلمص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج» مما يلمح أن «المص» تحمل- فيما تحمل- طَمأنةً لخاطر الرسول) صلى الله عليه و آله أن دعوته ماشية ماضية مهما كثرت العراقيل أمامها.

إذاً ف «آلمص» وهذا القرآن «كتاب أنزل إليك» من ربك الذي رباك بالقمة الرسالية، فلم يكن ليدعك وحدك تتواتر عليك الرزايا التي ترضُّك، فاللَّه ربك هو الذي ينصرك ويرضيك ويوهن منا وئيك.

«كتاب أنزل إليك .. لتنذر به وذكرى- فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى» فإنما هو الإنذار بالقرآن دون سواه، حقاً لرسول القرآن، إنذاراً بثابت الوحي الرباني.

فلا تجوز الدعوة الربانية إلا بعلم الوحي دون سائر العلم، وذلك طليق للرسل وسائر المعصومين، وهو قدر المستطاع لمن سواهم.

ذلك، فليس لرسول صلى الله عليه و آله وحده هو صاحب المسؤولية في هذا الميدان، وإنما هو المسؤول الأول ما كان حياً، ثم الذين يحملون رسالته إلى يوم الدين، طولَ الزمان وعرضَ المكان، فإن الإسلام ليس حدثاً تأريخياً حصل مرة ثم مضى، بل هو- قضيةَ خلوده على مدار الزمن- مواجهةٌ دائبة لمكلفين أيّاً كانوا وأيان إلى يوم الدين، وعلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 15: 98

(2). 27: 70

(3). 16: 127

(4). 11: 112

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 183

حَمَلة هذه الرسالة- معصومين وسواهم- مواصلة الدعوة الصابرة الصامدة أمام كافة الجاهليات، غابرة متأخرة، وحاضرة متحضرة، حركة متواصلة وسبحاً طويلًا لاستنقاذ البشرية من مستنقعات الجاهلية الجهلاء: «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك» «محمد رسول اللَّه والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ..». «1»

ولقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء ذلك الدين المتين، وانتكست البشرية إلى جاهلية هي أعرق وأحمق من الجاهلية الأولى، حيث شملت كل جوانب الحياة دون إبقاء، فإنها جاهلية علمية علمانية متحضرة تخيِّل إلى المجاهيل أنها تقدُّمية بيضاء، رغم أنها رجعية سوداء، ضاربة أطنابها في كل أرجاء الأرض بكل جنبات الحياة، فلا بد من كفاح صارم قدر المستطاع، وبقدر ما اتسعت هذه الجاهلية في وجه الشرعة القرآنية بين أغارب وأقارب.

ولقد تكفي الدعوة القرآنية صداً لكل الهجمات الجاهلية بكل معداتها المتحضرة فانه كتاب الخلود: «أو لم يكفهم أنا انزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم ..»؟.

ذلك، وهنا حرج آخر داخل في النهي هو الحرج عما أنزل إليه إذا كان باطلًا أم خليطاً من الحق والباطل، ولأنه «كتاب أنزل إليك» من ربك، تأكيداً جاهراً أمام العالمين لكي يعلموا على علمه صلى الله عليه و آله أنه كتاب لا يحرِّج الداعية في الدعوة.

فعصمة الداعية إلى عصمة مادة الدعوة هما يعصمانه عن أي خطإٍ قصوراً أو تقصيراً، ثم عصمة الداعية عن أي تقصير، على عدم عصمته عن قصور غير مقصر، تعصمه عن كثير من الأخطاء.

فأما إذا كانت مادة الدعوة غير معصومة، أم هي معصومة والداعية مقصر أو قاصر بتقصير، فهنالك الطامة الكبرى، ولذلك نرى تأكيد الأمر بالشورى من الرعيل الأعلى الربانّي الأمة: «وأمرهم شورى بينهم» حتى يُجبِروا عدم العصمة للدعات غير المعصومين، وهنا «للمصيب أجران وللمخطى‏ء أجر واحد» إذا كان خطأ قضية عدم العصمة فقط، دون الخطإِ القاصر عن تقصير.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 29: 48

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 184

ففي مثلت الحرج لا يُعنى منه حرج صدر من الوحي! بل هو حرج في الدعوة تأثيراً، ولها مادة، فإن مادة الدعوة معصومة، والداعية في دعوته على عين اللَّه ورعايته.

ثم المسؤولية في حقل الدعوة القرآنية نذارة وذكرى، ليست- فحسب- على عواتق الدعاة، والمدعوون عليهم مسؤولية الإقبال والتقبل لتكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى- إذاً ف: «اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ». «1»

هناك «كتاب أنزل إليك» أنت كداعية، بعد ما يصنعك الكتاب كأفضل صنع في محط الدعوة، وهنا «ما أنزل إليكم من ربكم» كمدعوين، ونازل الكتاب بنفسه في أيٍّ من منازله، هو بنفسه حجة لربانيته مصدراً وصدوراً، للداعية والمدعوين به، حجة بالغة بنفسه دون حاجة إلى إثباتات أخرى وتأييدات، فانه رأس زوايا الحجج الربانية على مدار الرسالات بأسرها.

فقضية إتباع اللَّه- الأولى- هي إتباع ما أنزل إليكم من ربكم، توحيداً عملياً بعد العقيدي منه.

وهنا «من دونه» قد تعني مع من دون الكتاب مِن دونِ اللَّه، لمكان «أولياء» فاتبعوا الرب فيما أنزله ولا تتبعوا من دون الرب رباً، ولا من دون ما أنزله نازلًا، من أولياء غير اللَّه وغير كتاب اللَّه.

إذاً فاتباع مَن دونه بكتابه مِن أولياء عملياً يصطدم وعقيدة التوحيد، فإنها ليست- فقط- تصوراً قاحلًا عن مظاهر، إنما هي حقيقة تحلِّق على كل جنبات الحياة ظاهرة وباطنة.

فولاية الطاغوت وعبادته بكتاباته لا تعني- فقط- تأليهها، بل واتباع أحكامها مهما خيل إليه أنه موحد للَّه‏لا يشرك به شيئاً «قليلًا ما تذكرون» حق الإتباع في حقله حيث يخيل إلى مجاهيل أن العقيدة الصالحة هي فيه مهما تخلفت طقوس وأعمال عما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 3

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 185

يرسمه المعبود الحق.

ذلك «ففي إتباع ما جاءكم من اللَّه الفوز العظيم وفي تركه الخطأ المبين». «1»

وهنا «اتبعوا» يحلق على كافة الإتباعات بأسرها للشرعة القرآنية، علمية وعقيدية وعملية ودعائية، قفْواً على آثارها دون إبقاء ولا إستثناء.

فالولاية التوحيدية للَّه‏هي ولاية إتباعه في شرعته ككل أصولًا وفروعاً، دون تشطير البلد شطرين وأخذ العصا من جانبين، إكتفاءً في ولاية اللَّه بمتخيَّل العقيدة، ثم الأعمال التابعة لسائر الأولياء «قليلًا ما تذكرون»!.

«قليلًا» تذكركم و «قليلًا» الذي تذكرونه من الحق، اعتباراً بعنايتي الموصول والموصوف في «ما» ومن قلة التذكر إتباع سائر الحجج اللجج، غامرة في التيه، بعيدة عن هدي القرآن بما فيه، فكل مستند غير «ما أنزل إليكم من ربكم» خارجة عما أنزل اللَّه، داخلة في «من دونه من أولياء» من إجماعات وشهرات وقياسات وإستحسانات وإستصلاحات، أمّا هو آت من غير «ما أنزل اللَّه»، كما وكل إله من دون اللَّه طاغوت.

فهؤلاء الذين يفتون بغير ما أنزل اللَّه أم ضده هم أولياء من دون اللَّه، فاتباعهم خروج عن توحيد اللَّه إلى الإشراك باللَّه أو الإلحاد في اللَّه.

ولئن قيل: إذاً فاتباع السنة فيما لا توافق القرآن ولا تخالفه، هو أيضاً خروج عن التوحيد الحق؟ ولا يستغنى عن السنة فيما لا نص له من الكتاب!.

قيل: السنة القطعية هي أيضاً مما أنزل اللَّه مهما كان على هامش الوحي القرآني، فمما أنزل اللَّه هو فرض طاعة رسول اللَّه: «أطيعوا اللَّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ..»

ولا تعني طاعة الرسول بعد طاعة اللَّه إلّا طاعته في سنته الجامعة غير المفرَّقة، فللَّه الولاية الطليقة في كل حقولها، ولكتابه والرسول ولاية شرعية طليقة لأنهما من اللَّه، ثم لا ولاية طليقة بعد اللَّه وكتابه ورسوله والرساليين المعصومين بعده.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 4 في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبداللَّه عليه السلام قال قال أمير المؤمنين في خطبته: قال اللَّه: «اتبعوا ..» ففي اتباع ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 186

إذاً ف «ما أنزل إليكم من ربكم» تعم إلى نازل القرآن نازل السنة القطعية، وإلا لكان صالح التعبير «اتبعوا الكتاب» فالنازل من ربكم هو واجب الإتباع من أصل الكتاب وفرع السنة، دون شتات الروايات المخالفة للقرآن، أم غير ثابتة الصدور.

ذلك، فهذا السلب «ولا تتبعوا من دونه أولياء» بعد ذلك الإثبات «إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم» يحصران الإتباع المسموح في شرعة اللَّه بما أنزل اللَّه، المحصور في الكتاب والسنة القطعية، تمثيلًا لكلمة اللَّه «لا إله إلّا اللَّه».

ثم «لا تتبعوا من دونه»: اللَّه وكتاب اللَّه، «أولياء» تنفي أية ولاية ربانية عن سائر الأرباب وسائر الكتابات، فكما أنه ولي المؤمنين، كذلك- وبأمره- كتابه وليهم الوحيد بين الكتابات.

فهاهي قضية دين اللَّه- الأساسية- إنه إما إتباع خالص لما أنزل اللَّه إسلاماً- فقط- للَّه، إفراداً له بالحاكمية الطليقة، وإما إتباع الأولياء من دون اللّه إلحاداً فيه، أو إشراكاً به، أم جعلًا للبلد شطرين: عواناً بين التوحيد والإشراك، وهذا الثالوث خارج عن إتباع ما أنزل اللَّه، داخل في إتباع مَن دونه مِن أولياء.

ولأن المحاولة ضخمة فخمة، فقد يمضي السياق يهزُّ الضمائر، ويوقظ السرائر، ويرجُّ جِبِلَّات الأجيال الشاردة عن دين اللَّه، السادرة في الجاهلية رجّاً عنيفاً، عرضاً لمصارع الغابرين من المكذبين:

وهنا في خطبة لعلي عليه السلام معتَبر لمعتبِر، تحذيراً عن ترك الإتباع لما أنزل اللَّه:

«أما بعد فإن اللَّه لم يقصم جباري دهرٍ قط إلَّا بعد تمهيل ورَخاءٍ، ولم يَجبُر عظَم أحدٍ من الأمم إلَّا بعد أزْلٍ وبلاءٍ، وفي دونِ ما استقبلتم من عتْبٍ، وما استدبرتم من خطب معتَبر، وما كل ذي قلب بلبيب، ولا كل ذي سمع بسميع، ولا كلُّ ذي ناظر ببصير-.

فيا عجباً ومالي لا أعجب مِن خطاءِ هذه الفرق على إختلاف حججها في دينها، لا يقتصمون أثر نبي، ولا يقتدون بعمل وصي، ولا يؤمنون بغيب، ولا يعفُّون عن عيب، يعملون في الشبهات، ويسيرون في الشهوات، المعروف فيهم ما عرفوا، والمنكر عندهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 187

ما أنكروا، مفزعهم في المعضلات إلى أنفسهم، وتعويلهم في المبهمات على آراءهم، كأن كل إمرى‏ءٍ منهم إمام نفسه، قد أخذ منها فيما يَرى بعُرىً ثقات، وأسباب محكمات». «1»

وقد قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أنا أوّل وافد على العزيز الجبار يوم القيامة، وكتابه وأهل بيتي ثم أمتي، ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب اللَّه وبأهل بيتي». «2»

والأمة الإسلامية برمتها شيعة وسنة تاركة للثقلين، فإن حديث العترة دون سناد إلى الكتاب لا ثقل له، وذلك سند أنه غير صادر عنهم.

و «القرآن غني لا غنى دونه ولا فقر بعده» و «القرآن أفضل شي‏ءٍ دون اللَّه، فمن وقر القرآن فقد وقر اللَّه، ومن لم يوقر القرآن فقد إستخف بحرمة اللَّه، «3» و «حرمة القرآن على اللَّه كحرمة الوالد على ولده». «4»

وفي كتاب للنبي صلى الله عليه و آله ألى بعض عماله على اليمن:

«فإن هذا القرآن حبل اللَّه المتين، فيه إقامة العدل وينابيع العلم وربيع القلوب» «5» أجل إنه حبل بين اللَّه وخلقه، متين لا ينفصم ولا يفصم، عصمة لمستعصمهم، ومسكه لمستمسكهم، وهو ينابيع العلم، الينابيع المعرفية المتفجرة، من عيونه الجارية، رياً لكل غليل، وشفاءً لكل عليل، وهو ربيع القلوب الواعية الراعية، حيث تنفع بتدبر آياته، وتأمل بيناته.

ف «تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص، فإن العالم العامل بغير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الخطبة 87

(2). جامع أحاديث الشيعة 15: 6 عن الكافي عن الباقر عليه السلام قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

(3). المصدر 7 عن المجمع 1: 15- أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه و آله‏

(4). المصدر 7 جامع الأخبار عن النبي صلى الله عليه و آله ورواه الشيخ أبو الفتوح في تفسيره عن أبي الدرداء عنه صلى الله عليه و آله مثله‏

(5). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضى 141.

وفيه عنه صلى الله عليه و آله يقول اللَّه عزَّ وجلّ: يا حملة القرآن تحببوا إلى اللَّه تعالى بتوقير كتابه يزدكم حباً ويحببكم إلى خلقه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 188

علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند اللَّه ألوم». «1»

و «عدد درج الجنة عدد أي القرآن فإذا دخل صاحب القرآن الجنة قيل له: إقرء وارق، لكل آية درجة فلا تكون فوق حافظ القرآن درجة». «2»

و «من قرأ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلَّا أنه لا يوحى إليه». «3»

و «تعلموا القرآن واقرؤه وإعلموا أنه كائن لكم ذكراً وذخراً، وكائن عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن ولا يتبعنكم، فإنه من تبع القرآن تهجم به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زُجَّ في قفاه حتى يقذفه في جهنم». «4»

وعنه صلى الله عليه و آله قال: «من قرأ ثلث القرآن أوتي ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أوتي نصف النبوة، ومن قرأ القرآن كله أوتي النبوة كلها ثم يقال له يوم القيامة: إقرأ وارقَ، بكل آية درجة حتى بختم ما معه من القرآن، ثم يقال له: إقبض فيقبض فيقال له: هل تدري ما في يديك؟ وإذا في يده اليمنى الخلد وفي الأخرى النعيم. «5»

ولا تعني هذه القراءة قراءة فاضية عن المعرفة والتطبيق، بل هي الفائضة بمعرفة وتطبيق، «لكل درجات مما عملوا وما ربك بظلام للعبيد».

و «إن هذا القرآن مأدُبة اللَّه فتعلموا مأدُبته ما استطعتم، وإن اصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب اللَّه تعالى». «6»

فالمأدُبة- ضماً- هي الطعام‏ «7» وهي فتحاً مفعلَة من الأدب‏ «8» فقد أنزل اللَّه القرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر (8) عن نهج البلاغة (330) في خطبة له عليه السلام‏

(2). المصدر 16- البحار 92: 22 كتاب الإمامة والتبصرة بسند متصل عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ..

(3). المصدر 17- مجمع البيان 1: 16 عن علي عليه السلام انه قال: ..

(4). المصدر 10- ابن أبي الجمهور في در اللئالي عن أبي موسى قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ..

(5). تفسير الكشف والبيان للثعلبي رواه عن أبي أمامة عنه صلى الله عليه و آله: ..

(6). أمالي الصدوق المرتضى (1: 354) عن نافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبداللَّه بن مسعود عن النبي صلى الله عليه و آله: إن هذا القرآن ..

(7). فالمأدبة في كلام العرب هي الطعام يصنعه الرجل ويدعو الناس إليه، فشبه النبي صلى الله عليه و آله ما يكسبه الإنسان من خير القرآن ونفعه وعائدته عليه إذا قرأه ودرس ما فيه، بما يناله المدعو من طعام الداعي وانتفاعه به، يقال: أدَب الرجل يأدِب فهو آدب، إذا دعى الناس إلى طعامه، ويقال للمأدبة المدْعاة

(8). المأدَبة من الأدب فقد أنزل اللَّه القرآن تأديباً للمكلفين بآداب اللَّه، وتاء المأدبة على الوجهين للمبالغة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 189

طعاماً للأرواح، وأدباً لها ربانياً، لا طعام لها أطعم، ولا أدب لها أءدب من هذا القرآن، والتاء في الوجهين هي للمبالغة، حيث تعني بالغ الطعام والأدب في القرآن للأرواح.

لذلك «وإن أصفر البيوت لجوف أصفر من كتاب اللَّه تعالى» و «أصفر» هي تفضيل الصفر وهو الخالي.

إذاً فأخلى البيوت وأجوفها من الأثاث هو الجوف الأصفر من كتاب اللَّه من الأساس، مهما امتلأ مما سواه من علوم بجنب القرآن خاطئة الحلوم.

والهرطقة الغافلة، القائلة: إن القرآن لا يفهم إلّا بالرواية، معروضة عرض الحائط لمخالفتها بيان القرآن التبيان، إضافة إلى كرور الآيات أنه «بيان للناس».

فليس باب تفهم القرآن مقفلة على الناس، وإنما هي مغْفلة مغفَّلة فمقفلة لمن لا يتدبرون القرآن: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» «1» بأغفالها وإغفالها، تحريجاً على الذين يحاولون تفهم القرآن، فتخريجاً له عن حوزته.

وما بيان المعصومين عليهم السلام إلَّا سناداً إلى لفظية الدلالات المسؤول عها قصوراً أو تقصيراً.

إذاً فنكران أن القرآن في الأصل بيان وتبيان نكران لمعجزة الفصاحة والبلاغة القرآنية، بل ونكران لهما عادياً من الناس العاديين!.

ولا يعني الحظر عن تفسير القرآن بالرأي في «من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار» حظره عن كل مناهج التفسير، تعطيلًا له عن صالح التدبر والتفكر فيه، إنما هو تفسير خاص «بالرأي» أن تعتقد في رأي أنه صالح، تقليداً أو اجتهاداً، ثم تستند إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 47: 24

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 190

القرآن لتثبيت رأيك، الذي يخالف نصه أو ظاهره، أم لا يوافق نصاً منه أو ظاهراً، فانهما تفسير له بالرأي.

وأما تفسيره بنفسه وبالروايات والنظرات التي توافقه، وبالفطرة السليمة والعقلية الصالحة، والحس السليم، فكل ذلك محبور في حقل التفسير دون أي محظور.

وما تفسير «من فسر القرآن برأية» بتعطيل القرآن عن التفكير فيه، إلا تفسيراً لهذا الحديث نفسه بالرأي، فليتبوء مقعد مفسره هكذا من النار.

وهل يقبل أي تفسير للقرآن إلَّا بالعقلية السليمة، أم هل يقبل الحديث إلا بالعقل الذي يقبله تفسيراً للقرآن؟! وليس العقل بالفطرة السليمة إلَّا ذريعة للحصول على مرادات اللَّه من كلامه، دون تحميل عليه وتوجيه، إلَّا توجيه نفسه بصورة صالحة صادقة للكشف عن معاني القرآن بذريعة اللغة الصالحة والأدب الأديب الأريب، وتفكير صالح في هذه السبيل.

وكما اللغة لا تحمَّل على القرآن، كذلك العقل، وإنما هما كاشفان عما يراد من آيات اللَّه البينات.

وكما أن خالص التوحيد هو طليق السلب: «لا إله» ومن ثم صالح الإثبات هو: «إلَّا اللَّه» براحلة العقل والفطرة، كذلك خالص التفسير ليس إلَّا سلب كافة التقديرات والمحتملات المسبقة، ومن ثم الإثبات براحلة الفطرة والعقلية السليمتين واللغة والأدب السليمين، وصالح التدبر في القرآن.

هؤلاء الخارفون الهارفون يقصدون من وراء ذلك التفسير لحديث الرأي نفي روح القرآن عن أمته، واختصاص تفسير القرآن بآرائهم، كما عملته الكنائس في القرون الوسطى فحظروا تفسير الإنجيل على الأمة المسيحية حتى يفسح لهم مجالات التحريف والتجديف في تفسيره بآرائهم وشهواتهم.

وهنا المانعون عن تفسير القرآن فريقان اثنان، فريق يمنع عنه نفياً له من أمته عن بكرته تحت نقاب تقديسة، وآخرون هم مانعون لكي يفسح لهم مجال- دون منازع-

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 191

لتفسيره بآرائهم فقهياً أو فلسفياً أو علمياً وما أشبه.

وهكذا أصبحت الأمة الإسلامية بعيدة عن روح القرآن، ناحية منحى تفاسير مختلفة بآراء خاطئة.

ذلك، وهذا القرآن مصون عن كل تحريف وتجديف بعصمة ربانية مضمونة طول الزمان وعرض المكان، فآياته ال/ 6660/ وكلماته ال/ 66600، هما نفس العدد طول التاريخ الإسلامي دون زيادة أو نقصان وان في حرف أو نقطة أو إعراب أو مكان كلٍّ، وهذه الكلمات لها سير تصاعدي سنوي منذ البعثة حتى ارتحال الرسول صلى الله عليه و آله وذلك السير منظم منضد نجده في تصاعد/ 500 كلمة سنوياً، فمثله مثل الشمس في اشراقته التصاعدية، فقد أشرقت آياته البينات بهذه الصورة على قلوب المكلفين.

قانون ابدي نذارة طليقة قرآنية

«تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً». «1»

انها «سورة الفرقان» حيث هي بازغة بتنزيل الفرقان، وكل سور القرآن فرقان مهما اختلفت أسماؤها، فإنها يجمعها أنها كلها فرقان ومن الفرقان «فبأي آلاء ربكما تكذبان». «2»

والفرقان- على ما يروى- كأنها نزلت سورتها كصورتها الآن وقد نتلمح من قراءه الرسول صلى الله عليه و آله لها كما هي، ألّا تكفي سورة بعد الفاتحة إلّا بتمامها، وإن كان نسيان آية منها للرسول خلاف النص: «سنقرئك فلا تنسى» فذلك النسيان- إذاً- نذره في بوتقة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 25: 1

(2). اخذت خيرة بالقرآن لهذه التسمية المباركة فطلعت «تبارك الذي نزل الفرقان» واخذت خِيرَة اخرى للمقام في مكة المكرمة في هجرتي الى اللَّه من بأس الطاغوت الإيراني «شاه» عليه لعنة اللَّه، فطلعت ثانية «تبارك الذي نزل الفرقان» ويا له وفقا لهذا التوفيق ما اوفقه، والحمد للَّه‏اولًا واخيراً، وارجو منه ان يوفقني لإكمال الفرقان كافضل ما يحبه ويرضاه- آمين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 192

النسيان. «1»

ولا تنافي مكية «الفرقان» بتمامها آية تحريم الزنا فيها، فإنها من اوّليات المحرمات في الشريع الإسلامي كما الخمر وأضرابهما.

وهل الفرقان هو القرآن المفصل كله كما تلمح له «نزل» المؤشرة للتدريج؟ ولم ينزل بعدُ القرآن المدني وقسم من المكي! وتقول الروايات أنه الحكم الواجب العمل به دون المتشابه!. «2»

«نزل» الماضي تشمل المنزّل من المفصل في المستقبل كما مضى، حقيقة فيمانزل، وتحقيقاً فيما سوف ينزّل، حيث المستقبل المتحقق الوقوع يعبر عنه بالماضي، وهكذا الأمر في سائر التعبير عن تنزله في سائر القرآن. «3»

ثم القرآن كله فرقان محكماً ومتشابهاً، وعلّ اختصاصه في الحديث بالمحكم اختصاص بغير الراسخين في العلم، الذين لا يفهمون متشابههه في نفسه، وبإرجاعه إلى محكمه، وأما الراسخون فالقرآن كله لهم فرقان، على درجاتهم في تفهم الفرقان.

ولأن الفرقان فُعلان من الفَرق، إسم مصدر مبالغ في الفرق، فهو القرآن البالغ في فرقه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 64- اخرج ابن الانباري في المصاحف عن حميد بن عبدالرحمن بن عوف ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله صلى الصبح فقرأ سورة الفرقان فاسقط آية فلما سلم قال هل في القوم ابي فقال أبي‏ها أنا يا رسول اللَّه، فقال: الم اسقط آية؟ قال: بلى، قال: فلم لم تفتحها علي؟ حسبتها آية نسخت، قال: لا ولكني أسقطتها، أقول ما لهذا الرسول يحتاج فيما ينساه- ولا سمح اللَّه- الى أبي، وكأنه احفظ منه، رغم انه صلى الله عليه و آله كان احفظ الحفاظ على الإطلاق بما أقرأه اللَّه‏

(2). تفسير البرهان 3: 155 محمد بن يعقوب عن علي بن ابراهيم عن ابيه ابن سنان عمن ذكره قال سألت ابا عبداللَّه عليه السلام عن القرآن والفرقان هما شيئان او شي‏ء واحد؟ فقال: القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به‏

(3). المصدر ابن بابويه باسناده عن يزيد بن سلام انه سئل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال لم سمي الفرقان فرقاناً؟ قال: لانه متفرق الآيات والسور نزلت في غير الالواح وغيره من الصحف والتورية والانجيل والزبور انزلت كلها جملة في الالواح والورق، أقول: وهذا وجه آخر في كون الفرقان هو القرآن كله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 193

بين الحق والباطل.

ولذلك يعبر عنه ككل بالفرقان: «هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان» «1» «وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدىً للناس وأنزل الفرقان». «2»

كما وهو البالغ في فرقان التنزيل نجوماً طائلة: «وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلًا». «3»

إذاً فالقرآن فرقان كله في البعدين، وأولهما اولاهما حيث يفرق فرقاً واضحاً لا ريب فيه بين كل حق وباطل، طولَ الزمان وعرضَ المكان، ومن فرقه فارق التعبير فصاحة وبلاغة وحتى في موسيقاه عن سائر التعبير، وأنه الفرقان المعجزة الوافية بنفسه دون سائر الوحي، والفارق بين حق المروي من السنة وباطله، فرقان في منهجه ومبلجه فلا يشبه اي منهج إلهياً وسواه، حيث يمثل عهداً جديداً منقطع النظير عن كل بشير ونذير، جديداً في المشاعر، ينتهي به عهد الطفولة، ويبدأ به عهد الرشد بأشده، وينتهي به عهد الخوارق المتعوَّدة، ويبدأ به عهد المعجزة العقلية والعلمية أماهيه، وينتهي به عهود الرسالات الموقوتة.

ولأنه هكذا فرقان ف «ليكون للعالمين نذيراً» فرقان الرسول ورسول الفرقان، فرقانان متجاوبان في كل زمان ومكان ..

«نزل الفرقان على عبده» دون رسوله، لأنه بعبوديته القمة يستأهل ذلك التنزيل، ثم ويُرسَل للعالمين نذيراً بذلك التنزيل، وما أحلاها صيغة العبودية وصبغتها، بسابقتها للرسالة وسابغتها، فلا تصوغ الرسالة إلّا بعد صبغها كاملة متكاملة، كافلة متكافلة، فمن ثم هي آهلة سائغة للرسالة بالفرقان «ليكون للعالمين نذيراً»، هذا، وكما هو عبده في إسرائه «سبحان الذي أسرى بعبده» وفي دعائه «وأنه لما قام عبداللَّه يدعوه» مثلث من قمة التكريم. في أهم أدواره الرسالية دعاءً وهي مخ العبادة، وعروجاً لمقام التدلي، وتنزيلًا للفرقان!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 2: 185

(2). 3: 4

(3). 17: 106

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 194

«ليكون للعالمين نذيراً» دون قومه- فقط- أم والعرب فحسب، أم عالمي زمنه، أم لردح من الزمن، وإنما «للعالَمين» من الجنة والناس- أمّن هم- اجمعين، في كل زمان ومكان، ولأن العالمين جمع لعالم ذوي العقول، فلأقل تقدير هناك عالم ثالث لا نعرفهم، وقد تشير إليهم آيات العالمين، وآية الشورى: «ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير».

و «للعالمين» حيث تشمل الطول التاريخي والعرض الجغرافي لذوي العقول دونما استثناء، يصبح دليلًا بجنب سائر الأدلة لكون هذه الرسالة السامية هي الشاملة الخاتمة للرسالات الإلهية أجمع، والجمع الحلى باللّام يستغرق كافة مصاديقه دونما استثناء.

فالعالمين أجمعين سواء أكانوا في السماوات أم في الارضين تشملهم هذه النذارة الأخيرة، وكما تلمح له «الذي له ملك السماوات والأرض ..» إذاً فسعة هذه النذارة هي ملك السماوات والأرض!. وكما «تبارك اللَّه أحسن الخالقين» حيث الفرقان في أحسن تقويم، أحسن تقوم في التدوين لأحسن تقويم في التكوين.

وترى «للعالمين نذيراً» بشخصه وجهاً بوجه في سِنِّي دعوته الثلاث والعشرين؟

وذلك غير واقع ولا ميسور! فإنما الهدف في تبنِّى هذه الرسالة القرآنية هو النذارة لكل العالمين بمن معه من حملة رسالته وبلاغها إلى يوم الدين.

ولقد أدى هو واجبه الرسالي في عهديه المكي والمدني، وصنع- بأذن اللَّه- على ضوئها حملةً لها على طول الخط، والمحور الركين الأمين على مرّ الزمن هو الفرقان والفرقان فقط.

ولماذا- فقط- «نذيراً» لا «نذيراً وبشيراً» أو «بشيراً»؟ لأن البشارة ليست إلّا لمن يتقبل الدعوة، فخاصة بالمؤمنين، والنذارة تعم العالمين أجمعين، ناكرين ومصدقين، ولا تجد البشارة في سائر القرآن إلّا صاخة دون النذارة.

«الذي نزل الفرقان ...»:

«الذي له ملك السّماوات والأرض ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريكٌ في الملك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 195

وخلق كلَّ شي‏ءٍ فقدَّره تقديراً». «1»

إذاً فلتشمل دعوة القرآن ملك السماوات والأرض، ولتملك السماوات والأرض، كما سوف تتحقق وتطبَّق على العالمين أجمعين زمن القائم المهدي عجل اللَّه تعالى فرجه الشريف.

«ولم يتخذ ولداً» منذ الأزل، قبل الزمان وبعد الزمان- إذاً- فلن يتخذ ولداً حتى الأبد طول الزمان وبعده، حيث اتخاذ الولد ليس إلّا لحاجة، فإذ لم تكن قبل فلن تكون بعد.

«ولم يكن له شريك في الملك» لا ذاتاً ولا اتخاذاً، فلن يكون- إذاً- له شريك في الملك.

وكيف يتخذ ولداً ام له شريك في الملك «وخلق كل شي‏ء» ما زعمتموه ولداً وسواه، شريكاً وسواه، ولن يكن المخلوق الفقير الذات إلى خالقه ولداً له أو شريكاً، لا في الخلق إذ هو مخلوق، ولا في تقدير الخلق فإنه هو الذي «قدره تقديراً» فهل المخلوق المقدَّر يناحر الخالق المقدِّر!.

«له ملك السماوات والارض» تختص به وتحصر حقيقة ملك الكون ككل دونما استثناء، حصراً ومُلكاً حقيقيين، فلا ينتقل عنه إلى ولد يتخذه أو شريك يُدَّعى له ...

والمُلك الحقيقي يلازم الملِك وهما لزام المَلِك الحق دون زوال ولا انتقال.

وترى «كل شي‏ء» تشمل أفعال العباد بجوانح أم جوارح؟ وهذا جبرٌ رافع للتكليف! قد يقال: لا، حيث الأفعال غير الأشياء، فإنها مواد الخلقة، و الأفعال صادرة عنها كمصادر تسييراً او تخييراً. وقد يؤيده «خلق» الماضي، الضارب إلى بداية الخلق، ولكن الخلق في مثلث الزمان يخصه و «اللَّه خالق كل شي‏ء» يعم الماضي، و «كل شي‏ء» يعم كل كائن سواء من ذوات وصفات وأفعال، وخلقه لشي‏ء الأفعال الاختيارية لا ينافي الإختيار، حيث الإذن تكويناً في كل فعل- كما في سواه من أشياء- يخصه تعالى،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 25: 2

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 196

طالما للمختار اختيار مقدمات لما يريد، ف «لا جبر ولا تفويض بل امر بين امرين».

ثم «فقدره تقديراً» بعد «خلق كل شي‏ء» تفريعاً عليه، تجعل الخلق مقدراً حينه:

«إنا كلَّ شي‏ءٍ خلقناه بقدر» «1» ومقدراً بعده‏ «قد جعل اللَّه لكل شي‏ء قدراً». «2» فالاوّل تفريع في تأخر رتبي، والثاني في تأخر زمني، فالخلق مقدر بتقدير العليم الحكيم في بُعديه.

إذاً فلا فوضى في أصل الخلق، ولا في تقديره بعد الخلق، ف «كل شي‏ء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال». «3»

أجل! «وان تنظيم الخلق بهذه الدقة البارعة الفائقة التصور، فلو كانت قشرة الأرض أسمَك مما هي بضعة أقدام، لامتصَّ ثاني اكسيد الكربون والأوكسجين، ولما امكنت حياة للنبات!-

ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو، فبعض الشهب التي تحترق الآن في الهواء بالملايين، كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة تترواح بين ستة اميال واربعين ميلًا في الثانية، وكان بإمكانها أن تشعل كل شي‏ء قابل للإحتراق، ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض، ولكانت العاقبة مروِّعة، وأما الانسان فاصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً بمجرد حرارة مروره ..». «4»

«واتّخذوا من دونه آلهةً لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً». «5»

آلهة قاحلة، عاجزة، خاوية زاهلة عن كافة شؤون الألوهية وبدايتها الخلقة وهم «لا يخلقون شيئاً»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 54: 49

(2). 65: 3

(3). 13: 9

(4). العلم يدعو الى الإيمان ترجمة محمود صالح الفلكي‏

(5). 25: 3

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 197

ولا ذباباً: «ان الذين تعبدون من دون اللَّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب» «1» «لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون» ثم‏ «ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً» مهما يضرون بأنفسهم أو ينفعون، فإنَّ مِلك الضر والنفع شي‏ء وواقعه بما يحاولون شي‏ء آخر، فقد يحاولون في ضر لأنفسهم ولا يضرون، أم في نفع ولا ينفعون، فإنهم مسيَّرون كما هم مخيرون، ف «إن يمسسك اللَّه بضر فلا كاشف له إلّا هو وإن يُردك بخير فلا راد لفضله ..». «2»

هنالك معاكسة في شروطات الألوهة بين اللَّه والذين اتخذوهم من دونه آلهة، ومنها أن اللَّه «الذي له ملك السماوات والأرض» وهم «لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً» فضلًا عن أن يملكوا لمن سواهم.

واللَّه «خلق كل شي‏ء فقدره تقديراً» وهم «لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون».

فاين آلهة من إله، وآلهة كعابديها أم هي أدنى، وإله واحد قهار بيده ناصية كل شي‏ء.

«وقال الّذين كفروا إن هذا إلَّا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزُوراً». «3»

أكذَب فرية في تأريخ الرسالات: أن القرآن إفك مفترى! فإذا كان الكذب المفترى على اللَّه يفوق كل كتابات اللَّه، السالفة، ويفوق كل كتابة من أي كاتب، فهل الآفك به فوق خلق اللَّه وفوق اللَّه؟!

قالوا «إن هذا إلّا افك افتراه وأعانه قوم آخرون» فرية عليه «ظلماً وزوراً» لا تقوم على أساس إلّا العناد والخوف على مراكزهم الإجتماعية المستمدة من سياستهم الدينية، يجنح بهم إلى هذه المناورات الزور، يطلقونها في أوساط الجمهور، الذين قد لا يميزون بين الغث والسمين والخائن والأمين، ولكنه الفرقان يفرق بين حق الوحي وباطل الزور لمن ألقى السمع وهو شهيد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 22: 73

(2). 10: 107

(3). 25: 4

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 198

أترى مَن هم «قوم آخرون»؟ أهم قوم من العرب العَرباء؟ وليس هو بشخصه قوماً حتى يكونوا هم قوماً آخرين! ام هم قوم غير العرب، فهو من قوم العرب، واعانه على قرآنه قوم آخرون غير العرب؟ وكأنهم هم! كسلمان واصحابه الفرس: «ولقد نعلم أنَّهم يقولون إنما يعلِّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين». «1»

ذلك الفرقان المبين الذي عجز عن الإتيان بمثله، أو سورة من مثله، العرب العرباء، هل هو من اختلاق أمي أعانه عليه قوم آخرون من الفرس، سلمان وصحبه، أم «قوم آخرون» هم أهل الكتاب إذ هم كما الفرس لم يكونوا من العرب؟ ام هم من العرب، وعلّ «قوم آخرون» تعنيهما، وعلى اية حال «فقد جاءَوا ظلماً وزوراً».

فيا حماقى البهتان، إن كان هذا القرآن إفكاً افتراه محمد بمن أعانه من قوم آخرين، «فاتوا بعشر سور مثله مفتريات» «2» بل‏ «.. بسورة مثله» «3» لكي تتغلبو عليه إبطالًا لحجته، وإغراقاً في لجته‏ «أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك» «4» فإن ملامح ربوبية الكتاب فيه لائحة، وحياً من اللَّه لا سواه.

ثم وقولة أخرى من الناكرين يكدرون بها الجو الجاهلي ضد القرآن:

«وقالوا أساطير الأوّلين اكتتبها فهي تملي عليه بكرةً وأصيلًا» «5»

الأساطير هي الأوهام والخرافات المختلَقة المتسطرة، التي تتنقل في نوادي التفكه واللّهو، فمن المشركين من يعتبرون الفرقان من أساطير الاوّلين، من كتابيين وسواهم، اكتتبها محمد بمن أعانه، فأصبحت كتاباً تملى عليه بكرة وأصيلًا لكيلا ينساه.

وترى كيف يكتتب أساطير وغير اساطير مَن لم يكن يقرأ أو يكتب: «وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون»، «6» وهنا الجواب كلمة واحدة:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 16: 103

(2). 11: 13

(3). 10: 38

(4). 32: 3

(5). 25: 5

(6). 29: 48

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 199

«قل أنزله الّذي يعلم السرَّ في السّماوات والأرض إنَّه كان غفوراً رحيماً». «1»

برهان قاطع لا مرد له على وحي القرآن، دليلًا فيه نفسه، فاستدلالًا به نفسه، فإنه الحجة الوحيدة غير الوهيدة على وحيه الصارم: «قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض» حيث الفرقان يتحدث عن سر السماوات والأرض تكويناً وتشريعاً، في تجاوب مكين امين متين بين كتابي التدوين والتكوين، إذاً فالكاتب واحد هو اللَّه الواحد القهار «ولو كان من عند غير اللَّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

فكما أن رسول الوحي على بينة في أقواله وأفعاله وتصرفاته أنه رسول الوحي:

«قالوا ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون» فبأحرى كتاب الوحي المتحدى به على الجن والإنس، هو بيّنة بنفسه على أنه وحي، دونما حاجة إلى بينة أخرى.

فأين الكتاب الذي يحوي على سر السماوات والأرض وأين اساطير الاوّلين؟ بل وأين هو وكل سرٍّ يعلمه العلماء في مشارق الأرض ومغاربها طول الزمان وعرض المكان، فإن كان كتاب سرِّ السماوات والأرض من أساطير الاولين، فما هو- إذاً- سائر الكتابات التي تعجز عن ظاهر العَلَن فضلًا عن باطن السر.

قضية الفرقان هي من القضايا التي قياساتها معها، فكل سرٍّ في الكائنات يظهر على تقدم العقل والعلم في عجلتهما العاجلة والآجلة، نراه مكشوفاً في القرآن باهراً لا ريب فيه، أفلا يدل ذلك على أنه «أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض»؟

«إنه كان غفوراً رحيماً وترى ما هي الصلة بين هذا التعقيب وذلك التقديم؟ هي أن رحمته الواسعة اقتضت إنزالًا لكتاب السرّ، إماماً لراحلة العالمين في التكشف عن اي سر في السماوات والأرضين، كما اقتضت الترحم على الناكرين لوحي القرآن، إمهالًا لهم رويداً، وهم يرتكبون اكبر الخطايا والظلامات الزور بحق القرآن ورسول القرآن، بتلك الدعوى المتهافتة، ومن قبل كانوا يصرون على الإشراك باللَّه، ولكن باب التوبة- مع كل ذلك- مفتوحة بمصراعيها، والرجوع عن الخطيئة مهما كانت كبيرة، فالذي يعلم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 25: 6

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 200

السر في السماوات والأرض، فيعلم ما يسرون وما يعلنون «انه كان» منذ خلق الخلق وقبله «غفوراً رحيماً».

اترى «السر» الكائن في القرآن يعم الاخفى؟ قد يكون!: «وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى» «1» ف «يعلم السر» هنا يعم السر وأخفى كما هناك أسرُّ من السر العادي.

هذه من دعاياتهم الظالمة الزور الغرور على القرآن، ومن ثم على رسول القرآن:

«وقالوا مال هذا الرّسول يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملكٌ فيكون معه نذيراً». «2»

ويكأن رسول اللَّه إلى البشر مستحيل كونه من البشر فياكل الطعام ويمشي في الاسواق كسائر البشر، وقضية الحجة القاصمة ان يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، قطعاً لأية عاذرة في اختلاف الجنس: «يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ..». «3»

وحتى لو كان رسول البشر مَلَكاً أم نذيراً مع الرسول البشر لما كان يظهر لهم إلّا بصورة البشر: «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلًا وللبسنا عليهم ما يلبسون». «4»

إن هؤلاء المقلوبة قلوبهم، المتحللين عن عقولهم، يعاكسون أمر حجة اللَّه، فيستبدلون الحجة من رسول البشر، بغير حجة ام هي ادنى كرسول المَلَك، وانه اعتراض كعاذرة لهم، مكرور على طول خط الرسالات، كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان الذي عشناه منذ الطفولة عائشاً عيشنا، آكلًا أكلتنا وماشياً في الأسواق مشيتنا، كيف يمكن أن يكون هو رسولًا من عند اللَّه إلينا؟!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 20: 7

(2). 25: 7

(3). 6: 13

(4). 6: 9

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 201

افسادان اسرائيليان عالميان يفنيها «عباداً لنا اولى باس شديد» ثانيهما الحكومة المهدوية سورة الأسرى‏

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ‏

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ\* وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا\* ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً\* وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً\* فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولًا\* ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً\* إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِانفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً\* عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً» «1»

سورة مثلثة الأسماء: الاسرى- بني اسرائيل- سبحان: تتبنى الرسالة الإسلامية بمقتضياتها ومخلفاتها كقاعدة أصيلة، بأصولها الثلاثة، وما تتضمنه من ملاحم وبشارات وإنذارات مَثلات، بدايتها «سبحان» لتأكيد وتوطيد الرحلة المعراجية المنقطعة النظير، ونهايتها «الحمد للَّه» تسبيح يضرب الى الحمد فانه تسبيح بالحمد وبينهما متوسطات!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 17: 1- 8

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 202

وفي السورة قيلات خمس: إنها مكية إلا آيات: اثنتين او ثلاث او خمس او ثمان‏ «1» ولا توحي هذه او تلك بمدنيتها ولا تلمح إذ نزلت نظائرها في المكيات، ثم هي بين دالة على مكيتها او غير دالة على مدنيتها فقد تكون مكية كلها كما يقتضيه طبع الألفة والتاليف.

«سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». «2»

هنا اجمال عن الرحلة المعراجية إلى اقصى اعماق الفضاء، وفي التكوير إجمال اخصر مما هنا: «ولقد رآه بالافق المبين» ثم ينجم تفصيلها في النجم: «وهو بالافق الاعلى» مثلث بارع رائع عن هذه الرحلة الرهيبة الخارقة، يفسر بعضها بعضاً وينطق بعضها على بعض، مهما اختلفت فيها الروايات فلتعرض على القرآن لكي تنحو نحو القرآن.

«سبحان» خير بداية تتلو خير ختام «الحمد للَّه» تبدأ بها سورة السبحان الاسرى- بني اسرائيل، كأليق حركة نفسية نفيسة تتسق مع واقع الاسراء وجوه اللطيف، وأحرى حالة روحية حيث يبلغ صاحبها إلى الأفق الأعلى المبين.

و «سبحان» عَلَم للتسبيح منحصر في اللَّه ومنحسر عن غير اللَّه، فانه التنزيه المطلق، «3» فليختص بالنزيه المطلق، وليس مطلق التنزيه حتى يشمل من سوى اللَّه من الكاملين، وان في أعلى قمم الكمال حيث الفقر ذواتهم، والنقص كيانهم فأنى لهم سبحان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مدنيتان كما في روح المعاني هما «وان كادوا ليفتنونك ..» «وان كادوا ليستنفرونك ..» وعن‏بعضهم اضافة: «واذ قلنا لك ان ربك احاط بالناس ...» «وقل رب ادخلني مدخل صدق ..» وعلّ الاخراج او منه الاخراج الى المدينة فهي مكية إذ تنبى‏ء عن مستقبل، وعن الحسن الا «ولا تقتلوا النفس ..» «ولا تقربوا الزنا ..» «اولئك الذين يدعون ..» «اقم الصلاة ..» «وآت ذا القربى حقه ..» وعن مقاتل الا «وان كادوا ليفتنونك ..» «وان كادوا ليستفزونك ..» «واذ قلنا لك ..» و «قل رب ادخلني ..» «ان الذين اوتوا العلم ..» وآية الاستفزاز تشهد أنها مكية كآية الادخال وسواهما لا تشهد أنها مدنية. وعن قتادة والمعدل عن ابن عباس الاثماني هي «وان كادوا ..» الى «وقل رب ..»

(2). 17: 1

(3). تفسير روح المعاني 15 ص 3 في العقد الفريد عن طلحة قال: سألت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن‏تفسير سبحان اللَّه فقال: تنزيه للَّه‏تعالى عن كل سوء

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 203

مطلق!.

واللَّه تعالى ذاته سبحان وصفاته سبحان وأفعاله سبحان، وهي هنا: سبحان ذاته ان يعرج إليها عبده أي عروج كان، في المكانة او في المكان، وفانه مكن المكان فليس له مكان، وحد الحدود والجهات فليست له حدود وجهات، وهو المُنهي للنهايات والمغيي للغايات، فسبحان ذاته أن يكون منتهى العروج لعبده بأي معنى كان، اللهم إلا قمة المعرفة الممكنة باللَّه: «ثم دنى فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى»!.

ثم وسبحان افعاله ان يعجز عن معراج عبده بجسمه وروحه إلى سماواته ليريه بعض آياته، كما يهرف به من لا يعرف قدرته تعالى على كل شي‏ء.

وسبحان صفاته عن ان يضن ويبخل عن هذه المكرمة الغالية لأول العابدين وسيد الخلق أجمعين، فسبحانه سبحانه سبحانه عن اي رين وشين في هذا البين.

ثم و «سبحان» تتكفل- ككل- بيان سلبية الصفات غير اللّائقات بجناب عزّه، كما «الحمد» بيان للثابتات اللائقات بحضرة قدسه.

«الذي اسرى بعبده ليلًا ..»

«اسرى» من «السُّرى»: سير الليل- ولكنه مضمَّن معنى الرفعة والعلو فسراةُ كل شي‏ء اعلاه، كسراة النهار: ارتفاعه، رفعة حسية او معنوية: «قد جعل ربك تحتك سريا» «1» رفيعاً عظيماً هو المسيح عليه السلام كما السرو شجرة مستقيمة رفيعة، وقد تجمع «السرى» بين الرفعتين كما في سرى الرسول صلى الله عليه و آله سرى أرضية إلى القدس في سفرة جوية، ثم سماوية الى الأفق الأعلى مكانة ومكاناً.

وإذا كانت السرى سير الليل فلماذا هنا «ليلًا» وكما في ثانية «فأسرِ بعبادي ليلًا انكم متبعون» «2» ومن ثم في رابعة تأتي دون ليل‏ «وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم‏ متبعون»؟؟. «3»

نقول: إن جمع الليل الى السرى إذا كان مع عدم جمعه سيان كما في سرى موسى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 19: 24

(2). 44: 23

(3). 26: 52

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 204

فالليل لمزيد الايضاح. «1» ام ولكي يعرف أنها في ليلة واحدة لا ليال. واذا لا كما في لوط:

«بقطع من الليل» قسم من الليل يؤمن فيه عن ملاحقة قومه، لاكله أو أية قطعة منه حيث الخطر حادق والعدو حاذق، فلهذه وتلك. ام لهذه وسواها من نكات كما في الإسراء يجمعها: 1- دلالة على ان السرى كانت في ليلة واحدة حيث الوحدة لائحة من تنكير «ليلًا» لا في ليال، حيث السرى وحدها أعم من ليلة او ليال. 2- واشارة إلى انها كانت في قطع من ليلها دون تمامه، حيث القطعة مشار اليها بالتنكير «ليلًا» كما الوحدة، فاستغراق الليل يقتضي «الليل» لا «ليلًا» و 3- افادة للتعظيم حيث كانت ليلة العروج وكانت الإثنين وما ادراك ما الاثنان؟ انه صلى الله عليه و آله ولد يوم الاثنين وبعث الاثنين، وعرج به الاثنين وخرج من مكة مهاجراً الاثنين ودخل المدينة الاثنين، وارتحل الى رحمة ربه الاثنين، إثنينات ست تعم حياته، فسلام عليه يوم ولد ويوم بعث ويوم عرج ويوم هاجر ويوم مات ويوم يبعث حياً، ثم وهو الثاني في الكون والكيان بعد الحضرة الإلهية، فاللَّه هو الأول في مثلث الذات والافعال والصفات، واحمد هو الثاني، واين اول من ثان بون بين الوجوب وأرقى الامكان:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| ز احمد تا أحد يك ميم فرق است‏ |  | همه عالم در آن يك ميم غرق است‏ |

وما هو موقف الباء في «بعبده» بعد أن «أسرى» متعد بالإفعال؟ هل إنها الزينة؟ ولا تعرف إلا في خبر ليس! أم لتأكيد التعدية أن سُرى عبده انما هي منه تعالى تماماً لا ومن عبده؟ ولا يعهد هكذا تأكيد! وآياتها الاخرى في إسراء لوط باهله وموسى بقومه لا ينسابها تأكيد! أم ان مفعولها الأول محذوف كالذي عرج به كسفينته الفضائية «البراق» والذي صاحبه كجبريل‏ «2» اذا فما هو المفعول الأول في نظيرتها «فاسر باهلك .. أسر بعبادي ..» ولا يناسبها محذوف في لوط وموسى! ام إن سرى واسرى بمعى وهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في «وقال اللَّه لا تتخذوا إلهين اثنين انما هو آله واحد». قصداً الى ان نفي الإثينيةكاثبات الوحدة مقصود، دون ان يكون النفي هامشياً

(2). كما عن ابن عطية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 205

متلازمتان‏ «1» مع الفرق أن أسرى لأول الليل وسرى لآخرة «2» وقد كان سرى الرسول في الثلث الاوّل من الليل؟- احتمالات: اخرها اولها واولها آخرها وبينهما متوسطات.

ولماذا «بعبده» دون «محمد» او «رسوله- نبيه»؟

عله لأن «محمداً» دون وصف العبودية او الرسالة لا يحمل ما يتحمل هكذا معراج، ولا يذكر حين يذكر إلا للتعريف الاسمي بالرسول النبي.

ثم هذا العروج لم يكن رحلة رسالية، وإنما عبودية تتبنّى كما له في نفسه حيث «دنى فتدلى. فكان قاب قوسين أو أدنى. لقد رأى من آيات ربه الكبرى ..» فالرحلة من الرب الى الخلق رسالة، ومن الخلق الى الرب تكملة العبودية في ذاته لتكميل الرسالة.

ثم العبودية تزيل حجب النور وحجب الظلمة والرسالة هي هي من حجب النور، وهو في مقام الدنو والتدلي يتخلى عن الحجب كلها ويتحلى بحلية العبودية في أعلى قممها «فأوحى الى عبده ما أوحى» دون نبيه أو رسوله، وحياً سَرِيّاً سِرّياً يخصه دون سواه فسُرى المعراج تقتضى سُرى العبودية ..

ومن ثم ما احلى صيغة «عبده» وصبغته وصياغته ان لو لم تكن هنالك رسالة، لم تكن هنا لاول العابدين صيغة اجدر من «عبده». ثم لا نجد في القرآن «عبدنا» و «عبده» إلا لصاحب المعراج‏ «3» اللهم الا لداود وايوب وزكريا ونوح، ولكنه في زكريا في ظل رحمة ربك: «ذكر رحمد ربك عبده زكريا» «4» وفي داود تسلية لصبره: «اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد» «5» وفي أيوب كذلك ذكرى لكي يصبر: «واذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه ..» «6» وفي نوح تصبراً على طول المدة «كذبت قبلهم قوم نوح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما عن ابي عبيدة

(2). وقال الليث: اسرى لاول الليل وسرى لآخره‏

(3). «وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا» (2: 23) «وما انزلنا على عبدنا يوم‏الفرقان» (8: 41) «الحمد للَّه‏الذي نزل انزل على عبده الكتاب» (18: 1) «تبارك نزل الفرقان على عبده» (25: 1) «فاوحى الى عبده ما اوحى» (52: 10) «هو الذي ينزل على عبده آيات» (57: 9)

(4). 19: 2

(5). 38: 17

(6). 38: 41

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 206

فكذبوا عبدنا». «1»

فليس إذاً «عبده» إلا محمد صلى الله عليه و آله كأنه هو عبده لا سواه، لأنه جامع مجامع العبودية فهو «اول العابدين» كما وأنه هو رسوله لا سواه، كما تلمح لها آياتها وتأتي في طياتها.

ثم و «عبده» تقريراً في مقام الإسراء إلى الدرجات العلى، ولكي لا تنسى هذه الصفة في زهوة الرحلة الفضائية وزهرة المعراج، وليس لينساه الرسول صلى الله عليه و آله ثم ولا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية كما التبس في العقائد المسيحية.

واخيراً «عبده» توحي بأن هذه السُرى كانت بجزئيه: روحه وجسمه، دون تقسم فلم يقل بروح عبده او بجسمه حتى يهرفه الهارفون ويخرفه الخارفون: ان المعراج كان روحياً، او برزخياً في رؤياه ام ماذا؟ وإنما «بعبده» فصاحب المعراج هنا «عبده» وفي النجم «صاحبكم» «ما ضل صاحبكم وما غوى» وفي التكوير هو رسول كريم: «انه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالافق المبين». (23)

اترى بعد ان «صاحبكم» «عبده» «رسول» هي فقط روحه، وهو ما صاحبنا- فقط- بروحه، وما رسالته- فقط- في روحه، وما عبوديته- فقط- بروحه، ان هذه إلا هرطقة هراء واللَّه منها براء- ف «سبحانه سبحانه سبحانه من قيلات هي ويلات على الحق المبين فاين- تذهبون. «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 54: 9

(2). وما في دعاء الندبة «وعرجت بروحه» من الناقل والمنقول عنه والصحيح «وعرجت به» كما في نسخة ثانية جعلها المحدث القمي فرعاً، والفرع اصلًا. قاصله لا اصل له وفرعه هو الاصل! وقد يشبه اصله ما يروى عن عائشة «ما فقدت جسد رسول اللَّه ولكن اسري بروحه» كما في الدر المنثور عنها- فقد كذبت مرتين: ان الاسراء كانت قبل ان يتزوجها بزمان فانها قبل الهجرة بسنة وزواجها بعدها بزمان، وان الاسراء كان من المسجد الحرام لا بيت عائشة ام اي بيت، ثم واحاديثنا متظافرة بالمعراج الجسماني والروحاني معاً دون تبعيض (راجع ج 26- 23 الفرقان ص 414- 415 وقد وافق عائشته زميلها معاوية في نكران المعراج الجسماني ومعاوية كان يومئذاً كافراً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 207

ولماذا «ليلًا» لا نهاراً، ام مزدوجاً، والنهار أبين للناظرين وأبعد إنكاراً للناكرين؟

عليه لأن الليل هنا كان نهاراً هناك ولكي يرى من آيات ربه وضح النهار، أم عله لأن الليل أهدء وأوقع لسرى المعراج، وناشئته هي‏ «اشد وطئاً وأقوم قيلًا» «1» وأية ناشئة طوال حياته صلى الله عليه و آله انشأ وانشط من ناشئة المعراج فلتكن ليلًا، ولا يحول الليل ولا أليل منه ظلمة دون رؤيته آيات ربه الكبرى بما اراه اللَّه.

والسُرى المعراجية تتبنى عروج الرسول الى أعلى الأفاق المعرفية، قبل ان تتبنى اعجازها، ولم يكن عروجه الى عمق الفضاء بالسرعة ما فوق الضوئية او علها الجاذبية التي تفوق الزمان لم يكن بالذي يرى فيصدق بما يرى، اللهم الا بما خبرهم بما رآه في سراه ما فوق الأرضية الى القدس من عير ام ماذا «2» فقد كان سرى الرسول سُرىً سَريَّا سِرّيَّا إلا فيما انبأ به ربه بما أنبأ واللَّه اعلم بسراه.

ثم «ليلًا» توحي بوحدة المعراج اللهم الا ان يهرف بتكراره في نفس الليلة ولم يخلد بخلد قط، فالروايات الناقلة لتكراره تؤول او تطرح‏ «3» وروحه القدسية كانت عارجة دوماً الى مقام قاب قوسين او ادنى اللهم إلا فيما تضطره رسالته ببلاغه وخلطه بالمرسل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 73: 6

(2). في روضة الكافي باسناده عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال: لما اسري برسول اللَّه صلى الله عليه و آله اصبح فقعدفحدثهم بذلك فقالوا له: صف لنا بيت المقدس، قال: فوصف لهم وانما دخله ليلًا فاشتبه عليه النعت فأتاه جبرئيل فقال: انظر ههنا فنظر الى البيت فوصفه وهو ينظر اليه ثم نعت ما كان من عير لهم فيما بينهم وبين الشام ثم قال: هذه عير بني فلان يقدم مع طلوع الشمس يتقدمها جمل ازرق او احمر، قال: وبعثت قريش رجلًا على فرس ليردها، قال: وبلغ من طلوع الشمس، قال قرطة بن عبد عمرو: يا لهفا ان لا اكون لك جذعاً حين تزعم انك اتيت بيت المقدس ورجعت من ليلتك» (نور الثقلين 3: 102)

(3). كما اورده القمي عن محمد بن الحسن الصفار باسناده عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال: «عرج بالنبي‏مائة وعشرين مرة ..» اقول: وعلها ليست إلّا واحدة عروج روحي له صلى الله عليه و آله وقد كانت حياته بهذا المعنى معارج. وفي الكافي باسناده الى علي بن ابي حمزة قال: سئل ابو بصير ابا عبداللَّه عليه السلام فقال وانا حاضر: جعلت فداك كم عرج برسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟ فقال: مرتين (تفسير البرهان 3: 402) اقول: علّ المرتين هما كما قال تعالى: «ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المتهى» «حيث الرواية المعراجية كانت مرتين لا اصل المعراج»!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 208

اليهم، حيث الرسالة- على قدسيتها- من حجب النور، وعله صلى الله عليه و آله كان يغان على قلبه ويستغفر ربه في كل يوم سبعين مرة من حجب النور.

«... مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». «1»

منطلق المعراج مسجد هو أفضل المساجد في الأض أم في الكون كله وقد جاء ذكره في الذكر الحكيم (15) مرة بكل تبجيل وتجليل، ثم المسجد الاقصى وهو أقصى المساجد الى المسجد الحرام نجده مرة واحدة هي هاهنا بمواصفة واحدة: «باركنا حوله».

ومهما اختلفت الروايات ان مبدأ المعراج بيت عائشة «2» ام بيت ام هاني‏ «3» ام المسجد الحرام‏ «4» فنص القرآن يؤيد ثالث ثلاثة فلا محيد عنه.

واما منتهى سرى المعراج هنا، فهل هو المسجد الاقصى الذي في القدس؟ وهناك مسجد الكوفة أقصى منه وعله افضل! وبركات اللَّه في المسجد الحرام أقدم من القدس واكمل! وعرض المعراج في هذه الآية الخاصرة نصاً والحاصرة تقتضي التصريح بنهاية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 17: 1

(2). كما نصت روايتها عن الدر المنثور «ما فقدت جسد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولكن اسري بروحه» كذبة مزدوجة!

(3). ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند وكانه من رواية الكلبي عن ابي صالح عنه، واخرجه الحاكم والبيهقي عنه ورواه النسائي باختصار من رواية عوف عن زرارة بن اوفى عن إبن عباس‏

(4). تفسير القمي باسناد عن ابي مالك الازدي عن اسماعيل الجعفي قال كنت في المسجد قاعداً وابو جعفر عليه السلام في ناحية فرفع رأسه فنظر الى السماء مرة والى الكعبة مرة ثم قال: «سبحان الذي اسرى ...» وكرر ذلك ثلاث مرات ثم التفت الي فقال: اي شي‏ء يقولون اهل العراق في هذه الآية يا عراقي! قلت: يقولون اسرى به من المسجد الحرام الى البيت المقدس فقال: ليس كما يقولون، ولكنه اسرى به من هذه الى هذه واشار بيده الى السماء وقال: ما بينهما حرم (نور الثقلين 3: 98) ومن حديث مالك بن صعصعة مطولًا ان المسجد الحرام مبدء المعراج متفق عليه. اقول: قد يعني هذه الارض- وطبعاً من المسجد الحرام- والى هذه: عمق المعراج عند سدرة المنتهى- وما بينهما حرم- او ما بين الاقصى في الارض والاقصى في السماء حرم ام ماذا؟

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 209

المعراج وغايته: السدرة المنتهى في الافق الاعلى، دون متوسطه الأرضي فحسب، الاقصى الذي في القدس! ثم ما هي «آياتنا» في القدس التي لم يرها الرسول صلى الله عليه و آله في البيت الحرام؟ هل هي قبور الرسل الإسرائيليين؟ وليست من آيات اللَّه، وإنما الرسل هم آيات اللَّه وقد أراهم اللَّه إياه اذ اخذ ميثاقهم‏ «لتؤمنن به ولتنصرنه ..»» «1» واراه اياهم اذ امرأن يسألهم: «وأسأل من أرسلنا من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون» «2» ثم الآيات التي أريها هي آيات ربه الكبرى في عمق الفضاء «عند سدرة المنتهى .. لقد رآى من آيات ربه الكبرى» فهذه الرؤية كانت في الاقصى التي في السماء عند السدرة لا التي في الأرض. «3»

فلقد نرى أن المسجد الاقصى، أقصى المساجد في مطلق الكون من المسجد الحرام، ومنتهى المعراج عند السدرة المنتهى، إذ «أوحي الى عبده ما اوحي (10) لقد رآى من آيات ربه الكبرى» (18) بعدما «دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) (8- 9) دنواً واقتراباً من العلى الأعلى!.

هذا هو المسجد الأقصى الذي بورك حوله بركات معنوية معرفية. واخرى سواها أمثالها، فمن الأولى «ولقد رآه نزلة اخرى. عند سدرة المنتهى. عندهاجنة المأوى» (13- 15). ومن الاخرى جنة المأوى وما ينحو نحوها من آيات ربه الكبرى.

ف «الافق المبين- الافق الاعلى- سدرة المنتهى- جنة المأوى» في التكوير، وفي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 81

(2). 43: 45

(3). وفيه ايضاً عن سالم الحناط عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال: سألته عن المساجد التي لها الفضل فقال: المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه و آله قلت: والمسجد الاقصى جعلت فداك، فقال: ذلك في السماء اسري اليه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقلت: ان الناس يقولون: انه بيت المقدس؟ فقال: مسجد الكوفة افضل منه ومما يدل على وجود مسجد الكوفة حينذاك ما رواه القمي في تفسيره باسناده الى ابي عبداللَّه عليه السلام في حديث فضل مسجد الكوفة: «.. حتى ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما اسرى به قال له جبرئيل: تدري اين انت يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟ انت مقابل مسجد الكوفان قال: فاستاذن لي ربي حتى آتيه فاصلي فيه ركعتين ..» المصدر 3: 130)، واورده ابن سعد وابو يعلي والطبراني في حديث ام هاني مطولًا «الكشاف ج 2 ص 505)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 210

النجم والبيت المعمور «1» في «الطور» علّها كلها تعابير عدة عن منتهى المعراج: المسجد الاقصى، وقد يسمى الذي في القدس بالمسجد الاقصى لمحاذاته الاقصى الأولى، وقد زاره الرسول صلى الله عليه و آله في رحلته المعراجية «2» اذاً فالمسجد ان معنيان ب «المسجد الاقصى» فالذي في السماء أصل وغاية، والذي في الأرض ممر إليه وليس غاية.

وأية بركة عظمي وآية كبرى خير من الجنة المأوى، وما رآه في الافق الاعلى من آيات ربه الكبرى! «3» «لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير»: رؤية للمكون بقلبه بما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للبيت المعمور مصاديق اخرى كالكعبة المشرفة ويقابله المسجد الاقصى في السماءالسابعة فهو ايضاً البيت المعمور كما في نور الثقلين 5: 136 عن علي عليه السلام كما وهو منزل القرآن (5: 624) عن الصادق عليه السلام وفي الدر المنثور عن شعب الايمان عن النبي صلى الله عليه و آله قال: البيت المعمور في السماء السابعة، اقول: واحاديث الفريقين مجمعة على انه في السماء السابعة، فليكن هو المسجد الاقصى في السابعة، عمر قبل عروج النبي ثم زادت عمارة بعروجه، ثم ومن البيت المعمور بيت قلب الرسول صلى الله عليه و آله كما مضى عن علي عليه السلام فانه اشرف منزل للقرآن (راجع ج 27 ص 353- 254 من الفرقان)

(2). ثواب الاعمال عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال في وصية له: .. اني لما بلغت بيت المقدس‏في معراجي الى السماء ... (نور الثقلين 3: 122) ومن الملاحظ في الروايات التي تنقل مروره في معراجه بالقدس انها كلها تقول بيت المقدس ولا مرة واحدة: المسجد الاقصى‏

(3). تفسير القمي في حديث المعراج من لفظ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لعلي عليه السلام .. فكشط لي عن سبع‏سماوات حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها ... واما السادس لما اسري بي الى السماء جمع اللَّه لي النبيين فصليت لهم «نور الثقلين 3: 202» ومن الآيات التي أريها الرسول صلى الله عليه و آله عترته المعصومون واحد بعد واحد كما في عيون اخبار الرضا عليه السلام قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في حديث المعراج عن العترة ... يا محمد لو ان عبداً عبده في حتى ينقطع ويصير كالشن البالي ثم اتاني جاهداً بولايتهم ما اسكنته جنتي ولا اظللته تحت عرشي يا محمد أتحت ان تراهم؟ قلت: نعم يا رب! فقال عز وجل: ارفع رأسك فرفعت رأسي فاذا انا بانوار علي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة بن الحسن القائم في وسطهم كانه كوكب دري قلت: يا رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأئمة وهذا القائم الذي يحل حلالي ويحرم حرامي وبه انتقم من اعدائي وهو راحة لاوليائي وهو الذي يشفي قلوب شيعتك من الظالمين والجاحدين والكافرين .. (نور الثقلين 3: 119) وفي الدر المنثور (4: 153) اخرج ابن عدي وابن عساكر عن انس قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما عرج بي رأيت على ساق العرش مكتوباً: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه ايدته بعلي»!. ومنها النبيون والملائكة الذين صلوا وراءه في البيت المعمور: كما رواه القمي باسناده الى ابي جعفر عليه السلام قال: كما اسري برسول صلى الله عليه و آله الى المساء فبلغ البيت المعمور وحضرت الصلاة فاذن جبرئيل واقام فتقدم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فصف الملائكة والنبون خلف محمد صلى الله عليه و آله (المصدر 130)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 211

لافراق له ورؤية لكائناته ببصره لمتَّسع مملكته.

وترى لماذا «من آياتنا» لا كلها لكي تستكمل الرؤية وتكمل الضيافة والإضافة؟ ..

الجواب في النجم: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» ف «من» تبعيض عن كل الآيات و «الكبرى» هي جل الآيات، فقد اصطفى الرب لمصطفاه كبرى الآيات ومصطفاها، وكفته رؤية الكبرى عما سواه: كبرى الآيات كياناً كالنبيين والملائكة الكروبيين، وكوناً كسائر الآيات العظيمة الكونية ومنها سائر خلق اللَّه في سائر العوالم من سكان السماوات وعمارها. «1»

اترى ان غاية المعراج فقط «لنريه من آياتنا» لا إثبات رسالته ايضاً كأية من آيات ربه؟ ومن ثم ف «من» تبعض هذه الرؤية، في حين أري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين.

إن الملكوت هي حقيقة الملك وماهية تعلق الكون باللَّه تعالى، وللملكوت درجات كما للملك درجات، وكما أن أهل المُلك والملكوت درجات فلكلٍ درجة تخصه دون سواه، او تعمه ومن معه في درجته، وصاحب المعراج أري الكبرى من درجات الملكوت: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» وابراهيم وأضرابه ممن دون صاحب المعراج أري درجات أدنى منها، فانه صلى الله عليه و آله «بالافق المبين»: كل ما يمكن ان يبان، و «بالافق الاعلى»: أعلى الآفاق المعرفية أماهيه لحد ما لها من سباق.

ثم ان من الملكوت ما ترى اذ ينظر اليها، للناس كل الناس: «أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق اللَّه من شي‏ءٍ وأن عسى أن يكون قد اقترب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مضى تحت الرقم 2 ص 7

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 212

اجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون» «1» «قل من بيده ملكوت كل شي‏ء وهو يجير ولا يجار عليه». «2»

ومنها ما يختص بالمخلَصين من عباد اللَّه كابراهيم: «وكذلك نرى ابراهيم ملكوت المساوات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل ..» «3» ان افول الآفلين دليل لا مردَّ له على الفقر المطلق للكون وحقيقة تعلقه باللَّه، إراءة ومعرفة على مدرجة ابراهيم الخليل عليه السلام.

ومنها ما يخص صاحب المعراج حيث دنى فتدلى فكاب قاب قوسين او أدنى، إذ تخطى الكون بملكه وملكوته، بعدما اكتمل الرؤية والمعرفة فيهما وبهما، واري من آيات ربه الكبرى بصراً وبصيرة، ثم اراه ربه نفسه بأرفع درجات المعرفة الممكنة حيث دنى بالعلم‏ «4» وتدلى بالتجاهل عن نفسه «ولولا ان روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر ان يبلغه» «5» وكما قال صلى الله عليه و آله: «قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى» «6» «فلم يزل عن موضع ولم يتدل ببدن» «7» «وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أسري به الى السماء: «تقدم يا محمد! فقد وطئت موطئاً لم يطأ ملك مقرب ولا نبي مرسل ..» «8» فاين ملكوت من ملكوت! واين رؤية من رؤية واين معرفة من معرفة! فلم يدن احد ما دناه الرسول صلى الله عليه و آله ولا جبرئيل الذي صاحبه في شطر من سراه. «9»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 185

(2). 23: 88

(3). 6: 76

(4). الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين بن علي عليه السلام قال: ..

(5). تفسير القمي باسناده الى الصادق عليه السلام اوّل من سبق الى بلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وذلك انه اقرب‏الخلق الى اللَّه‏

(6). تفسير روح البيان ج 9: 319 قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: وفي الدر المنثور (4: 158): اخرج الخطيب عن انس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لما اسري بي الى السماء قربني ربي تعالى حتى كان بيني وبينه قاب قوسين او ادنى لا بل ادنى ..»

(7). الاحتجاج للطبرسي في آية التدلي عن موسى بن جعفر عليهما السلام‏

(8). تفسير القمي عن الصادق عليه السلام‏

(9). في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده الى عبدالسلام بن صالح الهروي عن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آباءه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله في حديث طويل يقول في آخره: فلما انتهيت الى حجب النور قال لي جبرئيل: تقدم يا محمد! ان هذا انتهاء حدي الذي وضعه اللَّه لي في هذا المكان فان تجاوزته احترقت اجنحتي لتعدي حدود ربي جل جلاله فزج بي زجة في النور حتى انتهيت الى حيث ما شاء اللَّه عز وجل في ملكوته فنوديت: «يا محمد انت عبدي وانا ربك فاياي فاعبد وعلي فتوكل فانك نوري في عبادي ورسولي الى خلقي وحجتي في بريتي» (نور الثقلين 3: 125)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 213

انه لم تكن سرى المعراج إلا تشريفاً للرسول محمد صلى الله عليه و آله وللملائكة وسكان السماوات ولكي يريه صلى الله عليه و آله ما أراه‏ «1» ويوحي اليه ما اوحاه.

«إنه هو السميع البصير» ترى من هو السميع البصير هنا؟ ثم ما هي الصلة بين السميع البصير والرحلة المعراجية؟

قد يكون هو صاحب المعراج، فلأنه سميع يسمع الوحي الخاص في السدرة بأذن قلبه «فاوحى الى عبده ما اوحي» ويسمع محادثات الملاء الأعلى بسائر أذنه، كما يبصر من آيات ربه الكبرى ببصره «لقد راى من آيات ربه الكبرى» ويبصر ربه ببصيرته، «ولقد رآه نزلة اخرى» لهذا وذاك اسري به، حيث يسمع ما لا يسمعه غيره بسمعيه، ويبصر ما لا يبصره غيره ببصريه.

وقد «لا» حيث الرسول وإن كان سميعاً بصيراً ولكن «هو» الفاصل هنا توحي بالحصر، ولا حصر في السمع المطلق وبصره إلا في اللَّه، وان دخل في ضمنها رسول اللَّه، فلان اللَّه سميع بصير يجعل رسوله سميعاً في معراجه بصيراً، بما يسمع من تطلبه، «رب زدني علماً» ويبصر من تأهله لهذه الرحلة المقدسة».

ثم «السميع البصير» للَّه‏ليستا مثلهما في سواه ف «لم يزل اللَّه عز وجل ربنا والعلم ذاته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في كتاب التوحيد للصدوق باسناده الى يونس بن عبدالرحمن قال: قلت لابي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام لاي علة عرج اللَّه نبيه الى السماء ومنها الى سدرة المنتهى ومنها الى حجب النور وخاطبه وناجاه هناك واللَّه لا يوصف بمكان؟ فقال: ان اللَّه تبارك وتعالى لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان ولكنه عز وجل اراد ان يشرف ملائكته وسكان سماواته ويكرمهم بمشاهدته ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه وليس ذلك على ما يقول المشبهون سبحان اللَّه وتعالى عما يشركون «نور الثقلين 3: 99»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 214

ولا معلوم والسمع ذاته ولا مسموع والبصر ذاته ولا مبصر والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور ...» «1» ف «هو سميع بغير جارحة وبصير بغير آلة، بل يسمع نفسه ويبصر بنفسه، ليس قولي: «انه يسمع بنفسه ويبصر بنفسه أنه شي‏ء والنفس شي‏ء آخر ولكن أردت عبارة عن نفسي اذ كنت مسئولًا، وافهاماً لك اذ كنت سائلًا، واقول: يسمع بكله لا ان الكل له بعض ولكن أردت إفهامك والتعبير عن نفسي وليس مرجعي في ذلك إلا الى انه السميع البصير، العالم الخبير بلا اختلاف الذات ولا اختلاف المعنى». «2»

فلقد «سمي ربنا سميعاً لا بجزء فيه يسمع به الصوت لا يبصر به، كما أن جزئنا الذي نسمع به لا يقوى على النظر، ولكن أخبر أنه لا تخفى عليه الأصوات، ليس على حد ما سمعنا نحن، فقد جمعنا الإسم بالسميع واختلف المعنى، وهكذا البصر لا بجزء به ابصر كما انا نبصر بجزء منا لا ننتفع به في غيره، ولكن اللَّه بصير لا يجهل شخصاً منظوراً اليه، فقد جمعنا الإسم واختلف المعنى». «3»

وهكذا تكون صفات اللَّه الحسنى كافة، مجردة عما لمن سواه من حدود وقيود، ما يجب سلبها عن اللَّه، إذ تختص بمن سواه.

ترى ولماذا يوصف ربنا بالسميع البصير دون الثلاثة الاخرى: اللامس- الشام الذائق؟ عله لأنها تختص بحواسها الثلاث دونهما حيث يعمان حسيهما بعضويهما من السمع والبصر المجردين، ثم السمع والبصر من كيفيات العلم دون الثلاثة الاخرى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اصول الكافي باسناده الى ابي عبداللَّه عليه السلام (نور الثقلين 3: 133)

(2). التوحيد للصدوق عن ابي عبداللَّه عليه السلام (نور الثقلين 3: 134)

(3). المصدر عن الرضا عليه السلام وفيه باسناده الى محمد بن مسلم عن ابي جعفر عليه السلام قال: قلت: جعلت فداك يزعم قوم من اهل العراق انه يسمع بغير الذي يبصر ويبصر بغير الذي يسمع؟ قال: فقال: كذبوا والحدوا وشبهوا تعالى اللَّه عن ذلك، انه سميع بصير، يسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع، قال: قلت: يزعمون انه بصير على ما يعقلونه؟ قال: فقال: انما يعقل ما كان بصنعة المخلوق وليس اللَّه كذلك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 215

الخاصة بالحس، حيث لا ذوق ولا شم ولا مس وراء الحس.

فمن الاسماء ما يخصه لفظياً كمعناه: الرحمن- الخالق .. ومنهما ما يخص خلقه فيها:

المريض- النائم- الذائق- اللامس- الشام ... ومنها ما نشارك ربنا في لفظه دون معناه:

العالم- القادر- الحي- الموجود- السميع- البصير.

والضابطة العامة في أسماءه أن تجرد عن معاني الخلق وصفاته الى ما يخصه إلهاً ليس كمثله شي‏ء.

ثم هذه الرحلة المنقطعة النظير للبشير النذير التي تفوق كل زمان ومكان رحلة مختارة من اللطيف الخبير، وهي آية عجيبة من آيات اللَّه، ليريه من آياته الكبرى، مهما كانت آية- في هامشها- للمرسل اليهم، تفتح القلب على آفاق عجيبة في الكون، وتكشف عن الطاقات المخبوءه في كيان هذا الإنسان، والاستعدادات المنقطعة النظير التي يتهيأ بها لاستقبال الفيض المطلق من السميع البصير انه لطيف خبير.

«وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا». «1»

كتاب موسى هو التوراة ولماذا هنا الكتاب بدل التورات؟ عله لمحة من «الكتاب» بما كتب فيه وفرض عليهم. كما الكتاب ككل هو كل ما يثبت ويُثبِت. وهل أوتيه موسى هدى لبني اسرائيل دون سواهم؟ وهو ثالث أولى العزم من الرسل حيث تعم شرايعهم كافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، فكيف اختصت هدى موسى بعض الناس: بني اسرائيل ..؟

هذه الرسالة العظيمة كسواها من أولى العزم الخمسة الذين دارت عليه الرحى‏ «2» تشمل المكلفين اجمع: «قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 17: 2

(2). راجع ج 26- الفرقان- ص 73 في ضوء آية اولي العزم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 216

للناس ..» «1» «يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ..» «2» فرسالة موسى وهداه بكتابه هي للناس كل الناس، والى فرعون وملائه: «ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين» «3» استكبروا مجرمين الا جماعة من ملائه السحرة: «فألقي السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى» «4» وإلا رجل من آل فرعون سوى السحرة: «وقال رجل من آل‏ فرعون يكتم إيمانه ..». «5»

وعل تركيزه هذه الرسالة العامة على بني اسرائيل في الكثرة المطلقة من مواردها، لأنهم كانوا هم أضعف المستضعفين في الأرض، والرسالات الالهية تقصد المستضعفين اولًا لتخليصهم، ثم المستكبرين لإبعادهم عنهم ومن ثم هداهم أنفسهم- ثم من سواهم وهم القلة القليلة في تاريخ الرسالات.

ونرى في مثلث الدعوة للرسالات أن الزاوية الأولى هي القاعدة، ثم الثانية للإبقاء على هذه القاعدة ثم الثالثة لعموم الدعوة، ثم وتأثير الدعوة في الأولى أولًا وفي الثانية ثانياً وفي الثالثة ثالثاً، كما في سحرة موسى ورجل من آل فرعون.

ثم السنة الرسالية تقتضي تركيزها على قوم الرسول أولًا ثم منهم الى سواهم:

«وانذر عشيرتك الاقربين» «6» ثم أهل بلده ولا سيما الألد منهم‏ «وتنذر به قوماً لداً» «7» «لتنذر قوماً ما أنذر آباءهم فهم غافلون» «8» ولا شك أن الرسالة المحمدية عالمية كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 6: 91

(2). 7: 144

(3). 10: 75

(4). 20: 70

(5). 40: 28

(6). 26: 214

(7). 19: 93

(8). 36: 6

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 217

تنص عليها آياتها وتدلنا عليه غاياتها.

فموسى وكتابه هدى لبني اسرائيل أولًا «1» ولفرعون وملائه ثانياً، ولسائر الناس اخيراً.

«ألا تتخذوا من دوني وكيلًا».

هل المخاطبون هنا هم بنو اسرائيل؟ وغيابهم في «لبني اسرائيل» يقتضي غيابهم هنا «ألا يتخذوا»! ام للمسلمين المخاطبين متناً في وحي القرآن؟ وما هي الصلة بين هدى موسى وكتابه وألا يتخذ المسلمون من دون اللَّه وكيلًا؟ وهدى موسى تختص أمته!.

المخاطبون هنا هم بنو اسرائيل الحضور زمن الخطاب وعلى طول الزمن بعده فان رسالة موسى منذ بزوغه كانت هدى لبني اسرائيل السابقين على الدعوة الإسلامية، ألا يتخذوا هم ولا تتخذوا انتم من دون اللَّه وكيلًا.

والإنتقال من الغيبة الى الحضور دأب يدأبه القرآن بمناسبات شتى.

وهل تُختصر رسالة موسى وتُحتصر في «ألا تتخذوا من دوني وكيلًا» وفي كتاب موسى أحكام أصلية وفرعية شتى؟.

اقول: ككل كلا، وأما كأصل يركز عليه الكل فبلى حيث الآلهة العدة المعدة والوكالات الاخرى كانت في بني اسرائيل سنة دائبة، فلذلك أصبحت «الا تتخذوا من دوني وكيلًا» كأنها هدى موسى كلها لبني اسرائيل، فان عليهم ان يتبنوها لهداهم ككل، دون ان يتفلت اصل من الشريعة عنها أو فرع.

ثم ولا تختص شرعة موسى بهذه الأصالة، فإنها تعم الشرايع كلها فان الوكالات في أمر التكوين والتشريع ككل، وفي سائر الوكالات كأصل إنما هي للَّه‏سبحانه وتعالى عما يشركون.

تأتي الوكالة بمختلف صيغها سبعين مرة في الذكر الحكيم، محتصرة الربوبيات في اللَّه تعالى: 1- ان له الحكم لا سواه: «إن الحكم إلا للَّه‏عليه توكلت» «2» 2- وسعة العلم:

«وسع ربنا كل شي‏ء علماً على اللَّه توكلنا» «3» 3- والرحمة العامة: «هو الرحمن آمنا به‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فضمير الغائب في «جعلناه» كما يرجع الى كتاب موسى كذلك الى موسى، فموسى بكتابه‏وكتاب موسى هدىً دون انفصال‏

(2). 12: 67

(3). 7: 89

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 218

وعليه توكلنا» «1» 4- والهداية: «وما لنا ألا نتوكل على اللَّه وقد هدانا سبلنا» «2» 5- والنصرة: «وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى اللَّه فليتوكل المؤمنون» «3» 6- والعزة 7- والحكمة: «ومن يتوكل على اللَّه فإن اللَّه عزيز حكيم» «4» 8- والمانع عن الضرر: «وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن اللَّه وعلى اللَّه فليتوكل المؤمنون» «5» 9- وعن سيطرة الشيطان: «إنه ليس سلطان على الذين آمنوا وعلى‏ ربهم يتوكلون» «6» 10- وفي كل ما عند اللَّه: «وما عند اللَّه خير وأبقى للذين آمنوا وعلى‏ ربهم يتوكلون» «7» 11- وفي رجوع الأمر كله اليه: «وإليه يرجع الأمر كله فاعبده‏ وتوكل عليه» «8» 12- وفي سعة القدرة: ومطلق المُلك والملك: «وللَّه ما في السماوات‏ وما في الأرض وكفى باللَّه وكيلًا». «9»

ففي هذه الأمور تكوينياً وتشريعياً ينحصر التوكل على اللَّه منحسراً عن سواه. «10» فلا توكل إلا على اللَّه ولا اتكالية في الأمور على اللَّه او سواه، ولا توكيل في وكالة غير اللَّه إلا ناقصاً ينحو نحو وكالة اللَّه.

حيث الإتكال على اي كان يعني تخلي الإنسان عن أية محاولة فيما يتكل فيه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 67: 29

(2). 14: 12

(3). 3: 160

(4). 8: 49

(5). 58: 10

(6). 16: 99

(7). 42: 36

(8). 11: 123

(9). 4: 132

(10). راجع ج 29- الفرقان- ص 217 على ضوء الآية: فاتخذه وكيلًا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 219

والبطالة في اي أمر للإنسان فيه حول وقوة محظور، وحتى وان كان على اللَّه، كمن لا حراك له في الحصول على رزقه ويتكل على اللَّه.

ثم التوكل على غير اللَّه فيما يتوكل فيه دون اتكال يعني أن غير اللَّه كاف وليس به أياً كان، وانما يتوكل على اللَّه، ولا يعني توكيل غير اللَّه لا توكلًا عليه ولا اتكالًا، وانما مساعدة لك فيما لا يسعه حولك أو قوتك، ثم عليكما موكلًا ووكيلًا التوكل على اللَّه فيما لا تقدران عليه او تقدارن! «وكفى باللَّه وكيلًا».

ف «ألا تتخذوا من دوني وكيلًا» تعم الوكالتين: 1- فيما يختص باللَّه كما مضى في آياته 2- في كل أمر يعمله لك متعاملا معك غير اللَّه، أن تراه مستقلًا في حوله وقوته عن اللَّه، ام غير مفتقر في بلوغ الغاية إلى اللَّه وحتى فيما يبلغه الإنسان دون حاجة ظاهرة الى سواه.

«انه كان عبداً شكوراً» عله علة الأمرين: 1- ان اللَّه حمل نوحاً والمؤمنين معه، 2- وانه جعل دريته ومن حمل معه هم الباقين.

والشكور هي المبالغ في الشكر حسب المكنة والإستطاعة كالعبد الشكور حيث يشكر في غاية العبودية، وهي البالغ في الشكر بمقتضى الرحمة: «ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن اللَّه غفور شكور» «1» وأن شكور من شكور! على ان‏ «وقليل من عبادي‏ الشكور» «2» ولقد كان نوح صباراً شكوراً أن عاش قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، قوماً كفوراً وهو صبار شكور!.

«ذرية من حملنا مع نوح انه كان بعداً شكوراً». «3»

«ذرية» منصوبة على الإختصاص، أفهذه الذرية هم- فقط- بنو اسرائيل؟ اذ «جعلناه هدىً لبني إسرائيل ذرية» وهم محط الدعوة الموسوية؟ وليسوا هم- فقط- ذرية من حملنا، ولا تخصهم الدعوة الموسوية، وهم ذرية ممن حملوا مع نوح لا «ذرية مَن»!.

أم هم بنو الإنسان من ذرية نوح طيلة الرسالة الموسوية؟ حيث‏ «وجعلنا ذريته هم الباقين»: «4» فإن بني الإنسان كافة بعد نوح هم- فقط- ولكنهم ذرية نوح، لا «مَن حملنا مع نوح» وقد حمل معه من ذريته ومَن آمن به: «اولئك الذين أنعم اللَّه عليهم من ذرية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 42: 23

(2). 34: 13

(3). 17: 3

(4). 37: 77

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 220

آدم وممن حملنا مع نوح» «1» فلو كانوا هم- فقط- ذرية نوح كان «ومن ذرية نوح» ك «من ذرية آدم» فذرية آدم هم- فقط- ذرية آدم، وذرية من حملنا مع نوح هم من ذريته وسواهم ممن حملوا معه: «قلنا احمل فيها من كلّ زوجين وأهلك إلّا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلّا قليل» «2» واللمحة المستفادة من «مَن حملنا مع نوح» دون «ممن» تطارد احتمال أن بني الانسان كافة بعد نوح إنما هم من ذريته. «ومن آمن» كانوا عُقما! والرواية تُحمل على المصداق الأوضح الأعرف، وآية «الباقين» لا تعني ذريته الأولاد فحسب، وإنما من ركب سفينة النجاة: «ونجيناه واهله من الكرب العظيم» (76) يا ترى هم فقط ولده وبعضٌ منهم لم يكن من أهله‏ «إنه ليس من أهلك أنه عمل غير صالح» «3» والمؤمنون القلة الذين ركبوا معه قد نجوا، فأهله هنا هم كل من حُمِل معه، وهم كلهم ذريته‏ «وجعلنا ذريته هم الباقين» (77) دون الهالكين: «ثم أغرقنا الآخرين» (83) فالأولون هم أهله وذريته والآخرون هم الهالكون وإن كانوا من ذريته. «4»

«وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إسْرائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً\* فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولًا». «5»

قضاء صارم بفساد عارم الى بني اسرائيل طول التاريخ الاسرائيلي منذ البداية في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 19: 58

(2). 40: 11

(3). 11: 46

(4). فلو كان اهله وذريته- فقط- من نسله لكان الآخرون الهالكون هم الكافرون مع المؤمنين القلة الذين حملوا معه!

(5). 17: 4- 5

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 221

الأرض مرتين تصحب أخراهما «علواً كبيراً» 1- فما هي القضاء؟ 2- وما هو الكتاب؟

3- واين هي أرض الإفساد؟ 4- وما هما المرتان؟ والعلو الكبير؟ 5- ومن هم «عباداً لنا» حيث يجوسون في الأولى خلال الديار، ويسوئون وجوههم في الثانية؟.

إن القضاء ككل- هي فصل الأمر، وقد يختلف الأمر بفصله حسب اختلاف التعلقات: قضاه- فيه- عليه- له- به- إليه- منه- بين.

وهي بين فصل الأمر تكويناً او تشريعاً او فعلًا او تحويلًا لنباءِ: «فقضاهن سبع سماوات في يومين» «1» تكويناً- «وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه» «2» تشريعاً- و «ايما الاجلين قضيت فلا عدوان علي» «3» فعلًا- و «فمنهم من قضى نحبه» «4» اجلًا للموت وهو من فعل اللَّه، ثم القضاء فيه: في القضية التي تقتضيها- وعليه: على المحكوم فيها، وله: المحكوم له، وبه: بالحكم المقضي، ومنه- من القاضي، وبين: بين المتقاضيين- سواءً في التكوين او التشريع او فعل وأجل.

واما القضاء اليه:- رابع الأضلاع لمربع القضاء- فقد ينحصر في تحويل أمرٍ تكونياً كالأجل: «ولو يعجل اللَّه للناس الشر استعجالهم بالخير، لقضي اليهم اجلهم» «5» أو تحويلٍ لنباءٍ فصل محتوم ايحاءً، من مخلفات لسيآت: «وقضينا إليه ذلك الأمر ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين» «6» وقطع الدابر هذا من مخلفات اعمال قوم لوط المفسدين، حيث جزاهم اللَّه بما أفسدوا، او هم تحويل نباءٍ فيه تهويل كما هنا: «وقضينا إلى بني اسرائيل ..» الحكم الفصل الإنباء اليهم في الكتاب: التورات فلا هو تشريعي ولا تكويني، وانما قضاء علمي من أهم الملاحم التاريخية المنقطعة النظير يوحى‏ إلى البشير النذير!.

وهل الكتاب هنا- فقط- التوراة حيث سبق ذكرها في «واتينا موسى الكتاب»؟ ام كل كتابات الوحي الإسرائيلي؟ او كل ما كتبه اللَّه من كتاب قبل القرآن؟ نجد نبأ القضاء على مطلق الإفساد بالمهدي عليه السلام واصحابه في عديد من كتابات الوحي: في العهد العتيق والجديد وسواهما وقد يأتي نبأه في ختام البحث.

وأرض الافساد هي الأرض كلها، دون اختصاص بالقدس او فلسطين، حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 41: 12

(2). 17: 23

(3). 28: 28

(4). 23: 23

(5). 10: 11

(6). 15: 66

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 222

الصيغة الخاصة به هي «الأرض المقدسة»: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب اللَّه لكم» «1» ام ولا اقل «ارضاً» حتى تخص جانباً من الأرض: «اقتلوا يوسف او اطرحوه أرضاً» «2» «وأورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وأرضاً لم تطؤها» «3» ام «ارضكم» او «ارضنا» او «ارضهم» حتى تدل على اختصاص، دون «الأرض» والقائل هو اللَّه خالق السماوات والأرض، لا انسان الأض الذي يسكن جانباً منها فيعني من «الأرض» سكناه او ما يملكه منها ام ماذا؟

فصيغة الأرض من صائغها اللَّه ليست لتعني إلا الأرض كلها، أم والأرضين السبع:

«ومن الأرض مثلهن» «4» اللهم إلا بقرينة حاضرة تخصها، وليست هنا فلا اختصاص، فهو اذاً إفساد ان في المعمورة كلها.

وهل المرتان هما- بعد- قتل زكريا ويحيى عليهما السلام؟ «5» وقتل كل نبي افساد! وفي انبياء اسرائيل من هم أهم واعظم منهما! فاذ يعني الإفساد قتل نبي فلماذا «مرتين» دون «آلالف مرات»؟ وقد كانوا يقتلون في يوم سبعين نبياً أم ما زاد او نقص!.

فليكن الإفسادان في الأرض شاملين كل المعمورة: إفساداً في الأنفس قتلًا وإضلالًا، وفي الحرث والنسل: اقتصادياً، ثقافياً- اخلاقياً- سياسياً وحربياً ام ماذا، حيث يجعل المعمورة خربة بائرة لا تليق جوّاً للحياة الإنسانية السليمة.

ان التاريخ الاسرائيلي على طوله هو تاريخ الفساد والافساد، كما في تلمودهم‏ «6» الا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 5: 21

(2). 12: 9

(3). 33: 27

(4). 65: 12

(5). ولم يرد فيه رواية في التفاسير الاثرية للفريقين إلّا روايات عن بعض الاصحاب او التابعين‏او المفسرين دون اي دليل اللهم الا ما رووه عن علي عليه السلام كما في الدر المنثور 4: 163- اخرج ابن عساكر في تاريخه عن علي بن ابي طالب رضى الله عنه في قوله: لتفسدن في الارض مرتين، قال: «الاولى قتل زكريا عليه السلام والاخرى قتل يحيى» وهي على كونها رواية يتيمة لا توجد في كتب احاديثنا مردودة بما ذكرناه في المتن‏

(6). واليهود اليوم هم الذين يديرون العالم كما يشاءون، يقوم الفيلسوف منهم فيحرك العالم بمايختلقه، جاء في التلمود وهو ملخص دين اليهود تفسيراً للتورات «ان اللَّه فرقنا في الامم لانه يعلم اننا شعبه وابناءه وان العالم الانساني كله خدم لنا، والإنسان كله برزخ بيننا وبين البهائم نستعملهم للتفاهم بيننا وبين الحيوانات، فعلينا ان نجعلهم متشاكسين متقاتلين متعادين ونتدخل في سياساتهم ونجعلهم في حرب وخلاف دائمين لنربحهم في ضعفهم، ونزوح بناتنا لعظمائهم ونتدخل وندخل في كل دين لنفسده على اهله وتكون لنا السيادة على هذا الانسان الذي سخره اللَّه لنا».

ولقد عملوا ما املوا وبلغوا ما املوا حيث اسسوا البلشفية في روسيا ومنهم لنين، وماركس الالماني الذي هو اصل البلشفية يهودي. ورؤساء جماهير امريكا كلهم من اليهود او عملائهم، وكذلك كفار الغرب والشرق الطواغيت وزعماء مستسلمين من المسلمين هم من عملائهم كما نراهم اليوم يعملون لصالح الصهيونية العالمية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 223

بعض ما كان زمن سلطات الرسالات الاسرائيلية السامية كموسى ويوسف وداود وسليمان واضرابهم، ففي الأكثرية الساحقة زماناً ومكاناً وانساناً كانوا مفسدين ليل نهار، لا مرتين ولا آلاف فلا يحصيها الا اللَّه!

ولكن الافساد- كما الاصلاح- العالميين لا يتيسران إلا في منظمة وسلطة وقيادة قوية، ولكي تعلو كافة النشاطات المضادة من حكومات وشعوب.

والصهاينة المجرمون كانوا- وقبل سنين- شذاذ الآفاق متفرقين في البلاد، ليست لهم دولة او دويلة، فما كانوا يستطيعون الإفساد في الأرض، حيث كانوا تحت مختلف السلطات.

ولأول مرة في تاريخهم شكلت دويلة في فلسطين بما تآزرت الطاقات من شراذمة الآفاق والإستعمار الشرقي والغربي، وبما تساهلت او ساعدت دويلات عربية حتى احتلت فلسطين لحد غربي نهر الأردن وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله «يقاتل بقيتكم الدجال على نهر الأردن، أنتم شرقي النهر وهم غربيه». «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الطبقات 7: 422 عن السكوني قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله اقول: الدجال هنا هو اسرائيل شر دجال طول التاريخ، ونهر الأردن بين فلسطين والاردن، ونرى الآن ان غربي النهر محتل اسرائيلي والمسلمون في شرقيه، ولم يسبق لحد الآن في التاريخ الاسلامي احتلال الاراضي الغربية لنهر الاردن من قبل غير المسلمين الا قبل سنين من قبل الدجال الاسرائيلي ومن الطريف جداً صدق الصفة الخاصة للدجال المعروف في قائد الحرب الاسرائيلي ب (موشي دايان) فانه ممسوحة العين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 224

فلقد اختلقت دويلة العصابات الصهيونية منذ زهاء اربعين سنة، ثم احتلت بلاداً اخرى ضمتها إليها بعد سنين بما فيها القدس، ثم اخيراً اعلنت ان القدس عاصمة اسرائيل، ثالوث منحوس من إفسادهم العالمي الأول، انطلاقاً من فلسطين، واطلاقاً الى المعمورة كلها وحتى متى؟ لا ندري.

هذه هي المرة الأولى من إفسادهم مرتين، وطبعاً لا علو كبير- على علوه- فان كبيره للثانية، وفي الأولى يساعدها او ينضم اليها او يستجيبها ويحرضها سائر سواعد الكفر والفساد في المعمورة، لا سائر اليهود والنصارى وسواهم من الكفار والملاحدة والمشركين فحسب، بل، وممن يتسمون المسلمين وايضاً: من دويلات خليجية أماهيه التي هي ويلات على الإسلام والمسلمين العائشين تحت نيرهم، وكما نراهم يساعدون البعث الكافر ضد ايران المسلمة التي رفعت ولأول مرة في تاريخ الإسلام- راية الجمهورية المجيدة الإسلامية، فجند الكفر جنوده من مشارق الأرض ومغاربها على الحدود العراقية الايرانية ولكي يربح صِدام صدام على هذه الجمهورية المباركة وتتخلص من حكم الإسلام الصارم. «1»

«فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولًا». «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لقد جاءتنا أنباء موثقة من جيشنا الباسل الاسلامي في المحمرة: خونين شهر، وسواها من الحدود الايرانية العراقية ان المساعدات في شتى الحاجيات الحربية تأتي للعراق من (106) دولة، وان المحاربين في خطوط النار ضد الجمهورية الاسلامية الآن من (25) دولة شرقية وغربية.

نقل لي جماعة من هؤلاء اننا اسرنا في المحمرة (35) منهم وكانوا من (17) دولة كمصر والاردن والسعودية والمغرب وامريكا وانكلترا وروسيا وفرنسا واسرائيل و ...، وان المحاربين الاردنيين في الجبهات بلغوا زهاء 000/ 40 نفراً، وهكذا يجند الكفر جنوده ضد جمهوريتنا، اللهم انصرنا عليهم بالمهدي وآبائه الطاهرين عليهم السلام‏

(2). 17: 5

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 225

وعد الأولى هو موعد الانتقام منهم في المرة الأولى من إفسادهم العالمي، حيث تشمل زبانيته مشارق الأرض ومغاربها.

وعلنا نعيش الآن في وعد الأولى، في بداية قضينا فيها على المكية الجبارة في ايران، واخذنا في محاربة المستعمرين شرقيين وغربيين فارسلوا علينا ذنباً من أذنابهم احمق واشرس عملائهم «صدام».

يا ترى من هم «عباداً لنا» غيرنا ومن يلحق بنا ويستجيبنا من المسلمين الغيارى الاحرار؟ هل هم بعدُ بخت النصر الوثني مع جنوده الوثنيين ام هم من خيرة عباد اللَّه الصالحين؟.

إن هذه الصيغة سائغة لعباد اللَّه الخصوص، مصوغة لمن يختصون عبوديتهم وعبادتهم باللَّه دون سواه، ففي العباد المعصومين نجد هكذا فرادى ك «عبده زكريا» «1» و «» عبدنا داود» «2» و «عبدنا ايوب» «3» و «نوح» «4» وك «عبده‏» الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه و آله كما هنا، وجماعات: «واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب اولي الأيدي والابصار. إنا اخصلناهم بخالصة ذكرى الدار. وإنهم عندنا لمن المصطفين الاخيار». «5»

ثم ونجد «عباداً لنا» فيمن دون المعصومين صيغة مختصرة منقطعة النظير تخص هؤلاء المبعوثين مرتين لدحر السلطات الصهيونية، طالما «عبادي» يعمهم وسواهم من المكرمين: «يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون» «6» «فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه». «7» وكما في مثلث العباد «عبادنا» هم المصطفون: «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن اللَّه. ذلك هو الفضل الكبير» «8» حيث السابق بالخيرات من العباد هم «عبادنا» والظالم لنفسه «عباد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 19: 2

(2). 38: 17

(3). 38: 41

(4). 54: 9

(5). 38: 47

(6). 43: 68

(7). 39: 17

(8). 35: 32

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 226

الشيطان» والمقتصد بين ذلك عوان، ونحن لا نجد في الطول التاريخي والعرض الجغرافي الإسلامي «عباداً لنا» خيراً من المسلمين الثوار الايرانيين بمن يلحق بهم ويستجيبهم من سائر المسلمين في هذه المعركة المصيرية بين مطلق الإسلام ومطلق الكفر، اللهم إلا بعضاً ممن كانوا مع الرسول صلى الله عليه و آله وعلي والحسين عليهم السلام ام من ذا؟ ولكنهم عاشوا قبل المرتين من الإفسادين العالميين، ونحن نعيش المرة الأولى منهما، فلنكن نحن «عباداً لنا» وقد يعبِّر عنهم الرسول صلى الله عليه و آله باخوانه فوق اصحابه! في قوله صلى الله عليه و آله: «اللهم لقني إخواني» «1» «ويا ليتني قد لقيت اخواني» «2» وهم رفقاءه صلى الله عليه و آله‏ «3» «الواحد منهم له اجر خمسين منكم». «4»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار 52: 123- 8 ير باسناده عن ابي بصير عن ابي جعفر عليه السلام قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ذات يوم وعنده جماعة من اصحابه: «اللهم لقني اخواني» مرتين- فقال من حوله من اصحابه: اما نحن إخوانك يا رسول اللَّه؟ فقال: لا- إنكم اصحابي واخواني قوم في آخر الزمان آمنوا ولم يروني لقد عرفنيهم اللَّه باسمائهم واسماء آبائهم من قبل ان يخرجهم من اصلاب آبائهم وارحام امهاتهم، لاحدهم بأشد بقية على دينه من خرط القتر في الليلة الظلماء، او كابعابض على جمر الغضاء اولئك مصابيح الدُجى، ينجيهم اللَّه من كل فتنة غبراء مظلمة.

وفيه (122) 4- ج عن ابي حمزة الثمالي عن ابي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: تمتد الغيبة بولي اللَّه الثاني عشر من اوصياء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والأئمة بعده. يا ابا خالد! ان اهل زمان غيبته القائلون بامامته، المنتظرون لظهوره افضل اهل كل زمان، لأن اللَّه تعالى ذكره اعطاهم من العقول والافهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالسيف، اولئك هم المخلصون حقاً وشيعتنا صدقاً والدعاة الى دين اللَّه سراً وجهراً، وقال: «انتظار الفرج من اعظم الفرج».

وفيه (125) 12- ك: عن الصادق عليه السلام عن آبائه قال قال النبي صلى الله عليه و آله لعلي عليه السلام: «يا علي! واعلم ان اعظم الناس يقيناً قوم يكونون في آخر الزمان لم يلحقوا النبي وحجب عنهم حجة فآمنوا بسواد في بياض»

(2). (132) 36- جاء باسناده عن عوف بن مالك قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ذات يوم: يا ليتني قد لقيت اخواني ...»

(3). المصدر (129) 25 غط باسناده عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: طوبى لمن ادرك قائم اهل بيتي وهو مقتد به قبل قيامه يتولّى وليه ويتبرء من عدوه، ويتولى الأئمة الهادية من قبله، اولئك رفقائي وذووا ودّي ومودتي واكرم امتي علي (واكرم خلق اللَّه عليّ)

(4). الغيبة للطوسي (290) عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سياتي قوم من بعدكم الرجل الواحد منهم له اجر خمسين منكم قالوا يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله نحن كنا معك ببدر وأحد وحنين ونزل فينا القرآن؟ فقال: انكم لو تحملتم لما حُمِّلوا لم تصبروا صبرهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 227

ولئن قلت إن هؤلاء حسب النص يبعثون «اذا جاء وعد اولاهما» وأني لكم انكم في زمن وعد الأولي وعقابها وإفساد هذه المرة بعد لم يشمل المعمورة كلها حتى يحين حين وعدها.

علة لأن المرة الأولى بادئة منذ زمن، ولان في وعدها يبعث «عباداً لنا» وتصدق هذه الصغية لأول مرة علينا، فلنكن نحن هم، وإلا فليقل «عباداً لنا» كذا وكذا حتى لا يشملنا، ثم البعث آخذ فينا موقعه لما قطعنا ذنباً طويلًا من أذناب اسرائيل «الشاه» ونعيش الآن قطع أذناب اخرى حتى نصل الى صاحب الأذناب «اسرائيل».

فكما أن إسرائيل تفسد في الأرض بأذنابه، بخيله ورجله، برجاله ورجّاله من مشارق الأرض ومغاربها، فليكن الإنبعاث في «عباداً لنا» نابعاً منا نابغاً كأصل، ومستأصلًا كل الفساد بمن يستجيبنا من مسلمي المعمورة الاحرار.

لهؤلاء الثوار الأماجد حسب النص مثلث من الميزات: 1- «بعثنا ..» 2- «عباداً لنا» 3- «اولى باس شديد» والنتيجة: «فجاسوا خلال الديار» حيث يحققون الوعد: «وكان وعداً مفعولًا»!.

والبعث الرباني ولا سيما في جمعية الصفات «نا» يعني بعثاً ربانياً ايمانياً صامداً صارماً كالبعثات الرسالية. فالبعث الصهيوني في الإفساد العالمي يتطلب بعثاً ربانياً يكافئه في الإصلاح العالمي: بعث عتيد فيه باس شديد!، ومن قبل تأذن اللَّه نوعية هذا البعث:

«واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم»: «1» سلسلة من عباد اللَّه الصاحلين في حلقات متواصلة متفاصلة طول التاريخ الإسرائيلي لمن يسومهم سوء العذاب، ثم ويختص «عباداً لنا» بأخلصهم في هذا البين وأشدهم بأساً حيث يقضى بهم على الإفسادين العالميين.

فمن هؤلاء الخصوص؟ هم «قوم يبعثهم اللَّه قبل خروج القائم فلا يدعون وتراً لآل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 167

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 228

محم إلا اخذوه‏ «1» قتلوه‏ «2» وتفجرة هذه البعثة المظفرة علّها من قم ف «هم واللَّه اهل قم» «3» بمن يقودهم من رجله القائد الأعظم الخميني نصره اللَّه وكما يروي عن الإمام الرضا عليه السلام:

«رجل من اهل قم ..». «4»

هؤلاء هم الأولون في وعد الأولى، ثم الآخرون في وعد الثانية «هم القائم عليه السلام واصحابه». «5»

ف «عباداً لنا» يقتسمون الى من «جاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولًا» ومن ثم من «ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه اول مرة وليتبروا ما علواً تتبيراً» وكما الإفساد الثاني اقوى وعلوه أعلى من الأول واشجى، كذلك «عباداً لنا» فيه هم أحق واحرى، كما أن قائدهم المهدي عليه السلام إمام لقائد المرة الأولى ولكافة المكلفين- اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه.

ثم لا نجد البعث في آياته إلا بعث الرسل او بعث الاموات فالثاني تكويني والأول تشريعي يعم المرسلين دون سواهم، اللهم إلا من ينحوا منحاهم كطالوت: «إن اللَّه قد بعث لكم طالوت ملكاً» «6» اللهم إلا من يسومهم سوء العذاب دوماً وأخيراً الا «عباداً لنا» أخصاء ثم لا بعث إلا رسالياً إلا في الغراب: «فبعث اللَّه غراباً يبحث في الأرض» «7»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير البرهان عن العياشي عن الامام صادق عليه السلام والوتر بفتح الواو وكسره: الفرد او ما لم‏يتشفع والذَحل او الظلم فيه هو المقصود هنا

(2). تفسير نور الثقلين 3: 18 عن روضة الكافي عن الامام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: «بعثنا عليكم عباداً لنا ...»

(3). تاريخ قم تاليف حسن بن محمد القمي نقلًا عن جماعة من اصحاب الامام الصادق عليه السلام قالوا: كنا حضوراً عنده عليه السلام فتلا: «حتى اذا جاء وعد اولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا ...» قلنا: جعلنا فداك من هؤلاء؟ قال: هم واللَّه اهل قم‏

(4). ياتي تفصيل هذا الحديث‏

(5). نور الثقلين عن تفسير العياشي عن حمران عن ابي جعفر الباقر عليه السلام‏

(6). 2: 247

(7). 5: 31

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 229

خارجاً عن الشرعة التشريعية.

وذلك البعث أياً كان، رسولياً او رسالياً في غير الرسل يتضمن حركة قوية صارمة تقضي على الحياة العارمة، فكما أن بعث الاموات يحييهم، كذلك ذلك البعث يحيى ميت البلاد، ويحرر مستضعفي العباد عن سلطان الطواغيت بصورته العامة المستمرة ب «من يسومهم» والخاصة بالمرتين ب «عباداً لنا».

ثم «عباداً لنا» هي ك «بعثنا» تخصهم دون سواهم! وكذلك «باس شديد» اذ لا نجدها إلا في الحديد: «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» «1» ام في بأس اللَّه: «واللَّه أشد بأساً وأشد تنكيلًا» «2» اللهم إلا فيما يدعيه من لا يصدَّقون: «قالوا نحن اولوا قوة واولوا بأس‏ شديد» «3» وقد تبين أن بأسهم بائس أمام بأس سليمان عليه السلام واخيراً من يحذَّر المخلفون من الاعراب عنهم: «قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون ..» «4» وهذا هو البأس الشديد لأعداء الإسلام منقطع النظير في التاريخ وعله بأس اليهود في المرتين، «5» يقابله بأس شديد من «عباداً لنا» بأس شديد ببأس شديد، واين شديد من شديد، ثم لا نجد شديداً للمصلحين في تاريخ الرسالات ام للمفسدين إلا هذا وذاك.

فهذا المثلث المجيد، المنقطع النظير بزواياه، يقضي على الصهاينة المجرمين، حيث يجوسون خلال الديار.

«.. فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولًا».

فالجوس هو الطلب باستقصاء في تردد حتى يتوسط المطلوب، وهؤلاء المؤمنون الاشداء يطلبون اولئك المفسدين في المرة الأولى باستقصاء وتردد خلال ديارهم وسائر الديار، داراً بعد دار ليجازوهم ما افسدوا ويستأصلوهم ما وجدوهم، ونحن هم انشاء اللَّه! حيث لا ندع وتراً لآل محمد صلى الله عليه و آله إلا أخذناه او قتلناه، والصهيونية العالمية بمن معها من كفرة البلاد او مسلميهم المستسلمين، هم كلهم وتر لآل محمد صلى الله عليه و آله ونحن- باذن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 57: 25

(2). 4: 84

(3). 27: 33

(4). 48: 16

(5). راجع سورة الفتح الجزء 26 من الفرقان ص 182 على ضوء آية البأس الشديد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 230

اللَّه- سوف نطأ ما فيها ومن فيها بلا تهيب! وإننا في هذه المرة ندخل المسجد الاقصى منتصرين وكما في آى الانتصار الثاني «وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ..»!.

«ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً\* إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِانفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً». «1»

هذه الآيات من الملاحم الغيبية الثانية إنباء هاماً من آخر الزمن، حيث الظلم والفساد يعم المعمورة كلها على سلطة عالية صهيونية عالمية وعملائها وأذنابها في مشارق الأرض ومغاربها، ومن ثم يقضى على هذه السلطة بفرقة ثانية هى أسنى وأسمى من الأولى من «عباداً لنا» وهم القائم عليه السلام واصحابه وتتحقق الدولة الأخيرة الإسلامية العالمية والى يوم القيامة.

إن لقيام صاحب الأمر شرطين اساسيين سلباً وايجاباً كما هما لهذه الدولة الإسلامية ب «عباداً لنا» قبلها، فالسلبي هو سلب الحق والعدل عن المعمورة بمن يعيثون في الأرض فساداً، والايجابي هو تحصُّل «عباداً لنا» تبلوراً من مسلمي المعمورة المجاهدين المناضلين، ولكي يحصل جند المهدي الأصلاء العشرة آلاف، وأصحاب ألويته الثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا حيث يقودون الوية الدولة المهدوية وهم من أقسام مملكته في كل المعمورة.

عمال الناحية السلبية لتأسيس هذه الدولة هي الصهيونية العالمية واضرابها وكما في المرة الأولى، وعمال الناحية الايجابية لها هم خيرة من «عباداً لنا» كما في الأولى، اشداء خيرين وجاه اشداء شريرين.

وكما ان الصهيونية العالمية تعمل وتتعامل في عيث الإفساد العالمي في المرتين هاتين- وعلى طول الزمن- فضرورة المكافحة الإسلامية تقتضي النضال المكافح المتغلب من مسلمي المعمورة تبلوراً في «عباداً لنا» في المرتين هاتين- وعلى طول الزمن-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 17: 6- 7

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 231

لتكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى: «ولولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن اللَّه ذو فضل على العالمين» «1» وإذا الأرض فسدت حيث «عباداً لنا» يستضعفون ولا يناصرهم امثالهم من مسلمي البلاد، فعليهم ان يثوروا ويفوروا جميعاً ولكي يجوسوا خلال الديار ويسوءوا وجوههم، «وكان وعداً مفعولًا».

فهناك على طول الخط «من يسومهم سوء العذاب» بعثاً الهياً الى يوم القيامة، ثم «عباداً لنا» في مرتي الإفساد العالمي، كما- علّنا- نعيش الآن أولاهما وتتلوها الثانية بقيام صاحب الأمر صلوات اللَّه عليه.

ونباء وملاحم السلطة الصهيونية في غلبهم وأنهم سيغلبون وفيرة عن الرسول صلى الله عليه و آله واهل بيته الكرام، نستعرض هنا منها نماذج:

قال صلى الله عليه و آله: «لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي فتعال فاقتله» «2» وهذا يشمل مرتي الوعد في افساديهم العالميين.

وقال صلى الله عليه و آله: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا اليهودي من ورائي فاقتله». «3»

وقال علي عليه السلام: «ثم ليستعملن عليكم اليهود والنصارى حتى تنفوا- يعني الى اطراف الأرض- ثم لا يرغم اللَّه إلا بآنافكم ثم واللَّه ليبعثن اللَّه رجلًا منا اهل البيت يملأها عدلًا وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً». «4»

ولا واقع لهذه الملحمة طول التاريخ الإسلامي لمثناه الاستثمار والاستعمار اليهودي النصراني إلا عند احتلال فلسطين بما تناصرا وتعاضدا- وتخاذل المسلمون- حيث نفي الفلسطينيون الى اطراف الأرض، ومن ثم سائر المسلمين بين منفيين عن أراضيهم او عن سلطاتهم الإسلامية، عائشين تحت السلطة الصهيونية الصليبية، ثم السلطة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 251

(2). صحيح مسلم ج 8 ص 188 والبخاري 2: 171

(3). سنن الترمذي ص 325

(4). الكني للدولابي ج 2 ص 157 عن شيخ من النخع سمعت علياً عليه السلام يقول وهو على المنبر: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 232

الإسلامية عليهما مرتان اخراهما هي العالمية الكبرى الدائبة، كما الإفساد الثاني عالمي، وهذه الخطبة تبشر بالثانية، وسائر ما ننقله من الملاحم شاملة لهما. «1» او تخص الثانية. «2»

وكما الآيات الأولى انذرت بالمرة الأولى في الافساد العالمي ثم بشرت ان «عباداً لنا» يجوسون خلال الديار كذلك هذه الثانية تنذر أشد من الأولى وتبشر ببشارة فوقها.

إنذارات وتبشيرات جزاء وفاقاً والعاقبة للتقوى:

فمربع الانذار: 1- لتفسدن، 2- ثم رددنا .. 3- وامددناكم .. 4- وجعلناكم ..

ومربع: 1- فجاسوا، 2- ليسؤوا وجوهكم، 3- وليدخلوا المسجد، 4- وليتبروا ..

هذا مربع التبشير بفضل اللَّه ورحمته، فترى كيف يضيف اللَّه الى نفسه ثالوثاً من الإنذار؟.

عله حتى لا يقال أنهم غالبون على أرادة اللَّه حيث يكرون على «عباداً لنا» المبعوثون من اللَّه، ذلك بان اللَّه لا يحول دون ثالوثهم جبراً عليهم في حولهم وحِيَلهم حيث الدار دار الاختيار وليس الإجبار، ومجرد أنه لا يحول بينهم وبين كرتهم هذه يسمح بهذه الإضافة «رددنا ..» وكما في اضرابها: «إنا ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً» «3» «وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها» «4» «وكذلك‏ جعلنا لكل نبيٍّ عدواً شياطين الإنس والجن» «5» إرسال وجعل تكويني في اختيار دون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ومنها اضافة الى ما مضى في الرقم (1 و 2) ما رواه احمد في مسنده (2: 417) عن النبي صلى الله عليه و آله: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبى‏ء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر او الشجر يا مسلم يا عبداللَّه هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ..»

(2). في الفائق (2: 219- غر) خطب الرسول صلى الله عليه و آله فذكر الدجال وقتل المسيح له قال: فلا يبقى شي‏ء مما خلقه اللَّه تعالى يتوارى به يهودي الا انطق اللَّه ذلك الشي‏ء لا شجر ولا حجر ولا دابة فيقول يا عبداللَّه المسلم هذا يهودي فاقتله الا الغرقدة فانها من شجرهم فلا تنطق، ولا ترفع الشحناء والتباغض وتنزع حُمةُ كل دابة حتى يُدخل الوليدة في فم الحنش فلا يضره»

(3). 19: 83

(4). 6: 123

(5). 6: 112

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 233

اجبار «1» لا تشريعي حيث الأمور كلها راجعة الى اللَّه وصادرة عنه، وكما يليق بساحة قدسه دون تغلب لأحد على اللَّه لا في خير ولا في شر.

إن الإمهال الالهي لعمال الإفساد إمتهان واستدراج للمفسدين وامتحان للمؤمنين:

«ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون». «2»

وتلكم الكرة الأخيرة على «عباداً لنا» علها ليست لأنهم يتساهلون في نضالهم.

وإنما لتقللهم في عِدتهم وعُدتهم، وتعلل من تتوجب عليهم نصرتهم من مسلمي البلاد من ناحية، ثم أخرى الإنتفاضة العامة من الصهيونية المتبقية خلال الديار، بمن يستجيب لهم من سائر الكفار، حيث يجند الشيطان جنده ويحزب حزبه للمرة الثانية والاخيرة ويضاف الى الإفساد العالمي من الصهيونية العالمية علو كبير، حيث الإفساد في الأرض مرتان والعلو مرة واحدة وهي في الثانية: «لتفسدن في الأرض مرتين.

ولتعلن علواً كبيراً» لا علوين، وهو في الافساد الثاني، اذ هم فيه «أكثر نفيراً»!.

وترى كيف بامكان اليهود هذان الإفساد ان العالميان والعلو العالمي في الاخير، وهم مضروب عليهم بالذلة والمسكنة؟ وهل الدولة القوية والسيطرة العالمية بعدُ ذلة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فاذلا مؤثر في الوجود إلا اللَّه فكل اثر وتاثير فيه اذنٌ من اللَّه، فان كان خيراً فالاذن في‏مثلث: التشريعي- التكويني توفيقاً والتكويني في الجزء الاخير من العلة التامة، وان كان شراً فالاخير فقط، بعدما قدم المكلف كل حوله وقوته ولم يبق من مقدمات فعله الا اذنه تعالى تكويناً، فان لم ياذن اذاً اصبح المكلف مسيراً مجبوراً في ترك الشر، وان اذن حيث يجعل المكلف مجبوراً في فعل الشر كان ظلما، والعدل العوان بين ذلك هو أن يكون اذنه تعالى بعد تكملة مشيئة المختار بما قدم من مقدمات اختيارية، فهو تعالى ياذن هنا كجزء من اجزاء العلة التامة، وما دام الفعل مسنوداً الى اختيار من الفاعل وان كان واحداً بالمائة من مقدماته يعتبر ذلك الفعل اختيارياً، وان كان العقاب والثواب حسب درجات الاختيار فان افضل الاعمال احمزها.

فاذ ينسب اللَّه شراً الى نفسه لا يعني إلا سلباً وايجاباً: انه لم يحل بين العبد وشره «ويذرهم في طغيانهم يعمهون» وانه اذن له اخيراً في فعله تكويناً لا ينافي الاختيار، فليس اللَّه فاعلا لشره ولا معاوناً له شريكاً في شره. وانما لم يمنع اجباراً واذن له اختياراً: اذن في اختياره السوء ان يتحقق ما يريده باختياره السوء، «وما اللَّه يريد ظلماً للعباد»

(2). 21: 35

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 234

ومسكنة، وهم ممدود لهم بأموال وبنين وهم بعدُ اكثر نفيراً؟! واللَّه تعالى يبعد المسلمين في تصريحه قاطعة: «لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوهم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون»؟. «1»

بلى! إنهم مضروب عليهم بالذلة حيث ما ثقفوا إلّا بحبل من اللَّه وحبلٍ من الناس، و «لن يضروكم إلّا اذى» ولكن شريطة تحقيق شروطٍ من اللَّه وكما قال اللَّه: «يا ايها الذين آمنوا إن تطيعوا فرقاً من الذين كفروا يردوكم عن ايمانكم كافرين\* .. ومن يعتصم باللَّه فقد هدي الى صراط مستقيم\* يا ايها الذين آمنوا اتقوا اللَّه حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون\* واعتصموا بحبل اللَّه جميعاً ولا تفرقوا ..\* ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون\* ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم ..\* كنتم خير أمة أخرجت الناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باللَّه ..\* لن يضروكم إلّا اذىً وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثم لا ينصرون\* ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلّا بحبل من اللَّه وحبل من الناس وباءوا بغضب من اللَّه وضُربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات اللَّه ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». «2»

فهناك ذلة بترك الحبلين ومسكنة على اية حال لكفرهم بآيات اللَّه وقتلهم الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، فلو أنهم تمسكوا بالحبلين لزالت عنهم الذلة والمسكنة تماماً، أو انهم تمسكوا بحبل واحد وكما هم متمسكون الآن بحبلٍ من الناس‏ «3» لزالت عنهم الذلة على حدِّ تمسُّكهم وتماسكهم مع بعض، ثم المسكنة هي حالة الإحتياج وان كانوا في غنىً ظاهرية اقتصادياً وكما هم لزامهم هذه الحالة وان ملكوا ثروات العالم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 108

(2). 3: 109

(3). وان كان حق التمسك بحبل من الناس ان يتبنى حبلًا من اللَّه، ولكن لحبل من الناس متحللًاعن حبل اللَّه اثره وجاه تارك الحبلين تماماً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 235

ثم المسلمون المخاطبون «لن يضروكم» انما هم المخاطبون بسابقة الآيات الصابغة لهم بصبغة: 1- الا يطيعوا الكفار 2- ويعتصموا بحبل اللَّه جميعاً وهو الإعتصام بالحبلين جميعاً 3- ويتقوا اللَّه حق تقاته 4- ويعتصموا باللَّه 5- وتكن فيهم أمة داعية آمرة ناهية 6- ولا يتفرقوا!.

واما المسلمون المستسلمون أمام الإستعمار الكافر، التاركون للحبلين، ام ماذا؟ مما خوطبوا به في هذه الآيات فلا يصدق لهم «لن يضروكم» فالمتمسك بحبل واحد وان كانوا هوداً يتغلب على تارك الحبلين وان كانوا مسلمين، وكما انتصرت اسرائيل على المسلمين العرب المستسلمين حيث انتكس هؤلاء عن حقيقة إسلامهم وتمسك اليهود بحبل من الناس فيما بينهم انفسهم بتدعيم الوحدة بينهم وسائر المستعمرين شرقاً وغرباً، فلم يكن ذلك الانتصار وتأسيس دويلة العصابات، وتلكم الإنتكاسة من المسلمين العرب لا جزاء وفاقاً لأولاء وهؤلاء واللَّه من وراء القصد ف «ليس بامانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءٌ يجز به ..». «1»

«ثم رددنا لكم الكرة عليهم» كرة للصهيونية العالمية على «عباداً لنا»: رجوعاً عليهم بتغلب أشد من الأولى وأنكى، حيث العِدة والعُدة لهم في هذه المرة اقوى:

«وأمددنكم بأموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيراً»: منهم، ومنكم في المرة الأولى وليس إمدادهم باموال وبنين وجعلهم اكثر نفيراً حيث تسببا رد الكرة عليهم، إلا مسارعة لهم في إساءة وجوههم: «ايحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون» «2» وإلا إملاء لهم ليزدادوا اثماً: «ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم‏ خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين». «3»

كما وان جعلهم اكثر نفيراً في حربهم «عباداً لنا» ليس إلا إملاء لهم واملالا، وكل ذلك امتهاناً لهم، وامتحاناً ل «عباداً لنا» ولأنهم قلّوا واولئك كثروا، وأنهم تخلى عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 123

(2). 23: 56

(3). 3: 178

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 236

مناصرتهم مسلموا البلاد، واولئك تماسكوا أكثر من المرة الأولى و «لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد». «1»

ثم ورد الكرة عليهم لا يعني القاء الحاسم على «عباداً لنا» وانما قضاءً مّا لردح قليل من الزمن، حيث العلو الكبير يختصهم فلا يبقي لهؤلاء الأكارم إلا علواً دون الكبير، حفاظاً على كيانهم، وتحلُّلًا عن السيطرة الإسلامية على المعمورة كلها، عكس ما مضى في المرة الأولى، حيث الجوس في البلاد ما عنى القضاء الحاسم على الصهيونية، فلذلك تراها تنبو بعد ذلك وتنموا حتى ترد الكرة عليهم.

ثم «ليسوءوا وجوهكم» في وعد المرة الآخرة، راجع الى «عباداً لنا» مهما قضي نحبه البعض منهم وخلفه آخرون من اجناسهم دون اشخاصهم، فهذه الدولة الحقة التي يؤسسها «عباداً لنا» في المرة الأولى سوف تبقى ومن ثم تضعف برد الكرة ردحاً من الزمن، وتتصل بالدولة الأخير المهدوية وكما يشير الى ذلك باقر العلوم عليه السلام: «كأنى بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحق فلا يعطونه فاذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يقوموا ولا يدفعونها إلا الى صاحبكم قتلاهم شهداء أما إني لو ادركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر». «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 197

(2). غيبة النعماني ص 145- ابو خالد الكابلي عن الامام محمد علي الباقر عليه السلام.

وفي ج 3 ص 221 ملحقات احقاق الحق شرح لآية اللَّه العظمى المرعشي باب يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي سلطانه: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطانه اقول: وعلّهم هؤلاء الثوار المخلصون الذين يعبِّدون الطريق للمهدي عليه السلام ويناسب الثورة المباركة الاسلامية في ايران.

رواه جماعة من الاعلام منهم الحافظ وابن ماجة القزويني في سنن المصطفى ج 9 ص 519 والعلامة الحمويني في فرائد السمطين مخطوط والحافظ نور الدين علي بن ابي بكر في مجمع الزوائد ج 7 ص 318 مكتبة القدسي بالقاهرة والعلامة السيوطي في الحاوي للفتاوى ص 60 ط القاهرة والعلامة ابو عبداللَّه محمد بن عثمان البغدادي في المنتخب من صحيحى البخاري ومسلم ص 183 مخطوط والعلامة النبهاني في الفتح الكبير ج 3 ص 420 ط مصر والعلامة القرطبي في التذكرة ط مصر والحافظ الكنجي الشافعي في البيان في اخبار آخر الزمان ص 314 ط النجف والعلامة ابن حجر الهيتمي في الصواعق ص 98 ط عبداللطيف بمصر والعلامة المولى على المتقي الهندي في منتخب كنز العمال المطبوع بهامش المسند ج 6 ص 29 الميمنة بمصر والعلامة الشيخ عبدالنبي بن احمد القدوسي الحنفي في سنن المهدي ص 572 مخطوط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 237

وقد ينطبق تماماً على ثورتنا الإسلامية المجيدة المظفرة في ايران حيث قمنا ثلاث قومات‏ «1» وفي الثالثة اقمنا الجمهورية المباركة الإسلامية بقيادة القائد الاعظم نائب الامام السيد روح اللَّه الخميني اطال اللَّه بقاءه، وسوف لا ندفع هذه الراية المظفرة إلا الى صاحبنا صاحب الأمر الحجة بن الحسن المهدي صلوات اللَّه وسلامه عليه وستأتيكم روايات كهذه وأوضح في انباء وملاحم غيبته ان شاء اللَّه تعالى.

وقد يناسبها ما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله حيث يفسر آية الكرة بقيام القائم عليه السلام، ويفسر «عباداً لنا» بسلمان الفارسي ومن كان مثله ممن يوالي القائم بحقيقة المعرفة «2» وعل دمج المرتين ببعض هنا وهناك يشير الى قلة الفصل بينهما، وان الأولى: افساداً او اصلاحاً، لتعبيد الطريق إلى الثانية، اللهم عجل لنا الثانية بما تعبِّده في الأولى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. القيام الاول- في هذا الوجه- كان في الثاني عشر محرم الحرام- 15 خرداد 1341 حيث‏سقط من جرائه عشرات الآلاف من القتلى، والثاني في عام 1356 حين استشهد نجل نائب الامام السيد مصطفى الخميني واستشهد الآلف، والثالث حين انتقل نائب الامام من النجف الى باريس واضطر محمد رضا بهلوي الى تسليم الامر اليه ثم يبقى هو على عرشه دون اية مسؤلية، ولكن الامام لم يقبل منه حتى ثار الثورة الثالثة حيث فر الشاه ومن ورائه رئيس وزرائه واسست الجمهورية الاسلامية بقيادة نائب الإمام روح اللَّه الخميني‏

(2). كما في تفسير البرهان 2: 406- ابو جعفر محمد بن جرير في مسند فاطمة باسناده الى‏محمد بن خلف الطاهري عن زادان عن سلمان- في تعريفه صلى الله عليه و آله بالأئمة الاثني عشر، ثم محمد بن الحسن الهادي المهدي الناطق القائم بحق اللَّه ثم قال يا سلمان انك مدركه ومن كان مثلك ومن توالاه بحقيقة المعرفة قال سلمان فشكرت اللَّه كثيراً ثم قلت يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله! واني مؤجل الى عهده ثم قال يا سلمان اقرء «فاذا جاء وعد اولاهما .. ثم رددنا لكم الكرة عليهم ..» قال سلمان: فاشتد بكائي وشوقي ثم قلت يا رسول اللَّه بعهد منك فقال: اي واللَّه الذي ارسل محمداً بالحق مني ومن علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة وكل من هو مني ومعنا وفينا اي واللَّه يا سلمان وليحضرن ابليس وجنوده وكل من محض الايمان محضاً ومحض الكفر محضاً حتى يوخذ بالقصاص والاوتار والاثوار ولا يظلم ربك أحداً وتحقق تأويل هذه الآية: «ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 238

«.. إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِانفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ..». «1»

في هذه الفترة من الكرة. ان احسنتم «دون افساد وعلو» احسنتم لانفسكم حيث لا يُقفى‏ عليكم إن احسنتم فاصبحتم عدولا مسلمين، ام بقيتم هوداً مستسلمين، «وان اسأتم» وأفسدتم في الأرض بعلو كبير «فلها» حيث «عباداً لنا» لكم بمرصاد صارم ف «يسؤوا وجوهكم».

إنه ليس الحسنى بالتي تحسن حالة طائفة فحسب دون أخرى، او السيئة تسي‏ء جماعة دون آخرين، فالضابطة العامة التي لا تتغير في الدنيا والآخرة، والتي تجعل عمل الإنسان كله له دون سواه، بكل ثماره ومخلفاته، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، انها «ان احسنتم احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها» دونما استثناء.

«.. فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِير». «2»

وعد الآخرة، وما يدريك ما وعد الآخرة؟ إنها ليست الآخرة في الاخرى. بل هي الآخرة من مرتي الإفساد في الدنيا: الأرض كلها، حيث تجمع الصهيونية العالمية بين الإفساد والعلو الكبير العالمي بأذنابها الكفار أمّن ذا؟؟ من بني الإنسان المتخلفين عن شرعة اللَّه، اذ تتذرع بثالوثها لتجعل الأرض فاسدة كاسدة لا تصلح فيها حياة انسانية إلا على تخوف وحذر. ثم لا يطول فسادهم العالمي الا ردحاً من الزمن حيث تتفجر الجماعات البشرية ب «عباداً لنا» في وجه الظلم والطغيان، وليحققوا مثلثاً من النكال والإصلاح: ليسؤوا وليدخلوا- وليتبروا!.

وهذه هي المرة الثانية والأخيرة من دولة الباطل حيث يقضى عليها بالمهدي عليه السلام وأصحابه- وعلى طول الخط- كما قضي عليها بأضرابهم ردحاً من الزمن، وعلّ الدولتين متصلتان على فترة في ضعف بينهما للأولى وهنا أوامر ثلاث يحققها زعيم الدولة الإسلامية الأخيرة بأصحابه الاكارم «فبه يملأ اللَّه الأرض قسطاً وعدلًا بعدما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 17: 7

(2). 17: 7

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 239

ملئت ظلماً وجوراً».

1- «ليسوءوا وجوهكم»: كما اسأتم وجوه الإنسانية وأفسدتم وجه الحياة، ف «عباداً لنا» من تبقّى من المرة الأولى ومن يستحصل حتى المرة الثانية من أضرابهم وهم اقوى واهدى سبيلًا، هؤلاء الأكارم مبعوثون مرة ثانية بمر اللَّه أن يواجهوهم كل الوجوه وبكل الوجوده، استئصالًا لنائرتهم، واسوداداً لوجوههم وسيادة لوجوه المؤمنين واشراقة دائبة لا تنقضي.

«ليسوءوا وجوهكم» قتلًا وتشريداً وتنكيلًا وتذليلًا، وليس قتل الإبادة- فقط- اذ يتبقى منهم جماعة لا حيلة لهم ولا حول ولا قوة، عائشين حياة الذل والعداء فيما بينهم: «وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللَّه ويسعون في الأرض فساداً واللَّه لا يحب المفسدين» «1» وهذه لليهود، ولا يعني سعي الفساد منهم إلا لحد المرة الثانية من إفساديهم العالميين، وسائر إفسادهم لهذا الحد، حيث هم كإخوانهم النصارى لا قوة لهم في هذه الدولة: «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم اللَّه بما كانوا يصنعون» «2» فالطائفتان باقيتان على قلة من عِدة وعُدة الى يوم القيامة، عائشتان العداوة والبغضاء فيما بينهم، ولكنهم تساء وجوههم في افسادهم الثاني، فلا تضر عداءهم في بينهم الدولة الإسلامية العالمية.

وبعدما ساءت وجوههم وشاهت وانهارت شكوتهم وعلوهم الكبير: 2- «وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة»: يدخل «عباداً لنا» المسجد الأقصى دخولا لاخروج عنه، حيث يصبح مقراً لزعيم الدولة الإسلامية القائم المهدي عليه السلام «كما دخلوه أول مرة» حيث «جاسوا خلال الديار»، واين مرة من مرة؟!

فاول مرة من مرتي الإفساد التي- علّنا- نعيشها الآن سوف ندخل المسجد الاقصى ونبقى فيه مسيطرين ردحاً من الزمن، ثم نخرج فنرجع اليه زمن المهدي عليه السلام مرة ثانية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 5: 64

(2). 5: 14

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 240

وعلى طول الخط اللهم عجل فرج صاحب الأمر.

3- «وليتبروا ما علوا تبتيراً» والتبر هو الإهلاك الكبير حيث لا يبقي ولا يذر وتراً من المفسدين وليس هو هلاك عمال الفساد فحسب، فانه هلاك فسادهم أيضاً: تبارهم بفسادهم ومن تبار العمال: «وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً» «1» ومن الأعمال:

«ان هؤلاء متبَّر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون» «2» وهؤلاء هم العاكفون على اصنام لهم.

وتبار الصهيونية في هذه المرة بالمهدي عليه السلام واصحابه هو تبار استئصال لهم بفسادهم وعلوهم الكبير، هلاك كبير لعالين وعلوٍّ كبير، ف «ما علو» كم يعني علوهم‏ «3» كذلك يعني أشخاصهم في علوهم استئصالًا للشرور والشريرين.

فقد يستأصل الشر بآثاره والشرير باق يجدده، وقد يستصل الشرير والشر باق بمختلفاته، «وليتبروا ما علوا» ليس تتبيراً لأحدهما والآخر باق وإنما «تتبيراً» مستأصلًا للشر والشرير معاً بحيث لا يجدد ابد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك تكون ثورة المهدي عليه السلام ودولته.

ثم هؤلاء الصهاينة الجرمون بمن معهم من أوتارهم واذنابهم وأحزابهم، انهم يقتسمون في تبارهم أقساماً، فمنهم من يقتل ومنهم من يتوب، ومنهم عوان بين ذلك: لا يقتل ولا يتوب، وانما يستأصل شره وافساده، فلا تبقى عدائهم إلا فيما بينهم كما مضت آية إلقاء العداوة بين اليهود وإغرائها بين النصارى الى يوم القيامة، ثم لا يعودون ولن الى إفساد عالمي:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 17: 7

(2). 7: 139

(3). و «ما» هنا مصدرية تؤول مدخولها الى المصدر «علّوهم» والنتيجة ليتبروا علوهم- وكذلك‏هي موصولة: ليتبروا الذين علوا في الدرجة التي علوا- تتبيراً وهما معاً هنا معنيان: تتبيراً لهم على علوهم ولفسادهم.

وانما «ما» دون «من» وذووا العقول يتطلبون «مَن»؟ لامرين: أن المصدرية هنا معنية كما الموصولة فلتكن «ما» وانهم اراذل لحد البهائم بل هم اصل فلا يستحقون «من» الخاص بذوي العقول‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 241

«عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً». «1» فالرحمة المرجوة لهم تشمل رحمة الغفران بالايمان، ثم رحمة الابقاء لهم بلا ايمان ولا إفساد، فان عادوا في الافساد عاد لهم التبار الهلاك هنا ثم في الآخرة «وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً»: سجنا يحصرهم.

الفصل بين الافسادين:

وترى هل الفصل بين الافسادين بالدولة الإسلامية طائل ام ماذا؟

عله طائل لمكان «ثم رددنا لكم الكرة عليهم ..» حيث توحي بالتراخي ثم لا تراخي للإفساد الثاني لمكان «ف»: «فاذا جاء وعد الآخرة ..» فبين الوعدين بون متراخ للدولة الإسلامية الاولى التي نعيشها، والدولتان متصلتان على فترة قصيرة حيث الإفساد الثاني، فيها فتور للدولة الأولى، وقوة للإفساد الثاني اقوى من الأول، وكما يستفاد من احاديثنا حول الافسادين والدولتين.

وترى كيف تجتمع الدولة الإسلامية الأولى مع الإفساد العالمي الثاني في فترته القصيرة؟

انها تبقى لحد الحفاظ على اصل كيانها، ولكي تحصل البقية الباقية من جنود المهدي عليه السلام وأصحاب ألوليته.

وكما أن دولة الهدي عليه السلام أقوى وأسمى وأشمل دولة الهية طول تاريخ الرسالات كذلك أصحاب ألويته هم سلالات وحُصالات الرسالات، من أنبياء وأولياء وأصحاب الرسل وأفضل من تربى في حجور الرسالات.

فمن الرسل داود وسليمان ودانيال ام من ذا؟

ومن اصحاب الرسل يوشع وصي موسى وشمعون وصي عيسى عليه السلام ومن أصحاب محمد صلى الله عليه و آله سلمان الفارسي ومالك الأشتر النخعي وابو دجانة الانصاري ام من ذا؟

«ومن قوم موسى امة يهدون بالحق وبه يعدلون» وهم خمسة وعشرون رجلًا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 17: 8

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 242

ومن هم وكم هم من قوم عيسى؟ لا ندري ..

ثم ومن هم وكم هم من امة محمد صلى الله عليه و آله علهم أو انهم اكثر الامم، ويستحصلون طول الرسالة الإسلامية حتى قيام القائم عليه السلام.

وقد يكون قائد ثورتنا الإسلامية السامية في ايران منهم ومن أفاضلهم بعد انبياءهم وأئمتهم.

وحيث اللواء لغوياً هو قائد الجيش ومتصرف اللواء، فهؤلاء الثلاثمائة والثلاثة عشراً هم قواد الجيش ومتصرفوا ألوية الدولة الإسلامية، «فاذا اجتمعت له هذه العدة من اهل الاخلاص اظهر امره». «1»

واصول الجيش بداية هذه الدولة هم عشرة آلاف، قلوبهم كزبر الحديد يعطى لكل واحد منهم قوة أربعين رجلًا، ثم اللاحق الملتصق بهم لا ندري عِدتهم وعُدتهم، ولكنهم كمجموع- هم دون ريب- اقوى جيش في تاريخ الرسالات والإنسان وعدة ايمانية وحربية عادلة، اللهم اجعلنا منهم.

«انباء الدولة الإلهية وابنائها في الكتاب».

عل الكتاب في «وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب» يعني عامة التورات لا خاصتها، فهي كعامة تشمل العهد العتيق كله، بما فى كتابات الوحي التوراتي بتوراتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الانوار 52: 283 ج 10- ك: السناني عن الاسدي عن سهل عن عبدالعظيم الحسني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى ...

وفي سفينة البحار 2: 703 عن عبدالعظيم الحسني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام اني لارجو ان تكون القائم من اهل بيت محمد صلى الله عليه و آله الذي يملأ الارض قسطاً وعدلًا كما ملئت ظلماً وجوراً فقال: يا ابا القاسم ما منا إلّا قائم بامر اللَّه عز وجل وهاد الى دينه ولكن القائم الذي يطهر اللَّه به الارض من اهل الكفر والجحود ويملأها عدلًا وقسطاً هو الذي يخفي على الناس ولادته ويغيب عنهم شخصه ويحرم عليهم تسميته وهو سمي رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وكنيه وهو الذي تطوى له الارض ويذل له كل صعب يجتمع اليه اصحابه عدة اهل بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلًا من اقاصي الارض وذلك قول اللَّه عز وجل: «اينما تكونوا يات بكم اللَّه جميعاً ان اللَّه على كل شي‏ء قدير» فاذا اجتمعت له هذه العدة من اهل الاخلاص اظهر امره فاذا كمل له العقد وهو عشرة آلاف رجل خرج باذن اللَّه عز وجل فلا يزال يقتل اعداء اللَّه حتى يرضى اللَّه عز وجل ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 243

كأصل وبسائر أسفارها كفروع لها، ام وكتابات الوحي الانجيلي ايضاً اصولًا وفروعاً، حيث الشرعة التوراتية والإنجيلية شرعة واحدة اللهم إلا شذرا مما في الانجيل من تحليل للبعض مما حرم على اسرائيل من محرمات ابتلائية مؤقتة، او يعني الكتاب مطلق كتابات الوحي قبل القرآن.

ومما تبقّى من هذه الأنباء هي التي تؤكد قيام صاحب الأمر استئصالًا لجذور الظلم والطغان «وليتبروا ما علوا تتبيراً» «1» ما جاء في زبور داود مراراً وتكراراً كما في تصريحة قرآنية: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون. إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين وما أرسلناك الا رحمة للعالمين». «2»

و «عبادي الصالحون» هنا، هم من «عباداً لنا» هناك حيث يرثون الأض بعد إفسادها الثاني، والزبور هو زبور داود عليه السلام فانه بعد الذكر: «التوراة» حيث تذكر نفس البشارة بشتى العبارات، ولقد كتب اللَّه تعالى هذه البشارة الاسرائيلية من عتيقها وجديدها.

ففي الزبور 37: 1- 34 تتكرر هذه البشارة كالتالي:

«فان الأشرار يُستأصلون وأما الذين يرجون الرب فإنهم يرثون الأرض (10) ... أما الآثمة فيعاقَبون وذرية المنافقين تُستاصل (29). والصديقون يرثون الأرض ويسكنونها الى الابد (43) انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض عند استئصال المنافقين تنظر (34)».

والآية الاخيرة بشارة لداود أنه من ورثة الأرض في الدولة الحقة الأخيرة وقد يكون من الثلاثمائة والثلاثة عشر أصحاب الأولوية ويحق له!.

«القائم في اشعيا تصطلح في ملكه السباع»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الى كتابنا (رسول الاسلام في الكتب السماوية) من 25- 270 تجد فيه تفاصيل ماجاءت في كتابات الوحي منذ خمسين قرناً

(2). 21: 106

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 244

كما في (اشعياء 11: 1- 10): ويخرج قضيب من جذريسي وينمى فرع من أصوله (1) ويستقر عليه روح الرب روح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة وروح العلم وتقوى الرب (2) ويتنعم بمخافة الرب ولا يقضي بحسب رؤية عينيه ولا يحكم بحسب سماع أذنيه (3) بل يقضي للمساكين بعدل ويحكم لبائسي الأرض بإنصاف ويضرب الأرض بقضيب فيه ويهلك المنافق بنفس شفتيه (4) ويكون العدل منطقة حقويه والحق حزام كشحيه (5) فيسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر مع الجدي ويكون العجل والشبل والمعلوف معاً والأسد ياكل التبن كالثور (6) ويلعب المرضع على حجر الأفعى ويضع الفطيم يده في نفق الأرقم (8) لا يسيؤون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلى‏ء من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر (9) وفي ذلك اليوم اصل يسي‏ء القائم راية للشعوب اياه تترجى الامم ويكون مثواه جيداً (10). هذه الآيات تفسرها التي سلفت من الزبور، دالة على أن القضيب من جذريسي ابي داود ليس هو داود، فان داود من أصحاب الويته في دولته، ثم ولم يعهد اصطلاح البهائم وامتلاء الأرض من معرفة الرب واستئصال الشر في اي زمن رسالي على طول الخط ولا اي ملك الهي، اللهم إلا ما وعدناه ونرجوه زمن «القائم» من جذريسي حيث ينتسب من ناحية الأم الى يسي ابي داود 7 ويضرب الأرض بقضيب فيه حيث يقوم بالسيف في آخر الزمن!.

وفي اشعياء 65: 11- 25 تنديد شديد ببني اسرائيل لافسادهم ويهددهم بالتبار وانتقال دولتهم الى «عبيدي» وهم «عباداً لنا» في الاسراء:

«وأنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسي الذين يهيؤون المائدة لجدٍّ ويعدون المزوج لمناه (11) فأعينكم للسيف وتجثون جميعكم للذبح. لأني دعوت ولم تجيبوا. تكلمت ولم تسمعوا وصنعتم الشر في عينيَّ وما لم أشأ إياه آثرتم (12) لذلك هكذا قال السيد الرب: ها إن عبيدي ياكلون وأنتم تجوعون. عبيدي يشربون وأنتم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 245

تعطشون (13) عبيدي يفرحون وأنتم تحزنون. عبيدي يرنِّمون من طيب القلب وأنتم تصرخون من كآبة القلب وتولون من أنكسار الروح (14) وتخلفون اسمي لمختاريَّ ويقتلك السيد الرب ويدعو عبيده باسم آخر (15) فالذي يتبارك بهذا الإسم على الأرض يتبارك بآله الحق والذي يقسم به على الأرض يقسم بآله الحق لان المضائق الاولى قد نُسيت وسُتِرت عن عيني (16) لأني هاءنذا أخلق سماوات جديدة وأرضاً جديداً فلا تُذكر السالفة ولا تخطر على البال (17) بل تهلّلوا وابتهجوا الى الأبد بما أخلق فإني هاءنذا أخلق اورشليم ابتهاجاً وشعبها سروراً (18) وابتهج باورشليم وابشر بشعبي ولا يُسمع فيها من بعدُ صوت بكاءٍ ولا صوت صراخ (19) لا يكون هناك طفل أيام ولا شيخ لم يستكمل أيامه لأن الصبي يموت وهو ابن مائة سنة والخاطى‏ء يُلعن وهو ابن مائة سنة ويبنون بيوتاً ويسكنون فيها ويغرسون كروماً ويأكلون ثمرها (21) لا يبنون ويسكن آخر ولا يغرسون ويأكل آخر لأن ايام شعبي كأيام الشجر ومختاريَّ يتمتعون بأعمال أيديهم لا يتبعون باطلًا ولا يلدون للرعب لأنهم ذرية مباركيّ الرب وأعقابهم معهم قبل أن يَدعوا أجيب وفيما يكلمون أستيجب (24) الذئب والحَمَل يرعيان معاً والأسد كبقر يأكل التبن. أما الحية فالتراب يكون طعامها، لا يضرون ولا يفسدون في جبل قدسي (25)».

هذه الانباءات هي آتية في أنباء الإسلام للدولة المهدوية حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة، «1» وكما اجمل عن نبأِهم في‏آيات الإسراء- تأمل.

«وفي (دانيال 12: 1- 3): وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك بكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الزمان. وفي ذلك الزمان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في احاديثنا: ينزل المهدي الى بيت المقدس- تخرج له الارض افاليذ- افلاذ كبدها- تصطلح في مكة السباع- اقل الاعمار مائة سنة حتى ان الرجل ليرى مائة نسمة من نسله- يستاصل الفساد عن الارض.

وهناك انتقالان من بني اسرائيل الى بني اسماعيل- انتقال الشريعة بمحمد صلى الله عليه و آله وانتقال الملك بالمهدي من آل محمد صلى الله عليه و آله (راجع رسول الاسلام في الكتب السماوية)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 246

ينجو شعبك كل من يوجد مكتوباً في الكتاب (1) وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدي (2) ويضي‏ء العقلاء كضياء الجَلَد والذين جعلوا كثيرين أبراراً كالكواكب الى الدهر والأبد (3)».

وفيها تصريحة الرجعة العامة وكما في الصادقي عليه السلام‏ «1» ثم في الآية (13) «وانت اذهب‏ الى الإنقضاء وستستريح وتقوم في قرعتك الى انقضاء الأيام‏» وعلّها اشارة الى كونه كداود من أصحاب ألوية الإمام المهدي عليه السلام الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلًا.

أنباء وملاحم غيبته في الروايات الإسلامية:

من خطبة قصيرة لعلي امير المؤمنين عليه السلام حول مستقبل الفتن:

«فتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية، تأتيكم مزمومة مرحولة، ويحفزها قائدها، ويجهدها راكبها، أهلها قوم شديد كلَبهم، قليل سلَبهم، يجاهدهم في اللَّه قوم أذلة عند المتكبرين، في الأرض مجهولون، وفي السماء معروفون، فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من قم اللَّه لا رهج له ولا حس، وسيبتلى أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر». «2»

ويروى عن جعفر بن محمد عليه السلام «... وأهل مدينة تسمى الزوراء. تبنى في آخر الزمان يستشفون بدمائنا ويتقربون ببغضنا يوالون في عداوتنا ويرون حربنا فرضاً وقتالنا حتماً». «3»

و «لما رجع امير المؤمنين عليه السلام من وقعة الخوارج اجتاز بالزوراء فقال: إنها الزوراء فسيروا وجنبوا عنها فإن الخسف أسرع إليها من الوتد في النخالة». «4»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. عنه عليه السلام يرجع من الاموات من محض الايمان محضاً من محض الكفر محضاً

(2). الخطبة 101 من نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي له عن علي عليه السلام‏

(3). ج 2 ص 567 سفينة البحار للمحدث القمي نقلا عن بحار الانوار للمجلسي له والزوراء هي بغداد

(4). ج 2 ص 567 سفينة البحار للمحدث القمي نقلا عن بحار الانوار للمجلسي له والزوراء هي بغداد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 247

ومن خطبة له عليه السلام: «... لكأني انظر الى ضليلٍ قد نعق بالشام وفحص براياته في ضواحي كوفان، فاذا فغرت فاغرته واشتدت شكيمته، وثقلت في الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بأنيابها، وماجت الحرب بأمواجها، وبدا من الأيام كلوحها، ومن الليالي كدوحها، فاذا أينع زرعه وقام على ينعه، وهدرت شقاشقه، وبرقت بوارقه، عقدت رايات الفتن المعضلة، واقبلن كالليل المظلم والبحر الملتطم، هذا- وكم يخرق الكوفة من قاصف، ويمر عليها من عاصف، وعن قليل تلتف القرون ويحصد القائم ويحطم المحصود». «1»

وعل القرون الثانية هي القرون الإسلامية في دولة المهدي عليه السلام وقبيلها ب «عباداً لنا» التي نعيشها، فالقائم عليه السلام يحصد ما زرعته الصهيونية العالمية من إفساد المعمورة، ويحطم ما حصدته- اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه.

وقد تروى عنه عليه السلام غرة قد تنطبق على ثورتنا الإسلامية المجيدة ضد فورة العمالة الصدامية الصهيونية. في حديث سلسلة الذهب‏ «2» انه قال عليه السلام: «ايها الناس سلوني قبل ان تفقدوني، فإن بين جوانحي علماً جماً، فسلوني قبل ان تشغر برجلها «3» فتنة شرقية تطأ في خِطامها، «4» ملعون ناعقها ومولِّيها وقائدها وسائقها والمتحرز فيها، فكم عندها من رافعة ذيلها يدعو بويلها دجلة أو حولها، لا مأوى يكنها ولا أحد يرحمها، فاذا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من الخطبة 100 نهج البلاغة للسيد الرضي عن علي عليه السلام‏

(2). تفسير نور الثقلين 3: 139 في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن‏ابيه عن جده قال قال امير المؤمنين عليه السلام في خطبته: ..

(3). شغر الكلب برجلها ليبول بال ام لم يبل، وشغر الرجل رجله للنكاح- شغرت الارض لم يبق‏بها احد يحميها ويضبطها فهي شاغرة، والشغر الاخراج والبعد، وشغر البلد بعد من الناصر، وارض شاغرة، لا تمنع من غارة أحدٍ لخلوها والتفرقة فيها، وشغرت الناس برجلي علوت الناس‏

(4). الخطام كخطاب موضع الزمام من أنف البعير ام ماذا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 248

استدار الفلك قلتم مات أو هلك، وبأي واد سلك، «1» فعندها توقعوا الفرج وهو تأويل هذه الآية: «ثم رددنا لكم الكرة عليهم ...» والذي فلق الحبة وبرى‏ء النسمة ليعيش اذ ذاك ملوك ناعمين، ولا يخرج الرجل منهم في الدنيا حتى يولد لصلبه الف ذكر، آمنين من كل بدعة وآفة والتنزيل، عاملين بكتاب اللَّه وسنة رسوله، وقد اضمحلت عليهم الآفات والشبهات».

الفتنة الشرقية:

علها او أنها الفتنة الصهيونية الشرق أوسطية البادئة من اسرائيل في احتلال فلسطين والقدس، المتعلقة بحبل من الناس النسناس شرقياً وغربياً.

ومن أذنابها العملاء الفتنة الصدامية العفلقية من بغداد وما حولها، كما نعيشها الآن.

«تشغر برجلها- تطأ في خطامها»

فتنة شاغرة بارض شاغرة من مفتتنين شاغرين، وكأن أصلها إنسانة مجنونة تتخبط في مشيتها، حيث تمشي مكبة على وجهها، ذ ترفع هذه الإنسانية الحيوانة برجلها، وبدل‏أن تطأ في أرضها تطأ في عرضها- في خطامها: أنفها الذي هو موضع زمامها، فلا تتمنع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفينة البحار 2: 702 عن عبدالعظيم الحسني عن ابي جعفر عليه السلام عن آبائه عن اميرالمؤمنين عليه السلام قال: للقائم منا غيبة امدها طويل كأني بالشيعة يجولون جولات النعم في غيبته يطلبون المرعى فلا يجدونه الا فمن ثبت منهم على دينه لم يقس قلبه لطول أمد غيبة امامه فهو معي في درجتي يوم القيامة ..».

وفيه عن ابي خالد الكابلي قال قال لي علي بن الحسين عليه السلام يا ابا خالد! ليأتين فتن كقطع الليل المظلم لا ينجو الا من اخذ اللَّه ميثاقه اولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم ينجيهم اللَّه من كل فتنة مظلمة كاني بصاحبكم قد علا فوق نجفكم بظهر كوفان في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله واسرافيل امامه معه راية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قد نشرها لا يهوي بها لى قوم الا اهلكهم اللَّه عز وجل.

وفي نفس المصدر عن ابي الحسن الرضا عليه السلام عن آبائه قال قال النبي صلى الله عليه و آله: «والذي بعثني بالحق بشيراً ليغيبن القائم من ولدي بعهد معهود اليه مني حتى يقول اكثر الناس: ما للَّه‏في آل محمد من حاجة ويشك آخرون في ولادته، فمن ادرك زمانه فليتمسك بدينه ولا يجعل للشيطان عليه سبيلًا بشكه فيزيله عن ملتي ويخرجه من ديني فقد اخرج ابويكم من الجنة من قبل وان اللَّه عز وجل جعل الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 249

من غارة أحد لأرضها لخلوها ممن يحميها والتفرقة فيها.

ترفع برجلها لتحتل ارضاً او اراضٍ أخرى، فاذاً هي بوطئها خطامها تثبت في موضعها وتحتل أرضها ويُهتك عرضها، ولأنها رفعت رجلها الى غير حقها، متخبطة في وطئتها، ماشية مكبة على وجهها، فلا تطأ وتذل إلا أنفها، فتبتلى بخماسية لعنتها:

«ملعون ناعقها وموليها وقائدها وسائقها والمتحرز فيها».

كأن «ناعقها» الذي ينعق ويعربد لهذه الفتنة هو صدامها الصهيوني البعثي حيث اخذ يعربد لحرب وحشية شعواء عشواء على الجمهورية الإسلامية لصالح الصهيونية العالمية، كأنحس ذنب عميل من أذنابها، يرعد ويبرق ولا يحرق إلا نفسه.

و «موليها» الذي يوليها ويتولاها كأصل لها هي نفس الصهيونية في اسرائيل ثم سواها، حيث تتولى هذه الحرب بأرذل وأطول أذنابها في البداية، ثم إلى أذنابها الشرقية والغربية الأخرى.

وعل «قائدها» هو الامبريالية الأمريكية حيث تقود هذه الفتنة لصالح الصهيونية، وهي هي من عمالها الأقوياء، ومن ثم الإمبريالية السوكيتية ام ماذا؟.

و «سائقها» الذي يسوقها هو العمالة البعثية العفلقية بناعقها «صدام» حيث تسوق هذه الفتنة الشاغرة العارمة في جِنَّة وتخبط.

ثم «المحترز فيها» تحرز الحفاظ على كيانه من بأس الثورة الإسلامية وتحرز الفرار عن بأس البعث الصدامي، علّها عديد من دويلات الخليج وأضرابها التي هي ويلات على الإسلام، والمتحرزين فيها من شيوخ الخليج وملوكها الإشذراً حيث يقدمون بالعِدَّة والعُدَّة، تقوية لمطلق الكفر أمام مطلق الإسلام.

«فكم عندها من رافعة ذيلها» فتن جزئية هامشية عند الفتنة الأم، ترفع ذيلها فراراً دون قرار لتنجوا من بأسها وبؤسها ولات حين فرار إذ: «يدعو بويلها»: الفتنة الأم وذرياتها «دجلة أو حولها» فدجلة «بغداد» عاصمة الفتنة الزوراء «او حولها» من بلاد عراقية ثم دويلات من الخليج «يدعو بويلها» اذ ينادي بكافة وسائل النداء الإعلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 250

مستصرخة مستغيثة قوات الكفر اجمع ف «لا مأوى يكنها ولا أحد يرحمها» حتى لا يبقى كِنٌ ولا راحم من جنود الشيطان لهذه الفتنة، الا مخذولة مرذولة، حيث «عباداً لنا جاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولًا» فلا تبقى لهم باقية، فهنالك تتم الدولة الإسلامية مسيطرة على دويلات الكفر في ويلات لها وويلات.

ثم يستدير الفلك برد الكرة عليهم فاستضعاف هذه الدولة الكريمة ردحاً من الزمن، فيجي‏ء وعد الآخرة ليسوءوا وجوههم:

«فاذا استدار الفلك» وأصبح الياس بالشدة جارفاً لحدٍ: «قلتم مات» صاحب الأمر «أو هلك باي وادٍ سلك» واذا هو موجود هنا وقريب منا فكيف لا ينصرنا «فعند ذلك توقعوا الفرج»: النهائي الدائب، بعد الفرج البدائي الذاهب ... «1»

ويروى عن الإمام الرضا عليه السلام ما- عله- يشير الى هذه الفتنة «ولا بد من فتنة صماء

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اقول: قد رويت هذه الخطبة بصورة اخرى كما في البحار 52: 272 ج 167- وباسناده عن اسحاق يرفعه الى الاصبغ بن نباتة قال سمعت امير المؤمنين عليه السلام يقول للناس: سلوني قبل ان تفقدوني لأني بطرق السماء اعلم من العلماء وبطرق الارض اعلم من العماء، انا يعسوب الدين، أنا يعسوب المؤمنين وامام المتقين، وديان الناس يوم الدين- الى قوله- الا ايها الناس سلوني قبل ان تفقدوني فان بين جوانحي علماً جماً فسلوني قبل ان تشغر برجلها فتنة شرقية وتطأ في خِطامها بعد موتها وحياتها وتشب نار باحطب الجزل من غربي الارض. رافعة ذيلها تدعو يا ويلها لرحله ومثلها فاذا استدار الفلك قلتم مات او هلك باي واد سلك فيومئذ تاويل هذه الآية «ثم رددنا لكم الكرة ..».

هنا تضاف شب نار بالحطب الجزل من غربي الارض، مساعدات حربية غربية تؤجج نيران الحرب في هذه الفتنة الشرقية تجنيداً لمطلق الكفر من شرق الارض وغربها ضد مطلق الاسلام.

والحطب الجزل هو اليابس الغليظ العظيم منه والكثير وكانه الاسلحة الفتاكة التي يؤتى من الغرب تقوية لهذه الفتنة الشرقية.

و «رافعة ذيلها» علها الطائرات الحربية، وهي تدعو يا ويلها من مدفعيات جبارة من الجمهورية الاسلامية الايرانية، وفي سير الاعلام 2: 297 قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: اما اؤل الشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس الى المغرب ورواه مثله عنه صلى الله عليه و آله في مختصر التذكرة 132 ومستدرك الحاكم 4: 458 وفي الاخير: «تبعث نار تسوق الناس من مشارق الارض الى مغاربها» اقول: ونرى صدق هذه الإنباتات حيث ظهرت نار وفتنة شرقية صهيونية صدامية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 251

صيلم يسقط فيها كل وليجة وبطانة وذلك بعد فقدان الشيعة الثالث من ولدي» «1» والفتنة الصدامية- كذنب للفتنة الصهيونية- هي اصم فتنة طول تاريخ الفتن حيث لا اذن لها يسمع الحق او يستمع اليه، صماء عن كل قائل إلا قولة الصهيونية عمالةً مجنونة لصالحها، والصيلم: المستأصل الشديد، هي الفتنة التي تنحو منحى استئصال الحق عن بكرته.

ورغم انها «صماء صيلم» يسقط فيها كلُّ من لها من «وليجة» هو «المتحرز فيها» و «بطانة» هو «ناعقها وموليها وقائدها وسائقها» ثم لا تبقى الا «عباداً لنا» في دولتهم الإسلامية المباركة!.

ويروى عنه عليه السلام ايضاً في قائد الدولة المظفرة الإسلامية قبل المهدوية العالمية- نائب الإمام نصره اللَّه: «رجل من اهل قم يدعو الناس الى الحق، تجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف ولا يملون من الحرب، ولا يجبنون وعلى اللَّه يتوكلون والعاقبة للمتقين». «2»

«رجل» تتبناه كافة البطولات والرجولات الإسلامية «من أهل قم» تبنته هذه الحوزة المباركة حيث الأهلية هنا هي اهلية تلكم الرجولة لا الولادة «يدعو الناس الى الحق» اذ خذله مخالفوه وحمته- لا فحسب لفظا باللسان، وانما بالانفس والنفائس وبسيول الدماء «تجتمع معه قوم كزبر الحديد» وهم علَّهم «عباداً لنا» المبعوثون لاستئصال الفساد العالمي الصهيوني الأول: «لهم مربع الطاقات الجبارة: 1- «لا تزلهم الرياح العواصلف» التي تصعف شرقاً وغرباً حيث هم مؤمنون حقا والمؤمن كالجبل الراسح لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف 2- «ولا يملون من الحرب» حيثما بلغت بهم نائرتها 3- «ولا يجبنون» من استشهاد ام ماذا؟ 4- «وعلى اللَّه يتوكلون» دون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفينة البحار ج 2 ص 703 باب ما جاء عن الرضا عليه السلام في ذلك يج- يج 38 ك عن احمد بن‏زكريا قال قال لي الرضا عليه السلام اين منزلك ببغداد قلت: الكرخ- قال اما انه اسلم موضع ولا بد من فتنة ..

(2). سفينة البحار ج 2 ص 446

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 252

سواعد شرقية او غربية او مساعدات من هنا وهناك:

«والعاقبة للمتقين»: الدولة العاقبة لدولتهم- الاخيرة في دول التاريخ- للمتقين‏ «1» وهم اولاء بتاسيسهم دولة الحق بزعامة نائب المهدي عليه السلام الخميني يعبّدون الطريق لدولته المباركة العالمية التي تبقى مع الزمن حتى القيامة الكبرى.

وقد تعنى معناه خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيها:

«لا بد من رحى تطحن فاذا قامت على قطبها، وثبتت على ساقها بعث اللَّه عليها عبداً عسفاً: (عنيفاً) خاملًا اصله، يكون النصر معه، اصحابه الطويلة شعورهم، واصحاب السبال، سود ثيابهم، اصحاب رايات سود، ويل لمن ناواهم يقتلونهم هرجاً، واللَّه لكأني انظر اليهم والى افعالهم، وما يلقى من الفجار منهم والاعراب الجفاة، يسلطهم اللَّه عليهم بلا رحمة، فيقتلونهم هرجاً على مدينتهم بشاطى‏ء الفرات البرية والبحرية جزاءً بما عملوا وما ربك بظلام للعبيد». «2»

والعبد العسف: العنيف ضد الظلم الخامل اصله علّه هو نائب الإمام حيث كان خاملًا طول عمره، وبدا اشتهاره وبدء منذ قيامه، واصحابه الطويلة شعورهم اصحاب السبال كما نرى الكثير من الانقلابيين معه كذلك .. ولعل الرايات السود هي التي ترتفع عند موته او استشهاده حيث يرفعها اصحابه وينتصرون في حربهم ضد الكفر حتى يحققوا امر اللَّه «فجاسوا خلال الديار وكان أمراً مفعولًا»!.

وقد يعنيه ما يروى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله .. انا اهل بيت اختار اللَّه لنا الآخرة على الدنيا وان اهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها الى رجل من اهل بيتي فيملاءها قسطاً كما ملؤوها جوراً فمن ادرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج. «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. العاقبة في هذه الآية صفة لمحذوف هي الحياة او الدولة، تعني الحياة او الدولة الاخيرة في‏عالم التكليف للمتقين، وليست الحياة الآخرة فحسب وان كانت منها: ..

(2). البحار 52: 232

(3). سنن المصطفى ص 517 حدثنا عثمان بن ابي شيبة ثنا معاوية بن هشام ثنا علي بن صالح عن يزيد بن ابي زياد عن ابراهيم عن علقمة عبداللَّه قال: بينما نحن عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله اذا اقبل فتية من بني هاشم فلما رآهم النبي صلى الله عليه و آله اغرورقت عيناه وتغير لونه قال: ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكره فقال: ...

اقول: وهذا الحديث يواطي ما مر عن الامام الباقر عليه السلام في نقل غيبه النعماني ص 140 مع بعض الزوائد هناك، ولعل الرايات السود هي رايات عزاء الحسين عليه السلام في 12 محرم 15 خرداد 41 حيث قاموا لاخذ حق الاسلام من الشاه المعدوم واسترجاع المرجع الديني الاعلى من السجن فلم يكن الا قتلًا ذريعاً فيهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 253

قيام البهلوي من قزوين من علائم ظهور المهدي عليه السلام:

من الملاحم المروية عن الرسول صلى الله عليه و آله في تفصيل علامات ظهور المهدي عليه السلام:

«... فعندها يتكلم الروبيضة- فقال سلمان: وما الروبيضة يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فداك ابي وامي؟ قال صلى الله عليه و آله: يتكلم في امر العامة كل قوم ألا أنها خارت في ناحيتهم فيمكثون ما شاء اللَّه ثم ينكثون في مكثهم فتلقى لهم الأرض افلاذ كبدها ... فهذا معنى قوله: «فقد جاء اشراطها»». «1»

والرويبضة علها لا معنى لها في لغة ولذلك لم يفسرها الرسول صلى الله عليه و آله هنا الا بعنوان مشير: «يتكلم ...» وهي هي «رضا بهلوي» باختلاف ترتيب حروفها، ولا ينافيه ما فسره هو صلى الله عليه و آله في رواية اخرى ب «الرجل التافه» «2» فانه حقاً تافه.

وعن محمد بن الحنيفة قال قلت له:- الإمام علي عليه السلام- قد طال هذا الامر حتى متى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير القمي باسناده عن عبداللَّه بن عباس، قال حججنا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حجة الوداع فاخذ بحلقة باب الكعبة ثم اقبل الينا بوجه فقال: «الا اخبرك باشراط الساعة وكان ادنى الناس منه يومئذٍ سلمان فقال: بلى يا رسول اللَّه فقال صلى الله عليه و آله: من اشراط الساعة .. الى أن قال ...»

(2). كما في البحار 52: 245 ح 124 ني باسناده عن ابن نباته قال سمعت علياً عليه السلام يقول: ان بين يدي القائم سنين خدّاعة يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب ويقرب فيها الماحل (وفي حديث) وينطق فيها الرويبضة قال الجزري في حدث اشراط الساعة «وان ينطق الرويبضة في امر العامة- قيل وما الرويبضة يا رسول اللَّه؟ فقال: الرجل التافه ينطق في امر العامة.

اقول: فالرويبضة اذاً تصغير الرابضة العاجز الذي ربض عن معالي الامور وقعد عن لبها وزيادة التاء للمبالغة.

ثم اقول: ما اجمع الجمع بين المعني من الرويبضة: التافه- ورضا بهلوى حسب تأليف حروفها!

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 254

- الى ان قال-: انى يكون ذلك ولم يقم الزنديق من قزوين فيهتك ستورها، ويكفر صدورها، ويغير سورها، ويذهب ببهجتها من فر منه ادركه ومن حاربه قتله، ومن اعتزله افتقر، ومن تابعه كفر حتى يقوم باكيان: «باك يبكي على دينه وباك يبكي على دنياه» «1» والزنديق هو البهلوي‏ «2» وقد كان قيامه من قزوين وصدقت عليه الافتعالات.

وعن النبي صلى الله عليه و آله: «يخرج بقزوين رجل اسمه اسم بنيَّ يسرع الناس الى طاعته المشرك والمؤمن يملأالجبال خوفاً» «3» و «بني» تصغير «ابن» هو «رضا» بُنَيُّ الرسول صلى الله عليه و آله الامام الرضا عليه السلام.

وعن ابي عبداللَّه عليه السلام في استعراض علائم الظهور «وشمول اهل العراق خوف لا يكون معه قرار». «4»

وفي كلام لعلي امير المؤمنين يتحمل الايحاء الى الحالة الموجودة بيننا بين البعثية الصدامية الكافرة.

قال عليه السلام: «لا يقوم القائم حتى تفقأ عين الدنيا وتظهر الحمرة في السماء وتلك دموع حملة العرش على اهل الأرض، وحتى يظهر فيهم قوم لا خلاق لهم يدعون لولدي وهم براء من ولدي، تلك عصابة رديئة لا خلاق لهم، على الاشرار مسلطة وللجبابرة مفتنة، وللملوك مبيرة، يظهر في سواد الكوفة، يقدمهم رجل اسود اللون والقلب، رث الدين، لا خلاق له، مهجن زنيم عتل، تداولته ايدي العواهر من الامهات من شر نسل لاسقاها اللَّه المطر في سنة اظهار المتغيب من ولدي صاحب الراية الحمراء والعلم الاخضر، اي يوم للمخيبين بين الانبار وهيت- ذلك يوم صيلم الاكراد والشراة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الانوار الطبعة الجديدة ج 52 ص 312 ح 61 غط الفضل عن ابن ابي نجران عن محمد بن سنان عن ابي الجارود عن محمد بن بشر عن محمد بن الحنفية

(2). في مجمع التبحرين: الزنديق هو البهلوي‏

(3). بحار الانوار ... ص 213 غط ردي عن النبي صلى الله عليه و آله انه قال: ..

(4). البحار 52: 221 ج 85 شا. الحسين بن زيد عن منذر الجوزي عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال سمعته يقول: يزجر الناس قبل قيام القائم ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 255

وخراب دار الفراعنة، ومسكن الجبابرة، ومأوى الولاة الظلمة، وام البلاء واخت العار، تلك ورب علي يا عمر بن سعد بغداد، الا لعنة اللَّه على العصاة من بني امية وبني فلان الخونة الذين يقتلون الطيبين من ولدي ولا يراقبون فيهم ذمتي، ولا يخافون اللَّه فيما يفعلونه بحرمتي ... «1»

كتابات كما انه من آيات اقتراب الساعة ونبيه نبي الساعة.

وترى لماذا هنا وفي عديدٍ غيرها «هذا القرآن» حيث توحي بان هناك قرآناً أو قرائين أخرى، وفي عديد اخرى «القرآن» والقرآن هو القرآن؟

لأن «قرآن» من اللَّه هو جنس المقرو بالوحي كتاباً على المكلفين، شاملًا كتابات الوحي كلها، وأفضلها هذا القرآن، فقد يعرف ب «هذا» ليدل على حاضره دون غابره، و «هذا» في موارده كلها يتضمن ميزة او ميزات له عن سائر القرآن‏ «2» وقد تدل على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عن ابي عبداللَّه عليه السلام 226 ج 90 في باسناده عن عمر بن سعد عنه عليه السلام ..

ومن الطريف جداً خطاب الامام عليه السلام اخيراً لعمر بن سعد جد صدام عامل هذه الفتنة وعميلها، بعدما يصف عصابة البعث العفلقي التي يقودها صدامها، ثم يصفه لعنة اللَّه عليه يسواد اللون والقلب- وقد جمعهما- وانه رث الدين مهجن زنيم عتل تداولته ايدي العواهر من الامهات من شر نسل، ثم وعداً بيوم صيلم الاكراد والشراة وخراب دار الفراعنة مسكن الجبابرة وماوى الولاة الظلمة وام البلاء واخت العار تلك ورب علي يا عمر بن سعد! بغداد!:

وفي ج 13 ص 314 ملحقات احقاق الحق عن العلامة المولى على المتقي الهندي في كنز العمال ج 7 ص 261 ط حيدر اباد الدكن روى عن علي عليه السلام في خطبة له «وليكونن من يخلفني في اهل بيتي‏رجل يامر بامر اللَّه قوي يحكم بحكم اللَّه وذلك بعد زمان مكلح مفصح يشتد فيه البلاء وينقطع فيه الرجاء، ويقبل فيه الرشا فعند ذلك يبعث اللَّه رجلًا من شاطى‏ء دلجة لامر حزبه يحمله الحقد على سفك الدماء قد كان في ستر وغطاء فيقتل قوماً وهو عليهم غضبان شديد الحقد حران في سنته بختنصر يسومهم خسفاً ويسقيهم سوط عذاب وسيف دمار ثم يكون من بعده هنات وامور مشتبهات الا من شط الفرات الى النجفات باباً القطقطانيات في آيات وآفات متواليات يخدش شكاً بعد يقين يقوم بعد حين يبني المدائن ويفتح الخزائن ويجمع الامم ينفدها شخص البصر وطمح النظر وعنت الوجوه وكشف البال حيت يرى مقبلًا مدباً فيا لهفى على ما اعلم‏

(2). ك «اوحي الي هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ» 6- 119 «وما كان هذا القرآن يفترى من دون‏اللَّه» 10: 37 «نحن نقص عليك احسن القصص بما اوحينا هذا القرآن» 12: 3 «ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا» 17: 41 «قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن» 17: 88 «وقال الرسول رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً» 25: 30 «ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل ..» 27: 76 «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه» 34: 31.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 256

عمومه لسائر الوحي:

«قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدلّه ..» «1» «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه». «2»

إذاً فلا بد من تعريف به ليميزه عن غيره ب «هذا» او «العظيم» «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم» «3» او تعريف اللام عهداً الى حاضره حيث يخاطبهم به: «وان‏ تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدَلهم ..» «4» او بضمير يعرفه: «وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ..» «5» او وصف: «تلك آيات الكتاب وقرآن مبين» «6» ام ماذا من إشارة تميزه عن سواه ويختص «هذا القرآن» هنا بما يعرفه أنه «يهدي للتي هي أقوم» من قوامات الوحي وقيامات صاحب الوحي والمكلفين به.

و «قرآن» مع كل ذلك عَلم لهذا القرآن، لم يسم به غيره من قرآن وان كان يشمله جنسه، وهو أفضل واكثر أسماء القرآن.

ثم هنا هادٍ ومهدي ومهدي له وبشارة لمن يهتدي وإنذار على من لا يهتدي، فالهادي هو القرآن حيث الهدى طبيعته وحالته وصياغته لأعلى قمم الهدى، دون ابقاءٍ على هدى ممكنة إلا وهو يهدي لها غير قاصر ولا ضنين.

والمهدي هو على الإطلاق كل مكلف بحاجة الى هدى، وبامكانه أن يهتدي بلا حدود من زمان أو مكان أو اقوام وأجيال فانه هدى اللَّه والهدى الالهية في القرآن كاملة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 10: 15

(2). 34: 31

(3). 15: 87

(4). 5: 101

(5). 10: 61

(6). 15: 1

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 257

شاملة.

والمهدي له، وترى لماذا «له» دون «إليه» ام دون جارٍ ك «اهدنا الصراط المستقيم»؟ .. ثم «التي» بحذف الموصوف المتردد بين عديد ك: الطريقة- الشريعة- الملة- الرسالة- الولاية ام ماذا؟ ولا يحذف الموصوف الا المعلوم لحد لا يحسن ذكره بل ويحسن حذفه؟.

نجد الهداية في القرآن في هذا المثلث، وليس «يهدي له» إلا هنا لكتاب اللَّه، وفي أخرى للَّه: «قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق قل اللَّه يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدِّي إلا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون» «1» «2» ثم لا ثالث لهما، فإنما اللَّه وكتاب اللَّه يهدي له لا سواه، فلتكن «الهداية له» خاصة باللَّه بقرآن المبين.

ثم اللَّه وإن كان يهدي بالقرآن من ابتع رضوانه سبل السلام ويهديهم الى صراط مستقيم: «قد جاءكم من اللَّه نور وكتاب مبين يهدي به اللَّه من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم» «3» هداية إياه وهداية اليه، إلا ان أياً منهما لا يشمل مطلق الهدى، والهداية له تشمله كله، فالهداية «الى» دلالة الى الهدى الآفاقية البعيدة عن المهدي اذ هي خارج ذاته، او الانفسية البعيدة عنها كالآفاقية لمن احتجب عن نفسه بعيداً، «4» والهداية اياه ايصال الى المقصود آفاقية وانفسية او يقارب الايصال لمكان القرب بين المهدي والمهدي له لحد الاتصال. «5» والهداية له تشمل الايصال والدلالة الى الانفسية والآفاقية قريبة وبعيدة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 10: 35

(2). ومن الطريف ان «يهدى للحق» الخاصة باللَّه تتوسط «يهدي الى الحق» لغير اللَّه اولاها «شركائكم» سؤال تعنُّت، واخراها لكافة الهداة الى الحق حيث تجمعهم «يهدي الى الحق» فليس تغيير صيغة الهداية مجرد تفنُّن التعبير وانما لخصوص المعني من «له» و «اليه»

(3). 5: 116

(4). لان «الى» توحي لفصل بين المهدي والمهدي اليه، والهدى الانفسية ليست بعيدة عن‏المهدي: ..

(5). حيث الهداية اياه توحي الى وحدة عريقة بين المهدى والمهدى له دون فصل بينهما، اماحققياً كما الايصال ويشارفه كالقريب القريب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 258

دلالة الى ما في النفس من هدى العقل والفطرة ام ماذا؟ وايصالًا الى حقها وواقعها، ودلالة إلى ما في الآفاق تكويناً وتشريعاً وايصالًا إليها فالهداية له- اذاً- اتم واطم من الهداية إليه وإياه‏ «1» فما الطفه التعبير عن الهداية المطلقة ب «يهدي اياه» وعن الدلالة المؤثرة وسواها ب «يهدي اليه» وعن مجموع الهدايات ب «يهدي له» الشاملة لكافة مراحل الهداية مستغرقة لها كلها!.

ولأن هذه الآية هي الفريدة في نوعها للهداية الشاملة فلتشمل الهدى كلها، دلالة وايصالًا للهدى أنفسية في هداية العقل والفطرة، وآفاقية في هداية التكوين والتشريع، فالقرآن نسخة كاملة للهدى كلها حيث يهدي به اللَّه من اتبع رضوانه سبل السلام.

إنه هدى للكافرين كما للمؤمنين دلالة، وهدى للمتقين في مزيد الدلالة ثم الايصال الى حق الهدى، ثم وهو هدى للإنسان وأضرابه آفاقياً وأنفسياً.

واما «التي» بحذف الموصوف فللايحاء باطلاق المهدي له، دون خصوص الملة او الطريقة او الرسالة او النبوة او الولاية اماهيه؟. «2»

فانه هدى بكل بنودها ومتطلباتها للإنسان وأضرابه كأفضل ما يمكن وأكمله في عالم الفطرة والعقل، وفي التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه وبينه وبين ربه في علاقة المعرفة والعبودية، وبينه وبين الناس في علاقة العشرة، وفي كافة زوايا الهدى ومتطلباتها وتنسيقاتها ومخلفاتها الحاضرة والمستقبلة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. حيث الهداية له، واللام للاختصاص اعم من الدلائل الخاصة والايصال الخاص الى مادةالهدى آفاقية وأنفسية، فالهداية اياه هي «له» والهداية اليه كذلك «له» كما الهداية الآفاقية والأنفسية كلاهما «له» وان كانت «له» مراتب عدة

(2). 1- كالسبل 2- والآيات الآفاقية والانفسية 3- والاخلاق 4- والحياة 5- واحكام الفطرة والعقل 6- والايمان 7- والاسلام 8- والتقوى 9- والزهادة 10- والمعرفة والمعجزة 11- مواد الهداية التي تدعو اليها كتابات الوحي، فكل هذه الموصوفات تصلح ان تكون للتي هي اقوم دون ابقاء على مادة من الهدى إلّا وهي تشملها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 259

«للتي هي اقوم» فكتابات اللَّه كلها قويمة قيِّمة لا عوج فيها ولا قصور، ولكنها مؤقتة زمناً، محدودة بالمتطلبات المرسومة لزمنها، والإستعدادات لطالبيها فيها، وأما القرآن فهو يهدي للتي هي اقوم: قيمة وقوامة واستقامة وقياماً «1» منذ بزوغه ما طلعت الشمس وغربت، فشمسه لا تغرب وما يحتاجه المهتدون به لا يعزب، فلا يقعد عن هدايته، ولا يفشل عن استقامته ولا ينقص عن قيمته وقوامته لأنه كتاب الزمن كله.

ف «هي أقوم» من غيرها على الإطلاق قواماً وقياماً: «قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ..» «2» فيه كافة القوامات والقيامات لحد القيامة الكبرى، لا أفول لشمسه ولا انقطاع لشرعته، لا كتاب بعد كتابه ولا رسالة بعد رسالته، حيث الأقوم يتطلب ختام الوحي بوحيه.

فهذه الآية اجمال عن مثلث الخاتمية: شريعة ورسالة وكتاباً، نجد تفاصيلها في آيات اخرى، والتي هي اقوم يشمل هذا المثلث وما معها من ملة وطريقة وولاية، والولاية المطلقة للقرآن ونبيه وأهل بيته هي أقوم الولايات طول الرسالات الالهية، وهي كلها على هامش الولاى الالهية. «3»

ثم القرآن ليس ليهدي للتي هي اقوم هداية المعرفة والإيصال الى الحق إلا لمن اتخذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فالاقوم تتحمل كونها من القوام والقيامة والقيمة، والقرآن يهدي للتي هي اقوم في مثلثه دون‏اختصاص باحدها

(2). 6: 161

(3). في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن ابي جعفر عليه السلام في تفسيره الآية قال: يهدي الى الولاية اقول: وهي تشمل الولايات كلها ومنها ولاية الائمة التي هي ثالث مراتبها بعد ولاية اللَّه والرسول صلى الله عليه و آله وقد يفسر بولاية الامام بياناً لثالث مصاديقها لانه مختلف فيها حتى يلحق بولاية الرسول، ومن ذلك ما في حديث سلسلة الذهب، يرويه ابن بابويه باسناده عن عياش بن يزيد مولى زيد بن علي، قال حدثني ابي قال حدثني موسى بن جعفر ... وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: الامام منا لا يكون الا معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها فلذلك لا يكون الا منصوصاً فقيل له يا بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله! فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل اللَّه وحبل اللَّه هو القرآن لا يفترقان الى يوم القيامة فالامام يهدي الى القرآن والقرآن يهدي الامام وذلك قول اللَّه عز وجل «ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم» وروي تفسيره بالامام باسناده عن ابي عبداللَّه عليه السلام ايضاً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 260

دليلًا بحق وكما عن الإمام علي عليه السلام: «ايها الناس انه من استنصح اللَّه وفق، ومن اتخذ قوله دليلًا هدي للتي هي اقوم»: دليل المعرفة والعمل الصالح ثم يبشره:

ومراتب الهدى القرآنية آخذة من العلمية الى العقيدية الى العملية التطبيقية، والأخيرة هي المبشر لها «ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم اجراً كبيراً».

ومراحل العلم القرآني «على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء». «1»

ومراتب العقيدة اليقين ثلاث: علم اليقين- عين اليقين- حق اليقين.

ومراتب العمل تنحو مراتب العلم واليقين، كلما ازداد ازداد وكلما نقص نقص.

والدلالة القرآنية ثلاث: دلالة التعبير في مراتبها، ثم دلالة الاهتداء، ثم الإيصال الى المطلوب: الصراط المستقيم .. ومما توحيه آية الاقوم أن هذا القرآن هو المتن الأعلى للإسلام وما سواه من احاديث ليس الا على هامشه ان وافقه فليكن متناً متيناً مكيناً في الحوزات العلمية الإسلامية وفي كافة الحقول.

ومن التي هي اقوم في هدي القرآن إعجازها، حيث الآية الرسالية فيه أقوم الآيات إذ تعيش الزمن ويعيشها الزمن دون حاجة إلى آية اخرى.

ومنها السياسة القرآنية التي تقود دولة عالمية على طول الزمن كما يقودها القائم المهدي عليه السلام في آخر الزمن.

ومنها الحقوق القرآنية التي تحلق على كافة الحقوق طول التاريخ، وتكفي معونة الحياة المتوسعة المتداخلة المتشابكة المتشاكسة.

ومنها الملاحم الغيبية والإنباءات المستقبلة التي توقظ النُوَّم وتنبه النهابهين كي يكونوا على أهبة وحذر لبناء المستقبل المجيد للدولة الإسلامية.

ومنها الإقتصاد القرآني وقد تكفي حلًا لمشكلة الإقتصاد العضال آية وحيدة منه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفينة البحار يرويه الامام الحسين عن ابيه علي امير المؤمنين عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 261

«وأن ليس للإنسان الا ما سعى».

ومنها ومنها وقد تحدى القرآن فيما تحدى الانس والجن «على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»: طول الزمان وعرض المكان.

«ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم اجراً كبيراً». «1»

يبشر من آمن باللَّه واليوم الآخر وما بينهما على ضوء القرآن، ويعملون الصالحات التي تصلح نتيجة للايمان وتصلح الحياة كل الحياة على ضوء القرآن، ويبشرهم قدر ما اهتدوا به وآمنوا وعملوا الصالحات «ان لهم اجراً كبيراً»: لا ناقصاً عما قدموا فانه عجز وبخل، ولا مساوياً مواتياً له فانه مثل بمثل، وليس اللَّه مثلًا لنا حيت يواتينا في ثواب اعمالنا، وانما فضلًا واحساناً: «اجراً كبيراً» اكبر مما قدموا وان كان تسمية الثواب أجراً فضلًا عن «كبيراً» هو ايضاً اجر كبير ولطف غزير، حيث العبد لا يستحق بايمانه وعمله الصالح اجراً من ربه، إذ لا يعود نفعه الا اليه لا الى ربه، اذاً فاصل الثواب فضل وتسميته اجراً فضل وصفته كبيراً فضل، مثلث الفضل في قول فصل.

ثم القرآن لمن لم يتخذه دليلًا لا يزيده إلا خساراً، ولا سيما الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإن كانوا مؤمنين باللَّه، حيث الايمان باللَّه دون الآخرة لا يُلزم المؤمن به بما يلتزم به المؤمن بآخرته من عمل الصالحات، ومجرد الايمان باللَّه دون عمل لا ينفع حتى إذا كان ايماناً بالآخرة ايضاً:

«وَأَنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً». «2»

لا يؤمنون بالحياة الآخرة ودلائلها في القرآن واضحة وفي الآفاق والانفس لائحة!.

والإعتاد هو التهيئة، والعذاب الأليم يشمل ذوقه يوم الدنيا في المعيشة الضنك وفي البرزخ بوجه آكد، ثم في القيامة واقع لأليم العذاب: «ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ..»: «3» عذابات معتدة في مثلث الحياة بما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 17: 9

(2). 17: 10

(3). 20: 124

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 262

قدمته أنفسهم.

«وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا». «1»

تأنيب بهوى الانسان العجول الجهول التارك لهدي القرآن حيث يدعو بالشر دعاءه بالخير فشتان شتان بين هدي القرآن وهدي الإنسان.

قانون تدرج الوحي القرآني في سياسة الخطوة الخطوة

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا». «2»

قالة ضالة مضللة من الذين كفروا عداءً وإجراماً بحق القرآن ونبيه، تأتي مرة واحدة يتيمة بإجابتين اثنتين: و «الذين كفروا» هنا هم بين كتابيين ومشركين، المتعودين على كتابات سماوية تنزل جملة واحدة، فالقبيلان قد يعتبران وحي القرآن بدعاً من الوحي «لولا نزل القرآن جملة واحدة» كما نزلت سائر كتابات السماء جملة واحدة؟

ومختصَر الجواب وعلّه محتصَره: «لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا».

والفؤاد هو القلب المتفئد بنور تشتعل فيه فتتصاعد كما القلوب الطاهرة، أم بنار عاتمة تتسعَّر فيه: «ناراللَّه الموقدة. التي تطلع على الافئدة» «3» ناراً على نار، كما هناك نور على نور يهدي اللَّه لنوره من يشاء.

أترى أن فؤادك: الرسول ما كان مثبَتاً ليحتاج إلى تثبيت بتنزيل القرآن مفرَّقاً؟

ولولاه لما نزل إليه وحي القرآن!.

كما أن الافئدة النيِّرة درجات، كذلك لتثبيتها درجات: «وقل رب زدني علماً» وكما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 17: 11

(2). 25: 32

(3). 104: 7

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 263

تثبَّت فؤاده المنير بوحي القرآن المحكم جملة واحدة في ليلة القدر، كذلك يتثبت بوحي القرآن المفصل نجوماً عدة معرفياً وعملياً.

وفي ذلك المكث من تنزيله يتثبت قلبه المنير على مكث، وبأحوج إلى ذلك أفئدةُ المؤمنين: «وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلًا». «1»

هنا تثبيت لفؤاد الرسول كما يناسبه إلى قمم الكمال ولتثبت رسالته إلى المرسل إليهم كافة، حيث هنالك تثبيت لأفئدة المؤمنين إيماناً ومزيد إيمان، ولكيلا يُخيَّل إلى بسطائهم أن الرسول إنما يحدثهم عن نفسه وعقليته: «وإذا بدلنا آية مكان آية واللَّه أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون. قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدىً وبشرى للمسلمين». «2»

فإنزال القرآن دفعياً ليلة القدر كان بلا وسيط، وتنزيله تدريجياً بذلك الوسيط، تثبيتاً للذين آمنوا، وأصل التدريج في التنزيل «لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا» لتحور قلوب مؤمنة حول محور فؤاده المنير، إذاعة قرآنية تذيع ما تستذيع، دون ظِنَّة ولا تضييع، ودون فارق في الإستذاعة بينه وبين المرسل إليهم!.

فلكلٍّ من الرسول والمرسل إليهم فائدة وعائدة في تنزيله مفرقاً على نجومه، كلٌ كما يناسب حاجيته وحاله.

فكما في قصص الأنبياء تثبيت لفؤاده، وعلى ضوئه أفئدة المؤمنين في حمل أعباء هذه الرسالة السامية: «وكلًا نقص عليك من أنباء الرسل ما نُثَبِّت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين». «3»

كذلك في تدرُّج نزوله ككل، أحكاماً وأنباءً غيبته أما هيه، تثبيت لفؤآده المنير، رسولية ورسالية.

فترى قصص الماضين تقص طول العهدين: المكي والمدني، حسب الحالات والمناسبات الرسالية والرسولية، تثبيتاً لفؤاد الرسول والمؤمنين العائشين عب‏ء هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 17: 106

(2). 16: 102

(3). 11: 12

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 264

الرسالة، تخفيفاً عن كواهلهم هنا وهناك، فتراه تتكرر في مختلف الصور، وفي الطول والقِصَر، اللّهم إلّا قصة يوسف حيث الحكمة اقتضت إفرادها في مجالها المناسب.

«ورتلناه ترتيلًا» لفظياً كممتاح لترتيل معنوي، تدرجاً لنزول أمطار الوحي الغزير على افئدة المؤمنين، وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله: «إذا قرأت القرآن فرتله ترتيلًا وبيِّنه تبييناً، لا تنثره نثر الدقل ولا تهذّه هزَّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكونن هم أحدكم آخر السورة». «1»

فلتكون القلوب داعية الحركة بدوام البركة، فتتفأد بأنوار المعرفة دائبة، فلا تقف عَجَلة السير فيها، لذلك «رتلناه ترتيلًا» ونزلناه نجوماً.

لقد نزل القرآن لإنشاء أمة في الطول التاريخي والعرض الجغرافي، وليقيم نظاماً دائماً قويماً، والتربية بحاجة إلى تدرُّج في موادها، وإلى حركة تترجم التأثر والإنفعال إلى واقع المُرام، وليست النفس البشرية لتتحول قفزة من اللّا شي‏ء إلى كل شي‏ء.

لذلك ينزل القرآن منجَّماً وفق الحاجات الحية للعالمين، وهي في طريق نشأتها ونموها، حسب الإستعدادات الموهوبة في ظلال المنهج التربوي الرباني الدقيق العميق.

أوامر ونواهي يومية، وإنباءات تلوَ بعضٍ فتُجدِّد الجانب المعرفي والحالة العملية، يتلقاها المسلمون في أحيانها المطلوبة فيها، المحتاج إليها، ليعلموا بها فور تلقيها، كما يتلقى الجندي في ثكنته او في خط النار ليطبِّق واجبة ساعة فساعة، ويوماً فيوماً.

لقد عاش ذلك القرآن العظيم والمعجز العميم طول زمن الرسول، وليكون على حجة وبينة دائبة على طول الخط، وليعلم الناس أنه ليس من عنده، ولو كان لما انتظر في إجابات عن سؤالات نزولَ الوحي، وليزداد هو والمؤمنون علماً بعد علم، فيعيشوا نَظِرة الرحمة الإلهية دائبين ودونما انقطاع.

وأما أن كتابات الوحي السالفة إنما نزلت جملة واحدة لأنها نزلت على أنبياء يقرئون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 277- اخرجه الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً عنه صلى الله عليه و آله واخرجه العسكري في المواعظ عن علي عليه السلام عنه صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 265

ويكتبون، ولكن محمداً ما كان يكتب او يقرأ فقد ينساه، فيطارده قوله تعالى:

«سنقرئك فلا تنسى». «1»

ولئن سألت فما هو الفارق بينها وبين القرآن في فرق التنزيل وجمعه؟ أوَلم يكن النبيون من قبل بحاجة إلى تثبيت فؤادهم في ترتيل وحيهم، وهم أحوج منه بكثير؟

فالجواب: أن الفارق الأصيل هو أن القرآن آية معجزة بنفسه دون سائر الوحي، فليحشر زمن الرسول على طول، ليعيش آية رسالته مادام حياً دونما انقطاع، وكما يعيشها المكلفون بعده حتى القيامة الكبرى، وأنه كتاب معرفة خالدة زائدة على سائر الوحي، فليثبت فؤاد الرسول وأفئدة المؤمنين بترتيله، وسائر الوحي أحكام لا تحمل إنباءات غيبية إلا نذراً قليلًا، وليس فيها نسخ وهو كائن في القرآن، فهو بميِّزته في منازل عدة يمتاز بنجومه ... في تنزيله.

وأن سائر الوحي تحمل احكاماً تعبدية بسيطة، تعبِّد الطريق للشرعة الأخيرة الخالدة القرآنية.

وعلى الجملة ف «لنثبت به فؤادك» على سند الرسالة في كل سنِّيها، وتثبيت لمزيد العلم والمعرفة له، وتثبيت فؤاده على الدعوة به ترتيلًا، وتثبيت وحيه أنه ليس منه، ولو كان لما كان ينتظر الوحي دائباً «ورتلناه ترتيلًا» لك وللمرسل إليهم: «ورتل القرآن ترتيلًا».

لذلك فعلينا نحن العائشين بعد زمن الرسول أن نترتل في القرآن رويداً رويداً، ونرتله على الناس ترتيلًا، دون أن نترسل في آياته كغزير الهاطل فنغرق في خضمِّها، أو نرسل لطلابها فإذا هم غارقون فيها.

ولقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يشارط من يتعلمون القرآن أن يتقنوه علماً وعملًا شيئاً فشيئاً، دون تسرُّع لا في قرائتِه ولا في تعلُّمه، وإنما ترتلًا وترتيلًا ليأخذ مواضعه من العقول والقلوب والأفئدة، فتثبت عليه الأفئدة، وتتحرك به القلوب، فيصبح أمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 87: 6

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 266

القرآن في حركة دائبة بترتيله.

«ولا يأتوننك بمثلٍ إلَّا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً». «1»

لهم أمثال الباطل، ولنا تفسير الحق، «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض»-

فحجة القرآن البالغة محلِّقة على أمثالهم الباطلة، دارجة لها إدراج الرياح، دونما إبقاء لها إلّا في ارتتاج.

«الّذين يحشرون على وجوههم الى جهنَّم أولئك شرٌ مكاناً وأضلُّ سبيلًا». «2»

ذلك لأنهم بكل اتجاهاتهم ووجوههم حشروا يوم الدنيا تأجيل نيران الضلال والإضلال، فيوم القيامة يُحشرون على وجوههم بنفس الوجوه جزاء وفاقاً ف «من يهدِاللَّه فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عُمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاءهم بما كفروا».

ولاية الكافرين على المؤمنين محظورة منكورة

«الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للَّهِ جَمِيعاً». «3»

وهذه مواصفة أخرى للمنافقين أنهم «يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين» إختصاصاً لموالاتهم الكافرين ومعاداتهم المؤمنين، فقد تعني «من دون المؤمنين» أنهم لا يختصون موالاتهم بهم فإنما يستبدلون الكافرين بالمؤمنين، وأما المولاة العوان بين هؤلاء وهؤلاء فهي موالات مشركة لا تُعتبر من موالاة الإيمان، كما العبادة المشركة ليست من عبادة اللَّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 25: 33

(2). 34

(3). 4: 139

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 267

وماذا يبتغون من هذه الموالاة الكافرة؟ «أيبتغون عندهم العزة»! «فإن العزة للَّه جميعاً» ولأهل اللَّه، ف «للَّه‏العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون». «1»

فعزة الرسول والمؤمنين راجعة الى اللَّه فإنها من اللَّه على ضوء الإيمان، فلا معارضة بين آيتي إختصاص العزة باللَّه وتعميمها للرسول والمؤمنين.

إن عبودية اللَّه وولاية اللَّه ورسوله والمؤمنين هي كلها عزة وإعتلاء، فكيف يعتز المؤمن بمن يكفر باللَّه، وكأن اللَّه لا يكفيه عزةً أم هو ذليل وأعداءه أعزة.

فالإعتزاز بأية موالاة في أيِّ شأن من شؤون الكفار إهتزاز في الإيمان وإبتزاز منه، بل وموالاتهم محرمة على أية حال إعتزازاً وسواه من غايات «إلّا أن تتقوا منهم تقاة» فظاهرة الولاية- فقط- والضرورات تقدر بقدرها: «لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من اللَّه في شي‏ء إلّا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم اللَّه نفسه وإلى اللَّه المصير» «2» وقد فصلنا القول حول ولايتهم والتقية منهم على ضوء هذه الآية فلتزاجع.

ذلك، ومن موالاتهم ألا تقعدوا معهم حين يكفرون بآيات اللَّه ويستهزءون أو يمنعون فينتهون:

«وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً». «3»

«قد نزل عليكم في الكتاب» من ذي قبل كما في الأنعام المكية- وهذه مدنية-:

«وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإمّا يُنسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين». «4»

فكما الخوض مع الخائضين هو من شيمة الكفافرين: «وكنا نخوض مع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 63: 8

(2). 3: 28

(3). 4: 140

(4). 6: 68

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 268

الخائضين» «1» كذلك القعود معهم حيث تتأثر بخوضهم أم لا تؤثر في تركهم ساكتاً فيحسبونه منهم ف «إنكم إذاً مثلهم» مهما اختلف خائض ومشارك معه، وقاعد ساكت عنه، فإنهم ثالوث الدركات.

ذلك، إلّا أن يعني القعود معهم الرد عليهم في مجلسهم، أو المحاولة فيه حيث تسمعهم ما يقولون ثم تخلوا بالمؤمنين العارفين لكي تدبِّر الإجابة عن شطحاتهم والرد على كفرهم وإستهزاءهم.

فإنما محظور الحضور معهم هو قعود المقاعدة المجاراة والمسايرة «2» دون سائر القعود.

ذلك والصغي الى المعاصي ككل هو من المعاصي‏ «3» والجلوس في مجالس الظلم هو من الظلم، إلا أن تمنع أهلها، «فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين» أياً كان الظلم، فكما الظلم دركات، فالإصغاء إليه والقعود مع الظالم في ظلمه أيضاً دركات.

فلا يختص المحظور بالجلوس على مائدة يشرب عليها الخمر، بل كل موائد العصيان والظلم وكل مجالسة محظورة مهما اختلفت دركاتها.

أجل «إنكم إذاً مثلهم» وإن في نفاق القعود معهم ساكتين حيث يخيَّل إليهم وفاقكم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 74: 45

(2). نور الثقلين 1: 564 عن الكافي عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن شعيب العقرقوفي‏قال سألت أبا عبداللَّه عليه السلام في قول اللَّه عز وجل «وقد نزل عليكم في الكتاب ..» فقال: «إنما عنى بهذا الرجل يجحد الحق ويكذب به ويقع في الائمة فقم من عنده ولا تقاعده كائناً من كان».

وفيه مثله عن العياشي عن محمد بن الفضل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في الآية قال: إذا سمعت الرجل يجحد الحق ويكذب به ويقع في أهله فقم من عنده ولا تقاعده‏

(3). المصدر فيمن لا يحضره الفقيه قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه محمد بن الحنفيةففرض على السمع ألا تصغى به الى المعاصي فقال عز وجل: «وقد نزل عليكم في الكتاب ..».

تفسير البرهان 1: 423 بسند متصل عن أبي الصلت المروي عن الرضا عليه السلام في قول اللَّه جل جلاله «ولين يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلا» قال فإنه يقول «ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين حجة ولقد أخبر اللَّه تعالى عن كفار قتلوا نبيهم بغير الحق ومع قتلهم إياهم لم يجعل اللَّه لهم على أنبياءه سبيلًا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 269

وفيه فتٌّ لعضد الإسلام وثلَّم في ساعده «إن اللَّه جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً» مهما اختلفت دركاتهما كدركات كل منهما، وقعود المؤمن معهم ساكتاً هو أخف دركاً فأطفُّ مماثلة.

والمخاطَبون في «قد نزل عليكم .. إذا سمعتم .. فلا تقعدوا .. إنكم» هم كل المسلمين مؤمنين ومسلمين سذَّج ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم والمنافقين، ثم «إنكم إذاً مثلهم» في الأصل هم المنافقون الرسميون، وعلى هامشهم الآخرون.

فهنا أصل الضلالة «الكافرون» وعلى هامشهم المنافقون القاعدون معهم المسايرون المصايرون، ثم بسطاء المسلمين ومن ثم المؤمنون السذَّج الذين يقعدون معهم أحياناً.

و «إن اللَّه جامع المنافقين والكافرين» يعني المنافقين الرسميين، دون القسمين الآخرين الذين لا يعنون بقعودهم معهم نفاقاً مهما كانت عمليتهم من النفاق أو من ضعف الإيمان أم لمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم.

والقعود المحظور معهم إنما هو «حتى يخوضوا في حديث غيره» لا لنا ولا علينا، فإذا تركوا الخوض المحظور فلا محظور من هذه الناحية.

ولأن القاعدين معهم درجات، فكذلك المماثلة والجمع في الجحيم دركات.

فالمنافق القاعد معهم هو مثلهم تماماً أو هو أنحس: «إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار» ف «إن اللَّه جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً» كما كانوا يوم الدنيا في الكفر بآيات اللَّه والإستهزاء بها جميعاً.

ثم «إن اللَّه جامع» القاعدين الآخرين دونما عذر عاذر «مع الكافرين» قدر المحظور من قعودهم وجمعهم معهم، فقد يكتفى لهم بنار البرزخ إذا لم يتوبوا ولم يثوبوا.

«الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا». «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 141

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 270

هؤلاء المنافقون المصلحيون «الذين يتربصون بكم» سِجال الحرب «فإن كان لكم فتح من اللَّه» وهم أولاء غير فاتحين ولا متفتحين معكم في جبهات القتال «قالوا ألم نكن معكم» في الإيمان.

إذاً فلنا نصيب من غنيمة الفتح كما لكم نصيب «وإن كانَ للكافرين نصيب» من الحرب وليس فتحاً أياً كان، ولا من اللَّه تأييداً لهم «قالوا» لهم «ألم نستحوذ عليكم» إستحفاظاً لغَلَبَكم عليهم «ونمنعكم من المؤمنين» بما كنَّا نوصلكم من أخبارهم مُنعة لكم عن أوضارهم؟.

وذلك من لقاء النفاق العارم، أنهم يَلقون كلًاَّ من المؤمنين والمنافقين بوجه إمساكاً للعصا من وسطها، وتلوِّياً وتلوُّناً كالديدان والثعابين مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء، إنتفاعاً من الجانبين وتحذُّراً عن بأس الجانبين.

ففي فتح المؤمنين «ألم نكن معكم» معية بقلوبنا، أم ومعية في نفس المعركة، فقد كانوا يخرجون إليها أحياناً تخلخلًا للصفوف وإظهاراً للوجود فيها مع كل حائطة على أنفسهم كيلا يُقتلوا أو يصابوا بشي‏ءٍ.

وفي نصيب الكافرين «ألم نستحوذ عليكم» أن غلبناكم من ذي قبل «ونمنعكم من المؤمنين» حيث آزرناكم واوزرناكم بحمى ظهوركم وتخذيل المؤمنين لصالحكم إذ تخللنا في صفوفهم لصالحكم والتجسّس والتحسّس لكم، حيث الإستحواذ هو الغلبة، وقد تعني- فيما عنت- أن البعض منكم هممتم الدخول في الإسلام ونحن حذَّرناكم عنه فغلبناكم على ما هممتم فغلبتم عليهم، فهاتوا نصيبنا من غَلَبكم عليهم لأن لنا شطراً من ذلك الغَلَب.

فهم أولاء الأنكاد البعاد بطنوا في قلوبهم السمّ ضد المؤمنين وعلى ألسنتهم الدهان لكي ينتفعوا من الجانبين ويأمنوا الضر من الناحيتين.

«فاللَّه يحكم بينكم يوم القيامة».

واقعياً لا حِوَل عنه ولا تحويل، مهما حكم يوم الدنيا شرعياً وبعض الواقع قدر ما لا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 271

يزول الإبتلاء من البين، ثم‏

«ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا».

فالكافر أياً كان وأينما كان لا سبيل له على المؤمن، و «لن يجعل» سلب بات لواقع الجعل وشرعته، شرعياً يوم الدنيا، وواقعياً في النشآت الثلاث.

فالمؤمنون مزودون بكافة الآيات الربانية آفاقية وأنفسية، وبكافة الحجج الفطرية والعقلية والكونية والشرعية، ولا حجة للكافرين عليهم مكافحة، إلا تسويلات إبلسية لا سبيل لها الى المؤمنين، ف «لن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا» «من طريق الحجة» «1» ولا أية محجة ومبلجة، فحجة المؤمنين بما جعل اللَّه بالغة وحجة الكافرين دامغة.

ولأن اللَّه يحكم بينكم يوم القيامة «2» فليست الحرب السِجال بغلَبِ الكافرين على المؤمنين سبيلًا لهم عليهم حيث يجبر كل كسر لهم منهم يوم القيامة.

ثم إن ذلك الغَلَب هو بين محنة لهم ومهنة، محنة حين لم يقصّروا في واجبهم تجاه اللَّه، ترفيعاً لدرجاتهم، ومهنة حين يقصّرون كما في أحد، ولن يضيع حق المؤمن بشرف الإيمان أينما كان.

فحين يجد المؤمنون سبيلًا للكافرين عليهم في سلطة زمنية أماهيه، فليس ذلك من جعله سبحانه في شرعةٍ له أو تكويناً منه كما من عنده، فصحيح أنه «كل من عند اللَّه» ولكن «ما أصابك من سيئة فيمن نفسك» شخصياً أو من أنفس الآخرين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 2: 235- أخرج عبدالرزاق والفرياني وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذروالحاكم وصححه عن علي عليه السلام أنه قيل له: ارأيت هذه الآية «ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا» وهم يقاتلون فيظهرون ويقتلون؟ فقال: أدنه أدنه ثم قال «فاللَّه يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا»

(2). الدر المنثور 2: 235- أخرج عبدالرزاق والفرياني وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذروالحاكم وصححه عن علي عليه السلام أنه قيل له: ارأيت هذه الآية «ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا» وهم يقاتلون فيظهرون ويقتلون؟ فقال: أدنه أدنه ثم قال «فاللَّه يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 272

فالسلطة الشرعية للكافرين على المؤمنين مستأصلة عن بكرتها في شرعة اللَّه، والسلطة الزمنية لهم عليهم كما الشرعية ليست من شرعة اللَّه، فإنما هي لقلة الهمم الإيمانية أمّاهيه من ملابسات قضيتُها أن يتسلطوا علينا ردحاً من الزمن و «لا تهنوا أو لا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» «1» و «لن يضروكم إلّا أذىً وإن يقاتلوكم‏ يولوكم الأدبار ثم لا يُنصرون»، «2» والمخاطَبون هنا هم المؤمنون المحققون شرائط الإيمان فردياً وجماعياً، و «ذلك بأن اللَّه لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم». «3»

وليس قتل الكافرين الأنبياءَ والائمة والصالحين سبيلًا منهم عليهم‏ «4» حيث الحجة الربانية بالغة على هؤلاء الظالمين، وليس من اللَّه إلا عدم المُنعة التكوينية عن هذه المظلمات، وقد يمنع أحياناً كما في نار إبراهيم وملاحقة موسى وإغتيال المسيح عليه السلام، وفي ليلة المبيت لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله وكلٌّ حسب الحكمة العالية الربانية في أصلين أصيلين، أصل الإختيار وأصل الحفاظ على الرسالات.

وترى الشهداء في سبيل اللَّه هم المغلوبون بسبيل القتل عليهم؟ وقد رفعت درجاتهم بالشهادة الكريمة والمغلوب هو القاتل الظالم إذ لم يقتل إلَّا الجسد وأما الروح فهو الغالب.

فليس لأسنة الظالمين ورماحهم نصيب إلّا الأبدان وللأرواح التعالي وإرتفاع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 139

(2). 3: 111

(3). 8: 53

(4). نور الثقلين 1: 564 في عيون الأخبار عن أبي الصلت الهروي قال قلت للرضا عليه السلام يا بن‏رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في سواد الكوفة قوم يزعمون أن الحسين بن علي عليهما السلام لم يقتل وأنه ألقي شبهه على حنظلة بن أسعد الشامي وأنه رفع الى السماء كما رفع عيسى بن مريم عليهما السلام ويحتجون بهذه الآية «ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا» فقال كذبوا عليهم غضب اللَّه ولعنته وكفورا بتكذيبهم لنبي اللَّه صلى الله عليه و آله وقتل من كان خيراً من الحسين وأمير المؤمنين والحسن بن علي عليهما السلام وما منا إلا مقتول وإني واللَّه لمقتول بالسم بأغتيال من يغتالني أعرف ذلك بعهد معهود إليّ من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أخبره به جبرئيل عليه السلام عن رب العالمين عز وجل وأما قوله «ولن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا» فانه يقول: «لن يجعل اللَّه لهم على أنبياء عليهم السلام سبيلًا»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 273

الدرجات، وأحسِن بما أنشد في حق سيد الشهداء والإمام الحسين عليه السلام:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| قد غيَّر الطعن منهم كل جارِحة |  | سوى المكارم في أمنٍ من الغِيَر |

ثم «لن يجعل» تعم في الشرعي منه الإمضاء مع الإنشاء، فكما اللَّه لن يجعل سبيلًا للكافرين على المؤمنين في أي حقل من الحقول فردية وجماعية، أحكامية وزمنية، كذلك لن يمض ما يجعله المؤمن على نفسه للكافر.

فلا ولاية للكافر على المؤمن أصيلة ولا فرعية، ومن فروعها عدم ولاية الأب الكافر على الولد المؤمن اللّهم إلّا مصاحبة معه معروفة «وصاحبهما في الدنيا معروفاً».

ومنها نعدم جواز نكاح المؤمنة بالمشرك لعدم جواز طاعته عليها ولاية، إضافة الى نص‏ «لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن» «1» «ولا تنحكوا المشركين حتى يؤمنوا». «2»

فسلطة الولاية وسلطة المَلكية والمالكية أماهيه من سلطات وسبل لهم على المؤمنين منفية منهية، فليس للكافر أن يشتري عبداً مؤمناً، ولا يُقتل مؤمن بكافر ذمياً وسواه، ولا يملك الكافر مال المؤمن بغنيمة وسواها إلّا أن تكون تجارة عن تراض أماهيه من تعامل مشروع.

وترى حين تختص السبيل المسلوبة للكافرين على المؤمنين بهم، فهل المنافقون وسائر المسلمين الذين لمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، هل للكافرين عليهم سبيل؟.

المنافقون هم مثل الكافرين بحكم المماثلة المنصوصة في الآية إلا فيما خرج بقاطع البرهان كظاهر الأحكام الإسلامية التي تعم كافة المسلمين، ثم الباقون داخلون في المؤمنين فقرينة قرنهم بالكافرين والمافقين.

فحين تعم «يا أيها الذين آمنوا آمِنوا» مؤمني أهل الكتاب وسائر الموحدين، فكيف لا تشمل هنا طليق «المؤمنين» غير المنافقين الرسميين، الذين آمنوا بهذه الرسالة السامية مهما كانوا فيه درجات!.

فكما لن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين بهذه الرسالة سبيلًا، كذلك لن يجعل اللَّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 60: 10

(2). 2: 221

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 274

للكافرين بسائر الرسالات على المؤمنين بها سبيلًا، ولن يجعل للمشركين والملحدين على الموحدين سبيلًا، ضابطة عامة روعيت فيها رجاحة الإيمان على أية حال.

ذلك! فالقدر المعلوم هنا من «المؤمنين» المؤمنون- على درجاتهم- بهذه الرسالة السامية، فكما لا سبيل للكافر عليهم، كذلك لا سبيل للمنافق عليهم مثلان لا يتفارقان إلّا في البعض من المظاهر المنافقة، فلا يجوز تزويج المؤمنة بمنافق ولا منافقة بمؤمن حيث الغاية المجوزة في آية البقرة «حتى يؤمنوا وحتى يؤمنَّ» والمنافق ليس مؤمناً، وكذلك كافة الأحكام التي موضوعها الإيمان لا تشمل المنافقين والمنافقات، مهما شملت المسلمين والمسلمات ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم.

فهذا وعد يحمل كل إنشاءٍ واخبار من اللَّه، يستأصل كل سبيل للكافرين والمنافقين على المؤمنين، فالهزائم اللاحقة بالمؤمنين ليست إلا من خلفيات ثغرات في إيمانهم، في شعورهم أو عملهم.

فحين يؤمر المؤمنون باتّاً لا حِوَل عنه «وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ..» فلا يعني إنهزامهم أحياناً عن الكفار إلّا إنهزامهم عن ذلك الإعداد المستطاع.

ولئن تتبعنا الهزائم الإسلامية طول التاريخ الإسلامي، نجدها كلها من مخلَّفات ثغرات، ففي أحد ثغرة ترك الطاعة لقائد القوات المسلمة الرسولية.

«ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين».

فإعجاب المؤمنين بكثرتهم ثغرة في محكم إيمانهم، يبتليهم اللَّه بهزيمة وقتية لكي ينتبهوا ثم نصرهم بإيمانهم لما انتبهوا ف «لقد نصركم اللَّه في مواطن كثيرة ويوم حنين .. ثم أنزل اللَّه سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين. ثم يتوب اللَّه من بعد ذلك على من يشاء واللَّه غفور رحيم». «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 27

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 275

والهزيمة الإبتلائية للمؤمنين كما في حنين وكذلك هزيمة البلاء كما في أحد، كانت هزيمة ظاهرية حملت معها قوة في نفوس المؤمنين، حيث تبعث الهمة وتذكي الشعلة وتُبصر لمزالق وتكشف عن الأخطاء وعن طبيعة المعركة، فإنها تقدمات للغَلَب بعد الهزيمة مهما طال الطريق.

ف «لن يجعل اللَّه للكافرين على المؤمنين سبيلًا» تقرر إنتصار الروح الإيمانية على مدار الزمن، غالبين في المظاهر أو مغلوبين.

فما اللَّه عزيز غالب على أمره، كذلك المؤمنون باللَّه هم أعزة لا يَذلون ولا يُذلُّون ما هم مؤمنون، فهناك فرق بين دعوى الإيمان ومظهره وحقيقته، فحقيقته في التصور والعقيدة والعمل لا تُغلب أبداً، ولكن دعواه دون مظهر، أو مظهر دون حقيقة، إنها بطبيعة الحال تُغلب كما يُغلب سائر من لا حقيقة له.

«إنَّ المنافقين يخادعون اللَّه وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يراءون النَّاس ولا يذكرون اللَّه إلَّا قليلًا». «1»

«يخادعون اللَّه»: يعاملون معه عمل المخادع كأنه- وعوذاً به- يُخادَع «وهو خادعهم» كما هم يخادعونه، ولكن أين مخادعة من مخادعة «يخادعون اللَّه والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون» «2» ف «إن اللَّه عز وجل لا يخادَع ولكنه يجازيهم جزاء الخديعة». «3»

ذلك ومن مخادعتهم اللَّه «وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى» قاموا حال أنهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 142

(2). 2: 9

(3). نور الثقلين 1: 565 في عيون الأخبار عن علي بن الحسن بن علي بن فضال عن أبيه قال سألت الرضا عليه السلام- إلى أن قال- .. وسألته عن قول اللَّه عز وجل «سخر اللَّه منهم» وعن قوله «يستهزى‏ء بهم» وقوله تعالى «ومكروا ومكر اللَّه» وعن قوله عز وجل «يخادعون اللَّه وهو خادعهم» فقال: إن اللَّه عز وجل لا يسخر ولا يستهزى‏ء ولا يمكر ولا يخادع ولكنه عز وجل يجازيهم جزاء السخرية وجزاء الإستهزاء وجزاء المكر والخديعة تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 276

كسالى وهم في كل أحوالهم في القيام الى الصلاة كسالى «وإنها لكبيرة إلّا على الخاشعين» وعب‏ءٌ وحِمل ثقيل على الذين لا يؤمنون.

«يراءون الناس» حتى في قشر الصلاة، فلولا الناس لتركوها كما تركوا باطنها.

«ولا يذكرون اللَّه» بألسنتهم «إلّا قليلًا» ذكراً قليلًا، و قليلًا منهم، فلا يذكرونه بقلوبهم لا كثيراً ولا قليلًا لأنهم لا يؤمنون، ثم وحتى لو ذكروا اللَّه بألسنتهم كثيراً فهو قليل في ميزان اللَّه‏ «1» حيث الذكر إنما هو بالعُدّة الباطنية لا بالعِدة الظاهرية إلا إذا صاحبها الباطن.

فذلك الثالوث بشأن الصلاة هو الشأن الشائن الفاتن للمنافقين.

فهم لا يقيمون الصلاة بل يقومون الى الصلاة كسالى يراءون الناس ولا يذكرون اللَّه إلَّا قليلًا، فيذكرون اللَّه في الصلاة لفظاً باللسان فيما يجهر فيه إذا كانوا مع المؤمنين ثم يتركون سائر الذكر واجباً أو راجحاً إذ لا يؤمنون.

كما وفي غير الصلاة لا يذكرون اللَّه متجاهرين إلّا إذا لزم الأمر لمصلحية النفاق، فذكرهم المخصوص بألسنتهم قليل في قليل، قليل مهما كان كثيراً إذ ليس له معنى في القلب، وقليل في ظاهر اللسان إذ ليس إلّا إذا لزم الأمر، وقليل في إخفاته باللسان إذ ليس كذلك إلّا إذا لزم الأمر، قلات ثلاث وهي بثالوثها قليلة بجنب ذكر المؤمنين مهما كان قليل المظاهر.

فالصلاة حالة الكسل حالة منافقة وإن حصلت للمؤمنين بفارق أن حال المنافقين في حقل الصلاة كلها كسل، والمؤمن قد تتفق له تلك الحالة البئيسة.

وهم يراءون الناس في كل عباداتهم ومظاهر أفعالهم وليس كذلك بسطاءُ المؤمنين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 566 في أصول الكافي قال أمير المؤمنين عليه السلام من ذكر اللَّه عز وجل في السر فقدذكر اللَّه كثيراً إن المنافقين كانوا يذكرون اللَّه علانية ولا يذكرونه في السر فقال اللَّه عز وجل: يراءون الناس ولا يذكرون اللَّه إلّا قليلًا.

وفي الدر المنثور 2: 237- أخرج مسلم وأبو داود والبيهقي في سننه عن أنس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر اللَّه فيها إلّا قليلًا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 277

فضلًا عن وسطائهم أو الكملين.

وهم لا يذكرون اللَّه على أية حال إلا قليلًا، والمؤمنون قد يذكرونه كثيراً وأخرى قليلًا، ثم وذكر المؤمن كأصل هو بكلا القلب واللسان وذكر المنافق لا يتجاوز اللسان.

أجل وهؤلاء المنافقون ليسوا من الكافرين- بفارق مظاهر الإيمان- وليسوا من المؤمنين- إذ هم في قلوبهم كافرون- وليسوا من المسلمين- ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم، إذ لا ينتظر منهم إيمان حيث تعرَّق الكفر في قلوبهم- يظهرون الإيمان ويصيرون الى الكفر والتكذيب لعنهم اللَّه. «1»

ذلك «وللمنافق ثلاث علامات يخالف لسانُه قلبه وفعلُه قوله وعلانيتُه سريرته وللكسلان ثلاث علامات يتوانى حتى يَفرط ويفرط حتى يضيع ويضيع حتى يأثم، وللمرائي ثلاث علامات يكسل إذا كان وحده‏ «2» وينشط إذا كان الناس عنده ويتعرض في كل أمر للمحمدة. «3»

فيا أيها المؤمن «لا تقم الى الصلاة متكاسلًا ولا متناعساً ولا متثاقلًا فإنهما من خلال النفاق» «4» ف «من حسَّن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 565 في أصول الكافي عن محمد بن الفضيل قال كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عن مسألة فكتب إلي: إن المنافقين- إلى- فلن تجد له سبيلًا ليسوا من الكافرين وليسوا من المؤمنين وليسوا من المسلمين يظهرون الإيمان ويصيرون إلى الكفر لعنهم اللَّه‏

(2). وفيه عن معاني الأخبار عن عبداللَّه بن سنان قال كنا جلوساً عند أبي عبداللَّه عليه السلام إذ قال له‏رجل من الجلساء جعلت فداك يا بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أخاف علي أن أكون منافقاً فقال: إذا خلوت في بيتك نهاراً أو ليلًا أليس تصلي؟ فقال: بلى فقال: فلمن تصلي؟ فقال: للَّه‏عز وجل فقال كيف تكون منافقاً وأنت تصلي للَّه‏عز وجل لا لغيره؟

(3). المصدر في كتاب الخصال عن أبي عبداللَّه عليه السلام قال قال لقمان لابنه يا بني لكل شي‏ء علامة يعرف بها ويشهد عليها- إلى قوله- وللمنافق ..

(4). المصدر في كتاب العلل بإسناده إلى زرارة عن أبي جعفر عليهما السلام حديث طويل يقول فيه: ولاتقم إلى الصلاة ... وقد نهى اللَّه عز وجل المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى يعني من النوم وقال للمنافقين «وإذ اقاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون اللَّه إلّا قليلًا».

أقول: يعني من النوم بيان لأخف المصاديق للسكر وأخفاها فإن أصل السكر من الخمر

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 278

إستهانة إستهان بها ربه». «1»

والكسل على أية حال فشل، إن في أمر الآخرة فلها وإن في أمر الدنيا فلها «2» و «مثل المنافق مثل جذع أراد صاحبه أن ينتفع به في بعض بنيانه فلم يستقم له الموضع الذي أراد فحوَّله في موضع آخر فلم يستقم فكان آخر ذلك أن أحرقه بالنار»: «3» «وإذا رأيتهم‏ تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسنَّدة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فأحذرهم قاتلهم اللَّه أنَّى يؤفكون». «4»

«مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَاإِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا». «5»

حالة جامعة جامحة للمنافقين «مذبذبين بين ذلك» الذي سبق من إيمان وكفر.

والذبذبة هي الحركة الدائبة وتنقُّلة مستمرة كذبذبة الساعة غير المستقرة على حال، وقد تكون مركبة من «ذب- ذب» فكلما يميلون الى جانب يذبون عنه الى آخر، فلأنه مكرور منهم دون ثبات فهم إذاً «مذبذبين بن ذلك» ثم «لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء» تفسر تلك الذبذبة الحائرة المائرة:

«لا الى هؤلاء» المؤمنين باطناً الى ظاهر، «ولا الى هؤلاء الكافرين» ظاهراً الى باطن، فقد اقتسموا إسرارهم وإعلانهم بين الفريقين، يعتذرون الى كلٍّ إن عرفوا حالهم أنهم لَمنهم فإنما يسايرون عدوهم مستهزئين، وذلك هو الضلال المبين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 235- أخرج أبو يعلى عن ابن مسعود قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ..

(2). المصدر عن أبي عبداللَّه عليه السلام قال: من كسل عن طهوره وصلاته فليس فيه خير لأمر آخرته‏ومن كسل عما يصلح به أمر معيشته فليس فيه خير لأمر دنياه، وفيه قال أمير المؤمنين عليه السلام إن الأشياء لما ازدوجت ازدواج الكسل والعجز فنتجا بينهما الفقر.

وفيه عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: «إن المنافق ينهى ولا ينتهي ويأمر بما لا يأتي وإذا قام إلى الصلاة اعترض قلت يا بن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وما الاعتراض؟ قال: الالتفات فإذا ركع ربض يمسى وهمه العشاء وهو مفطر ويصبح وهمه النوم ولم يسهر وإن حدثك كذب وإن ائتمنته خانك وإن غبت اغتابك وإن وعدك اخلفك»

(3). المصدر عن سعيد بن يسار عن أبي عبداللَّه عليه السلام قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: مثل المنافق ..

(4). 63: 4

(5). 4: 143

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 279

«ومن يضلل اللَّه» بما ضل هو نفسه عن سواء الصراط «فلن تجد له سبيلًا» الى الهدى: «ولما زاغوا أزاغ اللَّه قلوبهم» فقد ذبذبوا أنفسهم بين ذلك فأضلهم اللَّه بأن ذبذبهم «فلن تجد له سبيلًا» حيث أذاقهم اللَّه وبال أمرهم.

ذلك والذبذبة بين الحق والباطل هي نفاق عارم على أية حال، مهما تسربت الى بعض المؤمنين البسطاء دون الفضلاء والوسطاء.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا للَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً». «1»

لقد كان للأنصار بالمدينة في بني قريظة رضاع وحلف ومودة فقالوا لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله من نتولى؟ فقال: المهاجرين، فنزلت الآية. «2»

و «الكافرين» هنا تعم المنافقين وسائر الكافرين بل هم أولاء أكفر منهم وأضل سبيلًا لتجسسهم في نفاقهم على المؤمنين واضلالهم بسطاءَهم في عشرتهم اللئيمة.

فإتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين هو إتخاذ للشيطان ولياً من دون اللَّه وهذا سلطان مبين للَّه‏على هؤلاء.

«إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً». «3»

الدرك هو الهابط كما الدرج هو الصاعد، فكما للجنة درجات حسب درجات المؤمنين، كذلك للنار دركات حسب دركات الكافرين: «لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزءٌ مقسوم» «4» وقد تكون أبوابها عمودية فوق بعض فأسفلها هو الدرك الأسفل فلأن «لكل باب منهم جزءٌ مقسوم» فليست النار فسحة واحدة فإن مختلف أبواب فسحة واحدة لا تخلِّف مختلف العذاب، فهي- إذاً- أبواب سبعة سِفل بعضِ أسفلها جحيم المنافقين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 144

(2). تفسير الفخر الرازي 11: 86 والسبب فيه أن الأنصار ..

(3). 4: 145

(4). 15: 44

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 280

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ». «1»

ملامح هذه الآية وما بعدها، ومصارحها أيضاً، تشهد أنها نزلت تنديداً ببعض المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم وأهليهم، وظلت نفوسهم مشدودة عالقة إلى بعض من خلفوا هناك من الأهلين، فاتخذوا مشركي مكة أولياء، يعتاضون بولايتهم الحفاظ على أهليهم، ومنهم- كحاطب بن أبي بلتعة- مَن ألقى اليهم بالمودّة، فلم يكتفِ هذا الذليل الهزيل الإيمان بموادتهم، فقد تخطاها إلى إلقاء أسرار النبي صلى الله عليه و آله اليهم بالمودة، يتسقطهم أسراره ذات الخطورة، فإلقاء المودة شي‏ء، والإلقاء بالمودة شي‏ء آخر يتطلب مفعولًا به محذوفاً، وما هو إلا أسرار النبي صلى الله عليه و آله وكما تقول الروايات، «2» كما وأن نفس الإلقاء إيحاءٌ بكيان هذه الولاية، أنها ملقاة مفصولة عن القلب، بمكتوب أو سواه بعث لهم سراً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 60: 1

(2). الدر المنثور 6: 203- أخرج أحمد والحميدي وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داودوالترمذي والنسائي وأبو عوانة وابن حبان وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل عن علي عليه السلام قال: بعثني رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فائتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا، اخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، قلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها فأتينا به النبي صلى الله عليه و آله فإذا فيه: من حاطب بن ابي بلتعة إلى اناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي صلى الله عليه و آله، فقال النبي صلى الله عليه و آله: ما هذا يا حاطب؟ قال: (تجد الجواب في المتن).

وروى القمي أن حاطب بن أبي بلتعة قد أسلم وهاجر الى المدينة وكان عياله بمكة وكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فصاروا الى عيال حاطب وسألوا أن يكتبوا الى حاطب يسألوه عن خبر محمد هل يريد أن يغزو مكة؟ فكتبوا الى حاطب يسألوه عن ذلك، فكتب اليهم حاطب: إن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يريد ذلك، ودفع الكتاب الى امرأة تسمي صفية فوضعته في قرونها ومرت، فنزل جبرئيل على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأخبره بذلك، فبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمير المؤمنين عليه السلام ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 281

ف «تلقون اليهم بالمودة» و «تُسرُّون اليهم بالمودة» تقتضيان أدبياً أن جماعة منهم ألقوا إلى المشركين مسرِّين شيئاً من الأسرار، وقد فضحهم اللَّه كما يفضح المنافقين، لأنهم اعتملوا عملية النفاق، وإن لم يكونوا منافقين، ولكنه ضلال عن سواء السبيل، فما دور الأرحام والأولاد بجنب الإيمان إلا دور الأغارب البعيدين سواء، فلماذا الاعتياض بإلقاء الأسرار بهم بالمودة؟ إعلاناً أو إسراراً «وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم»؟.

يقف الإنسان هنا حائراً من فعلة حاطب وأضرابه، وهو مسلم مهاجر، فيا للنفس البشرية من منحنيات عجيبة، قد يحتمي لمن يعانده حفاظاً على قرابته وأحمئته، وبينه وبين الذين يلقي اليهم بالمودة ثالوث المفارقات: «عدوي وعدوكم» «كفروا بما جاءكم من الحق» «يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا باللَّه».

إنهم عادوا اللَّه إذ أشركوا به، وعادوا الرسول صلى الله عليه و آله إذ كذبوه، وكفروا بالحق الذي جاءكم من اللَّه يحمله رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وأخرجوا الرسول والمؤمنين مغبّة إيمانهم باللَّه ومحبة إدخالهم في الكفر كما هم: «أن تؤمنوا باللَّه ربكم» لا تتخذوهم أولياء «إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي» فمفاصلة أعداء اللَّه من شروط الإيمان الذي يدفعكم للخروج عن الأموال والأهلين جهاداً في سبيل اللَّه وابتغاء مرضاة اللَّه.

فكيف يوادهم ويلقي اليهم بالمودة أسراراً، مَن هم رجال اللَّه المنتسبون اليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض المغبرة، ويمثلون شاشة الحق في مصارح ومسارح المجتمع المتصارعة؟ .. إنه ليس إلا ضعف الإيمان ولمّا ينضج، وإنه من عقبات رواسب الأواصر القريبة، والعصبيات الصغيرة، والقرابات التافهة، التي يجب أن تذوب في بوتقة الإيمان ولمّا تذب!.

ولئن سأل سائل: إذا كان هؤلاء أعداء اللَّه وأعداء المؤمنين فكيف بالإمكان موالاتهم والإلقاء اليهم بالمودة، والقلب لا يتحمل المتناقضين؟ فالجواب: ان الموالاة هنا ليست هي القلبية، وإنما ظاهرية دفاعاً ن شرٍّ يُزعم، وشاهداً عليه- إضافة إلى‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 282

شاهد الإلقاء- ترجّي المودة في المستقبل إذا زال الكفر: «عسى اللَّه أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة».

ثم هذه الآيات وإن كانت تنديداً شديداً من زاوية بمن اعتمل هذه العملية النكراء الخائنة، ولكنها من زوايا اخرى بين محذرة الكفار المستغِلين، ومربية البعض من المؤمنين الضالين هنا سواء السبيل.

فهنالك نقف مرة اخرى وقفة الحائرين أمام عظمة العطف الرباني بشأن هؤلاء إذ يخاطبهم خطاب المؤمنين، لا المنافقين، رجاء رجوعهم عما فعلوا، وندمهم عما افتعلوا كما فعلوا، وكذلك العطف النبوي المعطوف إلى العطف الرباني بخلقة العظيم إذ لا يعجل بحاطب حتى يسأل: (ما حملك على ما صنعت؟) بكل رحابة صدر وحنان، فلما صارحه بما قصد مجيباً عتاب الرسول صلى الله عليه و آله: (لا تعجل عليّ يا رسول اللَّه! إني كنت امرءاً ملصقاً من قريش ولم أكن من أنفسها، وكان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أصطنع اليهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني واللَّه يا رسول اللَّه ما نافقت ولا غيَّرت ولا بدَّلت، وإني أشد أن لا إله إلا اللَّه وأنك رسول اللَّه حقاً). «1»

هنا يكف الصحابة عنه بقوله صلى الله عليه و آله: (صدق، لا تقولوا إلا خيراً)، ولينتهضه من عثرته من فوره، دون مطاردة ومشاردة.

ونجد خلاف هذا الحزم في الخليفة عمر، إذ ينظر إلى العثرة ذاتها، دون أن يفكر في علاجاتها: (إنه قد خان اللَّه ورسوله والمؤمنين، فدعني أضرب عنقه)، فأين علاج من علاج فيه كل فجاج وحراج!

وفي أحاديث عدة أن النبي صلى الله عليه و آله أجاب عمر: (إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل اللَّه اطلع على أهل بدر فقال: اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم)، ولكنه لا يوافق الاصول الإسلامية لا كتاباً ولا سُنة، فمن أعجب العجاب أن يرفع قلم التكليف عمن أتى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الفقرة الاولى في الدر المنثور، والثانية في تفسير القمي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 283

بواجب الجهاد! ولا يرفع عن النبي الذي كلُّ حياته جهاد! ومن أقرب ما يعارض هذه الفرية الفاتكة نفس الآية: «ومَن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل».

ثم هذا الخطاب اللطيف العتاب يجعل من هذا المؤمن الجاهل الضعيف مؤمناً عارفاً قوياً نادماً على ما افتعل، وينبّه سائر المؤمنين ألا يفعلوا فعلته، مبيناً مع الآيات التالية أخطارها:

«إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ». «1»

إن عداء هؤلاء الأعداء لكم مركوز في كيانهم وقلوبهم المقلوبة، مهما تظاهروا بالولاء، بغية مساندتكم إياهم، إلقاءً بالمودة لهم أسرار الرسول صلى الله عليه و آله، ولكنه يظهر لكم ببسط أيديهم وألسنتهم بالسوء اليكم «إن يثقفوكم»: يظهروا عليكم، وهذه الصيغة المضارعة بعد أداة الشرط «إن» تشير الى التحذير من مستقبل الثَّقف الذي يعدُّه المؤمن على نفسه بجهالة التصرفات الفوضى، كما أن مضيّ «ودُّوا» إيحاءٌ الى تعمُّق هذا الودّ قديماً في نفوسهم- دون رباط بشرط الثقف، إلا أن «لو» الدالة على امتناع مدخولها، تكافح هذا الخطر الكامن، ما دام المؤمنون متمسكون بعروة الإيمان.

وبما أن البسط مقابل القبض، فبسط الألسن هو إظهار الكلام السي‏ء، فيهم بعد زمِّ الألسن عنهم، فيكون الكلام كالشي‏ء الذي بُسط بعد انطوائه واظهر إن المفاصلة بين المسلمين والكفار قاطعة شاملة، ثم بينهم وبين المستسلمين المنافقين قلبية فحسب، ثم بينهم وبين فرقاءهم في الإيمان مواصلة شاملة دون أية مفاصلة، والمودة الموعودة تشمل المواصلتين.

ان حرمة الموادة تتركز على المعادين المحاربين، دون الكفار المسالمين، فعاشروهم بالمعروف وأقسطوا إليهم علّهم يؤمنون:

«لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 60: 2

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 284

تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». «1»

فهؤلاء، برهم، والأقساط إليهم غير محظور، وانها من أُسس شرعة الحق والعدل، ان الأصل للمسلم مع من سواه البر والخير والعدل إلا مع المحاربين المعتدين، دفاعاً عن الحق، وحفاظاً على الحقوق.

«إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ». «2»

إنها مقاتلة في الدين وتشريد ومظاهرة على إخراجكم في الدين، هي التي تمنعكم عم موادتهم، وتفرض عليكم عداءهم، لا أصل الكفر وكما تشهد له الروايات، «3» ولا أية مقاتلة ولا أي إخراج، فلو قاتلك الكافر على نفسه وماله وحقه، وأخرجك من داره التي اغتصبتها، فلا عليك ولا لك معاداته، ولا تحرم لك موالاته.

انه نظام سياسي ثابت صامد للمسلمين ما عاشوا، دون اختصاص بمن مضى من مشركي العرب، فهناك كانت امبراطوريتان قويتان الفارسية والرومانية تحيطان بأرض الإسلام، بدأتا تجمعان له، إذ تشعران بخطورته، تؤلبان عليه الإمارات العربية وسواها، من مستعمراتها، كذلك واضرابها من الدول المستعمرة المعادية للاسلام طول التاريخ، فلم يكن بد من تطهير المعسكر الإسلامي من أعدائه الجهال أو المعاندين، وتخليصه من المرتزقة، ولكي تكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

لا فحسب الرجال في عسكر الإسلام هم الذين وجب امتحانهم، فامتهانهم وتأنيبهم أو تأديبهم، بل النساء كذلك يدخلن في هذه البوتقة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 60: 8

(2). 60: 4

(3). الدر المنثور 6: 205- أخرج الطيالسي وأحمد والبزاز وأبو يعلي وابن جرير وابن المنذروابن أبي حاتم والنحاس في تاريخه والحاكم وصححه والطبراني وابن مرديه عن عبداللَّه بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبدالعزى ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب واقسط وسمن وهي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فسالته فانزل اللَّه: «لا ينهاكم اللَّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين» إلى آخر الآية، فامرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 285

\*\*\* «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَاهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ\* وَإِنْ فَاتَكُمْ شَىْ‏ءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ\* يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَايُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ\* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنْ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ». «1»

أحكام عدة بشأن المؤمنات المهاجرات، تبتدى‏ء بامتحانهن وتحرِّي أسباب هجرتهن، ألا تكون وراء حب فردي في دار الإسلام، أو تخلصاً عن زواج مكروه في دار الكفر، وإنما هجرة في اللَّه، خالصة في دين اللَّه، وتنتهي بشرط قبول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مبايعتهن، وبذلك يكمل إيمانهن.

تقول الروايات إن هذه الآيات نزلت بعد صلح الحديبية الذي جاء فيه: (على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته الينا) زعماً من المشركين أنه يشمل النساء أيضاً، «2» أو إذا شملهن يرضى الرسول صلى الله عليه و آله بردِّهن الى الكفار فيرجعن كافرات!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 60: 10- 13

(2). عن الجبائي: لم يدخل في شرط صلح الحديبية إلا رد الرجال دون النساء، ولم يجر للنساءذكر، وأن ام كلثوم بنت عتبة بن أبي معيط جاءت مسلمة مهاجرة من مكة فجاء أخواها الى المدينة وسألا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ردها عليهما، فقال صلى الله عليه و آله: إن الشرط بيننا في الرجال لا في النساء فلم يردها عليهما، وفي الدر المنثور 6: 206- أخرج ابن سعد عن ابن شهاب- مثله- وفيه: جاء أخوها يريدان أن يخرجاها ويرداها اليهم، فانزل اللَّه ...

أقول: وفي أحاديث عدة (ان اللَّه نسخ العقد بالنسبة للنساء) ولكنها تخالف جوهر الاسلام الذي يفرض رعاية العهود من لم ينقضوها، وان رد النساء المؤمنات خلاف المصالح الإسلامية جماعية وفردية، فكيف يعاهدكم الرسول صلى الله عليه و آله هكذا، ويمضيها اللَّه تعالى ثم ينقضها؟ رغم التصريح في الآية: «ذلكم حكم اللَّه ...»، إذ تلمح بانه حكم ثابت على طول الخط

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 286

فلما كان الرسول صلى الله عليه و آله- والمسلمون معه- بأسفل الحديبية، جاءته نساء مؤمنات يطلبن الانضمام إلى دار الإسلام في المدينة، فجاءت قريش تطلب ردّهن، زعم تنفيذ المعاهدة، فنزلت الآيتان تمنعان ردّ المهاجرات المؤمنات بعد الامتحان والعلم بإيمانهن كيلا يكنَّ منافقات فترجع هجرتهن بالخسار على دار الإسلام.

«فامتحنوهن»: وكيف الإمتحان؟ هل انه الإقرار بالشهادتين؟ «1» وليس امتحاناً، فإنه محنة ولا محنة في لفظة القول، وقد أقرّ بهما المنافقون، ثم النص تفرض الإيمان موضوعاً للهجرة قبل الامتحان «إذا جاءكم المؤمنات»، والشهادتان من أقل الإيمان! لحدٍّ قد لا تسميَّان إيماناً «قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا».

أو انه التحقق من واقع الشهاتين في قلوبهن؟ فهذا حق، ولكنه كيف يتحقق؟ فهل بالاشتراط عليهن: «ألا يشركن باللَّه شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف» فذلك حق كله وهي من اصول الإيمان العملي الذي يدل على تعرُّق الإيمان في قلوبهن، ولكن مجرد قبول الشرط لا يكفي شاهداً على الالتزام به وبواقعه!.

إذاً فليكن الامتحان في أمثال هذه عملياً بعد الاشتراط، ليجمع بين عمل الإيمان وعقيدة الإيمان، طالما لا يحصل منه اليقين، وإنما العلم العادي، وقد اكتفى اللَّه للمؤمنين به: «فإن علمتموهن مؤمنات» دون أن يحمّلنا العلم الحقيقي كما اللَّه يعلم:

«اللَّه أعلم بإيمانهن»:

إن حصيلة الامتحان هذا هي العلم بأنهن ما خرجن طامعات، وإنما مؤمنات،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). خلافاً لما في الدر المنثور 6: 207- أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان امتحانهن‏أن يشهدن أن لا إله إلا اللَّه وأن محمداً عبده ورسوله.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 287

فليركز الامتحان- أياً كان- على ركيزة الهجرة، امتحان الحلف: (باللَّه ما خرجت من بغض زوج، وباللَّه ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وباللَّه ما خرجت التماس دنيا، وباللَّه ما خرجت إلا حباً للَّه‏ورسوله) ثم يتمم بامتحانهن عملياً فيما هي شريطة قبول بيعتهن، فقبل البيعة بشروطها لا يمكن العلم بإيمانهن، إذاً:

«فلا ترجعوهن الى الكفار لا هن حلّ لهم ولا هم يحلُّون لهن ..»:

إن رَجع المؤمنات المهاجرات، بعد العلم بإيمانهن، إنه محرَّم عليكم وعليهن وعلى أزواجهن، عليكم لأنه قد يسبب رجوعهن الى الكفر، وعليهن كذلك، ولأنه سبيل للكافر على المؤمن، وعليهم إذ انقطعت الصلة بينهم وبينهن، والزوجية حالة اندماج فاستقرار، ولا اندماج بين الكفر والإيمان فلا استقرار، فلا الشرع يسمح بهكذا رجع، حفاظاً على صالح الإيمان، ولا الواقع يجاوبه إذ لا سكن ولا اطمئنان بين المؤمن ومَن ليس له إيمان.

وهل الكفر المانع من زواج المؤمنة هو الشرك فحسب؟ كما المشركون فقط هم شأن نزول الآية، إذ كانوا هم فقط في مكة المكرمة، أم إن الكفر هو المانع إطلاقاً، كفراً باللَّه أو كفراً بالإسلام، كما هو موضوع الحكم بالحرمة هنا «فلا ترجعوهن إلى الكفار» فلم يقل «إلى المشركين»، وهو كالصريح في موضوعية مطلق الكفر، وشأن النزول لا يخص الآية بنفسه.

وتدل عليه آية البقرة أيضاً، إذ تعلل حرمة نكاح المؤمنة للمشرك ب: «اولئك يدعون إلى النار» فعموم الكفار هنا وفعلة الدعوة الى النار في المشرك، المعممة له الى مطلق الكافر أيضاً، يثبتان عموم التحريم على الكافر مشركاً أم كتابياً، فسبيل الكافر على المؤمن، الممنوعة، ودعوته الزوجة المؤمنة الى النار، يساندان عموم التحريم على الكفار، دون المؤمن والكتابية، إذ تعكس بينهما الدعوة والسبيل، وآية المائدة تسمح بزواج الكتابية للمؤمن، دون زواج الكافر بالمؤمنة كما يأتي.

وهل ان المؤمنة المهاجرة أو غير المهاجرة، غير العريقة في الإيمان، الساقطة في‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 288

الإمتحان، هل يحل رجعها الى الكفار، أو زواجها به بدواً؟ هنا الآية لا تحرّم، وعلّه للظروف الخاصة السياسية آنذاك، التي تتطلب تخليص دار الإسلام عن عناصر غير صالحة، حفاظاً على صالح الدولة الإسلامية، إلاأن رجعها الى الكافر لا يجوز مبدئياً، بسند دليل الدعوة والسبيل، وعموم آية البقرة في تحريم المؤمنة على الكافر، إذ تشمل كافة مراتب الإيمان، كما تشمل كافة مراحل الكفر، ولا أقل من نسخ آية البقرة في عموم التحريم، آية الممتحنة في خصوصها على المؤمنات الممتحنات، ولنا إلقاء خصوصية الإمتحان وكما الإيمان للأدلة المسبقة، وأن «لا هن حلٌّ لهم ولا هم يحلون لهن» حكم مستقل عن «لا ترجعوهن إلى الكفار» ففي رجع الممتحنة حرمة مغلَّظة، وفي رجع غيرها من المؤمنات حرمة عادية، وقد تؤيده السنة. «1»

إذاً فلا تحلُّ المسلمة- وحتى المقِرَّة بالشهادتين فحسب- على الكافر، وحتى الكتابي الموحد، لا استدامة، ولا ابتداءً.

وإذ لا يحلُّ رجعهن إلى الكفار فكيف يجبر خسارهم فيما أنفقوا، فهل تذهب أزواجهم بما أخذن منهم هدراً؟ كلا! إن الإسلام أعدل من هذا ولو بالنسبة للكفار المعاهدين:

«وآتوهم ما أنفقوا»: سواء أنكحتموهن أم لا، ما أنفقوا في أصل الزواج، دون النفقات الاخرى، فقد أخذوا حقوقهم منهن مضاجعة وسواها بدل ما أعطوا من هذه النفقات، وإنما على المسلمين رجع نفقات الزواج الى الأزواج، ثم وما هو دور نكاحهن:

«ولا جناح عليكم ان تنكحوهن إذا آتيتموهن اجورهن»: لا محظور في نكاحهن شرط أن تؤتوهن اجورهن، دون أن تحاسبوا عليهم ما آتيتم أزواجهن من اجورهن، فإنه زواج ثانٍ لا يحكم عليه بحكم الأول وقد مضى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبداللَّه عليه السلام: ان لامرأتي اختاً عازمة على ديننا وليس على ديننا بالبصيرة إلا قليل، فإن زوجها لا يرى رأيها، قال عليه السلام: لا- ولا نعمة، ان اللَّه عز وجل يقول: «فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 289

إن إيمان زوجة الكافر يفصلها عنه دون طلاق، فهل تعتد عدة الطلاق، أم عدة الوفاة، أم لا عدة وإنما تريّثٌ لاستبراء رحمها، أم ولا تريّثَ إطلاقاً؟

إن آيات العُدد وفاةً وطلاقاً مختصة بهما، لا تتخطاهما الى غيرهما إلا بحجة قاطعة، وآيتنا هذه تنفي الجناح عن نكاحهن شريطة المهر دون ذكر عدة ولا تريُّث، إذاً فلا عدة هنا لعدم الحجة، اللهم إلا لاولات الأحمال منهن: «واولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن» «1» اللهم إلا أن يختص الحكم بالمطلقات، لأن الآية بما قبلها، في بيان أحكام الطلاق، ثم التريُّث أيضاً لا دليل عليه، إلا أن لحوق الولد بالفراش أقل ما يفرضه هنا هو التريث، لكي لا يختلط أمر الولد بين الزوجين، طالما لا حرمة للزوج الكافر تعتد هي لأجلها، ففي العدة حِكَم عدة، منها حرمة الزوجية وقد انتفت هنا، ومنها عدم اختلاط المياه، والحفاظ على النسب، ويكفيه التريث للتعرُّف الى كونها حاملًا أم لا.

والخبر الدال على عدة الطلاق، «2» إضافة الى أنه من الآحاد، يختص بالنصراني، فلا ينهض حجة لإثبات حكم لا يلائم القرآن، إلا أن الأحوط هنا الأخذ بأقل العُدد: عدة الطلاق.

وكما ان المرأة المؤمنة تنفصل عن الكافر دون طلاق، كذلك الكافرة تنفصل عن المؤمن دون طلاق، لانفصام العلاقة هنا وهناك:

«ولا تمسكوا بعصم الكوافر»: فلا يحل إمساك نساءكم اللاتي بقين على الكفر، والعصمة ما يُعتصم به، وهى‏ بين الزوجين علقة الزوجية الحاصلة بالعقد، ف: لا تقيموا على نكاح الكافرات وخلاطهن كأزواج، بعد ما انقطعت عصمة الإيمان وعلقته بينكم،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 65: 4

(2). فروع الكافي ج 2 ص 133 والتهذيب ج 2 ص 274 حمران عن الباقر عليه السلام في امة ول‏لنصراني أسلمت أيتزوجها المسلم؟ قال: نعم، وعدتها من النصراني إذا أسلمت عدة الحرة المطلقة ثلاثة قروء، فإذا انقضت عدتها فليتزوجها إن شاءت، ورواه الشيخ بإسناده عن الحسن ابن محبوب مثله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 290

بإيمانكم وبقائهن على الكفر.

وحرمة الإمساك بعصمة الكافرة- وقد كانت زوجة- تتخطاه إلى حرمة النكاح البادى‏ء- وأحرى- فلا تحل الكافرات للمؤمنين على أية حال، بداية واستدامة.

وهل ان الكافران هنا المشركات، كما الآيات نازلة فيهن وفي المشركين؟ أم هن والكتابيات، لأن شأن النزول لا يخص الآية بموردها، وإنما المتبع فيها عموم اللفظ:

«الكافر» لا خصوص المورد: «المشركات»؟ وجهان أشبههما ثانيهما، فلا تحل- إذاً- نكاح الكتابيات على أية حال لعموم هذه الآية.

اللهم إلا أن آية البقرة تخص الحرمة بالمشركات، فعلّها ناسخة عموم الكوافر هنا، وآية المائدة تصرح بحلّ الكتابيات، فهي ناسخة آية الكوافر، ومؤكدة ان المشركات في البقرة لا تعم الكتابيات، أو إذا عمت بما تعلِّل فهي أيضاً منسوخة بآية المائدة، فتحل الكتابيات على المؤمنين، وتبقى حرمة المؤمنات على الكافرين مشركين أم كتابين، على قوتها، في عموم آيتي الممتحنة والبقرة.

فآية الممتحنة حرمت المؤمنات على الكافرين: «فلا ترجعوهن إلى الكفار» مشركين وكتابيين، وحرمت الكافرات على المؤمنين «ولا تمسكوا بعصم الكوافر» كذلك فإن موضوع الحرمة فيها هو الكفر لا خصوص الشرك، رغم أنه مورد نزولها.

ثم آية البقرة، وإن كانت تختص الحرمة بالشرك دون مطلق الكفر: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم اولئك يدعون إلى النار واللَّه يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون». «1»

هذا- ولكن الغاية التي تزيل الحرمة: (حتى يؤمن .. حتى يؤمنوا) إنها تضم الكتابيين والكتابيات إلى جماعة الشرك، إذ لم يؤمنوا ولم يؤمن، واحتمال ان الإيمان هنا هو الخروج عن الشرك فيعم الكتابي، انه- على بُعده- تدفعه حكمة الحكم أو علته: «اولئك يدعون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 221

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 291

إلى النار» مهما اختلفت نار الدعوة بين المشركين والكتابيين، وعلّ اختصاص المشرك بالذكر بحساب أنه الأصل في الحرمة، التي لا علاج لها ولا استثناء فيها، دون الكتابي.

وأخيراً تأتي آية المائدة- وهي آخر ما نزلت، ناسخة غير منسوخة- تأتي ناسخة لعموم الحرمة في الكتابيات فقط: «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ..» «1» فصدرها يدل على سابق الحرمة: «اليوم أُحلّ لكم الطيبات وطعام الذين‏ اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات».

فإنما خرجت عن حرمة الزواج الكتابيات، على شروط فصلت في الروايات دون الكتابيين على المؤمنات، فهم باقون على قوة الحرمة بعمومها في آية الممتحنة، وبما يقرب النص في آية البقرة: «اولئك يدعون إلى النار» فسيطرة الزوج على الزوجة في مختلف في مختلف الطاقات والإمكانيات والمتطلبات تجعل لدعوته إياها تأثيراً، دون العكس، إلا بالمغريات والملهيات، فدعوة إلى النار لها زوجها المؤمن، أو ولدها، فهذا الزواج أيضاً محظور، وكما تؤيده الروايات.

وما ألطف التشريع في هذه الآيات الثلاث، ان الاولى تعم الحرمة في الكافرات، مشركات أم كتابيات، والثانية تعتبر موضوع الحرمة المشركين والمشركات، مع التلويح- لمكان الغاية والتعليل- إلى حرمة الكتابيات، والثالثة الناسخة تحلل الكتابيات، وتبقي الكتابيين في عموم التحريم، والروايات الناظرة إلى الآيات، والمفسرة لها متضاربة، بين ما يوافق هذه الآيات وما في مجراها فمقبولة «2» أو لا توافقها، أو تخالفها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 5: 5

(2). الوسائل 14 ب 2 ص 413 ج 6 علي بن الحسين المرتضى في رسالة المحكم والمتشابه‏نقلًا عن تفسير النعماني باسناده عن علي عليه السلام قال: وأما الآيات التي نصفها منسوخ ونصفها متروك بحاله وما جاء من الرخصة في العزيمة فقوله تعالى: «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن» وذلك ان المسلمين كانوا ينكحون في أهل الكتاب من اليهود والنصارى وينكحونهم حتى نزلت هذه الآية نهياً أن ينكح المسلم من المشرك أو ينكحونه ثم قال تعالى في سورة المائدة: «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم» فاطلق اللَّه مناكحتهن بعد ان كان نهى وترك قوله: «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا» على حاله لم ينسخه. أقول: وهو مقبول على تأمل في سابق حل الكتابي ذكراً وأنثى. ومما يلائم الآيات الأحاديث المعللة لمنع نكاح الكتابيات كما رواه عبداللَّه بن سنان عن أبي عبداللَّه عليه السلام في حديث قال: (وما أحسب للرجل المسلم أن يتزوج اليهودية ولا النصرانية مخافة أن يتهود ولده أو ينتصر).

وما رواه معاوية بن وهب وغيره جميعاً عن أبي عبداللَّه عليه السلام في الرجل يتزوج اليهودية والنصرانية فقال: إذا أصاب المسلمة فما يصنع باليهودية والنصرانية؟ فقالت له: يكون له فيها الهوى، قال: إن فعل فليمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، واعلم أن عليه في دينه غضاضة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 292

فمضروبة عرض الحائط «1» أو مردودة إلى أهلها.

وحكمة الحرمة أو علتها في آية البقرة «اولئك يدعون إلى النار» ليست بالتي تنسخها آية المائدة أو أي ناسخ، وإنما تنسخ أصل الحرمة كضابطة عامة، مع بقاء الحرمة في موارد الدعوة إلى النار، فلا تحل الكتابية التي تدعوه للضلالة أو أولاده، ولا تزويجها على مسلمة، فإن لزامه سبيل الكافرة عليها بالمشاركة في حقوق الزوجية، وتسوية بينهما فيها، «2» ولا أن يتزوج مسلمة على كتابية وهي لا تعم لأنه مسٌ من كرامتها، اللهم إلا برضاها، «3» فلو أمن كل ذلك جاز نكاحها على كراهية، إلا البله المستضعفة، فلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما ورد في أن آية المائدة منسوخة بآية الممتحنة، ففي الوسائل ج 14 ص 410 عن زرارة بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول اللَّه عز وجل: «والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم» فقال: هي منسوخة بقوله: «ولا تمسكوا بعصم الكوافر»، وآية المائدة خاصة وناسخة، لأن المائدة آخر ما نزلت، وإلا فكيف تنسخ بآية الممتحنة وهي من اوليات المدنيات؟

(2). المصدر ص 418- محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: لا تتزوج اليهودية والنصرانيةعلى المسلمة. عون أبي عبداللَّه عليه السلام في رجل تزوج ذمية على مسلمة قال: يفرق بينهما ويضرب ثمن حد الزاني اثنا عشر سوطاً ونصفاً، فإن رضيت المسلمة ضرب ثمن الحد ولم يفرق بينهما.

(الفرقان- 19)

(3). المصدر ص 420- أبو بصير المرادي في حديث عن أبي جعفر عليه السلام: فإن تزوج عليها (يهودية ونصرانية) حرة مسلمة ولو تعلم أن له إمرأة نصرانية ويهودية ثم دخل بها فإن لها ما أخذت من المهر، فإن شاءت أن تقيم بعد معه أقامت، وإن شاءت أن تذهب إلى أهلها ذهبت، وإذا حاضت ثلاثة حيض أو مرت لها ثلاثة أشهر حلت للأزواج، قلت: فإن طلق عليها اليهودية والنصرانية قبل أن تتفضي عدة المسلمة، له عليها سبيل أن يردها الى منزله؟ قال: نعم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 293

كراهية، «1» وإلا التي يرجى إسلامها فراجحٌ أو واجب، والضابطة العامة هي حرمة نكاح المشركين والمشركات إطلاقاً، وكذا الكتابيين، وحلّ الكتابيات كحكم ثانوي على الشروط المسبقة، وعلة الحرمة «اولئك يدعون إلى النار» تتخطى غير المسلمين إلى فساق المسلمين الذين يدعون إلى الفسق، أو لا يؤمن عليهم، ففي الحرمة هنا وهناك مراتب عدة حسب مراحل الأخطار التي يجلبها الزواج المتخلف.

وبعد إجراء هذه التفاريق بين المؤمن والكافر في الزواج يأتي دور إجراء التعويض على مقتضى العدل والمساواة:

«واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا»: فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التي فارقته لإيمانها، كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته التي ظلت كافرة أو ارتدّت، وهكذا يكون حكم اللَّه بعيداً عن الجور حتى بالنسبة للكافرين، ضامناً للعدل حتى مع الظالمين: «ذلك حكم اللَّه يحكم بينكم واللَّه عليم حكيم».

وفيما إذا لم يدفع الكافر مثل نفقة زوجة المؤمن- الفائتة- اليه، فعلى الدولة الإسلامية أن تدفع ولا سيما إذا أراد الزواج:

«وَإِنْ فَاتَكُمْ شَىْ‏ءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ». «2»

فقد تفوت زوجات المؤمنين إلى الكفار بانفلاتهن اليهم كافرات، أو أسرهن عندهم مؤمنات، ثم تحصل المعاقبة، فعلى الآخرين- ممن بأيديهم أزمة امور المسلمين- أن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر ص 414- عن زرارة قال قلت لأبي جعفر عليه السلام: إني أخشى أن لا يحل لي أن أتزوج‏ممن يكن على أمري، فقال: وما يمنعك من البله؟ قلت: وما البله؟ قال: هن المستضعفات من اللاتي لا ينصبن ولا يعرفن ما أنتم عليه‏

(2). 60: 11

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 294

يعوضوا المحرومين عما أنفقوا مثل ما أنفقوا، فما هي المعاقبة؟ وممن هي؟

إنها قد تكون معاقبة الزواج لمن فاتتهم أزواجهم، فإنها الوصول إلى عقبى الشي‏ء وهي هنا زواج بعد الاولى تعقبها، وكما عن الإمام الرضا عليه السلام: (أن يتزوج اخرى)، «1» أو معاقبتهم أزواجهم دون أن يقدروا على رجعهن، أو معاقبتهم- بسائر جنود الإسلام- الكافرَ، ولكي يحصلوا على ما أنفقوا ولم يحصلوا.

ولفظ الآية يتحملها جمعاء، والقدر المتيقن منها وجوب إنفاق ما انفق، إذا لم يحصل عليه من الكفار، وأراد معاقبة الزواج، سواء غنمَ المسلمون منهم شيئاً أم لم يغنموا، والمتيقن من عدمه أو عدم جوازه من بيت المال، ما إذا حصل على ما أنفق ولم يرد الزواج، وأما إذا لم يرد الزواج ولم يحصل على حقه ففيه تردد، وإطلاق المعاقبة يشمله فيؤتى من بيت المال.

ثم الخطاب الأول «فاتكم» للأزواج، والثاني «فعاقبتم» يعمّهم وغيرهم حسب المحتملات، والثالث «فآتوا» يخص غيرهم، فان الإنسان لا يؤتي نفسه ولا يعوض عن نفسه، ومزج الخطاب هنا وهناك يوحي بأن المسلمين إخوة لا يفرق بينهم أي فارق.

ثم يأتي مرة ثانية مكملة للاولى، دور المؤمنات في تفاصيل البيعة وموادها الأساسية:

«يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك»: «2» مهاجرات وغير مهاجرات، مجيئاً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وفي علل الشرائع بإسناده عن يونس عن اصحابه عن ابي جعفر وأبي عبداللَّه عليه السلام قال قلت: رجل لحقت امرأته بالكفار وقد قال اللَّه عز وجل في كتابه: «وإن فاتكم شي‏ء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا» ما معنى العقوبة ههنا؟ قال: إن الذي ذهبت امرأته فعاقب على امرأة اخرى غيرها يعني تزوجها، فإذا هو تزوج امرأة اخرى غيرها فعلى الامام ان يعطيه مهر امرأته الذاهبة، فسألته: فكيف صار المؤمنون يردون على زوجها المهر بغير فعل منهم في ذهابها؟ وعلى المؤمنين ان يردوا على زوجها ما انفق عليها مما يصيب المؤمنين؟ قال: يرد الامام عليه أصابوا من الكفار أم لم يصيبوا، لأن على الامام ان يجبر حاجته من تحت يده وإن حضرت القسمة فله ان يسد كل نائبة تنوبه قبل القسمة وإن بقي بعد ذلك شي‏ء قسمه بينهم وإن لم يبق لهم شي‏ء فلا شي‏ء لهم‏

(2). الدر المنثور 6: 211- أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أمرعمر بن الخطاب فقال: قل لهن ان رسول اللَّه يبايعكن على أن لا تشركن باللَّه شيئاً، وكانت هند متنكرة في النساء، فقال عمر: قل لهن ولا يسرقن، قالت هند: واللَّه إني لاصيب من مال ابي سفيان الهنة، فقال: ولا يزنين، فقالت: وهل تزني الحرة؟ (في نقل آخر: فتبسم عمر بن الخطاب لما جرى بينه وبينها في الجاهلية) فقال: ولا يقتلن أولادهن، قالت هند: أنت قتلتهم يوم بدر، قال: ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأجلهن ...

وأخرج عبدالرزاق في المصنف وأحمد وابن مردويه عن انس قال: أخذ النبي صلى الله عليه و آله على النساء حين بايعهن ان لا ينحن، فقلن يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ان نساء أسعدتنا في الجاهلية أفنسعدهن في الاسلام؟ فقال النبي صلى الله عليه و آله: لا إسعاد في الاسلام ولا شطار ولا عقر في الاسلام ولا خبب ولا جنب، ومن انتهب فليس منا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 295

إليك لغاية المبايعة الإيمانية، المسرودة اليهن موادها الأصيلة مسبقاً:

«على أن لا يشركن باللَّه»: كحلقة اولى من مقومات الحياة الجديدة، وهي كلها هنا سلبية توحي بأن لترك المنكرات عقائدية وعملية سبقاً على فعل واجباتهما، فتلك تزكية وهذه تحلية، والاولى هي أساس للثانية.

«ولا يسرقن» الأموال والنفوس والأعراض، من أزواجهن وسواهم.

«ولا يقتلن أولادهن» كما كان من دأب الجاهلية وأد البنات مخافة العار أو خشية إملاق أم ماذا؟

«ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن»: من حمل عن زنا يحمّلنه أزواجهن زوراً وافتراءً، فقد كانت المرأة في الجاهلية تبيح نفسها لعدة رجال شهوة وتجارة، فإذا حملت ألحقته بمن تهواه وهي تعلَم من أبوه، وعلّ بهتان «بين أرجلهن» يختص بإزالة البكارة إذا كانت بغير زوجها، ثم هي تفتريها على زوجها.

«ولا يعصينك في معروف»: ف «ك» هنا تصريح وتلميح، تصريح للرسول خاصة، ف «في معروف» قيد توضيحي، فان كل أوامره معروفة، فلا يتقيد أمره بشي‏ء لأنه يصدر عن اللَّه، وكما للَّه‏طاعة مطلقة دون شرط، اصالة، كذلك للرسول طاعة مطلقة ولأولي الأمر المعصومين عليهم السلام الصادرين عنه دون قصور أو تقصير، رسالة عنه.

ثم وتلميح الخطاب يعمّ غير اللَّه والرسول وأُولي الأمر، الذين يحكمون بين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 296

المسلمين، فلا تجب طاعتهم إلا «في معروف»، وهذا الشرط هو أحد القواعد الأساسية في نظام الإسلام: ان لا طاعة عمياء لأحد على المسلمين إلا في العروف الذي تقرره شريعة اللَّه، إلا في اللَّه ورسوله وآله، فطاعتهم مطلقة إذ لا خطأ ولا جهل ولا جور فيها إطلاقاً.

وإنما نسب العصيان الى الرسول «لا يعصينك» دون اللَّه «لا يعصون اللَّه» وإن كانت طاعة الرسول هي طاعة اللَّه «ومن يطع الرسول فقد أطاع اللَّه»، لأن طاعة الرسول تعني ما سنّه، كما أن طاعة اللَّه تعني ما فرضه في كتابه، فللرسول أوامر بالولاء بما خوّله اللَّه‏ «لتحكم بين الناس بما أراك اللَّه» «1» فلا يُطلب الرسول صلى الله عليه و آله فيما يأمر أو ينهى كولي الأمر، بحجة من كتاب اللَّه، لأن سنته حجة بعد كتاب اللَّه، والكل راجع إلى اللَّه مهما اختلفت كيفية الصدور عن اللَّه. «2»

ومن ثم، إذا أكملن هذه الشروط: «فبايعهن» كما تناسبك، (وقد قالت ام حكيم، يا رسول اللَّه! كيف نبايعك؟ قال: إنني لا اصافح النساء، فدعا بقدح من ماء فأدخل يده ثم أخرجها فقال: أدخلن أيديكن في هذا الماء). «3»

بايعهن حتى يستقبلن حياةً جديدة طاهرة زاهرة، وأما بالنسبة لما مضى:

«واستغفر لهن اللَّه إن اللَّه غفور رحيم»: فلاستغفار الرسول صلى الله عليه و آله- حيث يُشفع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 105

(2). لذلك ذكرت في الأحاديث من المعروف هنا ما لا يعرف من كتاب اللَّه، فقد سألت ام حكيم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ما ذاك المعروف الذي أمرنا اللَّه أن لا نعصيك فيه؟ قال: لا تلطمن خداً ولا تخمشن وجهاً ولا تنتفن شعراً ولا تشققن جيباً ولا تسودن ثوباً ولا تدعين بويل ... فبايعن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على هذا.

وفي بعضها أضيف البعض من أوامر اللَّه ليدل على شمول «ولا يعصينك» لما أمر اللَّه به، كما رواه عبداللَّه بن سنان قال: سألت أبا عبداللَّه عليه السلام عن قول اللَّه «ولا يعصينك في معروف» قال: هو ما فرض اللَّه عليهن من الصلاة والزكاة وما أمرهن به من خير

(3). في الكافي بإسناده عن ابان عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال: لما فتح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مكة بايع الرجال ثم جاءت النساء يبايعنه، فأنزل اللَّه عز وجل: «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ...»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 297

باستغفار المذنبين- أثر عظيم في الغفران، شفعاً عزيزاً لا يردّه اللَّه: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا اللَّه واستغفر لهم الرسول لوجدوا اللَّه توّاباً رحيماً». «1»

وهنا السورة تنتهي بما بدأت به من النهي الشديد عن تولي المغضوب عليهم:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنْ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ». «2»

علَّ القوم المغضوب عليهم هنا هم اليهود وكما في آيات عدة، وقد يشهد له تنظيرهم في يأسهم من الآخرة بيأس الكفار من أصحاب القبور، وهم المشركون الناكرون للآخرة، ولقد حرّم توليهم على المسلمين لأنهم تماشوا المشركين في نكران يوم الدين، أو عدم المبالاة به: «قد يئسوا من الآخرة»: من ثوابها بما قدمت أيديهم: «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند اللَّه خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم واللَّه عليم بالظالمين. ولتجدنَّهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يودُّ أحدهم لو يعّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر واللَّه بصير بما يعملون». «3»

فهذا يأس بحساب عدم الثواب، ولهم يأس آخر بنكران الحساب، وهو أشبه بيأس الكفار من أصحاب القبور، إذ يئسوا من حياتهم ومن حسابهم بعد موتهم، فكما يئس المشركون الناكرون لحياة الحساب من أصحاب القبور كذلك اليهود يئسوا من الآخرة، رغم أن المعاد من اصول دينهم.

وقاية جماعية مفروضة هي سياسة جماعية

وكما لا يجدي نساءَ النبي صلى الله عليه و آله كونهن نساءَه إلا أن يكنَّ قانتات عبادات صابرات مجاهدات، كذلك المؤمن لا يكفيه إيمانه ما لم يَقِه وأهليه ناراً:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 64

(2). 60: 13

(3). 2: 96

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 298

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَايَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ». «1»

إن وقاية الإيمان لا تكفي كعقيدة، إلا بانضمام وقاية عمل الإيمان، لا للمؤمن نفسه فحسب، وإن وجب كمبدء: «قوا أنفسكم» فللأهلين أيضاً «أهليكم» لأنه مكفل بهم كما بنفسه، وإن كان الأهلون أيضاً يؤمرون بوقاية أنفسهم، فإنهم مكلفون، إلا أن نقصهم وقصورهم في تكفلهم أنفسهم هنا يُجبر بوقاية وقيادة حكيمة ممن يأهلهم ويرعاهم ف (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته).

والوقاية هنا تشمل المعرفية العقائدية والعملية «2» للأنفس والأهلين، أن (تأمروهم بما يحبه اللَّه وتنهوهم عما يكره اللَّه)، «3» فأبواب الجهاد والدفاع والموعظة والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي كلها تعني الوقاية الجماعية، وكما الأمة مأمورة بالوقايات الفردية، سواء.

ثم الأهلون لا تختص بالزوجة والأولاد للزوج والوالدين، إنه يشمل كل مقود لقائده، وكل مسوس لسائسه، من الجو العائلي، الى الأقربين، الى العائلة أجمع، وإلى الزعامة الدينية والزمنية سواء.

«قوا ... ناراً وقودها الناس والحجارة»، فالوقود هو الزناد والصِلاء، والناس الوَقود لهذه النار الزناد هم اصول الكفر من النسناس‏ «إن الذين كفروا ... اولئك هم وقود النار» «4» «فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدَّت للكافرين» «5» كما ويوحي بذلك قرن الحجارة بالنار، وهي الأحجار التي يعبدونها: «إنكم وما تعبدون من دون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 66: 6

(2). الدر المنثور 6: 244- عن علي عليه السلام في الآية، قال: علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم‏

(3). أخرجه في الدر المنثور 6: 244- عن زيد بن أسلم قال: تلا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هذه الآية فقالوا: كيف نقي أهلنا ناراً؟ قال: ... وفي الكافي مثله عن الامام الصادق عليه السلام مع زيادة: لما نزلت هذه الآية جلس رجل من المؤمنين يبكي ويقول: أنا عجزت عن نفسي وكلفت أهلي! فقال صلى الله عليه و آله: حسبك أن تأمرهم بما تأمر به نفسك وتنهاهم عما تنهى عنه نفسك‏

(4). 3: 10

(5). 2: 24

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 299

اللَّه حَصَب جهنم أنتم لها واردون» «1» حجارة معبودة وأُخرى غيرها يعرِّفها الرسول صلى الله عليه و آله. «2»

وأما الناس المؤمنون المقصرون عقيدة او عملًا، فهم إنما تمسُّهم نار هؤلاء الكفار على قدر تخلفهم، ثم تشملهم رحمة الغفار ويخرجون أخيراً من النار.

«عليها ملائكة غلاظ شداد» غلاظ على الكفار، شداد في تعذيبهم بالنار، يخففون عنهم ولا يرحمون؛ لأنهم هكذا يؤمرون، عذاباً فوق عذاب:

«لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون» فهم غلاظ شداد في تنفيذ أوامر اللَّه هناك بحق المجرمين، دون مسايرة ولا مهادنة.

فيا لها من نار متسعِّرة اللَّه، الناس فيها كالحجارة سواء الكمية والكيفية وما معهما من نعم خاصة منقطعة النظير بين العالمين، و «العالمين» هنا هو عالمي زمن القيادتين الإسرائيليتين منذ آدم عليه السلام، حيث القيادة المحمدية صلى الله عليه و آله هي أعظم القيادات على الإطلاق فيها كل الحقول والحلقات.

فمن ملوك بني إسرائيل روحياً رسالياً وزمنياً يوسف وداود وسليمان عليهم السلام، ومنهم زمنياً طالوت، ومنهم روحياً سائر رسلهم مهما كانت لهم سلطات زمنية جزئية.

ف «جعل فيكم أنبياء» جعلٌ خاص للنبوات الإسرائيلية مهما شملت قيادات زمنية، و «جعلكم ملوكاً» تعم كافة السلطات الإسرائيلية بدرجاتها ومختلف ظروفها، فكل شخص يملك نفسه ولا يُملك هو مَلِكٌ، وإذا ملك غيره فهو أملك حتى يملك طليق الملك على كافة الناس أم ومَن سواهم.

فقد تعني «ملوكاً» هنا جمع المَلِك والمالك، أم إن المَلِك أعم من المالك مهما اشتهر في المُلك الخاص.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 21: 98

(2). في الدر المنثور 6: 244 عنه صلى الله عليه و آله ان الحجر منها لو وضع على جبال الدنيا لذابت منه، وان مع كل إنسان منهم حجراً أو شيطاناً، واللَّه أعلم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 300

وهنا «جعلكم ملوكاً» دون «جعل فيكم» دليل شمول المُلك للمرسوم المعروف وغيره، وحيث أخرجهم اللَّه من أسر السلطة الفرعونية فملكوا أنفسهم بعد ما كانوا مملكوكين لا دور لهم ولا كور، وأصل الملوكية هو الحرية الشخصية، ومن ثم أن يملك الحر ما سواه ومن سواه، روحياً أو زمنياً أم كليهما.

إذاً فقد تعم «جعلكم ملوكاً» مثلث المُلك، شخصياً أم جماعياً، روحياً أو زمنياً. «1»

ذلك، وقد تسمي القيادة الروحية ملوكية كما «فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً» ثم «جعل فيكم أنبياء» تشمل ملوكهم الخصوص كيوسف وسليمان، فهي قرينة قاطعة على أن ليس المعني من «جعلكم ملوكاً» الملوكية المرسومة الزمنية، فكيف يصح خطابهم ككلٍّ ب «جعلكم ملوكاً» والملوك الرسميون فيهم منذ يعقوب إلى المسيح عليهم السلام لم يكونوا إلّا نذراً قليلًا والأنبياء كثير، فلو عني الملوك الرسميون لكان حق التعبير «وملوكاً» عطفاً على «وجعل فيكم أنبياء»، دون «جعلكم ملوكاً» الشاملة لهم كلهم!.

هذا، فأنعم النعم الروحية لهم تبدل السلطة الخانقة الفرعونية عليهم بالسلطة الرسالية، وتبدلهم عن تلك العبودية والرقية الذليلة بأن ملكوا أنفسهم، حيث السلطة العادلة لا تستعبد الشعوب وتستخدمهم بل هي المستخدَمة لهم وتجعلهم أحراراً في مسير الصلاح ومصير الإصلاح، فالشعب الفاقد للحرية الصالحة تحت القيادة الصالحة هو أفقر شعب وأقفره، والذي يملك الأمرين هو أغنى شعب وأعمره وأبهره، ومالك أحدهما هو عوان بينهما، والمحور الأصيل بين هذه الأمرين هو الحرية الصالحة والقيادة المصلحة حيث تصلح لصالح هذه الحرية.

ذلك، وقد ينعم المكلفون كافة بأرقى النعم المحلقة على كافة حيوياتهم زمن صاحب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 269 عن النبي صلى الله عليه و آله قال: كانت بنو إسرائل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وإمرأة كتب مَلِكاً، وفيه عن زيد بن أسلم قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: من كان له بيت وخادم فهو ملك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 301

الأمر عجل اللَّه تعالى فرجه وسهل مخرجه.

أجل «وجعلكم ملوكاً» بعد أن «اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب، وجرّعوهم المُرار، فلم تبرح الحال بهم في ذلك الهلكة وقهر الغلبة». «1»

بنو إسرائيل هنا يذكرون ببارع النعم الربانية عليهم حتى يلينوا لأمر اللَّه دخولًا في الأرض المقدسة التي لهم فيها سيادة أخرى رجوعاً إلى عاصمة الرسالة الإسرائيلية.

وقد يحلق هذان الجعلان منذ يعقوب حتى الزمن الأخير من الرسالة الإسرائيلية، أم يخصان منذ يعقوب حتى موسى عليهما السلام فأضيق دائرة بكثير.

إن السلطة الروحية والسلطة الزمنية والحرية الشخصية والجماعية هي من النعم الناعمة التي اختص بها بنو إسرائيل بين العالمين، أن جعل من اللّا شي‏ء لهم كل شي‏ء، ومن كل ذل وهو ان تحت نير الذل الفرعوني «إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ..»!.

إذاً فأحرى بهم أن يطيعوا أمر اللَّه فيما يرجع إلى عودهم إلى عاصمة الرسالة الإسرائيلية: الأرض المقدسة التي كتب اللَّه لهم، ولكن إسرائيل هي إسرائيل، المجبولة على جبلة الجبن والتمحُّل والأريحية والنكوص على الأعقاب والإرتداد على الأدبار وإساءة الأدب مع الرسل ومع اللَّه تعالى!.

«يقوم ادخلوا الأرض المقدَّسة التي كتب اللَّه لكم ولا ترتدُّوا على أدباركم فتنقلبوا خسرين». «2»

«الأرض المقدسة» ما جاءت في القرآن إلّا هذه المرة بنفس الصيغة، وهي القدس المبارك، ولا نعرف من قدسيتها وبركتها إلا ما عرفنا اللَّه‏ «إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله» «3»- «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها» «4» والبركة العظمى هي الروحية المتمثلة في الأنبياء الذين بعثوا فيها ودفنوا، إذاً فهي المباركة بقدسية العاصة الرسالية ومنطلقها إلى ما حولها من القرى،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة الخطبة 90/ 3/ 369

(2). 5: 21

(3). 17: 1

(4). 7: 137

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 302

وكما في مكة المكرمة- وهي أعلى من القدس- «لتنذر أم القرى ومن حولها».

تلك «الأرض المقدسة التي كتب اللَّه لكم» أنتم، وهي محتلة بأيدي الوثنيين، وهذه الكتابة كتابة تشريعية وأخرى تكوينية شرطَ المحاولة المستطاعة، لا تكوينية طليقة وإلا لما احتلت رغم كتابة اللَّه ف «ادخلوا .. ولا ترتدوا على أدباركم» خوفة من المحتلين «فتنقلبوا خاسرين» حاسرين عن إيمانكم تشككاً في أمر اللَّه وإرتداداً عنه، أو وعن بغيتكم المكتوبة لكم، وكما انقلبوا تائهين في التيه أربعين سنة والآية تحتمل المعنيين، والإرتداد على الأدبار منه- وهو أهمه- الارتداد عن الدين شكاً بعد اليقين، فتكونوا كالمقهقر الراجع والمتقاعس الناكص.

فكتابة دخول الأرض المقدسة تكوينياً هي مشروطة بتحقيق الكتابة الشرعية، فلما تخلفوا عن دخولها كما أمروا تخلف عنهم الدخول وهذا هو المعني من البداء في دخولهم‏ «1» هؤلاء ثم القضاء لدخول أبناءهم وذراريهم فإنه من المكتوب‏ «2» كما «ونريد أن‏ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونمكن لهم في الأرض» «3» وقد عرَّفهم موسى من شرط تحقيق هذه الإراءَة الربانية: «قال موسى‏ لقومه استعينوا باللَّه واصبروا إن الأرض للَّه‏يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين. قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعلمون» «4»- «وأورثنا القوم الذين كانوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 606 عن تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن ابي عبداللَّه انه سئل عن‏قول اللَّه «ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب اللَّه لكم» قال: «كتبها لهم ثم محاها ثم كتبها لأبناءهم فدخلوها يمحو اللَّه ما يشاء وعنده أم الكتاب» أقول: الكتابة الممحوة هي مجموعة التشريعية والتكوينية إذ لم يقوموا بشرائطها ثم أثبتها للقائمين بشروطها، والكتابة هي للأمة الإسرائيلية ولم يكن التحريم إلا لردح من الزمن ثم أحلت، سواء للذين بقوا من المخاطبين أولًا أم غيرهم‏

(2). في سفر تكوين المخلوقات للتورات 12: 7- أنه لما مر إبراهيم بأرض الكنعانيين ظهر له الرب «وقال لنسلك أعطى هذه الأرض»

(3). 28: 6

(4). 7: 129

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 303

يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا» «1» والكلمة الحسنى هي: «.. أدخلوا الأرض المقدسة التي كتب‏ اللَّه لكم ..» تحقيقياً حقيقاً لذلك الدخول بشرطه الصالح الفالح.

ثم وهذه الوراثة والكتابة لهم بعد شرط اللَّه فيهما شرطُ بقاء شرعة اللَّه هذه التوراتية فليست لهم بعد نسخها كما نسخت بالقرآن واللَّه وعد أهل القرآن بدخول القدس مرتين عند إفساديهم العالميين، بعد المرة الأولى بداية الإسلام، فهم- إذاً- لا يملكون الأرض المقدسة على مدار الزمن إلا في ردح الرسالة الإسرائيلية، وشرط شروط مسرودة.

«قالوا يموسى‏ إنَّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن نَّدخُلها حتَّى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون». «2»

نراهم هنا يخافون من جبارين ظالمين في الأرض المقدسة ولا يخافون من التخلُّف عن أمر الجبار العدل الحكيم، بل ويُحيلون طاعتهم له: «وإنا لن ندخلها» اللَّهم إلا إذا خرج منها جبارون دون محاربة، وهذه الأريحية الحمقاء كانت منهم غباءً وبلاءً فأدخلتم في التيه أربعين عاماً.

ذلك، وقد فسر لهم رجلان من الذين أنعم اللَّه عليهما أمر الدخول الإمر في حسبانهم:

«قال رجلان من الّذين يخافون أنعم اللَّه عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غلبون وعلى اللَّه فتوكَّلوا إن كنتم مُّؤمنين». «3»

هنا «يخافون» تحتمل إلى خوفهم من اللَّه خوفَهم من جبارين فيها قضيةَ حذف المتعلَّق فلو كان- فقط- اللَّه لذكر، أم الجبارين لذكروا، ثم سابق ذكر جبارين يدخلهم في نطاق خوفهم، ولاحق ذكر «أنعم اللَّه» يضيف إلى خوفهم خوف اللَّه، فقد امتاز هذان الرجلان من الذين يخافون الجبارين أن كانوا يخافون اللَّه ويرجون ألَّا يخافوا إلّا اللَّه، فأنعم اللَّه عليهما من بينهم أن حصرا خوفهما باللَّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 7: 137

(2). 5: 22

(3). 5: 23

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 304

فجعلهما لا يخافان مع اللَّه أحداً، ف «من خاف اللَّه أخاف اللَّه منه كل شي‏ء ومن لم يخف اللَّه أخافه اللَّه من كل شي‏ء» وقد يعني «يخافون» الخوف من العمالقة الجبارين ولكنهما يمتازان عمن سواهم أن «أنعم اللَّه عليهما» بخوف من اللَّه يتغلب على خوفهما، أم أصبحا لا يخافان هؤلاء، فإنما يخافان اللَّه.

وقد يصحُّ عدُّهما من النقباء الإثني عشر من بني إسرائيل السابق ذكرهم، فإذاً قد تعني «من الذين يخافون» هؤلاء النقباء الخائفين اللَّه دون سواه، «أنعم اللَّه عليهما» من بينهم بنعمة خاصة، أو أنعم اللَّه عليهما معهم حيث الكل «يخافون» اللَّه لا سواه.

ذلك، و «أنعم اللَّه عليهما» صفة لها بعد صفة، فهما رغم أنهما «من الذين يخافون» قد «أنعم اللَّه عليهما» فقلّ خوفهم عن الجبارين أم زال، ولم يكونوا من القائلين الغائلين «إنا لن ندخلها ..» بل هما من الذين يخافون ككل، ولكنه خوف تغلبت عليه نعمة اللَّه.

وهنا أقل محتد روحي للرجلين أنهما من الصالحين الكُمَّل، وقد يحتمل كونهم من الشهدا أو الصديقين‏ «1» أو النبيين حيث هم من المنعم عليهم: «ومن يطع اللَّه والرسول‏ فأولئك مع الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً». «2»

ولكن «رجلان» و «من الذين يخافون» قد تبعدانهم عن منصب النبوة، ثم ولا نعرف نبيّاً مع موسى غير هارون، فهما على أية حال كانا في قمة من قمم الإيمان والتكلان على اللَّه في مثل ذلك الموقف الحَرِج المَرِج، بذلك الأمر الرشيد الجري‏ء الإمر: «أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون»: إذا دخلتم باب البلدة المقدسة إنهزموا فلا يبقى منهم نافخ نار ولا ساكن دار.

وذلك درس يحلِّق على كافة الأمثال لهذه الهجمة المؤمنة المتوكلة بأمر اللَّه، فصاحب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مما قد يصدق أنهما كانا من الصديقين من خلفاء موسى عليه السلام ما في نور الثقلين 1: 606 عن‏تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهما السلام «قال رجلان» أحدهما يوشع بن نون ووكلا بن ياخثا (كالب بن يافنا) وهما ابن عمد

(2). 4: 69

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 305

الحق وقد احتُل مركزه واللَّه يأمره أن يأخذ حقه، إنه بطبيعة الحال يتأكد نجاحه في مثل هذه الهجمة القوية، فلو أنهم لا ينجحون لاستحال على اللَّه أمرهم بالدخول في الأرض المقدسة وقد كتبها اللَّه لهم: ضابطة ثابتة في علم القلوب وتكتيك الحروب: أقدِموا واقتحموا، فمتى دخلتم على القوم في عقر دورهم انكسرت قلوبهم وضعفت معنوياتهم قدر ما تقوى قلوبكم وتعلو معنوياتكم، فهم يشعرون بهزيمة عظيمة تفشل بها طاقاتهم مهما كانوا جبارين «وعلى اللَّه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين».

ذلك ولمجرد الهجمة المفاجئة وإن كانت بدائية ظالمة، لها دورها في الغلبة، فضلًا عما هي دفاعية لإسترجاع حق مغتصب ومن مؤمنين باللَّه وهي بأمر اللَّه.

وإذا كانت الحروب النارية هكذا قضية انحلال الشخصية والتصميم من المهاجمين، فماذا ترى الحروب الباردة في حقول الحجاج اللجاج، فلا ريبة في تغلُّب صاحب الحق على صاحب الباطل، ولا سيما حين يقدم المبطل في عرض دعواه فيهاجمه المحق في أسود نقطة من نُقَط، فيتهدر المبطل عن بكرة أبيه.

ففرق بين أن يأمر اللَّه بالدفاع أو الجهاد دون ضمان للغلبة حيث الحرب سبحال، وبين أن يأمر بالدخول في الأرض المقدسة المحتلة وقد كتبها اللَّه لهم.

ففي مثلث «كتب اللَّه .. ادخلوا .. وعلى اللَّه فتوكلوا» يكون النجاح مضموناً دون ريب، فلا يكفي الدخول إلّا بأمر اللَّه وكتابة النجاح فيه، ثم لا تكفي الكتابة والدخول إلّا بالتوكل على اللَّه، فقد «جعل التوكل مفتاح الإيمان والإيمان قفل التوكل، وحقيقة التوكل الإيثار وأصل الإيثار تقديم الشي بحقه، ولا ينفك المتوكل في توكله من إثبات أحد الإيثارين فإن آثر معلول التوكل وهو الكون حجب به، وإن آثر علة التوكل وهو الباري سبحانه بقي معه». «1»

«قالوا يموسى إنَّا لن نَّدخلها أبداً مَّا داموا فيها فاذهب أنت وربُّك فقتلا إنَّا ههُنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام في كلام طويل وقال عز وجل «وعلى اللَّه فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» جعل ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 306

قعدون». «1»

وذلك أسوء تعبير عن القدير اللطيف الخبير أن «فاذهب أنت وربك» كأنه- فقط- ربه لا وربهم، ثم وهو بحاجة إلى مناصرة في مقاتلة الجبارين، مما يدل صارخة أنهم لمّا يؤمنوا باللَّه وحتى قدر إيمان المشركين به، المعترفين بأنه رب السماوات والأرض وله المُلكُ! ولأنهم كانوا من المشبهة المجسمة كما هو صريح آيات اختلقوها في التورات ك «إن إسرائيل صارع اللَّه فصرعه فأخذ بركة النبوة لنفسه عوضاً عن العيص ثم خلّص اللَّه بهذه المعاوضة» أو «إن اللَّه كان يمشي في الجنة قائلًا: يا آدم يا حوا أين أنتما لا أراكما» أمَّا ذا من تجسيم جسيم حسيم لساحة الربوبية المقدسة!.

ويا له من تخاذل أمام الجبارين عن نصر الحق وتوهين الباطل، وتجاهل أمام اللَّه، فدخولًا في التيه.

وهكذا يكون دور المتخاذلين هوداً أو نصارى أو مسلمين دون إختصاص بطائفة دون أخرى وكما خاطب علي أمير المؤمنين عليه السلام أضراب هؤلاء اليهود قائلًا:

«أيها الناس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقوَ من قوي عليكم لكنكم تهتم متاه بني إسرائيل ولعمري ليضعفن لكم التيه من بعدي أضعافاً خلفتم الحق وراء ظهوركم وقطعتم الأدنى ووصلتم الأبعد». «2»

فنفس الهجوم على العدو ولا سيما بطمأنية الإيمان وأمر اللَّه وضمانه للغلبة، ذلك مظهر من مظاهر القوة القاهرة للداخل الهاجم، فيَهابُه المهاجَم عليه مهما كان أقوى منه، فإنه يزدادك قوة وينقصه عن قوته، فالضربة الأولى هي القاضية على المضروب، سادَّة عليه كل الدروب للفرار عن النكسة، أو القرار للتغلب.

وهكذا يكون دور الحجاج أن الغلبة الأولى قاضية وإن لم تكن حقة فضلًا عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 5: 24

(2). نور الثقلين 1: 609 عن نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي عنه عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 307

الحاقة.

فعلى الُمحاور المحق أن يقدم في حواره أقسى الضربات حتى يربح أقصاها، ومن تكتيكات الحوار الناجحة أن تصغي إلى محاورك فتعرف كل ما عنده من حجة، ثم تبتدر في الإجابة عنه أضعف نقطه فتركز عليها بضربة قاسية قاضية، وبذلك تنجح على مدار الحوار.

فشكلية الحوار هي قد تكون أهم من مادتها، والجمع بينهما كأحسنهما وأقواهما أجمع وأقوى في النضال، وكما تعرَّفنا إلى كل صنوف الجدال على أضواء القرآن في سرده محاورات اللَّه وأنبياءه.

ذلك الجهل الكافر والتخلف العاهر من بني إسرائيل ونحن نقول يا رسول الهدى محمد صلى الله عليه و آله: لا نقول كما قالت بنو إسرائيل .. «والذي بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك». «1»

وهكذا يحرج الجبناء فيتوقحون ويفزعون من الخطر أمامهم فيرفسون بأرجلهم كالحمر المستنفرة فرت من قسورة، بل يريد كل امري‏ء منهم أن يخدمه اللَّه ورسوله وهم في أريحيتهم عائشون.

وهذه هي نهاية المطاف بموسى في رسالته المليئة بالعقاب والعقوبات والنكرانات وإحتمال كل الرذالات والإنحرافات والإلتواآت من بني إسرائيل، نكوصا عن الأرض المقدسة، وإرتداداً إلى أدبار الجاهلية والوخزة الفرعونية، فماذا يصنع- إذاً- بهؤلاء وقد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 271- أخرج أحمد والنسائي وابن حبان عن انس أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لما سار إلى بدر استشار المسلمين فأشار عليه عمر ثم استشارهم فقالت الأنصار يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قالوا «لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، والذي بعثك بالحق لو ضرب أكبادها ...».

وفيه عن ابن مسعود قال لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به آتى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو يدعو على المشركين قال واللَّه يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل ... ولكن نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يشرق لذلك وسَر بذلك‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 308

وصل النكران إلى ذلك الحد القاحل الجاهل؟.

ماذا؟ إلّا أن يلتجي‏ء إلى ربه داعياً ملتمساً أن يفرق بينه وبينهم وقد فعل:

«قال ربِّ إنّي لا أملك إلَّا نفسي وأَخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين». «1»

دعوة مليئة بالآلام والأسقام مع الإستسلام، دعوة الفراق بينه وبين هؤلاء اللئام، فإلى مَن يشكو حاله إلّا إلى اللَّه الملك العَلّام، يشكو بثه وحزنه ونجواه إلى اللَّه حيث يعلم من اللَّه ما لا يعلمون، انه لا تربط بهم بعد ذلك النكول الكافر أية رابطة صالحة، لا نسب ولا تاريخ ولا جهد سابق، فإنما الرباط فيما بين كان الدعوة إلى اللَّه وقد فشلت وشلَّت، متقطعاً عنهم من كل وشائج الأرض حين تنقطع العقيدة الصالحة، فما هي الجدوى- إذاً- في كونه معهم ولم يعمل فيهم طائل الزمن الرسالي إلَّا بُعداً، اللّهم إلَّا قلة قليلة منهم.

وترى ماذا عنى موسى عليه السلام من «لا أملك إلَّا نفسي وأخي»؟ وهناك معه رجلان من الذين يخافون أنعم اللَّه عليهما، ومعهما سائر النقباء وسواهم من الذين يخافون، وقد أدوا رسالة موسى في هذه الحالة المحرجة؟.

فهل نتوسع في «أخي» أنها جنس الأخ، شاملة لإخوته في الإيمان إلى أخيه هارون في النسب والرسالة؟ وصالح التعبير عن هذه الجمعية «إخوتي»!.

أم «لا أملك» في نفاذ الدعوة الرسالية على ضوء الولاية المطلقة الشرعية إلّا نفسي وإلا أخي؟ فكذلك الأمر! حيث نفذت في الذين يخافون وأنعم اللَّه عليهم: «ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون» «2» وذلك في زمن موسى عليه السلام حيث يتلوها:

«وأوحينا إلى موسى ..».

أم «لا أملك» أنا «إلَّا نفسي» في تطبيق أمرك «و» لا يملك كذلك «أخي»؟ فكذلك الأمر! إضافة إلى أن صالح التعبير- إذاً- «إني وأخي لا نملك إلّا أنفسنا»! مع أنهما مُلكا أمر الولاية الشرعية وقد أثرت فيمن أثرت.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 5: 25

(2). 7: 159

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 309

«إني لا أملك إلَّا نفسي وأخي» قد تعني ملك تطبيق الرسالة في هؤلاء الفاسقين، فله ملك الرسالة الأصلية ولأخيه ملك الرسالة الفرعية- وهو الولاية المطلقة الشرعية الرسولية- تحت مُلكته الرسالية، ثم «لا أملك» هنا نسبية أمام هؤلاء الفاسقين، وأما ملك هذه الرسالة بالنسبة للمؤمنين القلة معه فهو أمر واقع لا مردَّ له كما في نص الآية «رجلان من الذين يخافون ..» فقد يعني بقوله إني وأخي، نفضنا أيدينا عن بلاغ الرسالة كما أمرنا، وهنا «لا أملك» مضارعة تعني حاله ومستقبله دون ماضيه حيث أثرت دعوته مهما كانت في قلة قليلة، فلأن الرسالة لا تعني بدورها إلّا تحقيقها وقد تحققت في هؤلاء القلة، ثم تجمدت أمام هؤلاء الكثرة الفاسقة فلا طائل- إذاً- تحت تبقية الرسول وقد نفض يديه عن الوحي بلاغاً وإبلاغاً، ثم لا يرى لإستمراية بلاغه بينهم إلّا مزيداً لفسقهم أو كفرهم، وهكذا تكون أدوار الحياة الرسولية أن الرسول حين ينفض يديه عن كامل الوحي الرسولي بلاغاً وإبلاغاً ثم لا يرى بعد فترة تأثيراً في دعوته، أن بقاءه بعدُ فيهم ليس تحته طائل، إذاً يصح دعاءُه: «فافرق بيننا» أنا وأخي كرسولين، وسائر المؤمنين نقباء وسواهم كأعضاد هذه الرسالة، «فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين»، إذ كلت الدعوة وما أثرت إلَّا نكوصاً ونكولًا، وما خلفت فيهم إلَّا نكالًا، فلا تعني «فافرق» طلباً لفرْقه عن أصل الرسالة أم عن دعوتها، بل هو تطلب لموته أمّا أشبه بما يخلصه عن هذه الورطة، ولكن اللَّه- حسب المفهوم من آيات لم يستجب دعاءه في موته إن كان هو المطلوب، بل حوّل إستجابته إلى تحريم الأرض المقدسة عليهم كأصل، وتحريم سائر البلاد عليهم كفرع فلقد راعى موسى الأدب الرسالي فلم يترك الحوزة الرسالية خلافاً ل «ذا النون إذ ذهب مغاضباً ..» بل التجاء إلى الدعاء: «فافرق» دون تعيين لمصداق له تأدباً، فإستجابة اللَّه في اللَّه في فرق صالح بينه وأخيه، وبين القوم الفاسقين في «إنها محرمة عليهم» لا وعليهما، فقد كنا نزور القدس خلال هذه الأربعين.

فالمطلوب في دعاءه هو فرقُ مَّا ينجيه من ذلك الفَرَق وقد نجاه اللَّه بفرْق صالح دونما موت أو عزل له عن الرسالة أم دعوتها، ونفس ذلك التيه فيه ما فيه من فرْق فيه لهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 310

فَرَق يرجعهم عما كانوا فيه من طيش، عذاب فارق بينهم وبينهما، ومن ثم فارق الموت بعد دخولهم في الأرض المقدسة، كما فرق بينهما وبين جمع منهم ماتوا في التيه.

«قال فإنَّها محرَّمةٌ عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين». «1»

هل «قال» اللَّه إجابة لدعوته «فإنها محرمة عليهم ..» وهذا فراق بينهم وبين الأرض المقدسة دونه وإياهم وقد تطلب «فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين»؟ علّ الفاء في «فإنها» إشارة إلى تحريمها عليهم عقوبة وهي كافية في الحكمة التربوية، وأما «فافرق» فلا تصلح الفراق بين رسول ومرسل إليهم إلّا بموتهم أو موته، وهل مات موسى عليه السلام في التيه‏ «2» بعدما عاش معهم ردحاً فيه فخلفه يوشع بن نون في رسالته‏ «3» إذ مات خليفته الأولى هارون قبله، وقد يروى أن قبر موسى قذفة حجر من الأرض المقدسة؟ «4» ذلك لا تناسب الآيات التالية ولا سيما «أدخلوا مصراً ..».

وترى ما هي وأين هي أرض التيه؟ إنها بطبيعة حال خروجهم عن مصر تجاه الأرض المقدسة هي بينهما وقد تاهوا فيها، ونحن تائهون في تعايشهم أربعين تيه اللَّهم إلّا ما بينه اللَّه لنا من ماءِهم فيه وغذاءِهم وتظليل الغمام عليهم: «وقطعناهم عشرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 5: 26

(2). نور الثقلين 1: 608 في الكافي عن أبي عبداللَّه عليه السلام قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مات داودالنبي عليه السلام يوم السبت مفجوعاً فأظلته بأجنحتها ومات موسى عليه السلام في التيه فصاح صائح من السماء مات موسى وأي نفس لا تموت؟

(3). المصدر في كتاب كمال الدين وتمام النعمة باسناده إلى أبي حمزة عن أبي جعفر عليهما السلام حديثاً طويلًا يقول فيه: ان اللَّه تبارك وتعالى ارسل يوشع بن نون إلى بني إسرائيل من بعد موسى بنبوته بدؤها في البرية التي تاه فيها بنو إسرائيل‏

(4). الدر المنثور 2: 272- أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال لما استسقى موسى لقومه أوحى‏اللَّه إليه أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عيناً فقال لهم موسى ردوا معشر الحمير فأوحى اللَّه إليه قلت لعبادي معشر الحمير وإني قد حرمت عليكم الأرض المقدسة قال يا رب فاجعل قبري منها قذفة حجر فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «لو رأيتم قبر موسى لرأيتموه من الأرض المقدسة قذفة بحجر»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 311

أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذا استسقاه قومه أن إضرب بعصاك الحجر فانبجست منه إثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» «1» «وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه إثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق اللَّه ولا تعثوا في الأرض مفسدين. وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير إهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ..». «2»

فهكذا يدخلون مصراً وعلّها الأرض المقدسة التي كتب اللَّه لهم: «وإذ قبل لهم أسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وأدخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون». «3»

ذلك، وقد تلمح «فلا تأس على القوم الفاسقين» أنه أسى على تيههم أربعين سنة، إذ ما كان يخلد بخلده أن اللَّه يستجيبه هكذا، فإنما فرقاً بينه وبينهم، لا جمعاً في تيه العذاب، اللّهم إلّا ردحاً منه قليلًا يسقي قومه بما ضرب عصاه الحجر وما أشبه.

ولأن موسى وهارون والنقباء الإثنى عشر ومعهم المؤمنون كانوا مع القوم في التيه فقد يبرز هذا السؤال، كيف يستجيب اللَّه دعاء موسى على نفسه كما على قومه؟.

والجوائب أن تيه الأربعين كان عليهم عذاباً لم يسأله موسى، ولم يكن له عذاباً إذ لم يكن دخول الأرض المقدسة محرماً إلا عليهم «فإنها محرمة عليهم» ثم اللَّه سهل على رعيل الإيمان ما لم يسهل على الفاسقين، ومنه لموسى عليه السلام تظليل الغمام وانفجار العيون بما ضرب موسى عصاه، وإنزال المن والسلوى، آيات ثلاث ربانية كانت لصالح الرسالة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 160

(2). 3: 61

(3). 7: 162

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 312

الموسوية علّهم يؤمنون.

فأما دعاءه «فافرق ..» فقد فرق اللَّه بينه وبينهم بموته دون عزله عن الرسالة فإنه عضل، ولا فرقه عنهم حياً فإنه إنعزال لا يجوز في سنة الرسالة مهما كان المرسل إليهم عزَّل عن الإيمان وعُضَّل، ومن الفرق هو فارق العذاب لهم في التيه دونه وهارون والمؤمنين معهما.

والقول إن اللَّه فرق بينهم وبين القوم فور دعاءه قبل التيه، تيه في القول حيث كان انبجاس العيون وتظليل الغمام وما أشبه، آياتٍ ربانية بيد موسى عليه السلام وهم في التيه، إذ لا حاجة إلى ذلك الإستسقاء الجمعي وتظليله إلَّا في التيه.

فلقد تاهوا في تلك التيهاء لا يهتدون من أي إلى أي، وقد لا تعني «فإنها محرمة عليهم» حرمة تعبدية إذ هم لم يكونوا يتعبدون بسلب ولا إيجاب، بل هي محرمة عليهم حتى إن لم يكن فيها جبارون حيث أتاهم اللَّه عنها فظلوا في التيه إذ ضلوا عن الأرض المقدسة فيه واللَّه أعلم بما في التيه ومَن فيه، بسالبه ومنفيه.

هذا ما يقوله القرآن عن سبب التيه في التيه، وإليكم نصاً من التوراة في سبب التيه:

«فقال الرب لموسى وهارون من أجل أنكما لم تؤمنا بي حتى تقدساني أمام أعين بني إسرائيل لذلك لا تدخلان هذه الجماعة إلى الأرض التي أعطيتهم إياه. هذا ماءٌ مريبة حيث خاصم بنو إسرائيل الرب فتقدس فيهم». «1»

ذلك، ولم يسبق هذا النص المزري بحق الرسولين الكريمين إلّا قصة إخراج الماء من الحجر بأمر اللَّه حيث «10- قال لهم إسمعوا أيها المردة. أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماءً.

11- ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين فخرج ماءٌ غزير. فشربت الجماعة ومواشيها. فقال الرب ...».

وحصيلة المعني من دعاءه عليه السلام بإستجابته أن اللَّه حرم عليهم الأرض المقدسة أربعين سنة، وليس على موسى وهارون وسائر المؤمنين، فقد يلمح أنهما مع هؤلاء كان لهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). سفر الإعداد 20: 12- 13

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 313

الدخول إلى الأرض المقدسة خلال الأربعين على أية حال حتى إذا دخلوا مصراً.

إذاً فلم يكن موت موسى عليه السلام في التيه، ولم تكن إستجابة دعاءه في الفرق بينه وبينهم إلَّا بفارق عذاب التيه حيث قال «فإنها محرمة عليهم» دون «عليكم».

وهكذا تكون أدعية الصالحين، غير جازمة فيما يطلبون، وإنما حسب المصلحة الربانية، ولم يكن لحاضر موسى من العقدة إلا «لا أملك إلا نفسي وأخي» وبناءً عليه «فافرق بيننا وبين القوم الظالمين» وقد فرق بينهما وبينهم بما فرق.

فهنا في «فافرق ..» المتفرعة على «إني لا أملك ..» إحتمالات عدة:

1- «فافرق» بعزلي عن هذه الرسالة؟ وتطلُّب العزل عضل من رسول معصوم وفرية جهل على اللَّه تعالى كأنه جهل صلاحية هذه الرسالة فليعزلهُ عنها حين لا يملكها!.

2- «فافرق» بتركي حوزة المسئولية في هذه الرسالة، إنعزالًا عن هؤلاء المرسل إليهم إلى عزلة خالية عن الدعوة؟ وتطلُّب الإنعزال لا يناسب «عذراً أو نذراً» في الرسالات كلها، ولقد ظلم ذا النون «إذ ذهب مغاضباً ..» حيث ترك حوزه الدعوة دونما إستئذان من اللَّه!.

3- «فافرق» بموتى حيث تم الوحي الرسالي وطم الإنذار فلا طائل بعدُ تحت هذه الرسالة؟ ولا طائل تحت هذا الطلب ممن يعلم مدى صالح الدعوة الرسولية!.

4- «فافرق» بموتهم؟ وهكذا الأمر! وعلّ فيهم من يؤثر فيه كرور الدعوة.

5- «فافرق» بفارق العذاب الذي هو قضية ذلك التخلف المتواتر المتواصل منهم فلا تشملني وأخي والمؤمنين بذلك العذاب.

6- «فافرق» كما تراه صالحاً؟ وهذا هو الأدب الرسولي السامي المرجو من مثل موسى عليه السلام.

«قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة» وليس قضية خصوص هذه الحرمة أن يمنعوا عن بلاد أخرى غيرها، ولكن «يتيهون في الأرض أربعين سنة» إتاهتهم عن غيرها كما

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 314

عنها، والتيه عذاب أليم أياً كان، ولا سيما في غير بلد وهم في الصحراء وليس لهم إلَّا طعام واحد وجوٌّ واحد، كلما يحاولون الوصول إلى مصر لا يسطعون فإن «يتيهون» إخبار عن واقع لا مرد له.

حول التيه وما ورد فيه:

أتراهم وهم في التيه ما حاولوا أن يدخلوا الأرض المقدسة أم غيرها من البلاد ولماذا وهم حائرون بائرون من تيه التيه؟.

«إنها محرمة عليهم» تعني حرمة واقعية إلى حرمة شرعية فلذلك لم يسطعوا أن يدخلوها، ثم «يتيهون في الأرض» نبأ عن واقع حرمانهم عن الدخول في أية بلدة إلا بعد أربعين التيه، وقد ورد فيه من الآثار والأخبار ما فيه ما فيه، اللّهم إلا ما يوافق الواقع المعقول المقبول، الذي يتلقاه المؤمن العاقل بالقبول. «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بحار الأنوار 13: 176 عن أبي جعفر عليهما السلام قال: لما انتهى بهم إلى الأرض المقدسة قال لهم: «ادخلوا الأرض المقدسة» قالوا: «إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، قال رب ...» فلما أبوا أن يدخلوها حرمها اللَّه عليهم فتاهوا في أربعة فراسخ أربعين سنة «يتيهون في الأرض ...» قال عليه السلام: وكانوا إذا أمسوا نادى مناديهم: أمسيتم الرحيل فيرتحلون بالحداء والرجز حتى إذا أسحروا أمر اللَّه الأرض فدارت بهم فيصبحون في منزلهم الذي ارتحلوا منه فيقولون: قد اخطأتم الطريق، فمكثوا بهذا اربعين سنة ونزل عليهم المن والسلوى حتى هلكوا جميعاً إلا رجلين: يوشع بن نون وكالب بن يوفنا وابناءهما وكانوا يتيهون في نحو من أربعة فراسخ فإذا أرادوا أن يرتحلوا ثبت ثيابهم عليهم وخفافهم ...».

وفيه (180) عن أبي جعفر عليهما السلام ... وكانوا ستمائة ألف ... وعن أبي جعفر وأبي عبداللَّه عليهما السلام عن قوله: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ...» قال: «كتبها لهم ثم محاها» وعن أبي عبداللَّه عليه السلام إن بني إسرائيل قال لهم «ادخلوا الأرض المقدسة» فلم يدخلوها حتى حرمها عليهم وعلى أبناءهم وإنما دخلها ابناء الأبناء.

وعن إسماعيل الجعفي عن أبي عبداللَّه عليه السلام قال قلت له: اصلحك اللَّه: «ادخلوا الأرض المقدسة ...» أكان كتبها لهم؟ قال: «أي واللَّه لقد كتبها لهم ثم بدا له لا يدخلوها» وعنه عليه السلام قال: «كتبها لهم ثم محاها ثم كتبها لأبناءهم فدخلوها واللَّه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، وعنه عليه السلام فحرمها اللَّه عليهم اربعين سنة ويتَّهمم فكان إذا كان العشاء أخذوا في الرحيل ونادوا الرحيل الرحيل ألوحى ألوحى، فلم يزالوا كذلك حتى تغيب الشفق حتى إذا ارتحلوا واستوت بهم الأرض قال اللَّه للأرض: ديري بهم فلم يزالوا كذلك حتى إذا أسرحوا وقارب الصبح قالوا: إن هذا الماء قد أتيتموه فأنزلوا فإذا أصبحوا إذا أبنيتهم ومنازلهم التي كانوا فيها بالأمس فيقول بعضهم لبعض يا قوم قد ضللتم وأخطأتم الطريق فلم يزالوا كذلك حتى أذن اللَّه لهم فدخلوها وقد كان كتبها لهم».

وفيه عنه عليه السلام يقول: نعم الأرض الشام وبئس القوم أهلها وبئس البلاد مصر أما إنها سجن من سَخط اللَّه عليه ولم يكن دخول بني إسرائيل مصر إلا من سخط ومعصية منهم للَّه‏لأن اللَّه قال: «ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب اللَّه لكم» يعني الشام فأبوا أن يدخلوها فتاهو في الأرض اربعين سنة في مصر وفياً فيها ثم دخلوها بعد أربعين سنة، قال: «وما كان خروجهم من مصر ودخولهم الشام إلا من بعد توبتهم ورضى اللَّه عنهم».

وفيه عنه صلى الله عليه و آله في الآية قال: «كان في علمه أنهم سيعصون ويتيهون أربعين سنة ثم يدخلونها بعد تحريمه إياها عليهم»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 315

هل الحاكم الرسولي يُستأذن فانه رئيس كل القوى‏

«لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ\* إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ». «1»

ضابطة ثابتة لا تخطى‏ء، فالذين يؤمنون باللَّه واليوم الآخر لا ينتظرون الإذن في أداء فريضة اللَّه بعدما أمرهم اللَّه وأكد لهم، فهم لا تلكأون في تلبية داعي اللَّه نفراً في سبيل اللَّه، بل هم سِراع إليها خفافاً وثقالًا، طاعةً لأمره ويقيناً بلقاءه وإبتغاءَ مرضاته دونما حاجة إلى حثٍّ بعدما حثهم اللَّه فضلًا عن الإستئذان.

أفبعد أمر اللَّه المؤكد بالجهاد بالأموال والأنفس يُستأذن رسول اللَّه في ذلك الجهاد، فضلًا عن استئذانه في تركه، إذاً فمجرد استئذانهم للقعود قعود لهم عن الإيمان حين يكون الإستئذان للجهاد يشي بعدم الإيمان «واللَّه عليم بالمتقين» إياه، والطاغين دون حاجة إلى استئذان منهم وعدم استئذان، فإنما ذلك البيان إعلان للرسول والذين معه ليعرفوا المنافقين في لحن القول.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 44- 45

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 316

ولقد كان أكابر المهاجرين والأنصار يقولون: لا نستأذن النبي صلى الله عليه و آله في الجهاد فإن ربنا ندبنا إليه مرة بعد أخرى، فلماذا- إذاً- الإستئذان؟ وكانوا بحيث لو أمرهم الرسول صلى الله عليه و آله بالقعود لشق عليهم. فترى علياً عليه السلام لما يأمره الرسول صلى الله عليه و آله بأن يبقى في المدينة يشق ذلك عليه حتى يقول رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى.

والإستئذان المنفي هنا لا يختص بالقعود، بل هو الظاهر في الخروج، مما يرجح أن جماعة منهم إستأذنوه للخروج فأذن لهم، كما وأن «إئذن لي ولا تفتني» هو من آخرين استأذنوه للبقاء، فقد يصح حمل «لم إذنت لهم» على الأمرين، إذن في الخروج وإذن في البقاء، والجهاد في سبيل اللَّه ليس من مسارح الإذن سلباً وإيجاباً.

أجل «لا يستأذنك .. إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون باللَّه واليوم الآخر» سواءٌ أكان استئذانهم للجهاد أم تركه، وهو أحرى دلالة على كفرهم باللَّه واليوم الآخر، فالإستئذان في هذا المسرح لأيٍّ كان ومن أيٍّ كان، إنما هو لأولئك الذين خلت قلوبهم من الإيمان فهم يتلمسون المعاذير وهم في ريبهم يترددون، استئذاناً للخروج وآخر للقعود.

ذلك الإستئذان كان للقعود وان استأذنوه بعد للخروج: «فإن رجعك اللَّه إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين». «1»

وفي «لا يستأذنك» تلميحة أنهم لم يستأذنوه- فقط- في القعود، بل وفي الخروج مع المجاهدين أيضاً ليزيدوكم خبالًا، ولكن المحور في «لم أذنت لهم» هم الذين إستأذنوه لعدم الخروج حيث «لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ..».

وهنا «لا يستأذنك» علم حادث له صلى الله عليه و آله إذ لو كان يعلمه لكان استئذانهم إياه علماً له بكذبهم، فلا يرد أنه لم يكن مأذوناً في إذنهم حين أذن لهم ولا يعمه «فأذن لم شئت منهم».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 83

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 317

إنهم أولاء الأنكاد البعاد «إرتابت قلوبهم» في الحق «فهم في ريبهم يترددون» بين الخروج والبقاء، وكلاهما منهم خيانة وكيد على الجماعة المسلمة «ومن تردد في الريب سبقه الأولون وأدركه الآخرون وقطعته سنابك الشياطين»، «1» فذلك علامة أولى لكذبهم في استئذانهم ثم ثانياً:

«وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ». «2»

إن إرادة الخروج، العازمة الحاسمة، قضيتُها الطبيعية الواقعية إعداد عُدة له وإن بسيطا، وهم لم يُعدوا له أية عُدة، إلا كل عدة للتخلف عنه «ولكن كره اللَّه انبعاثهم فثبطهم»: كسَّلهم وضعَّف رغبتهم في الإنبعاث كيلا يخرجوا، فإن خروجهم مروج فيهم، فخروج عن صالح الحرب إلى طالحها، فقد تطلَّبت منهم شِرعَة التكليف أن يخرجوا، ثم ثبطتهم شِرعة التكوين بما تثبطوا في أنفسهم «وقيل اقعدوا مع القاعدين» قيلة من رؤوس النفاق حيلة، وقيلة من الشيطان الرجيم غيلة، ثم اللَّه لم يمنعهم عن هذه القيلة الحيلة الغيلة، وعن قعودهم بها، حيث‏ «إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً» «3» «وقيضنا لهم قرناء فزينوا ما بين أيديهم وما خلفهم» «4» ذلك و:

«لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ». «5»

«لو» إحالة واقعية بما عزموا على عدم الخروج وبما ثبطهم اللَّه وقيل أقعدوا مع القاعدين «لو خرجوا فيكم» أنتم المؤمنين الصالحين «ما زادوكم إلّا خبالًا»: فساداً واضطراب رأي «ولأوضعوا»: أسرعوا فيها وفي أي فساد «خلا لكم»: تخللًا فاسداً كاسداً بين صفوفكم الإيمانية، حال أنهم: «يبغونكم الفتنة»: أن يطلبوكم إياها، كأن لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام‏

(2). 9: 46

(3). 19: 83

(4). 41: 25

(5). 9: 47

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 318

بغية لهم بخروجهم فيكم إلّا إياها «وفيكم سماعون للكذب» أذناً لكل كلام دونما تثبت عنه كالبسطاء من المؤمنين والذين اسلموا ولمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم، «واللَّه عليه بالظالمين» الضالين والمضلِّلين، ذلك:

«ولَقَدْ ابْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ». «1»

و «من قبل» هنا منه يوم أحد حيث تخلف عبداللَّه بن أبي سلول بثلث القوم خذلانا للنبي صلى الله عليه و آله وإضلالًا للذين معه «وقلبوا لك الأمور» التي كانت مؤاتية لصالح الحرب حيث عملوا دعايات مضادة لها بين صفوف المؤمنين «حتى جاء الحق وظهر أمر اللَّه» نصرة بعد النكسة «وهم كارهون» مجي‏ء الحق وظهور الأمر، متربصين عليه دوائر السوء، عليهم دائرة السوء ولكنهم لا يعلمون.

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لُمحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». «2»

هؤلاء الأنكاد الأغباش، ومنهم جد بن قيس حين يقول له الرسول صلى الله عليه و آله: يا جد هل لك في جهاد بني الأصفر؟ قال: أتأذن لي يا رسول اللَّه فإني رجل أحب النساء وإنى أخشى إن أنا رأيت ساء بين الأصفر أن افتتن، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو معرض عنه: قد أذنت لك، فأنزل اللَّه «ومنهم من يقول أئذن لي ولا تفتني» «3»- «ألا في الفتنة سقطوا» بأنفسهم المفتونة الفاتنة، فلم يفتنهم النبي صلى الله عليه و آله بترك الإذن لقعودهم ترغيباً في بنات بني الأصفر خلاف ما يروى. «4»

ويا له من مشهد مرسوم يرسم لهم كأن الفتنة فيه هاوية وهم فيها ساقطون، فهم هنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 48

(2). 9: 49

(3). الدر المنثور 3: 247- أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبداللَّه قال سمعت‏رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول لجد بن قيس: ..

(4). وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه و آله قال: اغزو تغنموا بنات بني الأصفر فقال ناس من المنافقين انه ليفتنكم بالنساء فانزل اللَّه هذه الآية

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 319

في جحيم الفتنة التي أججوها بذات أيديهم ماقتون، ثم هم فيما أججوه خالدون «وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» فكفرهم وفتنتهم هما جحيمهم التي أججوها من ذي قبل:

«بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

هذه جهنم هنا وهناك تأخذ عليهم كل المنافذ والمتجهات فلا يفلتون.

ذلك ومن أحوالهم المزرية ضد هذه الرسالة السامية:

«إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَهُمْ فَرِحُونَ». «1»

«إن تصبك حسنة» في حرب وسواها، من غلبة وغنيمة وسواهما «تسؤهم» ثم «وان تصبك» رمية «مصيبة» على أية حال «يقولوا قد أخذنا أمرنا» لصالحنا حيث قعدنا عن الحرب «من قبل» ثم «ويتولوا» عن جنابكم إلى نواديهم «وهم فرحون» «2» رغم أن المؤمنين هم قَرِحون!.

ذلك بأنهم «يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» حاسبين السيئة شراً في كل حال، والحسنة خيراً بأي مجال، رغم أن الحياة سجال بين مختلف الفتن تمحيصاً للمؤمنين وتقليصاً للكافرين، وهنا الجواب كلمة واحدة هي:

«قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ». «3»

فحيث نمشي ونمضي بأمر اللَّه إلى جبهات القتال، إذاً ف «لن يصيبنا إلَّا ما كتب اللَّه لنا» قتلًا لأجل مسمّى فلا ضير، بل هو خير في سبيل اللَّه، أم لأجل معلق على القتال فكذلك الأمر، حيث علِّق على تحقيق أمر اللَّه، فهو مجتمع أمريه تكويناً وتشريعاً كما الأول، مهما اختلف محتوم عن معلق حيث هما بأمر اللَّه و «هو مولانا» لا سواه «وعلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 50

(2). الدر المنثور 3: 248- أخرج ابن ابي حاتم عن جابر بن عبداللَّه قال: جعل المنافقون الذين‏تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه و آله أخباء السوء يقولون: إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغتهم تكذيب حديثهم وعافية النبي صلى الله عليه و آله وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل اللَّه تعالى: أن تصبك ..

(3). 9: 51

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 320

اللَّه» لا سواه «فليتوكل المؤمنون» باللَّه، دون توكلّ في أيّ من الأمور على سواءٍ.

وهنا «ما كتب لنا» يعم إصابة الحسنة والسيئة، وهما لنا حسنة حيث كتب اللَّه لنا، فما كتب اللَّه للمؤمن هو خير له أيّاً كان، وما يكتبه غيره مفارقاً شرعة اللَّه هو شر أيّاً كان، فهو- إذاً- مما كتب اللَّه عليه كما هو كتبه على نفسه، ف «لنا» صالحة تختص بالصالحين و «علينا» طالحة لسائر الناس الطالحين «وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى».

فالمؤمنون منصورون هازمين ومنهزمين، قاتلين ومقتولين ف «إن اللَّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللَّه فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هوالفوز العظيم». «1»

ذلك، فلا تعني «ما كتب اللَّه لنا» أن كل المحاصيل بسوء الإختيار إلى حسنه هي مما «كتب اللَّه لنا» طالما الكتابة الربانية تحلِّق عليها كلها، إذ «ما كان لنفس أن تموت إن بإذن اللَّه كتاباً مؤجلًا» «2» فأين كتابة من كتابة؟.

هنا كتابة حسنة أو سيئة ونحن في سبيل اللَّه وتحقيق أمر اللَّه فهي خير لنا تكويناً إلى تشريع، وهناك كتابة حسنة أو سيئة وهم في سبيل الطاغوت فهي شرٌ لهم في تكوين، وشر لهم في تشريع، حيث خالفوا فيها شرعة اللَّه فهو مما كتب اللَّه عليهم، وهنا يبرز ناصع الحق وناصحه من قول الرسول صلى الله عليه و آله: «قال لكل شي‏ءٍ حقيقة وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه». «3»

إذاً فنحن السائلون إلى اللَّه، المجاهدون في سبيل اللَّه، نعيش إحدى الحسنيين، وأنتم السالكون إلى الطاغوت المجاهدون في سبيله تعيشون إحدى السؤتين:

«قُلْ هَلْ تَتَربَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 111

(2). 3: 145

(3). الدر المنثور 3: 249- أخرج أحمد عن ابي الدرداء عن النبي صلى الله عليه و آله قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 321

بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ». «1»

إعلام عام هام في هذه الإذاعة القرآنية من قبل المؤمنين بهذه الرسالة السامية قبال الذين لا يؤمنون، من ملحدين أو مشركين أو كتابيين أو منافقين من المسلمين، وكل الذين في قلوبهم مرض وليست حياتهم حياة الجهاد في سبيل اللَّه، أن تصيبهم مصيبة سيئة في هذه السبيل.

وقد «تكفل اللَّه لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة». «2»

«وكذلك المرء المسلم البري‏ء منه الخيانة ينتظر إحدى الحسنيين، إما داعي اللَّه فما عند اللَّه خير، وإما رزق اللَّه فإذا هو ذو أهل ومال ومعه دينه وحسبه». «3»

وهكذا يؤدبنا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على ضوء كتاب اللَّه، تكريساً محيصاً لحياتنا في الحصول على «إحدى الحسنيين». «4»

لقد تكرر ذكر الحسنى في القرآن ثمانية عشر مرة، المناسبة منها لما هنا تعنى الحياة الحسنى، وهي الطليقة دون اختصاص بجانب منها تحلِّق على كافة الحيويات الحسنى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 52

(2). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام‏

(3). تفسير روح المعاني 10: 116 وصح من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: تكفل اللَّه ..

(4). المصدر أخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي من طريق سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده: بينما النبي صلى الله عليه و آله بالروحاء إذ هبط عليه أعرابي من سرب فقال مَن القوم وأين تريدون؟ قال: قوم بدوا مع النبي صلى الله عليه و آله، قال: مالي أراكم بذّة هيئتكم قليلًا سلاحكم؟ قال: ننتظر إحدى الحسنيين أما أن نُقتل فالجنة وإما أن نغلب فيجمعهما اللَّه تعالى لنا، الغلبة والجنة، قال: أين نبيكم؟ قالوا: ها هوذا، فقال له يا نبي اللَّه ليست لي مصلحة آخذ مصلحي ثم ألحق، قال: اذهب إلى أهلك فخذ مصلحتك فخرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم بدر وخرج الرجل إلى أهله حتى فرغ من حاجته ثم لحق بهم ببدر فدخل في الصف معهم. فاقتتل الناس فكان فيمن استشهد فقام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعد أن انتصر فمر بين ظهراني الشهداء ومعه عمر فقال: ها يا عمر انك تحب الحديث وان للشهداء سادة وأشرافاً وملوكاً وان هذا يا عمر منهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 322

ف «للذين استجابوا لربهم الحسنى» «1» «وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى» «2» «فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى، فنيسره لليسرى» «3» وإلى‏ «إحدى الحسنيين» إنشقاقاً للحسنى إلى اثنتين، إنما هي الحسنى هنا، فإما نَقتل في سبيل اللَّه أم نُقتل: ف «إن اللَّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللَّه فيَقتلون ويُقتَلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم». «4»

فالحسنيان بالنسبة لآحاد المجاهدين في سبيل اللَّه أن يَقتلوا أو يُقتلوا، وهما نسبة إلى المجموعة المجاهدة غالبين ومغلوبين، فحين يؤدي المجاهدون في سبيل اللَّه واجبهم كان انهزامهم كهزيمتهم عدوَّهم على سواء.

فسوءاً أصابتهم سيئة أم اصابتهم حسنة في حرب وسواها، فما داموا هم هنا وهناك في سبيل افهم يعيشون إحدى الحسنيين إذ «لن يصيبنا إلا ما كتب اللَّه لنا» من حياة أو ممات، من هزيمة أو انهزامة، ومن مختلف ملابسات الحياة.

وذلك وقد يُجمع بين الحسنيين فرادى وجماعات، فالمناضل الذي يَقتل ثم يُقتل، والجيش الذي يَهزم ويُهزم، أما ذا من جمع بين الحياتين الإيمانيتين، هؤلاء هم من مجامع الحسنيين.

فرغم أن أعداءَنا يتربصون بنا كل دوائر السوء غالبين ومغلوبين، هنا يعبر عنهما ب «الحسنيين» فإما إحداهما أم كلاهما، فلا نعيش نحن إلَّا حياة سعيدة على أية حال ما دمنا نعيش مرضات اللَّه تحقيقاً لشرعته في حياتنا وكل حيوياتنا، مهما أنكر ناكرون، حيث الواقع لنا «إحدى الحسنيين» مهما كان متربَّص العدو إصابتنا بقتل أو شبهه وهي السوآئى الوحيدة دون أية حسنى فضلًا عن إحدى الحسنيين.

فذلك الإعلان مما يرتعش به العدو حيث يعرف- مهما كان ناكراً في نفسه- أننا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 13: 18

(2). 18: 88

(3). 9: 6

(4). 9: 111

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 323

صامدون في خط النار، غير راجعين إلَّا بإحدى الحسنيين، فحين يعرف العدو مدى صمودنا يحسب حسابه أمامنا فيهدر وينحدر من علواءه وغلواءِه إلى واقع حضيضه، فيفقد حظه في جبهة القتال.

ذلك في ضَفَّة الإيمان على مدار حياة الإيمان، وأما حياة الكفر ف: «نحن نتربص بكم أن يصيبكم اللَّه بعذاب من عنده» هنا، أم بعد الموت في البرزخ والأخرى «أو بأيدينا» أن تُقتلوا أو تُغلبوا، فنحن- إذاً- منتصرون غالبين ومغلوبين، وأنتم معذبون غالبين ومغلوبين «فتربصوا» بنا إحدى الحسنيين «إنا معكم متربصون» بكم إحدى السوءتين.

«قُلْ أَنفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ\* وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ\* فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ\* وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ\* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ\* وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ\* وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ\* إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». «1»

«قل انفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين». «2»

وترى مجرد الفسوق وإن في غير مسرح الإنفاق وهو «طوعاً» كيف يعمل في أن «لن يتقبل منكم» ل «إنكم كنتم قوماً فاسقين» إذاً فشرط قبول الإنفاق هو العدالة الطليقة! أو العدالة في الإنفاق حيث «يتقبل اللَّه من المتقين».

هنا الفسوق محلِّق على كافة الأعمال لمكان تحليق الكفر على القلوب، حيث المورد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 53- 61

(2). 9: 53

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 324

هو المنافقون، ومن شروط قبول العبادة الإيمانُ، فحتى إذا أنفقوا هؤلاء طوعاً- ولن يكون- ف «لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين» فكينونة الفسق ضاربة إلى أعماقكم، فاصلة بينكم وبين الإيمان والمؤمنين، فكيف تتقبل أية عبادة من كافر أو منافق هو أشر منه؟! وقد تبين ذلك بالآية التالية:

«وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ». «1»

هنا ثالوث يمنع عن‏ «أن تقبل منهم نفقاتهم» هو: كفرهم باللَّه وبرسوله، وصلاتهم وهم كسالى، وإنفاقهم وهم كارهون، مهما تظاهروا أنه بطوع ورغبة، والأخيران منطويان في الأول، فهما له لزامان لا ينفصلان، فكما «الإيمان لا يضر معه عمل وكذلك الكفر لا ينفع معه عمل» «2» فطالح العمل لا يمحي صالح الإيمان استئصالًا وإحباطاً، وصالح العمل لا يثبت بالكفر، ضابطة ثابتة لا تستثنى.

هنا «لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى» حصر لصلاتهم بحالة الكسل وحسر لها عن النشاط العبودي، وهذه صفة الكافر باللَّه، والمنافق في عمله كسلاناً ومرائياً: «وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس» «3» والكسل يعم الجسم إلى الروح ولأن كلًا يؤثر على الآخر.

ذلك فصلاة الكسلان المرائي حابطة منافقاً كان أو مؤمناً، ولكن المنافق كل أعماله حابطة قضيةَ عدم الإيمان، فالمؤمن بشي‏ءٍ يضحي في سبيله قدر إيمانه، فهلا نصلي نحن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 54

(2). نور الثقلين 2: 225 في الكافي مسنداً عن أبي عبد اللَّه عليه السلام وفيه عن كتاب الإحتجاج عن‏أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: فكل عمل يجري على غير أيدي الأصفياء وحدودهم وعهودهم وشرايعهم وسننهم ومعالم دينهم مردود غير مقبول وأهل بمحل كفر وأن شملتهم صفة الإيمان ألم تسمع إلى قول اللَّه تعالى: وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا باللَّه ورسوله «فمن لم يهتد لم يهتد من أهل الإيمان إلى سبيل النجاة لم يغن عنه إيمانه باللَّه مع دفن حق أولياءه وحبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين‏

(3). 4: 142

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 325

في ضارة الخاطر وحضارة الحال، وربنا هو الذي دعانا وأمرنا أن نحضر معراجه، وسمح لنا أن نكلمه بمحاويجنا، فالتثاقل التكاسل عن الصلاة، أو إتيانها كسلاناً، هو دليل على عدم الهمامة فيها ترجيحاً لسائر المهام، ويْكأن غير اللَّه أحب إلينا من اللَّه؟ أو أن سائر الصِّلات أنفع لنا من الصلة باللَّه.

فلسنتجوب أنفسنا في محكمة العقل والإيمان، إن كان لنا إيمان، ولنتدرج في درجات القرب والرضوان من الرحيم الرحمن حتى نصل لحد لا نرجح على حال الصلاة حالًا، ولا على أقوال الصلاة أقوالًا، ولا على أفعلها وأفعالًا، وكما قال أول العابدين: «وقرة عيني الصلاة» جرب قلبك، هل إن شوقك للقاء اللَّه أكبر أم لسائر اللقاء، فيا ويلاه إن كنت ترجح سائر اللقاء على لقاء اللَّه، وسائر الصِلات على الصَلاة للَّه.

إن أهل اللَّه لا يصطفون على حال الصلاة حالًا، بل هم دائبون في الصلاة «خوشا آنان كه دائم در نمازند»: «الذين هم على صلاتهم دائمون». «1»

ولأنها عمود الدين وعماد اليقين، لذلك نجدها من أجلى جلوات الشياطين، وأسرع صرعاته ضد المصلين، حيث يكرس كافة طاقاته بكل خيله ورجِله ليصرعهم فيها، ولكي يصرعهم في سواها، لأن «الصلاة عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها وإن ردت رد ما سواها».

فقد يبعد عنك شيطانك في شطر من صلاتك فيجلو لك ما غاب عنك من حصائل فكرية مهما كانت حول غوامض من الكتاب والسنة، قضية زوال الحجاب بينك وبينها، فيخيِّل إليك الشيطان أن الصلاة هي مجال الحصول على كل ضالّة فكرية ثمينة بعد ضآلتها، فيخرجك بذك عن الحضور أمام ربك فيها، فيجعل صلاتك الفائضة بالصِلاة فاضية خاوية عن الصِلات.

فلو أنك تأملت في نفسك، من أنت فعرفت أنك الفقر المجرد اللّاشي‏ء عن أي غنىً، ثم تأملت في مقام ربك من هو، فعرفت أنه مجرد الغنى وله كل شي‏ء، ثم فكرت في موقفك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 70: 23

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 326

من صلاتك أنك على فقرك دعيت إلى معراج ربك لمصلحتك وحاجتك دون حاجته سبحانه ومصلحته، لذُبت تخجلًا من ذلك الشرف العظيم، وّي إن ربي دعاني بل فرض علي أن أكلمه؟ وأنا عنه لاهٍ مفكر في سواه.

ولكنك لما تصلي دون صلة، فارغاً قلبك عن الحضور بمحضره، ناسياً ربك حاضراً لما سواه، كان عليك أن تموت خجلًا.

ولو لا واجب الصلاة بأمر اللَّه لكانت صلواتنا محرمة من الكبائر، لأنها هتكٌ لساحة الربوبية أن نحسب لكل غاية فيما سوى اللَّه حسابه، ولا نحسب للصلاة لديه أي حساب!.

ذلك ولنعرف أن إتيان الصلاة حالة الكسل هو من علامات النفاق ومن أسباب عدم قبول الإنفاق، مهما لم يصل إلى حد النفاق الرسمي الذي تتحدث عنه هذه الآية وما أشبه من آيات النفاق، وأقل تقدير هنا أن إنفاق هؤلاء وإن أسقط واجب تكليف الإنفاق ولكنه لا يقبل كما يقبل سائر الإنفاق رفعاً له إلى ساحة القبول حيث‏ «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه».

فالثالوث: الكفر باللَّه، وإتيان الصلاة الكسالى، والإنفاق كارهاً، هذه دركات ليست تقف لحد المرسوم منها، فمهما نزلت هذه الآية تنديداً بالمنافقين، فقد تمل الموافقين الذين لهم نصيب منها، ف «ما يؤمن أكثرهم باللَّه إلا وهم مشركون» «1» توسِّع نطاق الإشراك باللَّه، كما «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» تسلب البر عما دون ما تحبون مهما لم تكونوا كارهين، و «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» تُخرج الصلاة المأتي بها حالة الكسل عن حقل الصلاة، بل هي منكرة من المنكرات فكيف «تنهى عن الفحشاء والمنكر».

ذلك فإصلاح الصلاة إصلاح لكافة العبادات، وكافة القالات والحالات والفعالات، فإن الصلاة عمود الدين وعماد اليقين، فتضييعها- إذاً- عمود اللّادين والخروج عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 12: 106

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 327

اليقين.

جرِّب نفسك في كافة المصارع مع الشيطان فقد تطلع قوياً تصرعه فيها، وقراءة وذكر صالحين يخرسانه ويصمانه، فأعمل جهدك لكي تصلح صلاتك بسلاح الإيمان والإستعانة باللَّه.

و «صل الصلاة لوقتها الموقت لها، ولا تعجِّل وقتها الفراغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال، وأعلم أن كل شي‏ء من عملك تبعٌ لصلاتك». «1»

وترى «لا ينفقون إلّا وهم كارهون» تناسب «أنفقوا طوعاً أو كرهاً»؟ الظاهر لا، لمكان حصر إنفاقهم هناك في الكراهية، وهنا بينها وبين الطواعية، ولكنه نعم، إذ الواقع منهم هو «كرهاً» في إنفاقهم وكل طاعاتهم، و «أنفقوا طوعاً» ردفاً ب «كرهاً» قد يعني الطوع المدعى أم هو واقع الطوع تحدياً أنه غير واقع، فحتى لو وقع فلا يقبل لكفرهم المحبط لأعمالهم، وكما أن «لن يتقبل» إحالةً للقبول، تحلِّق على طوع إلى كَره لو اتفق طوع، ولكنه كَره على أية حال. «2»

ذلك وفي طوعاً وكرهاً وجوه أخرى مع ما ذكر ك «طوعاً» دون إلزام من اللَّه، أو إلزام من رؤسائكم مصلحيةَ الحفاظ على ظاهر الإيمان، ف «كرهاً» إلزاماً هنا أو هناك.

فإنفاقهم على أية حال، وبكل معاني وحالات الطوع، هو كالكَرة على سواء أنه «لن يتقبل» إحالة لقبوله «طوعاً أو كرهاً» تقبلًا من اللَّه أو رسوله أو المؤمنين النابهين.

وهذه نماذج من صور المنافقين المناحرة لِسَيرهم، مظاهر خاوية من روح الإيمان، خالية من التصميم، وإنما خوف ومدارات بقلب منحرف، وعقل خَرِف، وضمير مدخول منجرف.

فمهما تكن لهؤلاء الأنكاد من طائلة الأموال والأولاد، فليست هي بشي‏ء بجنب اللَّه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). العهد 27

(2). قال ابن عباس: نزلت في جد بن قيس قال للنبي صلى الله عليه و آله أئذن لي في القعود وهذا مالي أعينك به‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 328

«فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ». «1»

إذاً «فلا تعجبك» أيها الناظر، والرسول هنا خارج عن الدور إلّا بمعنى إياك أعني واسمعي يا جارة، أم تأكيد للحرمة الفطرية والعقلية لذلك الإعجاب، وخطاب النبي بخصوصه أو بين آخرين يعني أن ذلك الإعجاب محرم على الكل، وليس النبي لنبوته ومحتده مستثنى عن ذلك، فإذا كان الإعجاب محرماً عليه فعلى غيره أحرى، فالنهي قد ينحو نحو المنكر المفعول فنهي عن منكر واقع، فهو نهي عن المنكر، أم تشريع لما يكن محرماً أم كان محرماً فطرياً وعقلياً، فهذا تأكيد وذاك إنشاء للحرمة، وهما لا يدلان على المخاطب به مقترف لمادة النهي، وهكذا تكون مناهي الرسول صلى الله عليه و آله اللَّهم إلا فيما كان حلًا ثم حرم ك «أن تجمعوا بين الأختين» وما أشبه، فمجرد ورود نهي للنبي صلى الله عليه و آله أم سواه لا يدل على أنه اقترف المنهى على حرمته، إنما هو تجذير ذو احتمالات ثلاث.

«لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم» أن تحملك على عَجَب أو عُجْب كأن هذه الأموال والأولاد أعماد لحياتهم بها يعيشون، ويكأن اللَّه أراد فيها بهم خيراً «إنما» ليس إلا «يريد اللَّه ليعذبهم بها في الحياة الدنيا» عذاباً في الحصول عليها، وعذاباً في حفاظها، وعذاباً في ظالمة التصرفات وملتوياتها، مهما كانت لهم حظوة ظاهرة، ثم عذاباً- من جراء الدنيا- في الآخرة، ف «من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى» «2» ومن ضنكها أنهم «تزهق أنفسهم» كارهين حيث يفقدون أموالهم وأولادهم هنا ولا يجدونها هناك إلا عذاباً ف «تزهق وهم كافرون».

فالأموال والأولاد قد تكون نِعمة يسبغها اللَّه على عباد له شاكرين لأنعمه، مصلحين أنفسهم وذويهم، فمتجهين بها إلى اللَّه، دون أن تلهيهم عنه إلى سواه، فإذا هم مطمئنوا الضمير ساكنوا الأنفس، واثقين في ذلك المسير حاصلَ المصير، كلما أنفق من أموال وأولاد في سبيل اللَّه إستروح، وكلما أصيب إحتسب، فالسكينة النفسية على أية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 550

(2). 20: 124

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 329

حال له غامرة، وطويته بذكر اللَّه عامرة.

وأخرى تكون نَعمة ونِقمة يصيب بها آخرين حيث يعلم فسادهم ودَخَلهم وإفسادهم، وكسادهم عن الإيمان ودَجَلهم، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحوِّل حياته جحيماً وضنكاً.

وهذه النَعمة النِقمة في المنافقين أبرز، حيث ينفقون من أموالهم، أو يؤخذ منهم ضرائب إسلامية وهم كارهون، والكفر ملة واحدة في ضنك المعيشة، حيث لا أمل لأصحابه في مستقبل الحياة، وهم في صراع دائم بين أموال وأولاد وشئونات أخرى.

وهنا «تزهق أنفسهم وهم كارهون» تعني العذاب الأخير من الحياة الدنيا، ف «تزهق أنفسهم» بكراهية مزدوجة، أنهم يستدبرون هذه الثروات الركام لغيرهم، وهم يستقبلون عذاب الأبد، وإن كانوا ناكرين له حياتَهم، حيث يُكشف لهم الغطاء عند المكوت. فبعين يرون الدنيا حسرة وحزناً على تركها، وبأخرى يرون الأخرى خوفاً على دخولها.

فقد يعني تعذيبهم بأموالهم وأولادهم في الحياة الدنيا أن «تزهق أنفسهم وهم كافرون» فإنه عذاب يكسح وينسي كل رياحة سلفت، وكفاه عذاباً يمر على الحياة كلها في اللحظة الأخيرة فيجعلها مراً مهما كانت حلوة.

كما ويعني أوسع من ذلك إنفاقهم على كره فإنه عذاب فوق عذاب النفاق، حيث النفاق بنفسه عذاب يجعل الإنسان حيران في إزدواجية شخصية، دائم المراقبة على نفسه بين طرفي المخاصمة إيماناً وكفراً، ثم الإنفاق حالة النفاق عذاب على عذاب.

وثالث هو أوسع منها تحليقاً على حياة المنافق والكافر تعنيه «من أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً» إذ لا مولى له يرتكن عليه إلَّا دنياه المزعزعة التي هي دوماً على شُرُف وشفا جرف هار من الزوال والسقوط والإنهيار بأعداء له يتربصون كل الدوائر لاستلاب منصبه وماله ونفسه، والمؤمن مولاه هو اللَّه، مطمئناً به قلبه دون تزعزع: «ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب».

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 330

«وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ». «1»

«.. إنهم لمنكم» بكل تأكيد «منكم» إيماناً صالحاً دون أي فارق وفَرَق «وما هو منكم» في إيمان «ولكنهم قوم يفرقون» فرقاً بين القلب والقالب في إيمان، إيماناً بألسنتهم ومظاهر أعمالهم، وكفراً بقلوبهم، كما و «يفرقون» فرقاً بين المؤمنين بمكائد النفاق، وذلك لأنهم «يفرقون» فَرَقاً، فَرِقين من المؤمنين فارغين من الإيمان، يتظاهرون به، ومن الكافرين فيسرُّون إليهم بالكفر: «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون»، «2» فهم يعيشون ثالوث الفرْق والفَرَق‏، ومن فَرَقهم في فرقهم أنهم:

«لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ». «3»

«لو» أنهم بثالوث فرْقهم وفَرَقهم «يجدون» ثالوثاً: «ملجأً» يلجأون إليه من أعباء ظاهر الإيمان وتكاليف النفاق «أو مغارات» بمداخل الجبال يغورون فيها «أو مدَّخلًا» متدخَّلًا يتدخلون فيه بتكلف، ف «لو يجدون» مفلتاً من واقعهم المرزي بسهولة: «ملجأً أو مغارات» أم بصعوبة «مدَّخلًا» «لولّوا إليه» معرضين عن جو الإيمان والمؤمنين «وهم يجمحون»: مسرعين بوجه لا يَرد وجوههم شي‏ءٌ.

فهم لُعَناء جُبناء، متطلعين أبداً إلى مخبأٍ فيه يختبون، أو مأمن إليه يأمنون، أو مدَّخل فيه يدَّخلون، مذعورين مطاردين، ومن تخوفهم منكم حلفهم باللَّه «إنهم لمنكم» ثم ومنهم «وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم» هناك بحلف إذ لا يصدَّقون، وهنا دون حلف إذ يصدَّقون.

«وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ». «4»

اللمز هو الإعتياب، والهمز الإغتياب، وقد يكون اللمز همزاً إذا كان الإعتياب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 56

(2). 2: 14

(3). 9: 57

(4). 9: 58

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 331

اغتياباً، أو الهمز لمزاً إذا كان الإغتياب إعتياباً، وقد ينفردان كاعتياب دون إغتياب فهو لمز دون همز، أو اغتياب دون اعتياب فهمز دون لمز، والذين كانوا يلمزون الرسول صلى الله عليه و آله في الصدقات كانوا يعتابونه حضوراً وغياباً، فهم- إذاً- هامزون لامزون، و «ويل لكل همزة لمزة»!.

هؤلاء يلمزونك في الصدقات أخذاً وإعطاءً، لماذا تأخذها: «أنطعم من لو يشاء اللَّه أطعمه» ام تأخذ كثيراً ثم هكذا تعطيها ونحن محرومون أم ناقصون في العطية «فإن أعطوا منها» كما يهوون «رضوا» بظاهر الحال، و «إن يعطَوا منها» كما يهوون «إذاهم يسخطون» عليك، وهؤلاء هم ثلثا الناس‏ «1» أو يزيدون.

وليس ذلك اللمز منهم في الصدقات رعاية لعدل، أم حماسة لحق، أو غيرة على الدين، إنما ذلك التطاول مغبة أهواءهم ورغباتهم الغائلة الطائلة، وحماسة لهوساتهم الجهنمية، «فإن أعطوا منها رضوا» مهما كان ظلماً «وإن لم يعطَوا منها إذا هم يسخطون» مهما كان عدلًا.

ولقد اسخطوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بهمزهم ولمزهم إياه في الصدقات ومن قالاتهم: «إعدل يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل» «2» أم «هذه قسمة ما أريد به وجه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الكافي باسناده عن إسحاق بن غالب قال قال أبو عبداللَّه عليه السلام يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية: فإن عطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها إذا هم يسخطون؟ قال: هم أكثر من ثلثي الناس.

وفي تفسير القمي في الآية أنها نزلت لمّا جاءت الصدقات وجاء الأغنياء وظنوا أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقسمها بينهم فلما وضعها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في الفقراء تغامزوا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولمزوه وقالوا: نحن الذين نقوم في الحرب ونغزو معه ونقوي أمره ثم يدفع الصدقات إلى هؤلاء الذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئاً فأنزل اللَّه الآية، ثم فسر اللَّه عزَّ وجلّ الصدقات لمن هي وعلى من يجب فقال: «إنما الصدقات للفقراء ...»

(2). الدر المنثور 3: 250 عن أبي سعيد الخدري قال: بينما النبي صلى الله عليه و آله يقسم قسماً إذ جاءوه ذوالخويصرة التميمي فقال: اعدل ... فقال عمر بن الخطاب: يا رسول اللَّه أئذن لي فأضرب عنقه، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شي‏ءٌ ثم ينظر في نضبه فلا يرى فيه شي‏ءٌ ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شي‏ءٌ قد سبق الفرث والدم آتيهم رجل أسود إحدى يديه- أو قال- ثدييه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدرد يخرجون على حين فرقة من الناس، قال: فنزلت فيهم «ومنهم من يلمزك في الصدقات ...» قال أبو سعيد: أشهد أني سمعت هذا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه جي‏ء بالرجل على النعت الذي نعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 332

اللَّه». «1»

وتلك السجية المافقة اللعينة وهي عدم الرضى بحكم اللَّه في تقسيم صدقة أماهيه، إنها دركات حسب دركات الحالات والمجالات، فحتى المؤمن غير الراضي بقَسم اللَّه في تكوين أو تشريع داخل في حقل التنديد قدر السخط في ذلك قالًا وحالًا وأعمالًا.

وترى يجوز أن يدفع لمنافق صدقة؟ طبعاً لا، فكيف «إن اعطوا منها رضوا» وإعطاءهم منها محظور؟.

إعطاءهم منها كأصلٍ محظورٌ، وأما إعطاءهم خوف إفسادهم فمحبور، وكما فعل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله‏ «2» وهكذا الأمر في المؤلفة قلوبهم، فَعلَّ المنافق يصبح موافقاً بتلك العطية أو يترك شرَّه وضَرَّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: لم اقسم النبي صلى الله عليه و آله غنائم حنين سمعت رجلًا يقول: إن هذه قسمة ما أريد بد وجه اللَّه فأتيت النبي صلى الله عليه و آله فذكرت له ذلك فقال: «رحمة اللَّه على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر ونزل» ومنهم من يلمزك في الصدقات.

وفي تفسير الفخر الرازي 16: 97 قال الكلبي قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: تزعم أن اللَّه أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء والمساكين ولم تضعها في رعاء الشياه؟ فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لا أباً لك أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً فلما ذهب قال صلى الله عليه و آله: احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون‏

(2). وفيه روى أبو بكر الأصم أنه صلى الله عليه و آله قال لرجل من أصحابه: ما علمك بفلان؟ فقال: ما لي به‏علم إلا أنك تدنيه في النجلس وتجزل له العطاء، فقال صلى الله عليه و آله: إنه منافق أدارى عن نفاقه وأخاف أن يفسد على غيره، فقال: لو اعطيت فلاناً بعض ما تعطيه، فقال صلى الله عليه و آله: إنه مؤمن أكِله إلى إيمانه وأما هذا فمنافق أداريه خوف إفساده، وفيه قال الضحاك: كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقسم بينهم ما آتاه اللَّه من قليل المال وكثيره وكان المؤمنون يرضون بما اعطوا ويحمدون اللَّه عليه وأما المنافقون فإن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلًا سخطوا، وفيه: قيل إن النبي صلى الله عليه و آله كان يستعطف أهل مكة يومئذٍ بتوفر الغنائم عليهم فسخط المنافقون‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 333

«وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ». «1»

«لو» هنا ترجٍّ لما لم يحصل منهم أو لمَّا يحصل، فالنص يقرر أن المنافقين على نفاقهم لو رضوا ... لأصبحوا من المؤمنين بذلك الرضى فإنه قضية الإيمان، وهنا تعني «ما آتاهم اللَّه» تكويناً وتشريعاً «ورسوله» تطبيقاً رسالياً، إذ ليس الرسول مشاركاً للَّه‏تكويناً أو تشريعاً ولا نائباً عنه، وهكذا «سيؤتينا اللَّه من فضله» تقديراً «ورسوله» تقريراً «إنا إلى اللَّه راغبون» لا سواه.

ذلك أدب نفسي أديب أريب أن يرضى العبد بقسمة اللَّه، رجاءً.

دعوة الى اللَّه ومجادلة في اللَّه‏

«ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ». «2»

هنا القرآن يُرسي قواعد الدعوة الى سبيل ربك، بالحكمة والموعظة الحسنة، وحين تفشل الدعوة بصلابة المدعوين وصلاتتهم، فلكي لا يتغلبوا على الحق فيضلوا اصحابه فبقاعدة واحدة «وجادلهم بالتي هي احسن» وهذه الثلاث هي اركان الحوار مع الناس- المهتدين وسواهم- لا سواها.

فانما الجدال مع المنازع المكابر حتى يحيد عن كيده ولا يميد في غيه واضلاله، واما الذين هم على الفطرة السليمة، المتحرين عن الحقيقة بدرجاته، ام غير المناوئين للحق مهما لم يتحرّوا عنه، فهم تكفيهم الحكمة عقلية او علمية او عملية، أو الموعظة الحسنة، ام تكفيهم هذه المجموعة الاربع، فلا يجادلون في الحق حتى يجادَلوا.

كل ذلك ل «ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله» فلا يفيقه ويصده عن طيشه الا جداله بالتي هي احسن «وهو اعلم بالمهتدين» فلا تهديهم الى سبيل ربك الا الحكمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 59

(2). 16: 125

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 334

والموعظة الحسنة.

ثم الحسنة ليست صفة- فقط- للموعظة، حيث الحكمة احوج الى الحسنة من الموعظة التي هي بطبيعة الحال حسنة، ومن حيث الضابطة الأدبية اللام الداخلة على الحسنة موصولة وتتحمل صلتها الإفراد والتثنية والجمع حسب القرائن الموجودة، متصلة ومنفصلة، ثم الحسنة مع غض النظر عن الموصول صفة على البدل ام جنس تشمل اكثر من واحدة، ولو خصت الموعظة بالحسنة لتقدمت بوصفها على الحكمة، فكما الموعظة في الدعوة مشروطة بالحسنة، كذلك وبأحرى الحكمة، فانها ان خلت عن الحسنة ما أثرت كما يرام، فلتكن الحكمة على أية حال في زواياها الثلاث حسنة لينة، كما الموعظة.

وانما يكتفي فيها بالحسنة ولا يكتفي في الجدال إلا التي هي أحسن، لأنهما ليستا إلا وجاه الذين يهتدون فتكفيهم الحسنة وإن كانت الحسنى فبأحرى، ولكن الجدال فهي وِجاه المنازع المكابر، فلا بد من كسره بالتي هي احسن حيث لا تبقي له رمقاً وحيوية في الدعاية الباطلة.

فسبيل ربك هي السبيل القمة التي رباك ربك لها، فانت تدعو العالمين الى هذه السبيل التي تجتازها قبلهم الى الحق المُرام.

فليست هذه الدعوة إليك فما انت الا رسولًا، ولا الى ربك اذ لا يصل اليه احد، ولا الى سبيل رب العالمين فان السبل الى اللَّه بعدد انفاس الخلائق، وانما «الى سبيل ربك» السبيل التي رباك فيها ربك وهداك اليها وهي القمة التربوية الرسالية، فانت السبيل الى ربك‏ «1» فلتكن الدعوة بالقرآن وبالسنة الرسالية لرسول القرآن‏ «2» لأنها دعوة بالتي هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في الكافي عن ابي عبداللَّه عليه السلام حديث طويل يقول فيه: فاخبر انه تبارك وتعالى اوّل‏من دعا الى نفسه ودعى الى طاعته واتباع امره فبدء بنفسه وقال: واللَّه يدعو الى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم ثم ثنى برسوله فقال: ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن يعني بالقرآن، اقول: بالقرآن متعلق بالحكمة والموعظة الحسنة كما بالتي هي احسن‏

(2). نور الثقلين 3: 95 عن تفسير القمي عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال واللَّه نحن السبيل الذي امركم اللَّه باتباعه قوله «وجادهم بالتي هي احسن» قال: بالقرآن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 335

احسن.

والحكمة هي هيئة خاصة من الحكم وهو الوصل بين منفصل، الذي فِصاله خلاف الحق والتربية الإلهية، والحكمة الحسنة هي التي تُحكِّم عرى فطرية او عقلية او علمية او عملية منفصمة، فترجعها الى حالة حكمية خارجة عن اي تفسخ وانفصام وعند ذلك تتجلى الحقيقة كما هيه.

ومن حسنة الحكمة رعاية أحوال المدعوين وظروفهم حتى لا تثقل عليهم الحكمة فتبوء بالخسار والفصال اكثر مما في الحال، فعل حسب القابليات تؤثر حكيمة الفاعليات فتسود الدعوات، واذا زادت او نقصت نقضت، واذا سادت انتفضت، وليكن الداعية طبيباً دواراً بطبِّه يضع الدواء حيث الحاجة اليه، بعد معرفة الداء والدواء.

فمن الناس من تنقصه الحكمة العقلية فلا تفيده غيرها، ام تنقصه الحكمة العلمية فلا تفيده العقلية، وكما منهم من تحكمت حِكَمه كاملة عقلية وعلمية اما هيه، ولكن تنقصه الموعظة الحسنة، ام تحكمت عنده الموعظة ولكن تنقصه الحكمة.

فليكن الدّاعية بصيراً بمواضع الحاجة فيضع الدواء حيث الداء حتى تاتيه الشفاء.

فالحكمة الحسنة تأخذ بازمة القلوب المهتدية فهي لها شعار، وقد تكفيها هدىً اذا دخلت شغافَها، وقد لا تكفيها فهي- إذاً- بحاجة الى دثار الموعظة الحسنة التي تدخل القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، دون اي زجر وتأنيب، ولا بفضح الأخطاء التي تحصل عن جهالة، فان الموعظة الحسنة كثيراً ما تهدي القلوب الشاردة، وتؤلف النافرة الماردة، فهي بأحرى ان تليِّن القلوب المهتدية التي لا تطمئن- فقط- بالحكمة الحسنة، لضعف العقلية او العلمية ام صلابة الطوية.

فمن القلوب ما تحتاج الى كلتا الحسنتين، لأنها خاوية عن الحكمة، خالية عن‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 336

الموعظة، فقد تتقدم لها الحكمة الحسنة ثم الموعظة، ام تتقدم الموعظة الحسنة ثم الحكمة تربطها، حسب اختلاف القلوب المهتدية في حاجياتها الدعائية.

فاذا كانت الحكمة او الموعظة سيئة انقلب الى اضل مما كانت، واذا كانت حسنى الموعظة والحكمة، فهي قمة الدعوة ولكنها ليست ضرورية، فبحسَب الدعوة للمهتدين تكون الحكمة والموعظة الحسنة.

ثم إذا كان الحوار مع من ضل عن سبيل ربك، متعنتاً ضد الحق، متفلتاً عنه، متلفتاً الى الضلال والإضلال، فلا الحكمة الحسنة تنجه، ولا الموعظة الحسنة تكفيه، هنا يأتي دور الجدال بالتي هي احسن، ولا السي‏ء ولا الحسن، والجدال هي المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل اي احكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد مجادله عن رأيه.

ام هي الصراع وإسقاط الانسان صاحبه على الجَدالة وهي الأرض الصلبة.

ولا يسمح في الجدال على أية حال إلا إذا لزم الأمر، ولم تؤثر الحكمة والموعظة الحسنة الأثر المُرام، ثم لا يسمح فيه إلَّا بالتي هي أحسن، وطبعاً إذا أثرت الحسنى، وإلا فحرباً حرباً: «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا منهم».

فليطامن الداعية أمام من ضل من حماسه واندفاعه، فلا يتحامل عليه ولا يُسي‏ءَ إليه، بل ويُحسن كأحسن ما يُرام حتى يطمئَن إليه، ويشعر ان ليس هدفه القضاء عليه، فما هو ميدان مصارعةٍ يصرع كلٌّ خصيمه بمختلف الحيل، وإنما الهدف في الحوار كشف القناع عن الحق، سواء أكان مع الداعية او المدعو ف «إنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين».

فالنفس البشرية- ولا سيما الضالة المعتدية غير المهتدية- لها كبرياءها وعنادها، فهي لا تتنازل عما ترتيه إلا برفق، كيلا تشعر في صراعه بهزيمة، فانها- بطبيعة الحال- تعتبر التنازل تنازلًا عن هيبتها وحرمتها وكيانها، والجدال بالتي هي احسن تُطامن من هذه الكبرياء والحساسية المرهفة، وتُشعر المجادل أن حرمته مصونة، وقيمته كريمة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 337

محترمة وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة التي هي احق منهما.

ولأقل تقدير فالجدال بالتي هي اسحن تُطامن من طيش المدعو فتخمد نار دعوته الضالة، ودَلالُه أمام المهتدين، فيصد عن شره وضره، وان لم ينصدَّ هو عن ضلاله في نفسه.

فقد يحاور الداعية ضالًا صامداً معانداً، فيزيد في عناده وعدائه بما يستعمل من طرق سيئة في حواره، تجهيلًا له، وسلباً لما يقدسه، وتهويناً لرأيه، وفي ذلك إماتة للحق وإحياء للباطل، وتحريض لأهله ان يكرسوا طاقاتهم وإمكانياتهم ضد الحق وأهله، وهذه جدال بالتي هي أسوء.

وقد يحاوره دون حُسن ولا سوء فهي جدال بالسوء، حيث لا تنفع وقد تضر، وهي لأقل تقدير تبقي الضال على ما كان، وذلك لغو وباطل من القول.

وقد يحاوره بحسن ليس ليصده عن الدعاية الباطلة، وانما تخفِّف عن طيشه ولا تجفف، فهي حسنة لا تكفي صداً عن ضره وشره.

فلتكن الجدال بالتي هي أحسن، فان تحقيق الحق وازهاق الباطل واجبٌ حسب المستطاع، إذاً ف «جادلهم بالتي هي أحسن».

وفي رجعة أخرى الى الآية- لنرى مدى الحسنة في الحكمة والموعظة، والاحسن في الجدال- أحكام حكيمة في شرعة الدعوة والجدال، مسرودة في آيات الدعوة والامر والنهي والجدال.

ومن حسن الحكمة ان يتصف بها الداعية، ولأقل تقدير قدر الدعوة، فليس لغير الحكيم ان يدعوا بالحكمة، وكما ومن حسن الموعظة اتعاظ الداعية قبل الدعوة ولاقل تقدير قدرها: «اتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افلا تعقلون» «1» «يا ايها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند اللَّه ان تقولوا ما لا تفعلون». «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 2: 44

(2). 40: 35

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 338

ومن الحسنى في الجدال ان يتذرع بالحق الجلي لإبطال الباطل او تحقيق الحق، سواء اكان حقاً واقعاً، ام اذا يرفضه محاوره ويفرض ما يعتقده، ان يتبنى اعتقاده بصيغة التردد، ان كان ما تقوله حقاً فليكن ما اقوله حقاً، وان كان ما اقوله حقاً فكذلك الامر.

فتبنِّي الباطل لابطال باطل آخر او تحقيق حق، هو من الإغراء بالجهل، سلوكاً لسبيل وعرة شاغرة، وهو من الجدال السي‏ء، وأسوء منه استعمال الخناء والسب في الجدال الى جانب تبني الباطل لإبطال باطل آخر او إحقاق الحق.

وتبنِّي‏حق يوجد أحق منه واوضح حجة، مع لين كلام هو من الجدال الحسن، ولا يكتفي به في اجتثاث جذور الهجمات الباطلة وهمجاتها.

ثم تبنّي احق الحق باوضحه حجة، وألينه محجَّة والطفه بياناً وتبياناً، مع اتصاف المجادل بما يحتج به عقائديا وعلمياً وعملياً، هو ابلج المناهج في الجدال، وهي المقصود بالتي هي احسن، وحين لا يستطيع المجادل ان يجادل بالتي هي احسن فليتعلم، او ياتِ بمن يعلم، حيث «التي هي احسن» مطلق مطبَق دون اختصاص بما يستطيعه المجادل، اللهم إلا في عسر او حرج فلا عسر- إذاً- ولا حرج، ان يكتفي بما يستطيعه، إلا إذا لم تؤثر جداله بغير الأحسن الأثر المُرام، او انقلب ضدَّه، فهنالك السكوت، حيث القصد من الاحسن سدّ الثغرات وخفق النعرات والزمجرات ضد الحق.

فحين لا تفيد الحكمة والموعظة الحسنة فهنا دور الجدال بالتي هي اسحن صداً لثغرة الباطل وسعاره، بمضلِّل شعاره، لان الداعية حين لا يستطيع بحكمته وموعظته ان يهدي من ضل عن سبيل اللَّه، فليحاول بجداله سداً عن تضليله، ليعرف كليله وعليله، ولا يحسب له قوة قاهرة على الحق واهله.

ثم اذا لم تفد جداله بالحسنى، وبدل الاهتداء او السكوت يعتدي على اهل الحق، فهو داخل في الذين ظلموا: «ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن الا الذين ظلموا».

ظلماً شخصياً على المجادل بالحسنى، ام ظلماً جماعياً على المسلمين، فهنالك دور

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 339

الضربة القاسية القاضية، نفياً لمادة الفساد قدر الضرورة ولحد القتال اذا انحصر بها العلاج وانحسر المضلل عن الاضلال واللجاج.

«وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ». «1»

فمعاقبة المجادل الظالم، التي لم تنفعه بالحسنى، فضلًا عن الحكمة والموعظة الحسنة، إنها- كضابطة مطردة- معاقبة بالمثل، فهي مسموحة ككل، إلا اذا كان في تركها خسار وبوار متواصل لا يصده إلا معاقبته فواجب، ام غير مسموحة لو ان معاقبته تزيد في طيشه بضره وشره، والصبر أمامه له منعة- ولا اقل- من تطاوله، ام راجحة وهي في غير الواجب والمحرم «ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»، والصبر على أية حال أم في الاكثرية المطلقة هو مفتاح الفرج فراجح «لهو خير للصابرين».

فهذه طرق اربع يتطرقها الداعية في سبيل الدعوة وصد الضلالة، قد تجتمع في بعض المدعوين، وقد تنفرد، فمن الناس من تكفيه الحكمة، او الموعظة الحسنة، أو الجدال بالتي هي احسن، أو المعاقبة، أو الأربع كلها، أو اثنتان منها، ام ثلاث، وذلك حسب مقتضيات الظروف والمتطلبات في سياسة الدعوة لكل داعية، فالأقسام تصبح اربعة عشر قسماً، فإنها أربع وحدات وجمع الاربع، واربع ثلاثيات وخمسة اثنينات.

«وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ\* إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ». «2»

«واصبر» على كل حال، أيها الداعية في دعوتك بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالك بالتي هي احسن، وفي معاقبتك لما عوقبت، تفكراً في كل من هذه الاربع، وتنقلًا عن كل مرتبة في كل منها الى أخرى، كما من كل الى الآخر، صبراً في كل سلب وايجاب، في كل قالٍ وحال وفعال «وما صبرك» في هذه العقبات، والدوائر المتربصة بك «الا باللَّه» بحول اللَّه وقوته وبغاية الحفاظ على شرعة اللَّه والدفاع عنها، وبامر اللَّه «فاصبر كما صبر اولوا العزم عن الرسل».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 16: 126

(2). 16: 128

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 340

«ولاتك في ضيق مما يمكرون» خائفاً عن مكرهم «ان اللَّه مع الذين اتقوا» المحاظيرَ، واتقوه في سبيل الدعوة اليه «والذين هم محسنون» يصبرون فيما يحق لهم المعاقبة بمثل ما عوقبوا.

فالصبر على الظلم، ألا يتخاذل المظلوم أمام ا لظالم، ولا يغيِّر من اهدافه القدسية، ولا يدفعه الدفاع عن نفسه الى اعتداء اكثر مما اعتدي عليه، والى اصل الدفاع ايضاً علَّ الظالم يندم عما فعل فيصلح ما افسد، ام لا يزيد ظلماً، ام يقف عن ظلمه، فكل ذلك صبر وتقوى للمظلوم وجاه طغوى الظالم، إلا إذا أنتج الصبر تطاول الظالم عليه وعلى الآخرين، فذلك الصبر ظلم وصَيمٌ بحق نفسه وبحق الآخرين، وليس الا بالشيطان وللشيطان، والصبر العدل والفضل هو باللَّه وللَّه لانه بحاجة الى مقاومة للانفعال وضبط للعواطف وكبت للفطرة وحبط للقدرة.

وعلّ رجاحة الصبر هنا هي قضية الجو المكي، صبراً لى الهجرة وفيها قوة المسلمين، فبإمكانهم المعاقبة بمثل ما عوقبوا، ولكنها رجاحة فيها وجاهة اسلامية سليمة على أية حال، اللهم الا في قضايا استثنائية تحرِّم ام تفرض المعاقبة، ولا معنى للصبر عن الضعف الا نَظِرة القوة.

على ان المعاقبة انما يسمح فيها ام ينهى عنها فيما امكنت، فلتكن الآية مدنية وكما وردت به الرواية.

ذلك هو دستور الدعوة للداعية إيجابية وسلبية كما رسمه اللَّه، والنصر مرهون باتِّباعه كما وعد اللَّه، ومن أصدق من اللَّه وعداً وما النصر إلا من عند اللَّه العزيز الحكيم.

استقامة في الدعوة الى اللَّه‏

«فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِاعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَاحُجَّةَ بَيْنَنَا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 341

وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ». «1»

آية يتيمة عديمة النظير تأمر صاحب هذه الرسالة السامية إلى الدعوة والإستقامة كما أُمر، وإلى عشرة كاملة من نواهي وأوامر هامة تتبناها الرسالة الإسلامية كأصول الدعوة: 1- دعوة 2- واستقامة 3- وتركاً فيها لأهواءهم 4- «وقل آمنت» 5- «وأمرت» 6- «اللَّه ربنا ..» 7- «لنا أعمالنا ..» 8- «لا حجة بيننا ..» 9- «اللَّه يجمع ..» 10

- «وإليه المصير»!.

وقد تشبهها آية أخرى في أصل الإستقامة إضافة إلى من تاب معه وتركاً للبعض من هذه العشرة قضية الشركة كما أضيفت أمور أخرى لنفس القضية:

«فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعلمون بصير. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون اللَّه أؤلياء ثم لا تنصرون. وأقم الصلاة طرفي النهار وزُلَفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيآت ذلك ذكرى للذاكرين. واصبر فإن اللَّه لا يضيع اجر المحسنين». «2»

«فلذلك»: لأجل ذلك التفت العارم بين الأمم، والتحزبات المفرقة في شرعة وشرعة، وكذلك في نفس كلِّ شرعة رغم أن اللَّه واحد والدين واحد والشرعة واحدة كما الرسالة، لذلك «فادع» إلى وحدة الدين والشرعة، وشِرعتك هي الدين كله، وهي كل شرعة من الدين قبلك، وإنها شرعة القرآن‏ «لا تأتيه الاطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» «3» «فلذلك» يا قائد القيادة الجديدة الحازمة الحاسمة المديدة .. «فادع» إلى هذه الوحدة العريقة الرفيقة الضاربة إلى أعماق الزمن «واستقم» في هذه الدعوة الوطيدة دون لفتة الى الاهواء المصطرعة حولك وحول دعوتك الموحدة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 42: 15

(2). 11: 115

(3). 41: 42

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 342

اعلاناً بجديد الايمان بقديم الدين المتين الذي شرعه اللَّه للنبيين اجمعين.

ولانك النبيون أجمع تجمع كافة النبوات، وأن هذه امتهم امة واحدة، فالمكلفون أجمع أمتك أمة واحدة «فلذلك فادع واستقم كما أمرت».

هنالك دعوة تجمع دعوات الرسالات كلها، فاستقامة في هذه الدعوة تجمع الإستقامات كلها، كما أن نبوتك تجمع النبوات كلها، وشرعتك هي الدين كلُّه، وهي الشرائع كلُّها!.

«فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم» إذ هي تهوي إلى هوّاة الخلافات والتحزبات المذهبية، إلى شفا جرف الهلكات «لذلك فادع»: «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» «1» «لكل امة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في‏ الأمر وداع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم» «2» «ولا يصدنك عن ايات اللَّه بعد إذا أنزِلَت إليك وأدع إلى ربك ولا تكونن من المشركين. ولا تدع مع اللَّه إلهاً آخر لا إله إلّا هو كل شي‏ء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون». «3»

هنا يمنع شرعته عن كيان الشرك أن يقول: أنا على شرعتي وأنتم على شرايعكم إبقاءً على التحزبات المذهبية- لا! وإنما هذه الدعوة دعوة إلى توحيد الأمم أن يتضامّوا تحت راية واحدة.

1- 2 «فادع واستقم» اطلب القوامة: لزوم المنهاج القائم دون عِوَج وعَرَج، طلباً من ربك أن يقيمك كما أمر، ومن الأمم أن يستقيموا كما أمر، دون موآربة ولا مسايرة ولا أنصاف حلول، ومن استقامتك‏ «أن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين» «4» «فاقم وجهك للدين القيم» «5» ف «إن هو إلّا ذكر للعالمين. لمن شاء منكم‏ أن يستقيم» «6» حيث الإستقامة في هذه الدعوة والداعية والمدعوة، إنها كيانها وقوامها، دون أن يحرفها حارف أو يجرفها جارف «فلذلك فادع واستقم كما امرت ولا تتبع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 16: 125

(2). 22: 67

(3). 28: 87

(4). 10: 105

(5). 30: 43

(6). 81: 28

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 343

اهواءهم»:

«إن الذين قالوا ربنا اللَّه ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» «1» «.. تتنزل‏ عليهم الملائكة ألَّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون. نُزُلًا من غفور رحيم. ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى اللَّه وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين». «2»

لقد امرت الأمم قبلئذٍ «أن اقيموا الين ولا تتفرقوا فيه» فلم يأتمروا إلا قليلًا، ثم الرسول محمد صلى الله عليه و آله يؤمر أخيراً أن يحقق هذا الأمر «واستقم كما أمرت» ومن ثم «ومن تاب معك» فقد حُمِّل هو ومن معه تحقيق هذه الرسالة الموحِّدة وقد حقق كما حُمِّل في دعوته الصارمة، وعلى الذين معه حمل هذه الرسالة حتى يحققوها كما وسوف تتحقق في الدولة المباركة المهدوية عليه آلاف التحية والسلام.

ولقد كانت هذه الرسالة الجمة الهامة حِملًا عليه ثقيلًا لحدٍ «قال: شمروا فما رؤي ضاحكاً» «3» وكما يروى عنه صلى الله عليه و آله: «شيبتني هود وأخواتها» والشورى كبيرة أخواتها حيث تخصه آيتها بالإستقامة إذ قيل له صلى الله عليه و آله: لِمَ ذلك يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله! فقال: لأن فيها «فاستقم كما امرت» «4» ولم يذكر ومن تاب معك وإنما «كما امرت» فهي في الشورى أعلى منها في هود، ولن تطيق الأمة الإسلامية تحقيق الإستقامة التي امر بها الرسول صلى الله عليه و آله إلّا على حدها، لأنها الخروج من كافة المعهودات، والقيام بين يدي الحق على حقيقة الصدق المطلق لتحقيق كافة الرسالات ولُبِّها في العالمين.

الدخول في أمر اللَّه- لا سيما إذا كانت الرسالة العليا- هو طبعاً صعب، ولكنما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 46: 13

(2). 41: 33

(3). الدر المنثور 3: 351- اخرج ابن ابي حاتم وابو الشيخ عن الحسن رضى الله عنه في قوله تعالى «فاستقم كما امرت ومن تاب معك» قال: شمِّروا .. اقول: فاذا هو شمر بعد نزول هذه الآية المشتركة بينه وبين من معه فما كانت اذا حالته لمّا نزلت آية الاستقامة الخاصة به صلى الله عليه و آله!

(4). تفسير روح البيان للحقي ج 8 ص 299

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 344

الإستقامة فيه أصعب فإنه التمكن في المأمور به لحد يصبح المأمور راسخاً فيما امِر به غير محتمل الزوال ولا الخمول، وحتى يصبح هو هو الأمر والإستقامة في الأمر كما أمر وقد روي «ما نزلت آية كانت أشق على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من هذه الآية» «1» حيث تحمل إثباتات ونفياً: «ولا تتبع أهواءهم» وإنما هوىً واحدة هي هدى اللَّه: «قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما انا من المهتدين» «2» «ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك‏ من العلم ما لك من اللَّه من ولي ولا نصير» «3» «.. إنك إذاً لمن الظالمين» «4» «ولو اتبع‏ الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن». «5»

4- «وقل آمنت بما أنزل اللَّه من كتاب» دون فرق في هذا الإيمان وإنما في التطبيق، حيث الكتاب الأخير يحتل دور التطبيق فلا يبقى بما أنزل قلبه إلّا إيمان وتصديق، رداً لإيمان العالمين كلهم إلى أصل واحد، ورداً على المفرقين بين اللَّه ورسله: «إن الذين يكفرون باللَّه ورسله ويريدون أن يفرقوا بين اللَّه ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلًا. أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين آمنوا باللَّه ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان اللَّه غفوراً رحيماً». «6»

فالرسول يؤمن هكذا إيمان، ويأمر الأمم أن يؤمنوا هكذا إيمان: «آمن الرسول بما انزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌ آمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ..» «7» «قولوا آمنا باللَّه وما أنزل إلينا وما انزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق‏ ويعقوب والأسباط وما أؤتى موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون. فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم اللَّه وهو السميع العليم. صبغة اللَّه ومن أحسن من اللَّه صبغة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير بيان السعادة ج 2 ص 342

(2). 6: 56

(3). 2: 12

(4). 2: 145

(5). 23: 171

(6). 4: 153

(7). 2: 285

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 345

ونحن له عابدون». «1»

5- «وامرت لأعدل بينكم» «لأعدل» تعني كلا العِدل والعَدل، فقد أمرت لاجعلكم عِدل بعض في هذه الدعوة الموحدة، كأسنان مشط على سواء، دونما ترجيح لجماعة على آخرين، وكذلك أن اعدل بينكم بحكمٍ عَدل.

ف «بينكم» حيث توحي إلى بينونات في هذه الأمم، يؤمر الرسول أن يدعو عدلًا ويحكم عَدلًا لكي يزيل هذه البينونات فيجعلهم امة واحدة، فيا لها من دعوة عادلة عاقلة لا تتبنى عنصرية أو قومية أو طائفية أو إقليمية أم ماذا، اللّهم إلّا «صبغة اللَّه ومن أحسن من اللَّه صبغة ونحن له عابدون». «2»

إنها تسوية بين كتب إيمانية، وتسوية بين عباد اللَّه دعوة إلى هذا الإيمان.

6- «اللَّه ربنا وربكم» لا أرباب متفرقون لكي نتفرق هنا وهناك وإنما هي إعلامٌ عامٌ بربوبية واحدة فعبودية واحدة، فنحن كلنا كعبيد سواءٌ في هذه الربوبية الواحدة: «قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلا اللَّه ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللَّه فإن تولوا فقوا اشهدوا بأنا مسلمون» «3» .. وبعد إعلان الربوبية الواحدة تعلن فردية التبعة:

7- «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» لا ينفعنا صالح أعمالكم ولا يضرنا طالح أعمالكم، وكما لا تنفعكم أو تضركم أعمالنا، فليست هذه الدعوة الموحدة لنا تجارة أو لكم خسارة، وإنما «سلام عليكم»: «وقالوا لنا أعمالنا ولكن أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين». «4»

إنها ليست دعوة استثمارية لصالح هذه الشرعة الأخيرة أو رسولها والمتشرعين لها، وإنما هي بسط الرحمة الإلهية و «ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم» «إنْ حسابهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 128

(2). 2: 138

(3). 3: 64

(4). 38: 55

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 346

إلّا على ربي لو تشعرون» «1» «ما عليك من حسابهم من شي‏ء وما من حسابك عليهم‏ من شي‏ء». «2»

8- «لا حجة بيننا وبينكم» وترى وما هي الحجة المنفية في هذا البين؟ وهذه كلها حجج إلهية على هؤلاء الإنعزاليين!

أقول: إنها قد تعني بعد هذه الحجج الموحِّدة للدين، التي سلفت، حيث أزالت البينونات، فلم تبق حجة لازمة لإزالة البين إلّا بُيِّنت ف «لا حجة بيننا وبينكم» .. أم وتعني حجة- بعد ذلك- تبيِّن وتفرق .. فبأية حجة نتفرق أيادي سبا إلى مسلمين وهود ونصارى، فقد استجيبت الحجة الموحدة لمن استسلم للَّه‏وأسلم وجهه للَّه، فلم تبق- إذاً- حجة إلّا داحضة: «والذين يحاجون في اللَّه من بعدما استجيب له حجتهم داحضة ..»

ف «لا حجة بيننا وبينكم» تنفي الحجة الحقة، سواءً المثبتة لهذه الوحدة وقد تمت، أو المفرقة ليست اللهم إلّا داحضة! أم ولا حجة بيننا وبينكم تثبت رجاحة شرعة على شرعة حيث الكل شرائع اللَّه من دين واحد للَّه، أم ولا خصوم بيننا وبينكم، ولماذا نتخاصم والوحدة لائحة، اللهم إلّا أن يخاصم داعي الوحدة الدينية دعاةَ التفرقة.

9- «اللَّه يجمع بيننا وبينكم» إله واحد يجمعنا بجمع واحد في صعيد واحد بحساب واحد، «قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا وهو الفتاح العليم» «3» «قل اللَّه يحييكم ثم‏ يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة» «4» «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن» «5» وكما «اللَّه- هناك- يجمع بيننا وبينكم» إنه ربنا جميعاً ف «إنا للَّه‏وإنا إليه راجعون» إنه يجمع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 36: 113

(2). 6: 52

(3). 34: 26

(4). 45: 26

(5). 64: 9

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 347

بيننا وبينكم ليوم الجمع التغابن كما جمع بيننا وبينكم هنا ليوم الفرق والتعاون، جمعاً في دينه وشرعته، وسوف يفتح بيننا فيما كنا فيه مختلفين وهو الفتاح العليم.

10- «وإليه المصير» إليه وحده لا شريك له، لا إلى ارباب متفرقين، ف «انا للَّه‏وإنا اليه راجعون» شرعة واحدة- سير واحد- إله واحد ومصير واحد ففيمَ إذاً نتباغض ونتعارض؟

«وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ». «1»

الحجة هي الدليل القاصد لإثبات أمر أو إبطاله، والمحاجة هي تبادل الحجة وتضاربها، فقد تكون حقاً بالتي هي أحسن عن علم وحلم، أو تكون باطلًا فيما ليس لهم به علم: «ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم». «2»

والمحاجة في اللَّه قد تكون في كونه أو توحيده وكيانه، أو وحيه وشرعته: «قل أتحاجوننا في اللَّه وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون» «3» «فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي للَّه‏ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءَأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ واللَّه بصير بالعباد». «4»

هنا توحي «من بعد ما استجيب له» أن المحاجة كانت في شرعة اللَّه الأخيرة، واعتبرت الإستجابة الصادقة له حجة قاطعة لا مرد لها ولا حاجة معها إلى حجة أخرى، لا مثبتة حيث ثبتت بالإستجابة، ولا نافية فإنها عند ربهم داحضة.

وترى أن استجابة جماعة لشرعة هي برهانٌ أنها إلهية؟ فلتكن كل شرعة حقةً وإلهية! أم لهذه الإستجابة شروط ومقومات، فما هي مقوماتها حيث كانت في الشرعة الأخيرة فلا محاجة- إذاً- إلّا وهي داحضة؟!.

ولأن الدحض هو الزلق، فالحجة الداحضة هي الزالقة، الضعيفة غير الثابتة ولا متماسكة، الواطى‏ء الذي تضعف قدمه فيزلق عن مستوى الأرض ولا يستمر على الوطء، وداحضة بمعنى مدحوضة بنفسها أنها تدحض نفسها بنفسها لضعف سنادها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 42: 16

(2). 3: 66

(3). 3: 139

(4). 3: 20

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 348

ووهاء عمادها، فهي هي المبطلة لنفسها من غير مبطل غيرها، لظهور أعلام الكذب فيها وقيام شواهد التهافت عليها، وإنما اطلق تعالى إسم الحجة عليها وهي شبهة واهية لاعتقاد المُدلي بها أنها حجة وتسميته لها بذلك في حال النزاع والمناقلة حيث يوردها موردها مورد الحجة، ويسلكها طريقها ويقيمها مقامها.

حجج داحضة:

من حجج اليهود والنصارى أن التوراة أو الانجيل متفق عليه بينهم وبين الذين أسلموا، والقرآن مختلف فيه، فليأت المسلمون لوحي القرآن ببرهان دوننا حيث الإستجابة للتوراة والإنجيل تجمعنا دون القرآن.

فيقال لهم: إن هذه الحجة داحضة: باطلة زائلة في ميزان الحق لا تستحق إلفات نظر، نسألهم اولًا ما هي ماهية الإتفاق بيننا وبينكم في الكتابين؟ ألأننا كلنا نؤمن بآله واحد، فاستجابتكم لكتاب سابق من اللَّه بآيات صدقة وبينات رسوله تحملنا على تصديقه، فعليكم كذلك تصديق القرآن لاستجابتنا له بآيات كمثلها أو هي أحرى وأهدى سبيلًا، إذاً فحجتهم داحضة!

أم لأن القرآن المستجاب لنا ببينات صدقة القاطعة يحملنا على تصديق الكتابين دون حجة أخرى، حيث الحجة المصدقة لهما ليست فيهما، فإنها منفصلة عنها وهي معجزات موسى وعيسى حيث تحمل مَن شاهدها بتصديق كتابيهما، إذاً فاستجابة حجة القرآن هي التي تحملنا على تصديق الكتابين فكيف تنقلب حجةً علينا تتطلب حجة أخرى بعد المتفق عليها ولا حجة لنا إلّا هيه، إذاً فحجتهم داحضة.

ثم القرآن لا يحملنا إلّا على تصديق الكتابين المبشرين به وبنبيّه: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل واتبعوا النور الذي أنزل معه اولئك هم المفلحون. قل يا أيها الناس إني رسول اللَّه إليكم جميعاً .. فآمنوا باللَّه ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن باللَّه وكلماته وابتعوه لعلكم تهتدون»، «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 7: 158

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 349

«الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» «1» «.. الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون»!. «2»

إذاً فلا نشارككم في تصديق الكتابين دون شروط، إنما نصدق الذي بشَّر بنبينا وبكتابه، إذاً فحجتهم داحضة. «3»

ثم الذي يستندون إليه في استجابتهم لتورات او انجيل ليس إلّا معجزات من الرسولين شهدها من حضرها دونهم، وإنما استجابوهم دون حجة حاضرة، وإنما لحسن الظن بأسلافهم، والكتابان محرفان لا حجة فيهما وحتى قبل التحرُّف إذ لا معجزة فيهما، فهذه إذاً استجابة فاشلة، ولكنما المسلمون يستجيبون دعوة القرآن لأنه معجزة بنفسه وهو أوضح برهان لرسالة رسوله، فقد استجابوا وعلى مر الزمن لوحي القرآن بحجة حاضرة غير محرفة، إذاً فحجة اليهود والنصارى داحضة زائلة عند ربهم، إنْ في اثبات وحي الكتابين أو في رد وحي القرآن، فلما استجيبت دعوة القرآن بحجته الحاضرة لم يكن نكرانهم لما استجيب له إلّا كفراً باللَّه وآياته، إذاً ف «حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد»!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 146

(2). 6: 20

(3). وفي حوار بين الإمام الرضا عليه السلام وجاثليق عظيم النصارى ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 350

شارع الشرعة والقانون هو اللَّه‏

«أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». «1»

إنما الدين كله للَّه، والشارع من الدين كله هو اللَّه، لا شريك له لا في الدين ولا في شرع الدين، وإنما المرسلون حَمَلة دين اللَّه وشرائعه، ومبلغوا شرعة اللَّه ومؤسسوا دولته تطبيقاً لها وذوداً عن ساحتها وسماحتها.

ترى ما هو موقف «أم» هنا وهي لعطف الإعراض؟ .. قد يكون المعطوف عليه مما يلي: أليسوا هم بحاجة إلى شرعة من دين اللَّه إذ لا يعبدون اللَّه وإنما أوثانهم وطواغيتهم؟ أم هم شرعوا لأنفسهم من الدّين ما أذن اللَّه أو ما لم ياذن به اللَّه؟ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به اللَّه؟ وشركائهم هم الذين اتخذوهم شركاء للَّه فهم إذاً شركائهم لا شركاء اللَّه.

ليس من المعقول أن الدين الطاعة للَّه، ثم يشرع مِن دينه مَن سواه دون إذنه، تدخلًا عارماً طاغياً في طاعة اللَّه، ويكأن اللَّه لا يملك شرعة من دينه فشركائهم شرعوا لهم من الدين ما لم ياذن به اللَّه!.

فاللَّه وحده هو الشارع لعباده من دينه وطاعته، فإنه مبدئهم ومبدعهم والكون كله، يدبره بالنواميس التكوينية والتشريعية سواء، وليست الحياة البشرية إلّا ترساً صغيراً في عجلة هذا الكون الشاسع الواسع، فليتحكمها شرعة تتمشى مع تلكم النواميس وتمشِّي الإنسان إلى قمم الكمال المعدة له في هديه، فكيف يشرع من دين اللَّه من سوى اللَّه، أوِلاية على اللَّه؟ وهو الولي الحميد! أم حيطة على النواميس ومتطلبات الحياة؟ ولا يحيطون بأنفسهم علماً! أم ماذا.

مع وضوح هذه الحقيقة لحد البداهة فمن الحماقة والبلاهة المحاولات الطائلة لسَنِ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 42: 21

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 351

القوانين لإدارة شؤون الأفراد والجماعات حتى من أعقل العقلاء وأعدل العدول، وحتى المرسلين، فما هم بمشرعين من الدين، إنما هم رسل يحملون شرائع من الدين شرعها اللَّه، ثم لا تدخُّل لهم في أية كبيرة أو صغيرة.

وليس لمن يستنبط إلّا استنباط التشريعات الجزئية المتجددة مع حاجيات الحياة، على ضوء القرآن والسنة الرسالية والرسولية، دون سنٍّ لافيه صغيرة أو كبيرة من عند أنفسهم، وإنما استنباط واجتهاد لأهله على شروطه.

هكذا تدخُّل عارم في شرعه اللَّه مما لم ياذن به اللَّه يحق له القضاء الصارم من اللَّه «ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم»: كلمة التأجيل لأجل إلى الساعة، دون تعجيل قبل الساعة.

يوم الدنيا ليس يوم الفصل وإنما هو يوم الأخرى: «هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون» «1» «إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين» «2» «هذا يوم الفصل جمعناكم‏ والأولين» «3» «إن يوم الفصل كان ميقاتاً». «4»

كلمة الفصل تحمل ميقات يوم الفصل، والإمهال والتأجيل ليوم الفصل، كما تحمله آيات الإمهال والتأجيل إلى يوم الفصل، حيث يقضي بينهم ويفصل ففريق في الجنة وفريق في السعير «وإن الظالمين لهم عذاب أليم» وهؤلاء من أظلم الظالمين حيث يتدخلون في ولاية اللَّه بعد إشراكهم باللَّه: أن شرع لهم شركائُهم من الدين ما لم يأذن به اللَّه.

«تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ». «5»

ترى الظالمين وَجِلين ما كسبوا على عناية علَّهم ينجون وهو واقع بهم، لا جزاءه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 37: 21

(2). 44: 40

(3). 77: 37

(4). 78: 17

(5). 42: 22

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 352

انتقاماً، بل إن ما كسبوا هو واقع بهم وقوع الشاهد القارع، حيث الأعمال والأقوال تشهد شهادة ذاتية عينية على عامليها، ومن ثَم وقوعاً لحقائقها التي تبرز يومها ولا يظلمون نقيراً، حيث ينقلب عذاباً لا مخلص منه ولا محيد.

هؤلاء الظالمون المشفقون مما كسبوا، ومن ثم مؤمنون مشفقون‏ «والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات» كما قدموها بما كسبوا وعند اللَّه مزيد «لها ما يشاءون فيها ولدينا مزيد» «1» عما يشاءون، «وهم فيها اشتهت أنفسهم خالدون» «2» «وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين» «3» «ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدَّعون». «4»

«ذلك» من روضات الجنات ولهم ما يشاءون عند ربهم «وهو الفضل الكبير»! فهناك جنات هي لسائر أهل الجنة، وهنا روضات الجنات وهي البقاع الشريفة المتميزة فيها للذين آمنوا وعملوا الصالحات، لا الذين‏ «خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيئاً». «5»

وترى ان ثواب الجنات بروضاتها ليس عن استحقاق فلا يجب على اللَّه حتى يكون فضلًا كبيراً؟ أقول: نعم وكلّا .. كلّا حيث الإيمان وعمل الصالحات لا يرجعان بفائدة إلى اللَّه إلى العاملين فلا استحقاق لأجر، ونعم: حيث «كتب على نفسه الرحمة» ووعد اللَّه الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة، فقد فرض على نفسه الفضل، حيث لا أصل الفضل واجب عليه ولا كبيره، فهو فضل على فضل.

«ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ». «6»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 50: 35

(2). 21: 102

(3). 43: 71

(4). 41: 31

(5). 9: 102

(6). 42: 23

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 353

بشارة عظمى بعطية كبرى لعباد اللَّه المؤمنين الصالحين، أترى أن الرسول صلى الله عليه و آله يسألهم على عَنَت لدعوة بوعثاءها وأعباءها والبشارة بعقباها في أولاها وعقباها، أيسألَهم عليه أجراً؟ ..

«قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودَّة في القربى‏»!

وهذه سنة اللَّه الدائبة في رسله ألّا يسألوا المرسل إليهم أجراً، ولا جزاءً ولا شكوراً، لا مادياً ولا معنوياً، فأجرهم مضمون لهم عند اللَّه، وهم ليس لهم أجورهم‏ «أم تسألهم اجراً فهم من مغرم مثقلون». «1»

وهكذا نسمع الرسل منذ نوح يواجهون الأمم بأمر اللَّه بالقول: «وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على رب العالمين» «2» وهود (127) وصالح (145) ولوط (164) وشعيب (180) ومَن قبلهم وبينهم وبعدهم مِن المرسلين: «اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون» «3» كعامة المرسلين وحتى يوصل وبأحرى إلى خاتم المرسلين: «قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودة في القربى‏» وليست هذه المودة- أياً كان- أجراً وإن كانت بصيغة الأجر: «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلّا على اللَّه وهو على كل شي‏ء شهيد» «4» فهو إذاً أجر لا يرجع بفائدة إلّا لهم في سبيل الإيمان بربه: «قل ما أسألكم‏ عليه من أجر إلّا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلًا» «5» بعد قوله: «وما أرسلناك إلّا مبشراً ونذيراً» لا تاجراً تتعامل ببلاغ الرسالة، والصيغة المجردة في سلبية الأجر سارية دون تكلف: «قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من التكلفين. إن هو إلّا ذكر للعالمين. ولتعلمن نبأه بعد حين» «6» «أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مُثقَلون»؟ «7» «وما تسألهم‏ عليه من أجر إنْ هو إلّا ذكر للعالمين». «8»

آيات ثلاث تنفي عنه صلى الله عليه و آله سؤال الأجر كاستمرارية للسنة الرسالية، وثلاث أخرى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 52: 40

(2). 26: 109

(3). 36: 21

(4). 34: 47

(5). 25: 57

(6). 38: 88

(7). 52: 40

(8). 12: 104

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 354

تُعالج موقف المودة في القربى أنها ليست في الحق أجراً وإنما «هو لكم» وسبيل إلى ربكم، ودخول إلى مدينة علم الرسول من أبوابها المقررة لكم.

إذاً فلتكن المودة في القربى لصالحهم كمسلمين، وسبيلًا إلى رب العالمين، فلتكن مودة في أبواب مدينة علم الرسول، واستمرارية لرسالة الرسول، لا مودة في أقرباءه بسبب القرب سببياً أو نسبياً أم ماذا من القرابات التي لا يحسب لها حساب في ميزان اللَّه.

ومن المعلوم دون ريب أن وجهة الخطاب هم المؤمنون المبشر لهم بروضات الجنهات حيث آمنوا وعملوا الصالحات، دون الظالمين المشفقين مما كسبوا، إذ الناكرون لأصل الرسالة لا يعقل طلب الأجر منهم جزاءً لهذه الدعوة وهم ناكروها حتى يقول «لا أسألكم عليه أجراً» ثم يطلب منهم بدل الأجر مودتهم له صلى الله عليه و آله وهم ألدُّ أعداءه حيث يسب آلهتهم.

ثم هل من المعقول سؤال الرسول صلى الله عليه و آله المؤمنين برسالته أن يودوه في قرابته منهم، وليسوا هم كلهم من قرابته، ولم يكونوا يعادونه بعد الإيمان حتى يطلب وُدَّه نفسه لقرابته! أم ماذا من تأويلات عليلة.

إن القربي هنا كما تقول آياتها ليست إلّا القربى التي تقربهم المودة فيهم إلى اللَّه زلفى:

«إلّا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا» فإنما هي لهم لا له: «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم» إذاً فهم الأقربون إلى بيت الرسالة المحمدية «علي وفاطمة والحسن والحسين» تنزيلًا «1» و «التسعة المعصومون من ولد الحسين» تأويلًا، وكما أخرجه زهاء اثنين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 7- اخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيدبن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قالوا يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وولداهما ورواه مثله احمد بن حنبل في مسنده عن ابن عباس عنه صلى الله عليه و آله والثعلبي في تفسيره بسند صحيح عنه وابراهيم الحمويني من اعيان علماء السنة بسنده عنه وابو نعيم صاحب حلية الابرار بسنده عن الاعمش عن سعيد بن جبير عنه والمالكي في كتاب الفصول المهمة عنه وصاحب المناقب الفاخرة في العترة الطاهرة بسنده عنه- كل ذلك يرويه ابن عباس عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

وفي إحقاق الحق 14: 106- أخرج مثله جماعة من أعلام القوم منهم العلامة ابن المغازي في مناقبه 112 مخطوط عنه صلى الله عليه و آله ومنهم الحساكي في شواهد التنزيل ج 1: 130 ط بيروت بعدة طرق اخبرنيه الحاكم الوالد .. وأخبرنيه أبو بكر السكري ... وأخبرناه أبو عبد اللَّه الشيرازي .. وحدثنيه أو حازم الحافظ من أصل سماعه .... وأخبرنا أبو نصر المفسر ... وأخبرنا محمد بن عبد اللَّه الرزجاهي ... وحدثنا الحاكم أبو عبد اللَّه الحافظ .... وأخبرنا أبو سعد ابن علي ... ومنهم العلامة الحضرمي في وسيلة المال ص 66 نسخة الظاهرية بدمشق، ومهم العلامة الشيخ عبد القادر الشافعي السنندجي في تقريب المرام في شرح تهذيب الأحكام ص 332 مطبعة الأمرية ببولاق، كل ذلك عن ابن عباس أم غيره عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «هم علي وفاطمة وولداهما»!.

وفي المصدر عن العلامة الحسكاني في شواد التنزيل ج 2: 142 بإسناد متصل عن علي عليه السلام قال: فينافي «آلم حم» آية لا يحفظ مودتنا إلا كل مؤمن ثم قرأ «لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى» ورواه أيضاً مصبح بن هلقام عن عبد الغفور فاسنده إلى النبى صلى الله عليه و آله! وروى مثله العلامة باكثير الحضرمي في وسيلة المآل ص 65 نسخة المكتبة الظاهرية بدمشق من طريق ابي حيان والواحدي عن علي بعين ما تقدم.

واخرج أبو نعيم والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لا أسألكم عليه أجراً إلى المودة في القربى- ان تحفظوني في اهل بيتي وتودوهم بي، واخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير إلا المودة في القربى قال: قربي رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وروى ما يعنيه من ان القربى قربى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في الجمع بين الصحاح الستة عن ابن عباس وعلى بن الحسين بن محمد الاصبهاني في كتاب مقاتل الطالبين في خطبة للحسن بن علي عليه السلام بعد استشهاد ابيه عليه السلام انا ابن من فرض اللَّه مودتهم في كتابه حيث قال: «ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً» والحسنة حبنا اهل البيت، والمالكي عن السدي عن ابن مالك عن ابن عباس عنه صلى الله عليه و آله ان الحسنة هنا هي مودة آل محمد صلى الله عليه و آله وابن المغازلي الشافعي في كتاب المناقب بسنده عن الحكم بن ظهير عن السدي مثله، اخرجه كله في علي وفاطمة والحسنين وفي قربى رسول اللَّه وآل محمد واهل البيت السيد هاشم البحراني في كفاية الخصام ص 395- 396 الباب 72، ثم اخرج من طريق اهل البيت عليهم السلام انهم هم والأئمة عليهم السلام كلهم اثنين وعشرين حديثاً وكما الخرج من طريق اخواننا سبعة عشر حديثاً وكما اخرج في البرهان ونور الثقلين احاديث متواترة في هذا المعنى فراجعها.

واخرج ابن جرير عن ابي الديلم قال: لما جي‏ء بعلي بن الحسين عليه السلام اسيراً فاقيم على درج دمشق قام رجل من اهل الشام فقال: الحمد للَّه‏الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي بن الحسين عليه السلام اقرأت القرآن؟ قال: نعم- أقرأت آلم حم؟ قال: لا- قال: اما قرأت: قل لا اسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى؟ قال: فانكم لأنتم هم؟ قال: نعم ورواه مثله الثعلبي في تفسيره عن ابي الديلم مثله وبسند آخر عن ام سلمية مثله وفي تفسير البرهان 4: 126 ح 25 الثعالبي بسند متصل عن ابي ديلم مثله.

وينقل الآلوسي في تفسيره روح المعاني ج 25 ص 32 شعراً في حب آل البيت عن الإمام الشافعي قائلًا:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| يا راكباً قف بالمحصب من منى‏ |  | واهتف بساكن خيفها والناهض‏ |
| سحراً إذا فاض الحجيج الى منى‏ |  | فيضاً بساكن خيفها والناهض‏ |
| ان كان رفضاً حب آل محمد |  | فليشهد الثقلان اني رافضي‏ |

وفي مجمع البيان باسناده الى القاسم الحسكاني مرفوعاً الى ابي امامة الباهلي قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ان اللَّه تعالى خلق الانبياء من اشجار شتى وخلقت انا وعلي من شجرة واحدة فانا اصلها وعلي فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها واشياعنا اوراقهافمن تعلق بغصن من أغصانها نجا ومن زاغ عنها هوى ولو أن عبداً عبد اللَّه بين الصفا والمروى ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالي ثم لم يدرك محبتنا أكبه اللَّه على منخريه في النار ثم تلى «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى».

وفي الدر المنثور 61: 7 وأخرج الترمذي وحسنه وابن الانباري في المصاحف عن زيد بن أرقم قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أني تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر كتاب اللَّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض فأنظروا كيف تخلفوني فيهما، وفيه أخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: أحبوا اللَّه لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب اللَّه وأحبوا أهل بيتي لحبي وأخرج البخاري عن أبي بكر الصديق قال: أرقبوا محمداً صلى الله عليه و آله في أهله بيه، وأخرج ابن عدي عن أبي سعيد قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: من أبغضنا أهل البيت فهو منافق.

وينقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير عن صاحب الكشاف أنه يروى عن النبي صلى الله عليه و آله: قوله «من مات على حب آل ممد مات شهيداً ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، إلا ومن مات على حب آل محمد مات تئاباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، إلا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد جعله اللَّه مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة، ألا من مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة اللَّه، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة.

أقول: ثم يعلق الفخر الرازي على هذا الحديث قوله: «ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضاً اختلفت الناس في الآل قيل هم الأقارب وقيل هم أمته فإن حملناه على القرابة فهم الآل وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 357

وخمسين من فطاحل إخواننا «1» وكثير من أصحابنا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لأنهم أبواب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). منهم أحمد بن جنبل في صحيحه والطبري في تفسيره بثلاثة أسانيد ولاحاكم في المستدرك والزمخشري في الكشاف وأخطب خوارزم في مقتل الحسين وأبن الاثير في جامع الأصول والرازي في تفسيره وابن بطريق والعمدة وابن طلحة في مطالب السؤال والكنجي في كفاية الطالب بسندين والبيضاوي في تفسيره والطبري في ذخائر العقبى بسندين والنسفي في تفسيره والحويني وصاحب المناقب الفاخرة والنيسابوري في تفيسره وأبو حيان في البحر المحيط وابن كثير في التفسير بسندين والهيثمي في مجمع الزوائد والمهايمي الهندي في تفسير تبصير الرحمان وابن حجر العسقلاني في الكافي الشاف بثلاثة اسانيد وابن صباغ المالكي في فصول المهمة والسيوطي في الدر المنثور بثلاثة اسانيد وفي الاكليل بتسعة اسانيد وفي احياء الميت باربعة اسانيد وابن همام في حبيب السير وابن حجر في الصواعق المحرقة بثلاثة اسانيد والخطيب الشربيني في السراج المنير والبركرى في الأربعين والمير محمد صالح الترمذي في مناقب مرتضوي والمحلى في الحدائق الوردية والمولى حسين الكاشفي في روضة الشهداء وفي المواهب والشبراوي في الاتحاف بثلاثة اسانيد والصبان في اسعاف الراغبين من (3) والشوكاني في فتح الغدير (6) والألوسى في روح المعاني (4) وارجح المطالب والقندوزي في ينابيع المودة (8) والبرزندي والطبراني وابن حنبل في المناقب وابن ابي حاتم في التفسير والحاكم في المناقب والنيسابوري في الوسيط وابن جرير في جامع البيان والحقاني والشبلنجي في نور الابصار والسيد صديق حسن خان في هداية السائل في أادلة المسائل (2) والحضرمي في رشفة الصادي والتونسي في السيف المسلول والحداد في القول الفصل (17) والخوارزمي في المقتل والطبري في ذخائر العقبي هؤلاء الفطاحل رووا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله نزول آية ذوي القربى في الخمسة الطاهرة عليهم السلام.

وفي ملحقات الاحقاق 9: 92 يستدرك ما اخرجه في 3 كما هنا بقوله ومنهم الثعلبي في الكشف والبيان والخواجه محمد پارسا البخاري في فصل الخطاب على ما في الينابيع 368 والبدخشي في مفتاح النجا 13 والقندوزي في ينابيع المودة 106 والطبراني في المعجم الكبير 131 وابو نعيم الاصبهاني في نزول القرآن مخطوط والزمخشري في تفسيره 3: 402 والامر تسرى في ارجح المطالب 62 والحضرمي في القول الفصل 1: 482.

وعبد الكافي الحسيني في السيف اليماني المسلول 64 والخوارزمي في مقتل الحسين 57 والطبري في ذخائر العقبى 25 وابن تيمية في منهاج السنة 3: 250 والتفتازاني في شرح المقاصد 2: 219 والقسطلاني في المواهب اللدنى 7: 3 و 123 والعسقلاني في الكاف الشاف 145 ومحمد صديق حسن خان ملك بهوپال في فتح البيان 8: 270 والسيوطي في احياء الميت 110 والميبدي في شرح ديوان امير المؤمنين مخطوط والخضرمي في رشفة الصادي 22 والشبراوي في الاستحقاق 5 و 13 والشافعي في المناقب 70 مخطوط والامر تسرى في ارجح المطالب 57 والبدخشي في مفتاح النجا 12 مخطوط والبلخي في ينابيع المودة 261 والادريسي في رفع اللبس والشبهات 8 والقاضي بهجت افندي في تاريخ آل محمد 44 والنبهاني في الشرف المؤيد 72 وفي الانوار المحمدية 433 والساعاتي في بلوغ الاماني المطبوع ذيل الفتح الرباني 18: 265 وابن حنبل في فضائل الصحابة 218 مخطوط وفي مسنده على ما في الينابيع والزمخشري في تفسيره 3: 402 والخوارزمي في مقتل الحسين 1 و 75 والرازي في تفسيره 27: 166 وابن بطريق الحلي في العمدة 23 والكنجي في كفاية الطالب والشافعي في مطالب السؤول 8 والبيضاوي في تفسيره 4: 123 والنسفي في تفسيره 95 والحمويني في فرائد السمطين والنيسابوري في تفسيره 25: 31 وابو حيان في البحر المحيط 7: 516 وابن كثير في تفسيره 4: 112 والبيهقي في مجمع الزوائد 9: 103 والكوكتي في تفسيره تبصير الرحمن 3: 247 والصباغ في الفصول المهمة والسيوطي في تفسيره 6: 7 وفي اكليله 190 وفي احياء الميت 110 وخواندمير في حبيب السير والترمذي في المناقب المرتضوية 49 والكاشفي في المواهب 2: 243 والشبراوي في الاتحاف 5 والطبراني في المعجم الكبير وابن ابي حاتم في تفسيره والحاكم في المناقب والواحدي في الوسيط وابو نعيم في حلية الأولياء والزرندي في نظم درر السمطين وابن حنبل في المناقب والحقاني في فلك النجاة والطبري في جامع البيان وعبدالكافي الحسنى في السيف المسلول 9 والحداد في القول الفصل‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 358

مدينة علمه وهم الثقل الثاني: عترته، وهم خلفاءه في أمته، كما تواترت بذلك الروايات من طريق الفريقين، مهما يهرف الهارفون ويخرف الخارفون في اختلاق روايات تناقضها أو تأويلات، حيث القرآن هو الميزان لا سواه، وهنا «المودة في القربى» لا «للقربى» ولا «مودة القربى» حيث القربى جُعلوا مكاناً للمودة، أن تتمكن المودة فيهم كسبل إلى اللَّه، لا مودتهم والمودة لهم لكي يُتخذوا أصولًا وأهدافاً، لا! وإنما هم السبل إلى اللَّه والأدلاد على مرضات اللَّه، إذاً فليس واجب المودة هنا «إلا المودة في القربى»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 359

حيث توصلكم إلى اللَّه!.

إن «القربى» هي مؤنث الأقرب كما وهي مصدر- وبطبيعة الحال- هي بمعنى الأقربية، ولا تخلو في سائر القرآن عن كونها فعلى التفضيل او مصدره‏ «1» ولا تجد القربى مجردة عن «ذي- ذوي- أولي» إلّا هنا، حيث الأقربية الرسالية هي المعنية دون ذويها، ولذلك قال «في القربى» لا «للقربى» أو «القربى».

فحاصل المعني من المودة في القربى إلى الرسول كمدينة علم الرسالة، فإلى اللَّه حيث الرسالة تكرِّس ككلٍّ إلى اللَّه: «.. إلّا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا» فكانوا هم السبيل إليه والمسلك إلى رضوانه.

فليست القربى إذاً- فقط- أقربية الرسول الى اللَّه ممن سواه وإن كانت تشملها كأصل، ولكنما المودة في القربى إنما تكون لهم كسبيل كاملة إلى اللَّه إذا اتخذوا إلى مدينة علمه سبيلًا هي أبوابها: «ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اخذت مع الرسول سبيلًا. يا ويلتى‏ ليتني لم أتخذ فلاناً خليلًا. لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولًا». «2»

فالرسول صلى الله عليه و آله هو أفضل السبل إلى اللَّه، فالسبيل مع الرسول ليس هو الرسول وإنما سبيل مع الرسول إلى اللَّه، هل لأن الرسول لا يكفي سبيلًا إلى اللَّه حتى يثنَّى بسبيل معه؟

أم إن السبيل معه هو القرآن؟ والقائل: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا، لا ينقصه إلّا سبيلٌ مع الرسول، وأما الرسول والقرآن فهما توأمان، حيث الإيمان بأحدهما إيمان بالآخر، والقرآن هو الدليل لرسالته، فكيف يُتخذ الرسول سبيلًا دون القرآن، فالسبيل هنا ليس هو الرسول ولا القرآن، وإنما هو سبيل إلى رسول القرآن وقرآن الرسول فإلى اللَّه، وليس إلّا «المودة في القربى»: الأقربين إلى الرسالة فإن مودتهم- لأنهم أبواب مدينة علم الرسول صلى الله عليه و آله- تتبع اتخاذهم سبيلًا مع الرسول وكما تواتر عنه صلى الله عليه و آله: «أنا مدينة العلم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في ستة عشر موضعاً من «ذي القربى» و «ذوي القربى» و «اولوا القربى» و «ذا قربى» و «اولى القربى»

(2). 25: 29

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 360

وعلي بابها».

ثم ولا تعني القربى- وبأحرى- أقربية الرسول إليهم‏ «1» ولا أقربيتهم إليه، لو تعني قرابة نسبية أم ماذا من غير الرسالية، فإنها ليست لهم ولصالحهم في اتخاذها سبيلًا إلى ربه، على أن المخاطَبين وهم المؤمنون برسالته آمنوا به لرسالته وهي قربى روحية فهي أقرب وأحرى في المودة من القربى غير الروحية الرسالية.

فالمودة في القربى- التي لها صلة بأجر الرسالة وليست به فإنها لهم، وهي ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا- إنها ليست هي الرسالة حيث صدقوها، وليست أجراً لنفسها، اللهم إلا تعرُّفاً سليماً إلى الرسالة واستمرارية لها وليس إلّا ب «المودة في القربى» عترته صلى الله عليه و آله الأقربون إليه في معرفة الرسالة وحملها.

هنالك مودة في الرسالة تجعلهم يتعلمون من الرسول ويطيعونه كما يستطيعون حسب ما يودون رسالة اللَّه ويحبون اللَّه: «قل إن كنتم تحبون اللَّه فاتبعوني يحببكم اللَّه» «2» وهذه المودة تتطلب مودة السبل إلى الرسالة ومدينة علم الرسول، وليست إلّا «المودة في القربى» حيث تقربهم إلى الرسول فإلى اللَّه زلفى، ثم لا نجد قربى إلّا هيه، اللهم إلّا واهية، إلّا قربى اللَّه وليست لغير المعصومين اللّهم إلا سبلًا إلى اللَّه، وهم السبيل الأعظم والصراط الأقوم، وهم أهل بيت النبوة، وموضع الرسالة، ومهبط الوحي، ومعدن الرحمة، وهم الدعوة الحسنى، وحجج اللَّه على أهل الدنيا والآخرة والأولى، وهم الدعاة إلى اللَّه، والأدلاء على مرضات اللَّه، والمستقرين في أمر اللَّه والتأمين في محبة اللَّه.

في الحق إن المودة في القربى ليست أجراً للرسالة، وإنما هي طلب المزيد من تصديق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الدر المنثور 6: 6- اخرج ابن ابي حاتم والطبراني وابن مردويه من طريق سعيد بن‏جبير عن ابن عباس قال قال لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لا اسألكم عليه اجراً الا ان تودوني في نفسي لقرابتي منكم وتحفظوا القرابة التي بيني وبينكم- اقول وهذا خلاف المستفاد من القربى كما عرفناها من الآية وخلاف النقل المتواتر عن ابن عباس نفسه وخلاف اجماع اهل البيت عليهم السلام‏

(2). 3: 31

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 361

الرسالة بالمودة في الملاصقين الأولين بالرسالة، وُداً تحملهم على ملازمتهم في الأخذ عنهم أهل البيت، فأهل البيت أدرى بما في البيت!.

فلأن الأجر هو أجر الرسالة لا أجر محمد إلا كرسول، فلتكن المودة في القربى هي في قربى الرسالة: من هو أقرب إليها من بيت الرسالة، ثم وهو لهم كمؤمنين بالرسالة وهو ممن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا، لاقرب محمد كسائر البشر إليهم ولاقربهم إليه، فإن المودة في هذا القرب وذاك ليست إسلامية ولا تمتُّ بصلة لرسالته أم ماذا؟.

ثم المودة في قرباه إليكم ليست إلّا له لا لهم «قل ما سألتكم من أجر فهو لكم» كذلك هي والمودة في قرباهم إليه ليست اتخاذ سبيل إلى الرب اللهم إلّا قربى الرسالة، سبيلًا إليها فإلى اللَّه وهي الأئمة من عترته صلى الله عليه و آله.

فلئن قلت لا قربى أقرب من قربى اللَّه فلتكن هذه المودة في قرب اللَّه «أن تتقربوا إليه بطاعته»؟ «1» قلنا: كما المودة في طاعة اللَّه تحملكم عليها ثم قربى بها إلى اللَّه، كذلك المودة في الأدلّاء لى الرسول فإلى اللَّه، فلولا معرفة الرسول والرسالة كاملةً لم تعرفوا طاعة اللَّه حتى تقربكم إلى اللَّه زلفى‏ «قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا» فلو كان السبيل إلى الرب هي الطاعة المعروفة لكل أحد فكيف يسألهم المودة فيها كأجر الرسالة، فإنما هذه سبيل جديدة يعرِّفها لهم حيث هم يعلِّمونهم ما خفي عنهم وعزب عن علمهم فهم أبواب مدينة علم الرسول صلى الله عليه و آله.

«ومن يقترف حسنة» تصديقاً للرسالة الإلهية، وتذرعاً بالمودة في القربى إليها فإلى اللَّه زلفى، أم ماذا من حسنة عقائدية أو عملية؟ «نزد له فيها حسناً» حسناً على حسنة نوراً على نور «إن اللَّه غفور» حيث التقصير والقصور في اقتراف حسنة لمن استغفر وأناب «شكور» لمن يقترف حسنة، ولمن يتوب بعد السيئة وقد «يبدل اللَّه سيآتهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 6- اخرج احمد وابن ابي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه‏من طريق مجاهد عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه و آله في الآية: قل لا اسألكم على ما اتيتكم به من البينات والهدى اجراً إلّا ان تودوا اللَّه وان تتقربوا اليه بطاعته‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 362

حسنات». «1»

ولقد كانت هذه الآية الغُرة اليتيمة تذكرة لهم أمام مشهد روضات الجنات وحرية المشيآت فيها، وهي حصيلة الدعوة الرسالية الصعبة الملتوية ليل نهار، ذكرى أنه لا يسألهم على هذا أجراً إلّا المودة في القربى وهي لهم، وإلّا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا.

لقد كان الإستثناء منقطعاً معنوياً حيث المودة هذه لم تكن أجراً، وإن كان متصلًا لفظياً حيث سماها أجراً وما هي بأجر، ثم وليس مجرد عدم تناول الأجر بل ويتناولون هم أجراً وزيادة «ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ..»! ثم ومن بعد الأجر وزيادته غفراً وشكراً.

فخصيصة هذه المودَّة أنها ليست أجراً له، وهي لهم، وهي السبيل إلى ربهم، وليست القربى أشخاصاً، وإنما هي الأقربية إلى الرسول رسالياً وإلى اللَّه بعد الرسول معرفياً وعبودياً، المتمثلة في الإئمة من عترته المعصومين عليهم السلام، والحمد للَّه‏الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللَّه.

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ». «2»

هذه الآية لا تمت بصلة لآية الأجر إلّا كونها موضع ريبة لجماعة من المسلمين، كما القرآن كله عند الناكرين، قولة في الجو الإسلامي الذي لم يسلم تماماً عن الإنحراف ممن ثقلت عليهم المودة في القربى‏ «3» حيث قلبها بعضهم إلى العداوة كما عادوا النبي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 25: 7

(2). 42: 24

(3). نور الثقلين 4: 576 ح 82 في تفسير علي بن ابراهيم بسند عن محمد بن مسلم قال: سمعت‏ابا جعفر عليه السلام يقول في قول اللَّه عز وجل: قل لا اسألكم عليه اجراً .. الى ان قال: ففرض اللَّه عليهم المودة في القربى فان اخذوا اخذوا مفروضاً وان تركوا تركوا مفروضاً قال: فانصرفوا من عنده وبعضهم يقول: عرضنا عليه اموالنا فقال لا- قاتلوا عن اهل بيتي من بعدي وقالت طائفة: ما قال هذا رسول اللَّه وجحدوه وقالوا كما حكى اللَّه عز وجل: «ام يقولون افترى على اللَّه كذباً»- فقال عز وجل: «فان يشاء اللَّه يختم على قلبك» قال: لو افتريت «ويمح اللَّه الباطل» يعني: يبطله «ويحق الحق بكلماته» يعني بالائمة والقائم من آل محمد صلى الله عليه و آله «انه عليم بذات الصدور».

وفي الدر المنثور 6: 7- اخرج الطبراني والخطيب من طريق ابي الضحى عن ابن عباس قال: جاء العباس الى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: انك تركت فينا ضغائن منذ صنعت الذي صنعت فقال النبي صلى الله عليه و آله: لا يبلغوا الخير او الايمان حتى يحبوكم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 363

كالمنافقين، وآخرون مذبذبون عوانٌ دون عناد ولا وداد إلّا مودة كسائر المسلمين أو هي أعلى دون أن تتخذ إلى الرب سبيلًا، ثم قليل منهم متعهدون.

ثم قولة لغير المسلمين إن القرآن ككلٍّ مفترى على اللَّه، «أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله» «1» «.. فاتوا بعشر سور مثله مفتريات» «2» «.. إن افترتيه فعلي إجرامي‏ وأنا بري‏ءٌ مما تجرمون» «3» «.. إن افتريته فلا تملكون لي من اللَّه شيئاً». «4»

أو أن بعضه مفترى كالمودة في القربى عند البعض من المسلمين، أم ماذا من غير المرغوب عندهم حيث يقولون: «إئت بقرآن غير هذا او بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي ..» «5» والجواب الحاسم هنا وفي الحاقة: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا عنه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين. وإنه تذكرة للمتقين». «6»

و «أم» هنا عطف إعراض عما لا يستحق الذكر كأن كذب اللَّه «أم يقولون افترى على اللَّه ..» فهنالك مفترون على اللَّه الكذب من غير رسل اللَّه، وهم مفضوحون إذ لا حجة لهم- فيما يفترون- باهضة، إلّا داحضة، وهم لا يصدَّقون في صدقهم على اللَّه دونما رسالة إلهية أم ماذا، فكيف يصدَّقون في فريتهم على اللَّه.

وأما أن رسولًا صادق الرسالة بآياته يفتري الكذب على اللَّه، ثم اللَّه يستمر في رسالته دون أن يأخذ منه بيمين القدرة ويقطع عنه وتين الرسالة، فهذه خيانة إلهية ان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 10: 38

(2). 11: 13

(3). 11: 35

(4). 46: 8

(5). 10: 15

(6). 49

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 364

يأتمن الخائن في رسالته، وإضلال في موقف الهداية.

ف «إنه عليم بذات الصدور» لا يرسل ويأتمن الخائن، ولو ارسل من تتاتى منه الخيانة فليختم على قلبه، قلباً لقلب الرسالة ولسانها وأحوالها وآياتها إلى غيرها، حسماً لمادة الخيانة، ثم قلباً إلى غير الايمان جزاءً بما خان.

وسنة اللَّه دائبة على محو الباطل وإحقاق الحق أياً كان ومن أي كان، فهلا يمح الباطل من رسول الحق، وهلا يحق الحق في رسول الحق؟ أجل: «ويمح اللَّه الباطل» بكلماته «ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور».

علمه بذات الصدورلا يدعه يرسل الخَوَنة، ولو أرسل فلأنه يعلم موضع الخيانة يختم على قلب الخائن، ولأنه يعلم الحق والباطل ككل، «يمح اللَّه الباطل ويحق الحق بكلماته» ودلالاته.

فما كان للَّه‏ليخفى عليه ما يدور بخلد الرسول قبل أن يرسله أو يقول، فكيف بما بعده «إنه عليم بذات الصدور»!.

«وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنْ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ\* وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ». «1»

و «هو» لا سواه «الذي يقبل التوبة عن عباده» فلماذا القنوط من رحمته واللجاج في معصيته او اللجوء إلى سواه، فباب التوبة مفتوحة على مصراعيها لم تاب إلى اللَّه، وقبول التوبة لمن أرادها، أن يتوب اللَّه على العاصي ليتوب إلى اللَّه ثم يتوب اللَّه عليه ليقبلها عنه: «ثم تاب عليهم ليتوبوا إن اللَّه هو التواب الرحيم» «2» «وأرنا مناسكنا وتب‏ علينا» «3» والتوبة الصالحة هي بعد الإستغفار: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه» «4» ومن بعد التوبة الإيمان والإهتداء والعمل الصالح: «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 42: 26

(2). 9: 118

(3). 2: 128

(4). 11: 3

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 365

اللَّه يتوب عليه» «1» «وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى» «2».

وقد تنتهي التوبة إلى الاجتناب كما في آدم: «وعصى آدم ربه فغوى\* ثم اجتباه فتاب عليه وهدى» «3» فقد عصى فتاب إلى اللَّه فتاب اللَّه عليه ثم هداه هدىً ثانية بعدما اهتدى في توبته ثم اجتباه بالرسالة.

«ويعفو عن السيآت» وترى العفو هنا عن السيآت بتوبة؟ وقبول التوبة يشمله! ام دون توبة فكيف هو؟! إن السيآت هي ما دون الكبائر، والعفو عن السيآت دون توبة موعود شريطة اجتناب الكبائر: «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم وندخلكم مدخلًا كريماً» «4» فمقترف الكبائر والسيآت دون توبة لا تعفى عنه السيآت دون توبة.

«ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات» اللَّه فيما دعاهم إلى دينه والتوبة إليه كما «ويستجيب» اللَّه دعاءهم وتوبتهم «ويزيدهم» في استجابتهم إياه واستجابته إياهم «من فضله» وأما «الكافرون»، ف «لهم عذاب شديد» إذ لم يستجيبوا لربهم فلا يستجيبهم ربهم، ولهم عذاب شديد.

وقد تعني التوبة هنا- والإستجابة فيما تعني- توبة من تقوّل عليه أنه افترى آية القربى على اللَّه كذباً واستجابته. «5»

«وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 5: 39

(2). 20: 82

(3). 20: 122

(4). 4: 31

(5). نور الثقلين في المجمع وذكر ابو حمزة الثمالي في تفسيره حدثني عثمان بن سعيد بن عمير عن سعيد بن جبير عن عبداللَّه بن عباس عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حين قدم المدينة واستحكم الاسلام قالت الانصار فيما بينهم: نأتي رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فنقول له ان تعرك امور فهذه اموالنا تحكم فيها غير حرج ولا محظور عليك فأتوه في ذلك فنزلت «قل لا أسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى» فقرأها عليهم وقال: تودون قرابتي من بعدي فخرجوا من عنده مسلمين لقوله فقال المنافقون: ان هذا شي‏ء افتراه في مجلسه اراد ان يذللنا لقرابته من بعده فنزلت «ام يقولون افترى على اللَّه كذباً» فارسل اليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتد عليهم فأنزل اللَّه «وهو الذي يقبل التوبة عن عبادة» الآية فارسل في اثرهم فبشرهم وقال: ويستجيب الذين آمنوا- وهم الذين سلموا لقوله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 366

بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ». «1» ولكن:

«يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً» «2» ف «إن الانسان‏ ليطغى. أن رآه استغنى». «3»

فلأنه تعالى بعباده خبير ما هي طبيعتهم، وبصير إلى ما تصير حالتهم لو بسط في رزقهم ككل، لذلك جرت سنته على أن ينزل من رزقه لهم بقدر: كميَّة معيَّنة معنيَّة، وهندسة خاصة مقضية، من سعة وقدْرٍ وعوان بين ذلك.

فغزارة الحياة الأخرى للمؤمنين أن رزقهم كما يشتهون ولدى اللَّه مزيد مصلحةٌ لهم إذ لا تنازع هناك ولا طغوى وبغي حيث يُخرج أضغانهم فهم صالحون.

ونزارة الحياة الدنيا بجنب تلك الغزارة لحد لا تحسب بشي‏ء، هذه النزارة مُهندَسة مقدرة لهم بقَدَر، فإن الخيبر البصير يعلم أن عباده كهؤلاء البشر لا يطيقون الرزق إلّا بقدر، فهم صغار لا يملكون التوازن حيث هم في بلاء الأرض، فسيبقى فيضه المبسوط بغير حساب لمن ينجحون في محنة الدنيا وابتلاءها، وقد يبسط هناك لمن لا ينجحون ويبغون بسنن أخرى حاكمة على هذه السنة، كسنة تعجيل العاجلة لمن كان يريدها دون الآجلة توفيةَ الجزاء فيها: «من كان يريد الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون. اولئك ليس لهم في الآخرة إلّا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون». «4»

وسنة الإستدراج والإملاء: «سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين». «5»

فسنة الإصلاح ككلٍّ بتقدير الأرزاق، سنةٌ ابتدائية عامة تتبنى صالح المجموعة، وسنة الإستدراج وتوفية الجزاء، سنة هامشية خاصة لمن يستحقونها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 42: 27

(2). 17: 30

(3). 96: 7

(4). 11: 18

(5). 7: 182

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 367

ففي حيث قدسي: «إن من عبادي من لا يُصلحه إلا السقم ولو صححته لأفسده وإن من عبادي من لا يُصلحه إلّا الصحة ولو أسقمته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلّا الغنى ولو أفقرته لأفسده وإن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر ولو أغنيته لأفسده وذلك اني ادبِّر عبادي لعلمي بقلوبهم». «1»

ف «لو فعل لفعلوا ولكن جعلهم محتاجين بعضهم إلى بعض واستعبدهم بذلك ولو جعلهم أغنياء لبغوا ولكن ينزل بقدر ما يشاء مما يعلم أنه يصلحهم في دينهم ودنيا هم إنه بعباده خبير بصير. «2»

وقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج اللَّه لكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال له رجل يا رسول اللَّه أوَ يأتي الخير بالشر؟ فقال إن الخير لا يأتي بالشر وإن مما ينبت الربيع يقتل حبطاً او يلم إلّا آكلة الخضر فإنها كلت حتى امتلأت خاصرتاها فاستقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت، وإن المال حلوة خضرة، ونعم صاحبها المسلم هو ان وصل الرحم وانفق في سبيل اللَّه ومثل الذي ياخذه بغير حقه كمثل الذي يأكل ولا يشبع ويكون عليه شهيداً يوم القيامة». «3»

وفي نص آخر عنه صلى الله عليه و آله جواب آخر هي هذه الآية «ولو بسط اللَّه الرزق ..» ثم استمر في جوابه صلى الله عليه و آله. «4»

حكم الرسول متبع لكافة المكلفين‏

«وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 579- عن مجمع البيان روى انس عن النبي صلى الله عليه و آله عن جبرئيل عن اللَّه‏

(2). المصدر في تفسير عن علي بن ابراهيم في الآية عن الصادق عليه السلام‏

(3). الدر المنثور 6: 9- اخرج احمد والطيالسي والبخاري ومسلم والنسائي وابو يعلي وابن حيان عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وبين سؤال السائل وجوابه- فسكت عنه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فرأينا انه ينزل عليه فقيل له ما شأنك تكلم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولا يكلمك فسرى عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فجعل يمسح عنه الرخصاء فقال: اين السائل فرأينا انه حمد فقال: ..

(4). المصدر اخرج ابن جرير عن قتادة في الآية ذكر لنا ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 368

الْعِقَابِ»: «1»

توحي الآية بأن البعض من المسلمين ما كانوا يرضون بتقسيم الرسول صلى الله عليه و آله إذ كان يحرم بعضاً ويؤتي بعضاً، وكان يزيد بعضاً على بعض حسب ما يراه، وكما يُروى عنه صلى الله عليه و آله أنه قسم الفي‏ء بين المهاجرين ونفر من الأنصار المحاويج، فاعترضه الباقون وتسائلوه في ذلك، فصدرت ضابطة عامة أن الرسول صلى الله عليه و آله مفوض إليه الأمر في دَولة الحكم ودُولة المال وكما يروى عنه صلى الله عليه و آله وعن الأئمة من آله عليهم السلام‏ «2» دون أن تختص الآية بإيتاء المال والنهي عنه، مهما نزلت بهذه المناسبة.

فهذه هي النظرية الدستورية الاسلامية ان أصل القانون من اللَّه لا سواه، وتطبيقه من رسول اللَّه، لا سواه، خلاف كافة النظريات الدستورية الوضعية طول التاريخ، التي تؤصل الأكثرية في سَنّ القوانين، أو تحصر حق التقنين برئيس الدولة الذي هو بشر كسائر البشر يخطأ ويسهو ويجهل ويميل.

نحتج بهذه الآية فيما نحتج لحجية سنة الرسول قولًا وعملًا وتقريراً، أنها من سنة اللَّه، وان ما سنه ليس إلا بما أراه اللَّه.

ثم تختم الآية بذيل يربط هاتين القاعدتين الرئيسيتين بتقوى اللَّه: «واتقوا اللَّه إن اللَّه شديد العقاب»: تقوى في دُولة المال ودَولة الحال، فللَّه الدوَل على أية حال، يؤتيها من يشاء ويمنعها عمن يشاء، فدُولة المال عامة لجميع الشعوب حسب الحقوق والمساعي بما قررها اللَّه، ودَولة الحال وهي الحكم بين الناس، إنها للَّه‏ولرُسل اللَّه الحاملين المبلغين رسالات اللَّه، ولا يخشون أحداً إلا اللَّه وكفى باللَّه حسيباً.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 59: 8

(2). الكافي باسناده إلى الميثمي عن أبي عبداللَّه الصادق عليه السلام: ان اللَّه عز وجل أدب رسوله حتى‏قومَّه على ما أراد ثم فوض إليه فقال عز ذكره «ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» فما فوضه اللَّه إلى رسوله فقد فوضه إلينا.

أقول: وهذا المعنى متواتر عن أئمة آل البيت- راجع تفسير البرهان (4: 314- 316) ونور الثقلين (5: 279- 284)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 369

ثم آية الأنفال تختصها باللَّه والرسول، وآية الفي‏ء تعمهما والأربعة الباقية، ثم الآية التالية تختص بالذكر الفقراء المهاجرين .. مما يوحي بتفويض الرسول في الفي‏ء والأنفال، وأن النسب ليس شرطاً أصيلًا في استحقاقها:

«لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ». «1»

«للفقراء» علّة بدلٌ عن «اليتامى والمساكين وابن السبيل» كما اللام توحي بذلك «للَّه وللرسول ولذي القربى و «للفقراء ..»: مهما كانوا من يتامى الهاشميين ومساكينهم وأبناء سبيلهم، أم من المهاجرين والأنصار، كما يروى أن الرسول صلى الله عليه و آله قسم في بني النضير بين المهاجرين وثلاثة من فقراء الأنصار، مما يبرهن على عدم اختصاص الفي‏ء بالهاشميين، وللرسول صلى الله عليه و آله وأُولي الأمر فيه الخيرة.

«للفقراء المهاجرين» الذين هاجروا أرض الوطن في سبيل اللَّه «الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم»: من وظائفهم وأشغالهم ومصالحهم وأموالهم، تركوها كلها حفاظاً على شريعة اللَّه بدافع الإيمان باللَّه: «يبتغون فضلًا من اللَّه ورضواناً» لا يبتغون من غيره جزاءً ولا شكوراً، وإنما «فضلًا من اللَّه» أن يعيد اليهم مسكة الحياة الدنيوية، «ورضواناً» وهو الأصل فيما يبتغون، «وينصرون اللَّه» بقلوبهم وسيوفهم في أحرج الحالات، لا ملجأ لهم سواه، ولا جناب لهم إلا حِماه «ورسوله» حيث يتبعونه فيما يفعل أو يقول، دون تحرُّج مما قضى «اولئك هم الصادقون» في إيمانهم دون شائبة ولا عائبة.

فهؤلاء الكرام لهم نصيب من الفي‏ء، للفقر والإيمان والجهاد، وهم أفضل من يستحقون الفي‏ء، وكذلك من بوّء لهم دار الهجرة، بواءَ المكانة والمكان قبل أن يهاجروا:

«وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ». «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 59: 9

(2). 59: 10

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 370

«والذين تبوّءوا الدار»: دار الهجرة، المدينة المنورة، فإنها من أسمائها العشرة كما يروى عن الرسول صلى الله عليه و آله‏ «1» و «الإيمان» تبوُّءاً لهما على سواء، فكما يطمئن الإنسان إلى داره، واطمأن هؤلاء الأماجد إلى إيمانهم الرصين الحصين واستوطنوه، وطناً أليفاً أميناً للروح، كما الدار مأمن للجسم.

فالتبوُّء من البواء: مساواة الأجزاء في المكان، خلاف التَّبوئه وهي منافاة الأجزاء، فالتبوُّء هو التكلف في البواء للراحة والطمأنينة، سواء أكان بواءً في المكان والدار، أو المكانة والإيمان، ف (الإيمان بعضه من بعض وهو دار، وكذلك الإسلام دار والكفر دار كما في الصادقي عليه السلام). «2»

فهؤلاء الأنصار تبوّءوا مكاناً يناسب الإيمان، عمّروهما وتهيئوا لاستقبال الرسول صلى الله عليه و آله والمهاجرين فيها، مكاناً تتساوى أجزاؤه لهم وللوافدين المهاجرين، وهذه هي التبوئة الحقيقية العادلة، فإن المهاجرين المضطهدين كانوا بحاجة إلى هكذا بواء الذي فيه كل رواع قلباً وقالباً، بعدما اضطهدوا ولاقوا ما لاقوا من الأذى طيلة المقام بمكة، فإن أهلها كانوا يدمرون الدار والإيمان، فهاجروا إلى من يعمرون الدار والإيمان، لهم ولمن سواهم سواء، يملكهم الحب في اللَّه ويملكونه (وهل الدين إلا الحب؟). «3»

«يحبون مَن هاجر اليهم» حباً لهم واستقبالًا عديم النظير في التأريخ، فقد كانوا يتسابقون إلى إيوائهم، واحتمال أعبائهم، لحدّ كان المهاجرون يقترعون لأنفسهم لدور الأنصار، إذ كانت مفتحة لهم الأبواب أكثر من الحاجة «ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا» هم، مهما كانوا محاويج في متطلبات عيشتهم، ولا سيما مع الضيوف: الواردين،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 195- أخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن زيد بن أسلم قال قال‏رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: (للمدينة عشرة أسماء هي: المدينة وهي طيبة وطابة ومسكينة وجابرة ومجبورة وتبدد ويثرب والدار)

(2). الكافي بإسناده الى أبي عبداللَّه الصادق عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: ..

(3). محاسن البرقي بإسناده الى باقر العلوم عليه السلام في حديث: (الدين هو الحب والحب هو الدين) يعني الحب في اللَّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 371

ولكن نفوسهم الأبيّة، وصدورهم المنشرحة، لم تكن توجد فيها حاجة مما أُوتوا من بلغة العيش رغم حاجتهم المدقعة اليه، ولا حاجة مما أُوتي المهاجرون من الفي‏ء، بل «ويؤثرون على أنفسهم» الفقراء المهاجرين «ولو كان بهم خصاصة»: حاجة مدقعة، والخصاصة في الأصل هي الفُرجة، وهم لم يكن لهم ما يسدُّ فرُج الحياة، ورغم ذلك، ومع حياتهم المعيشية المختلة، هؤلاء الأنصار المحاويج آثروا المهاجرين على أنفسهم مرتين: فيما أُوتوا من الفي‏ء، وفي أموالهم الخاصة، تشجيعاً لجنود الهجرة، وترغيباً للتضحية في سبيل اللَّه، والإيثار على النفس، رغم شحِّها أو حاجتها، إنه القمة العليا من الإنفاق، وقد بلغها الأنصار في تلك الظروف الصعبة الملتوية، وكم من بون بينهم وبين من يؤثرون الحياة الدنيا وهم أغنياء: «بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى». «1»

ولقد قال النبي صلى الله عليه و آله للأنصار: (إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم، فقالوا: لا، بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة، فأنزل اللَّه «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة».

وهذه الآية تعمّ جميع الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، إلى يوم الدين، دون اختصاص بمن نزلت في شأنهم من الأنصار وسواهم كما في أسباب التنزيل. «2»

«ومن يوقَ شحَّ نفسه»: بُخل نفسه وتضيّقها «فاولئك هم المفلحون» فإن شح النفس، وهو الحالة الرديئة التي تُبخل الإنسان في العطاء وتحرصه فيما بأيدي الناس، «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 87: 16

(2). التفسير الكبير للرازي ج 29: 287، عن ابن عباس‏

(3). من لا يحضره الفقيه روى الفضل بن أبي قرة السمندي انه قال: قال لي ابو عبداللَّه أتدري من‏الشحيح؟ قلت: هو البخيل، فقال: الشح أشد من البخل، إن البخيل يبخل بما في يده والشحيح يشح بما في أيدي الناس وعلى ما في يده حتى لا يرى في أيدي الناس شيئاً إلا تمنى أن يكون له بالحل والحرام، ولا يقنع بما رزقه اللَّه‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 372

إنه من اصول موانع الفلاح، فواقعه يفلج وزواله يفلح، وداؤه العضال حاضر الأنفس:

«وأحضرت الأنفس الشح»، «1» وحاضر الداء هو دوماً حاضر البلاء، إلا لمن توقى فوقاه اللَّه «ومن يوق شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون».

وحينما يمدح اللَّه تعالى من يوقَ شحّ نفسه، بوقاية صاحبها وتأييد اللَّه، يندد بمن لا يوقَ، فهو شحيح على المؤمنين وعلى الخير أينما حلّ وارتحل: «قل يعلم اللَّه المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلّم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلًا. أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعيهم كالذي يُغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سَلقوكم بألسنةٍ حدادٍ أشحّة على الخير اولئك لم يؤمنوا فأحبط اللَّه أعمالهم وكان ذلك على اللَّه يسيراً». «2»

وكما أن لشحِّ النفس دركات، كذلك لوقايته درجات، منها ألا تشح عن أداء الواجبات من زكاة وسواها، وكما عن علي عليه السلام، «3» كما وأن منها ألا شح عن المندوبات كقري الضيف كما عن الرسول صلى الله عليه و آله: (ثلاث مَن كنَّ فيه فقد برى‏ء من الشح: مَن أدى زكاة ماله وقرى الضيف وأعطى في النوائب)، «4» وكلمة الفصل عن الشح بصيغة شاملة قول الرسول صلى الله عليه و آله: (ما محقَ الإسلامَ محقَ الشحِّ شي‏ءٌ قط)، «5» و (شر ما في الرجل شحٌ هالع وجُبن خالع)، «6» وإلى غير ذلك من كلماته صلى الله عليه و آله حول خطورة الشح. «7»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 4: 128

(2). 33: 19

(3). الدر المنثور 6: 196- أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: من أدى زكاة ماله فقد وقى شح نفسه‏

(4). المصدر- أحرج ابن مردويه عن جابر بن عبداللَّه: سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: ..

(5). المصدر- أخرجه الحكيم الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ... وفي من لا يحضره الفقيه: ثم‏قال صلى الله عليه و آله: (إن لهذا الشح دبيباً كدبيب النمل وشعباً كشعب الشرك)

(6). المصدر- أخرجه ابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله‏

(7). كما في المصدر أخرج أحمد والبخاري في الأدب ومسلم والبيهقي عن جابر بن عبداللَّه أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: (إتقوا الظلم فإن الظلم‏ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 373

وحدّ الإيثار أن يتجاوز نصف ما عنده، فالنصف سواءٌ وليس إيثاراً، فضلًا عما دون النصف، وكما في الصادقي عليه السلام‏ «1» وأرقى الإيثار ما فعله مَن «يطعمون الطعام على حُبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً» كما شرحناه في سورة الإنسان في تفسير الفرقان.

ولا يعني الإيثار أن يترك الإنسان نفسه وعياله جياعاً عُراة، فإن ذلك تهلكة وليس إيثاراً، وكما في الصادقي عليه السلام نقلًا عن الرسول صلى الله عليه و آله: (خمس تمرات أو خمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على قرابته الفقراء، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل اللَّه وهو أحسنها أجراً)، وقال صلى الله عليه و آله للأنصاري، حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: (لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنوه مع المسلمين بترك صبية صغار يتكففون الناس). «2»

أجل، وكما قال اللَّه: «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الكافي عن ابان بن تغلب عن أبي عبداللَّه عليه السلام قال: سألته فقلت: اخبرني عن حق المؤمن‏على المؤمن؟ فقال: يا ابان! دعه لا تزده، قلت: بلى جعلت فداك، فلم أزل أرد عليه، فقال: يا ابان! تقاسمه شطر مالك، ثم نظر إلي فرأى ما دخلني، فقال: يا ابان! ألم تعلم أن اللَّه عز وجل قد ذكر المؤثرين على أنفسهم؟ قلت: بلى جعلت فداك، فقال: أما إذا أنت قاسمته فلم تؤثره بعد، إنما أنت وهو سواء، إنما تؤثره إذا أعطيته من النصف.

وفيه أيضاً عنه عليه السلام عن الرجل ليس عنده إلا قوت يومه أيعطف من عنده قوت يومه على من ليس عنده شي‏ء، ويعطف من عنده قوت شهر على من دونه؟ والسنة على نحو ذلك؟ أم ذلك كله الكفاف الذي لا يلام عليه؟ فقال: هو أمران أفضلكم فيه أحرصكم على الرغبة والاثرة على نفسه، فإن اللَّه عز وجل يقول: «يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»، والأمر الآخر لا يلام على الكفاف، واليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول‏

(2). علي بن ابراهيم القمي عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة في حديث طويل عن أبي عبداللَّه الصادق عليه السلام يشرح فيه حدود الإيثار والإقتار (نور الثقلين 5: 288)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 374

قواماً». «1»

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ». «2»

إنهم لا ينفعهم الإعتذار، بل: «ولا يؤذن لهم فيعتذرون» «3» فممَّ يعتذرون؟ هل من أعمالهم النحِسة التي أصبحت لزام ذواتهم؟ وليس جزاؤهم إلا أعمالهم! «إنما تُجزون ما كنتم تعملون»: في صور الأعمال وأصوات الأقوال، والإنحرافات النفسية التي تتجلى لهم فيفضحون، وفي حقائقها التي تبرز لهم فهم بها يعذبون: «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليومَ حديد». «4»

هذا- ولكنما المؤمن له اعتذار يوم الدنيا بتوبة نصوح، ويوم الدين بما يكفّرر له، فان كبائر الحسنات والسيئات فعلًا وتركاً تعذره عن صغائرها:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ...». «5»

إن التوبة النصوح هي البالغة في النصح، أن يناصح فيها التائبُ نفسَه، ويبذل مجهوده في إخلاص الندم، إزالة لآثار العصيان الغابر، والعزم على تركه في المستقبل والحاضر، فان التوبة وهي الرجوع الى اللَّه عن حجاب الذنب، إنه درجات، كما ان المعاصي دركات، فأفضل درجات التوبة هي النصوح: الناصحة للقلب المخلِّصة له من رواسب المعاصي وعكارها، الحاضّة للعمل الصالح بعدها، العائشة القلب مذكرة مكررة النصح بعدم العَود:

(أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر الى اللَّه ثم لا يعود اليه كما لا يعود اللبن الى الضراع) «6» (وأن يكون باطن الرجل كظاهره وأفضل)، «7» وتُرى (أينا لم يعد ..؟)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 25: 67

(2). 66: 7

(3). 77: 36

(4). 50: 22

(5). 66: 8

(6). الدر المنثور 6: 245- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال معاذ بن جبل: يا رسول اللَّه، ما التوبة النصوح؟ قال: ... وأخرج‏مثله ان ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الايمان عن أبي بن كعب عنه صلى الله عليه و آله: هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر اللَّه بندامتك عند الحاضر ثم لا تعود اليه أبداً.

وفي معناه ما في نور الثقلين 5: 374 عن الكافي عن ابي الصباح الكناني قال: سألت أبا عبداللَّه عليه السلام عن الآية، قال: يتوب العبد من الذنب ثم لا يعود فيه‏

(7). نور الثقلين عن معاني الأخبار عن ابي عبداللَّه عليه السلام قال: ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 375

ولكن (.. اللَّه يحب من عباده المفتن التوَّاب)، «1» فأدنى النصوح في التوبة هكذا تصميم، وأعلاه التطبيق.

وفي هذه التوبة الحاسمة تكفير للسيئات كلها «عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم»: ما تقدم منها وما تأخر، ما عشتم التوبة النصوح، إضافة الى تكفير الكبائر التي تبتم عنها توبة نصوحاً، وإلى منعها حصول السيئات من بعد.

وتُرى كيف تكفر السيئات، وقد كتبها كتبة الأعمال ويكتبونها، وقد سجلت في مختلف السجلات الإلهية من أعضائك وفضائك وأرضك ومكانك وزمانك؟: إنه تعالى (يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويوحي الى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي الى بقاع الأرض: اكتمي ما كان يعمل من الذنوب، فيلقى اللَّه حين يلقاه وليس عليه شي‏ء يشهد عليه بشي‏ء من الذنوب). «2»

وهذه التوبة من أنجح الوقايات عن النار بعد وقاية التقوى، تكفر السيئات وتدخل الجنات «ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار» إضافة الى سائر المكفِّرات المكررات طيّات آياتها.

«... يَوْمَ لَايُخْزِي اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ». «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) فيه عن القمي عنه عليه السلام في الآية بعد التفسير المسبق قلت: وأينا لم يعد؟ فقال: ..

(2). فيه عن الكافي بإسناده عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبداللَّه عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه اللَّه فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ..

(3). 66: 8

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 376

هذه المكرمة الإلهية للمؤمنين الواقين أنفسهم وأهليهم ناراً، التائبين توبة نصوحاً، إنها تكون «يوم لا يخزي اللَّه النبي والذين آمنوا معه ..»: أن يسوِّي بينهم وسواهم، ويا له من تكريم عظيم أن يضمهم الى نبيه فيجعلهما في صف واحد في المكرمة يوم الخزي، لأنهم «آمنوا معه»: إيمانهم من إيمانه، فالمعية الإيمانية توحي بدرجات عالية من إيمان، مهما كان المؤمنون معه درجات، فإن اللَّه يضمُّ التائبين إليه إذ كانوا من حزبه معه، مهما قصُروا أو قصّروا، ما كان حياتهم- كمبدء- ايمانية تائبة آئبة.

«نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم» .. «نورهم» الخاص بهم بسعيهم «يسعى» لا- نورٌ- فنورهم ليس ظاهرياً منفصلًا عنهم حتى يمكن الإقتباس منه، وإلا لم يختص بما بين الأيدي والأيمان: نوراً ضنيناً لا يشمل! «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ...» «1» فهو النور الذي حصله المؤمن من ورائه: حياته الدنيا، وهو لزام لأله لا يعدوه‏ «ومن لم يجعل اللَّه له نوراً فما له من نور». «2»

إنه برهان ونور إلهي: «.. قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً» «3» وهو الإيمان الناتج عن نور البرهان‏ «أفمن شرح اللَّه صدره للإسلام فهو على نور من ربه» «4» وهو العمل الصالح الذي ينتجه الإيمان، ومن ثم هو نور الفرقان وتأييد الرحمان لناتج عن مثلث النور «إن تتقوا اللَّه يجعل لكم فرقاناً». «5»

ومربع النور- هذا- يتوحّد فيصبح نوراً واحداً يسعى بين الأيدي والأيمان، فقسم العمل الصالح والإيمان والفرقان سوف يكون على الأيمان، فإن المؤمن يؤتى كتابه بيمينه، وقسم الهداية يكون بين الأيدي، ومنه الهداة الى اللَّه من النبيين والأئمة، او أنهما يكونان فيهما كما توحي له وحدة النور، «6» فالنور المربع بالأيمان يعده للحساب الحاضر، وهو بين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 57: 13

(2). 24: 40

(3). 4: 174

(4). 39: 22

(5). 8: 29

(6). نور الثقلين عن القمي بإسناده الى صالح بن سهل عن ابي عبداللَّه عليه السلام في الآية، قال: يسعى‏أئمة المؤمنين يوم القيامة بين أيديهم وبأيمانهم حتى ينزلوا منازلهم في الجنة (5: 375)

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 377

الأيدي يبشره بالثواب المستقبل، فهناك للمؤمن حساب ثم ثواب، كما للكافر حساب ومن ثم عذاب، فإنه يؤتى كتابه بشماله او وراءَ ظهره، إذ كان يسعى في شماله (شهواته) ووراء ظهره (دنياه)، طالما سعيُ المؤمن في يمينه (إيمانه)، وبين يديه (آخرته) فإنها إشارات لمختلف المساعي والغايات، دون الجهات الظاهرية.

وأما الشمال ووراء الظهر فهما لغير المؤمنين إذ يؤتون كتابهم فيهما، ثم لا إمام لهم أمامهم إلا الأئمة الذين يدعون الى النار.

وهذا النور الساعي‏بين الأيدي والأيمان ينير لهم سبيلهم الى الجنة، وهم يستزيدون غير التام من أقسامه، فالهداية الإلهية تامة لا تحتاج الى الإتمام، وإنما مثلث النور غير التام يتطلب التام:

«يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شي‏ء قدير» وهذه هي الشفاعة الأخيرة التي قد تُشفع بشفاعة الشافعين المأذونين، بعد شفاعة الوقاية والتوبة النصوح، وبعد ترك كبائر السيئات والإتيان بكبائر الحسنات، فيصبح المؤمن نوراً خالصاً فينضم الى نور الأنوار: محمد وآله الطاهرين الأبرار.

فهنالك يُلهم المؤمن ذلك الدعاء، حين يُلجم غيره عن كل دعوة ودعاء، وذلك الإلهام علامة الإستجابة، وإلا فلماذا السماح به؟ وأنه من إكرامه، كما أن في رده خزيه، فالغفر عن نقصان الإيمان وما يتطلبه الإيمان، إنه تتميم لمثلث النور بين يديه وعن يمينه، مهما كان نور الهداية تاماً لا يحتاج إلى الإتمام.

«يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ». «1»

فإن المنافق والكافر نار حيثما دار، وإخماد النار واجب المؤمنين الأحرار، ولكي تبقى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 66: 9

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 378

الحياة سليمة أمينة.

إن جهاد المنافقين والكفار- وهو بذل الجهد في إصلاح الأمر- هو من مخلفات الوقاية للأنفس والأهلين، فالواجب على المؤمنين حماية الَمحضن الذي تتم فيه الوقاية من النار، فلا تُترك العناصر المفسدة تهاجم المسلمين من خارج كما الكفار، ولا من داخل كما المنافقون، مهما اختلف الجهاد الحربي بينهما، دفاعاً في المنافقين، وحرباً في الكفار، فالكافر يُحمل إما على الإسلام الإقرار، أو الجزية أو لحرب، فإلى دار البوار، والمنافق يُحمل على الإيمان أو دفع الشر، فان حارب حورب، دون جزية ولا حرب بدائية بغية الإقرار، وفيما إذا طلب أمر الإصلاح للجماعة المسلمة الغلظ عليهما «واغلظ عليهم» بما يدفع شرهم ويخمد نارهم. وقد يكون الغلظ على المنافق أشد منه على الكافر، لأنه عدوّ من داخل، فخطورته أكثر، وكما أن عذابه أحياناً أشد وأوفر: «انَّ المنافقين في الدرك الأسفل من النار»- «ومأواهم جهنم وبئس المصير».

وأخيراً مثال واقعي للمؤمنين يُطمئنهم في الإيمان، وللكافرين يخيِّب آمالهم:

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ». «1»

ختام فيه تأنيب رعيب على زوجتي النبي المظاهرتين عليه، «2» وعلى كل من له صلة النسب أو السبب، أم أية صلة من الصلاة بأولياء اللَّه، أنها لا تنفعهم ما لم يكونوا متقين.

فامرأة نوح وإمرأة لوط مثلٌ للكافر، و «كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين» يعني بها التحتية في المنزلة، لقيامه عليها، وغلبته على أمرها «الرجال قوامون على النساء بما فضل اللَّه بعضهم على بعض» وكما يقال: فلان الجندي تحت يدي فلان الأمير، إذا كانمن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 66: 10

(2). تفسير البرهان- شرف الدين النجفي قال روي عن أبي عبداللَّه عليه السلام في الآية: مثل ضربه اللَّه‏سبحانه لعائشة وحفصة ان تظاهرتا على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وافشتا سره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 379

شحنة عمله، أو متصرفاً على أمره، ثم المرأة- إضافة إلى ذلك- تحت الرجل بحكم اللَّه في كل ما تتطلبه الزوجية، ومنها عمل الجنس واتباع أوامر الزوج لصالحها وصالح العائلة وصالح الأمة، وهذه النحتية التكوينة والتشريعة تقتضي تلون المرأة بلون صلاح الزوج كما في نوح ولوط، ولكنهما خانتاهما، رغم كونهما عبدين صالحين، وفي ذكر الوصفين بدل الإكتفاء باشارة الضمير تعظيم لمقام العبودية الصالحة، وأن صلاح الزوج لا ينفع الزوجة، ما لم تصلح هي نفسها.

«فخانتاهما» ترى ما هي الخيانة التي ارتكبتاها فارتبكتا فيها هنا وفي الآخرة؟ إن الخيانة خلاف الأمانة، والقدر المفهوم هنا منها الخيانة في أمانات الزوجية، وقد أوحت إلى مثلث منها «تحت عبدين من عبادنا الصالحين» وهي وجوب كونهما تحت زوجيهما في متطلبات الزوجية دون نشوز عنها، حافظتين لأماناتها وأسرارها ومصالحها، وأن تتصبغا بصلاح العبودية، ائتماراً بأمر الوقاية للأهلين «.. وأهليكم ناراً».

ثم إنها خيانة تدخل صاحبها النار، فليست إذاً نشوزاً في الامور البيتية العادية فحسب، وإنما التي تحقق جزاء النار من الكفر ومخلفاته، ومنها ثالث ثلاثة: «وأهليكم ناراً» فلم ترضيا إلا التخلف عن الوقاية، ومنها كشف السرِّ، وكما يُروى في امرأة لوط (أنها كانت تخرج فتصفِّر، فإذا سمعوا الصفير جاءوا) «1» يعني قومه، كما وان امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساخرين، وتقول إنه لمجنون مع القائلين.

ومن الاولى نستطيع أن نحمِّلهما كل شي‏ء إلا فاحشة الزنا، وكما يُروى عن الرسول صلى الله عليه و آله- بعد نص القرآن- (ما بغت امرأة نبي قط)، «2» فبهذا الثالوث المنحوس، ولا سيما أقنوم الكفر، استحقتا دخول النار رغم أن زوجيهما نبيّان:

«فلم يغنيا عنهما من اللَّه شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين»: فلا تعني من اللَّه إلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 5: 376 في علل الشرائع عن أبي عبداللَّه عليه السلام قيل له: كيف كان يعلم قوم لوط انه‏قد جاء لوطاً رجال؟ قال: كانت امرأته ..

(2). الدر المنثور- أخرجه ابن عساكر عن اشرس الخراساني يرفعه إلى النبي صلى الله عليه و آله ..

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 380

تقوى اللَّه، دون أواصر القربى مع أولياء اللَّه، فقد دخلتا النار (في البرزخ) وستدخلانها يوم القيامة، مع الداخلين، دون ميزة ولا كرامة، إنما مهانتين كسائر المهانين اليها، والقائل مجهول «وقيل» إشارة إلى أن القيل لهما كسائر القيل لسائر الداخلين، بل إن مهانتهما أكثر ممن سواهما لأنهما هتكتا ساحة النبوة ولوَّثتا جوّها بإطالة ألسنة الناس على العبدين الصالحين‏ «يا نساء النبيِّ مَن يأتِ منكن بفاحشة مبيِّنة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على اللَّه يسيرا». «1»

وهكذا يكون دوماً دور الكفر والخيانة الكافرة، ان لا يبررها ولا يغني عنها من اللَّه شي‏ء، مهما كانت القرابات والأنساب والإتصالات لهم بالصالحين، كضابطة عامة لا تسد، فالنجسة الأخلاق والنحسة، لا يطهرها بيت النبوة، إلا قدر ما تأخذ من طهارتها، كما وأن الطاهرة الزكية لا يدنسها بيت الكفر والفرعنة، بل وبالإمكان أن تمثل أهل بيت النبوة:

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»: «2»

هنا تتقدم امرأة فرعون على مريم أُم المسيح، لا لسبق زمني فحسب، بل ولكي يدلنا أن امومة المسيح واخوة هارون وبنوة عمران لا تغني عنها شيئاً، وإنما هي تقوى اللَّه تغني، فامرأة فرعون متحللة نسبياً وسببياً عن كل ذلك، ولكنها بتقواها في جوِّ الطغوى تستحلُّ مكانة عليا، لحدِّ تقدُّمها في الذكر على مريم عليها السلام.

أظنها الإمرأة الوحيدة، في مملكة عريضة، عند أعظم ملوك الأرض وأقواهم وأطغاهم، في قصر عديم النظير، تجد فيه المرأة كل ما تشتهيه، فهي في هذه الأوساط الكافرة، تحت ضغط الملك والحاشية والبلاط، وضغط المجتمع السامّ، في خضمِّ هذه الظلمات الطاغية ... إنها وحدها ترفضها كلها وتعتبرها سجناً وشرّاً ونحساً تستعيذ باللَّه منها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 33: 30

(2). 66: 11

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 381

تطلب من اللَّه تعالى أن يبني لها بيد الألوهية بيتاً في الجنة يعوضها به عن قصرها، وأن ينجيها من شرّ الطاغية (فرعون) وهي ألصق الناس به! ومن عمله، وهي تعيش تحت رحمته! ومن آله وأتباعه: «ونجِّني من القوم الظالمين»!.

وإنها لنموذج عالٍ في الإستعلاء على عَرَض الحياة وزَهرتها في أجمل صورة وأزهرها، والتجرُّد للَّه‏من كافة الجواذب المتخلفة، والهواتف المضللة، والمعوقات القوية، ولتسمح لنفسها أن تطلبه هذا الطلب العظيم:

«ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنة»: ف «ربِّ» توحي باختصاصها بتربية خاصة إلهية تنجيها عن هذه الورطة المهلكة، و «ابنِ لي» رفض لكل عامر ملائكي وسواه الى معمار الكون أن يبني لها بيتاً بمشيئته دون وسائط، و «عندك» لا تعني عندية مكانية فانه تعالى ليس له مكان، إنما عندية المكانة أن يبني بيتها في أرفع مكان وأعلى مكانة في الجنة حيث مسكن الأنبياء!.

ثم تطلب النجاة المثلث من: «فرعون» الجاهل «وعمله» الباطل و «من القوم الظالمين» الباطلين الجاهلين.

ومتى تطلب؟ هل بعد أن تأخذها الورطة الفرعونية الى حزبه؟ فكيف طلبت أولًا أقرب لأقربين! كلا! إنما تطلب نجاتها بالنزوح عن هذا الجو الطائش الى جوار رحمة اللَّه، أن يقبضها اللَّه إليه، وقد كانت في اللحظات الأخيرة من حياتها تحت مختلف ألوان العذاب الفرعوني، ومنها انه (وتدَ لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها وأضجعها على صدرها جعل على صدرها رحى واستقبل بها عين الشمس، فكانوا إذا فرقوا عنها أظلَّتها الملائكة، فرفعت رأسها الى السماء فقالت: «رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة- الى- الظالمين» فكشف لها عن بيتها في الجنة فرأته). «1»

«وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 6: 246- أخرجه من عدة طرق عن عدة من الأصحاب والتابعين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 382

بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ» «1»

رغم أن القرآن لا يذكر امرأة باسمها، يردد ذكر مريم عليها السلام أربع وثلاثين مرة، تكريماً لها، وذوداً عن كرامتها التي مُسَّت بتُهَم اليهود، وتدليلًا على أن المسيح عليه السلام وُلد دون أب «عيسى بن مريم» مما لم تجتمع من غيرها من النساء مهما كانت البعض منهن أفضل منها كفاطمة عليها السلام، فان الأخيرين دافعان مستقلان لذكرها، وليسا من الفضائل الهامة للمرأة، وإنما إبراز معجزة إلهية ودفع تهمة إلتصقت بها عبر هذه المعجزة: (حَملها دون زوج يُعرف).

هذا، ولكن ترى كيف يذكر حفظ الفرج هنا وفي آية اخرى في عداد فضائلها، ويفرَّع عليه نفخ الروح فيه، كما هنا، وفيها كما في الاخرى: «والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا» «2» مع أن حفظه لا يختص بها، وأنه من اوّليات واجبات الإيمان؟

ثم تُرى، ما هو المنفوخ فيها وفي فرجهاأ وماذا حملت في هذا النفخ؟ أروح المسيح، أم هي مع جسمه، أم نطفة الرجولية مع الروح، أم ماذا؟ ..

فهل إن ذكر إحصان الفرج لدفع تهمة اليهود الفاجرة «وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً» «3» «يا أُخت هارون ما كان أبوكِ امرَ سَوْءٍ وما كانت أُمكِ بغياً»؟ «4» ولدفع اختلاق النصارى لها عشيقاً خطيباً هو يوسف النجار، لتخفيف وطأة التهمة؟ فهذا وذاك وإن كانا من الدوافع لذكره، ولكن لا يتفرغ على إحصان الفرج- هذا- أن ينفخ فيه من روح اللَّه!.

أو ولأنها كانت معرَّضة للحملة الجنسية، ولجمالها، وأنها نذرت لخدمة البيت فكانت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 66: 12

(2). 21: 91

(3). 4: 156

(4). 19: 28

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 383

فيه ليل نهار، ولكنها غلبت على مختلف النوازع والعراقيل قانتة مجاهدة رافصة للجنس حرامه وحلاله، ولأنه ينافي وحريتها في خدمة البيت، وقد نذرت أُمها ما في بطنها محرراً: «فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أُنثى .. وإني سمّيتها مريم وإني أُعيذها بك وذرِّيتها من الشيطان الرجيم. فتقبَّلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً ..»: «1» تقبَّلها ربها مريم كما سميت وهي: الغالبة، وتقبّل إعاذتها وذرِّيتها من الشيطان الرجيم، فهي إذاً غالبة معوَّذة من الشيطان عند اللَّه، ونابتة نباتاً حسناً عند اللَّه، ومن غلبتها التغلب على النوازع الجنسية وجواذبها وهي في عنفوانها، وهي بمعرض مختلف الرجال في بيت اللَّه ليل نهار، فهذا الإحصان مما يتطلب إحساناً عالياً لها من اللَّه المنّان ومن أحسنه أن نفخ في محل الإحصان روحاً منه، فقد جمع الى الدافعين الأولين لذكر الإحصان في هذا الثالث فاكتمل لها مثلث الإحصان فاختصت بكامل الإحسان أن أصحبحت أُم السيد المسيح عليه السلام، ثم وعلى حدِّ المروي عن الرسول صلى الله عليه و آله سوف تكون من أزواجه صلى الله عليه و آله في الجنة. «2»

ثم وماذا حملت؟ فطالما الآية الاخرى «.. فنفخنا فيها من روحنا» أجملت عن مدخل الحمل، فآيتنا «فنفخنا فيه من روحنا» تصريحة ان مدخله الفرج لمكان ذكورة الضمير «ه» فالمرجع إذاً «فرجها» لا هي نفسها، ولا جيبها، رغم ما حاوله جمع، فانه كلام فارغ، لأنها أحصنت فرجها، لا جيبها، والروح نفخت في فرجها، لا فرج جيبها!.

فمن كون الآلة التناسلية النسائية هي المنفخ المدخل هنا لروحٍ من اللَّه نتعرف الى كيان هذه الروح وهذا اللقاح، أن ناب لقاحَ الرجل دون رجلٍ، فلم يكن حملها المسيح بمقاربة كالعادة، بل بالنفخ والإلقاء الإلهيين في فرجها، فان المسيح وهو الروح والكلمة الملقاة الى مريم‏ «إنما المسيح عيسى بن مريم رسول اللَّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» «3» فالروح نفخت من المجرى التناسلي، مما يدلُّ على كونها جسماً مَّا، وعلَّها كانت مع النطفة الرجولية المعبر عنها بالكلمة الملقاة، فبالإقاء هذا تمكنت النطفة إلى عمق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 37

(2). الدر المنثور 6: 249- أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: إن اللَّه زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى.

أقول: وهذا لا ينافي بقاء بعض أزواجه مثل خديجة في زواجه صلى الله عليه و آله إذ لا تحتاج الى زواج جديد

(3). 4: 17

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 384

الرحم فتزاوجت مع النطفة الانوثية، فأصبحتا جنيناً، ثم انضمت إليها الروح فها هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ثم الروح هذه كسائر الأرواح الإنسانية في الجوهر وأنها مخلوقة، وإضافتها الى اللَّه «روحنا» تشريفية تشرفها وتفضلها على كثير من الأرواح، وليست جنسية تعني أنها جزء من اللَّه او من روحه، وكما الروح المنفوخة في آدم تملك هذه النسبة «فإذا سوَّيته ونفخت فيه من روحي» «1» مما يفضل روح آدم على غيره، وكذلك المنفوخة في بني آدم كلهم: «ثم سوَّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة». «2»

فأرواح بني آدم تمتاز عن غيرهم من ذوي الأرواح كما هنا، وأرواح المؤمنين منهم تمتاز علس سواهم (58: 22) وأرواح النبيين على سواهم (40: 15) والمسيح على غيره (4: 171) ثم روح خاتم النبيين تمتاز على الأرواح كلها (42: 52)، فالإضافة الى اللَّه فيها كلها تشريفية لا تعني أنها بعض من ذات اللَّه! وسبحان اللَّه!.

وقد وافيناكم بتفصيل هذا الحمل المبارك في طيّات آياتها المفصلة كالسورة المسماة باسم مريم عليها السلام.

ثم الآية تبيِّن بعد فضيلة الإحصان، تصديقها بكلمات ربها وكتبه، وأنها كانت من القانتين: المطيعين، وتذكير الضمير في «القانتين» دون «القانتات» تذكير لنا أن القنوت في الرجل يتغلب على ما في النساء عِدةً وعُدةً، فكان من الأفضل أن تعد في قنوتها من عداد الرجال، رجولة في قنوطا وبطولة في تصديقها.

\*\*\*\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 15: 29

(2). 32: 9

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 385

كونوا مع الصادقين اشخاصاً وجماعات في عبادات وسياسات‏

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». «1»

الصادقون هنا هم الصادقون في إيمانهم بأيمانهم وسواها من قالاتهم وحالاتهم وفعالاتهم، ف «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللَّه عليه ..» صدقاً طليقاً حقيقاً بصالح الإيمان.

فالكون مع الصادقين في كينونة الصدق هو من معارج تقوى اللَّه، وهنا مدارج ثلاث:

«آمنوا- اتقوا اللَّه- كونوا مع الصادقين» فمن كمال الإيمان هو تقوى اللَّه عملياً كما آمنتم لفظياً وقلبياً، تقوىً عن كل ما لا يرضاه اللَّه، ثم من كمال التقوى هو الكون مع الصادقين‏ «2» وهم أئمة المؤمنين المتقين الصادقين، فهم- لأكمل مصداق- أئمة الدين‏ «3» وكما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 119

(2). في الدر المنثور 3: 290 عن ابن مسعود قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وان البر يهدي إلى‏الجنة وإن الرجل ليصدق حتى كتب عند اللَّه صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند اللَّه كذاباً» وفيه عن أسماء بنت يزيد أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خطب فقال: ما يحملكم على أن تتبايعوا على الكذب كما يتتابع الفراش في النار كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها، وعن أبي بكر أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: الكذب مجانب للإيمان، وعن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه و آله قال: يطبع المؤمن على كل شي‏ء إلا الخيانة والكذب، وعن أبي برزة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: الكذب يسود الوجه والنميمة عذاب القبر، وعن أسماء بنت عميس قالت كنت صاحبة عائشة التي هيأتها فأدخلتها على النبي صلى الله عليه و آله في نسوة فما وجدنا عنده قرى الأقداح من لبن فتناوله فشرب منه ثم اوله عائشة فاستحيت منه فقلت: لا تردي يد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأخذته فشربته ثم قال: ناولي صواحبك فقلت لا نشتهيه فقال: لا تجمعن كذباً وجوعاً فقلت إن قالت إحدانا لشي‏ءٍ تشتهيه لا نشتهي أيعد ذلك كذباً فقال: إن الكذب يكتب كذباً حتى الكذيبة تكتب كذيبة، وعن الحسن بن علي عليهما السلام سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة، وعن ابن عباس قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: في خطبته: إن أعظم الخطيئة عند اللَّه اللسان الكاذب ذلك ومن طرائق الإلتزام بالصدق ما يروي أن واحداً جاء إلى النبي صلى الله عليه و آله وقال: إني رجل أريد أن أؤمن بك إلا أني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها بأسرها فإن قنعت مني بترك واحد منها آمنت بك فقال صلى الله عليه و آله: أترك الكذب فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبي صلى الله عليه و آله عرضوا عليه الخمر فقال: إن شربت وسألني الرسول صلى الله عليه و آله عن شربها وكذبت فقد نقضت العهد، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا السرقة فعاد إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال: ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب انسدت أبواب المعاصي علي وتاب عن الكل‏

(3). الدر المنثور 3: 290- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: مع علي بن أبي طالب عليه السلام وأخرج ابن عساكر عن أبي جعفرمثله‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 386

تظافر به الحديث نفسه، ولا يحفظوا منهجهم في‏المواطن التي تحضر فيها نهجه، إقتداءً به وإتباعاً لأثره.

ذلك، وهم الذين تبنَّوا هذه الحركة المباركة الإسلامية بمناصرة المهاجرين، فهم أهلوها الأقربون، فهم بها ولها ولهذا الدين الجديد كأس وأثافي، فقد آووا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ونصروه وعزروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، فباتوا يمثلون القاعدة الصلبة الرصينة المتينة للإسلام في الجزيرة كلها، وإلى كل المعمورة، وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة منذ أسلمت وباتت تؤلف الحزام الخارجي للقاعدة، فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه في صلاح الإسلام ودولته.

ذلك، ولكنه ليس يختص بهم حيث التكاليف الإيمانية عامة لا تختص بفريق دون آخرين.

فقد تحلق طاعة الرسول صلى الله عليه و آله فيما يفعل أو يقول، والرغبة فيه، تحلقان على كل عصر ومصر من ساكني القصور إلى ساكني الأكواخ، حيث التكليف رسالي تعم كل زمان ومكان وأياً كان من المكلفين إلى يوم الدين وأيان.

ولقد كان الرسول صلى الله عليه و آله يقود الأمة إلى كل خير وهو السبَّاق إليه، ومن قوله في السرايا التي كان يتركها: «والذي بعثني بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 387

كنت فيها». «1»

ذلك، ولا يعني التخلُّف عن رسول اللَّه إلَّا التخلف عن أمره، فإذا نهى عن الخروج معه كان الخروج معه تخلفاً عنه، كما أن عدم الخروج معه حين يأمر به تخلف عنه. ثم «لا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» تعني لا تحجبهم أنفسهم بمشتهياتها ورغباتها أن يرغبوا لها عنه صلى الله عليه و آله فالباء هنا للسببية والمصاحبة: لا تكن أنفسهم سببا للرغبة عنه ولا مصاحبة لها، بل عليهم أن يقدِّموا رغباته على رغباتهم ف «من يطع الرسول فقد أطاع اللَّه».

وليست الآية لتأمر بالقتال معه صلى الله عليه و آله وإنما الإئتمار بأمره صلى الله عليه و آله مهما كان قعوداً، كما للقاصرين والعُجَّز وغير المحتاج إلى حضورهم، أم خروجاً وهو لقدر الكفاءة، فلا تنافي آية النفر- التالية- حتى تنسخ بها.

هذا، وذلك التأليب والتأبيب بمن يتخلف عن رسول اللَّه أو يرغب بنفسه عن نفسه، وذلك التشجيع بطاعته وولايته الطليقة، كل ذلك يرجع إلى صالحهم أنفسهم كمؤمنين بهذا الدين، ف:

«ذلك بأنهم لا يصيبهم 1- ظمأ ولا 2- نصب ولا 3- مخمصة في سبيل اللَّه 4- ولا بطاءون موطئاً يغيظ الكفار 5- ولا ينالون من عدو نيلًا إلا كتب لهم به عمل صالح إن اللَّه لا يضيع أجر المحسنين».

فظمأٌ في سبيل اللَّه في الهاجرة الحارقة، ونَصَب في سبيل اللَّه تعباً ناصباً، ومخمصة في سبيل اللَّه جوعاً مُدقعاً، وطأة في سبيل اللَّه موطئاً يغيظ الكفار، ونيلا من عدو اللَّه في سبيل اللَّه في نفس أو نفيس، كلُّ «كتب لهم به عمل صالح» في مخمَّسه.

ومن ثم «6- ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة» في سبيل اللَّه «7- ولا يقطعون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 3: 292- أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: لما نزلت هذه الآية «ما كان لأهل المدينة ..» قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:.

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 388

واياً» في سبيل اللَّه «إلا كتب لهم» به عمل صالح «ليجزيهم اللَّه» بهذه الوفرة الغالية «أحسن ما كانوا يعملون» وهو هنا هذه السبعة المباركة لهؤلاء السالكين إلى اللَّه.

ولقد أثر ذلك البلاغ البالغ في قسم من المؤمنين لحد عزموا على وليس، وقد يعدو- إضافة إلى ذلك- أن أهل الكتاب غير داخلين في «اقتلوا» وهم تاركوا الصلاة والزكوة وكل الواجبات الإسلامية؟ فكيف يقتل المسلم لتركه إياهما؟.

ولكن المرجو من المسلم غير المرجو من غيره كتابياً وسواه، إلا أنا نجدد السؤال بالنسبة لمن هو مسلم يقيم الصلاة ويؤتي الزكوة ثم يتركهما فهل يقتل بذلك؟ ودون إثباته خرط القتاد!.

ذلك، وقد يعني «وأقاموا الصلاة وآتوا الزكوة» بعد أن «تابوا» الإعتقاد بوجوب الصلاة والزكوة، ثم وتطبيقهما دليل ذلك الإعتقاد، فالذي يتوب عن الإشراك ثم لا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكوة، لا يُعلم منه أنه- حقاً- تاب، إذ ليست لفظة التوبة هي التوبة، إنما هي الرجوع عن عقيدة الإشراك، ثم يُعلم ذلك الرجوع بإمارة هامة لتلك العقيدة هي إقام الصلاة وإيتاء الزكوة كرأسين أصليين لزوايا الإيمان عملياً.

فقصارى المستفاد من الآية وجوب قتال المشركين، ومن تاب عن إشراكه هو خارج عن «المشركين» فلا قتل إياه، ثم «فخلوا سبيلهم» المشروط «بإقام الصلاة وإيتاء الزكوة» لا يختص بالتخلية من قتلهم، بل وسائر المذكورات معه ك «خذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد» فهذه الثلاثة الأخيرة هي أعم في التائب التارك للصلاة والزكوة، من القتل، فيستثنى القتل لخروجه عن الإشراك، ويبقى الباقي لترك العمودين، حيث المفروض أخذ تاركهما بكل مأخذ وحصره وقعود كل مرصد له حتى يقيم الصلاة ويؤتي الزكوة، فإنَّ «خلوا سبيلهم» تعني تحريرهم عن كل ما ذكر، فلم يقل «لا تقتلوهم» حتى تختص التخلية بترك قتلهم، إنما هو تحريرهم طليقاً، وليس يحرَّر طليقاً تارك الصلاة والزكوة أياً كان.

ثم وهذا النص قصاراه أنه كان يواجه واقعاً متميزاً في مشركي الجزيرة يومذاك، فما كان أحدهم ليعلن توبته ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا وهو يعني الإيمان بالإسلام كله،

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 389

إذاً فالتارك لهذين العمودين- حينذاك- مع ظاهرة التوبة، لم يك يعرف منه صالح التوبة، فقد يكون نفاقاً أم وفاقاً غير صالح.

إذاً فالأشبه أن ترك الصلاة والزكوة دون هذه الملابسات التي تدل على نكرانهما لا يبرِّر قتل تاركهما على أية حال، وما يروى من قتال تاركي الصلاة والزكاة محمول على مواضع النكران لهما، دون تركهما على إيمان وتصديق تساهلًا فيهما وتكاهلًا.

ذلك، ثم المشركون الأفراد الذين لا يجمعهم تجمع جاهلي تصدياً للإسلام وتعرضاً بأهله قتلًا أم إضلال، لا يتصدى لهم الإسلام حرب إبادة، بل ويكفل لهم الأمن ترغيباً لهم ليسمعوا كلام اللَّه ثم يُبلَغوا مأمنهم تروِّياً يمنعهم عن التردي، وكما يأمر اللَّه سبحانه رسوله بمثل الأمر التالي:

«وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَعْلَمُونَ». «1»

هنا إستجارة المشرك المرفوع عنه الأمان عند الملاحقة للقتال هي موضوع لواجب الإجارة، لا فحسب، بل و «حتى يسمع كلام اللَّه» حيث الإستجارة قد تلمح بأنه متجرٍّ عن الحق المُرام، ولا فحسب أيضاً بل «ثم أبلغه مأمنه» عند أهليه ورَبعه، وطبعاً في غير المعسكر المعادي فإنه ليس مأمناً، و «ذلك» المثلث من الرحمة الرحيمة للمشركين المستجيرين «بأنهم قوم لا يعلمون» فعن جهل هم مشركون وان كان جهلًا مقصِّراً، والجهل القاصر المطلق لا يتصور في الإشراك باللَّه ولذلك‏ «إن اللَّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» «2» ثم الجهالة العامدة ممن «جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً» غير مغفور هناك ولا معذور هنا فلا يشمله «إستجارك» حيث الإجارة هنا إجارة لعاند عامد لا يرجى منه خير، اللَّهم إلَّا إذا احتمل خيره أم- ولأقل تقدير- دفع شره، فهو أيضاً داخل في الإجارة.

وحين تجب إجارة أحد من المشركين عند إستجارته، فبأحرى إستجارة المجموعة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 6

(2). 4: 48

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 390

الشركية، ولأن «إستجارك» طليقة، فكذلك «أجره حتى يسمع كلام اللَّه ثم أبلغه ما منه».

فلا تفتكر أنه قد يخدعك باستجارتك كاذباً فلا تأجره، بل تأسره، اللَّهم إلَّا بأكيد الكيد الخطِر اللعين المكين، حيث يعني خطراً على الصف المسلم، فالأصل- إذاً- هو الإجارة بالإستجارة، إلا فيما يستثنى حفاظاً على الأهم من صالح المجموعة المسلمة.

ولكن «أحدٌ من المشركين» أياً كان، وهو في إجارة قيادة القوات المسلحة، لا يخشى منه خطرٌ على فرد فضلًا عن المجموعة، فلكي تكون حجة الحق هي العليا قد نجيره لمَّا يستجير، آمنين عن كيده وميده، ثم «أبلغه مأمنه» حيث الموضوع هو طليق الإستجارة فله طليق الإجارة وإبلاغ المأمن.

ذلك، فاحتمال أن أحداً من المشركين يستجير لكي يستنير يمنع عن ملاحقته، حيث القص منها دفع نائرة الفتنة القاطعة، فحين يرجى زوالها جراً إلى الإيمان والرحمة فلماذا بعدُ استمرار الملاحقة، «1» بل وإذا لا نحتمل فعلَّ الواقع الخارج عن الإحتمال يحتمل تحرِّيه أو تنبهُّه، بل وإذا نتأكد ألَّا خير فيه ولا شرَّ.

وهنا «حتى يسمع كلام اللَّه» قد تفسر المعني من هذه الإستجارة أنها تقصد التحري عن الحق المُرام، ولكن «حتى يسمع» ليس جزاءً للشرط، إنما هو من الغايات الصالحة للجزاء.

ثم إذا يسمع كلام اللَّه لا ينتظر منه فورُ الإيمان، بل «ثم أبلغه مأمنه» ليجيد التفكر ويعيد النظر إجالة له دون عُجالة حتى يرتكن الإيمان في قلبه، وهذه العناية الأدبية هي غاية ما يمكن رعايته منها، تحرياً عن مواضع الإسترشاد فالرشاد، دون رفض للمستجير زعم أنه كاذب أو محتال، فالأصل- على حائطه- صدق المستجير، ما فيه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في تفسير الفخر الرازي 15: 226 نقل عن ابن عباس انه قال: إن رجلًا من المشركين قال‏لعلي بن أبي طالب عليه السلام: إن أردنا أن نأتي الرسول صلى الله عليه و آله بعد انقضاء هذا الأجل لسماع كلام اللَّه أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟ فقال علي عليه السلام: لا- إن اللَّه يقول: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره ..»

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 391

محتَمله «فأجره حتى يسمع كلام اللَّه».

وهل هذه الإجارة تختص بالرسول صلى الله عليه و آله؟ أم ومن يخلفه في القيادة الحربية؟ أم تعم كل المؤمنين المحاربين حتى تكون الإجارة صالحة لا تحمل خطراً على جيش الإسلام.

«أجره» بعد خطابات جامعة تصلح خطاباً لكل فرد فرد من المؤمنين وكما يروى عن النبي صلى الله عليه و آله قوله: «من استجاركم فأجيروه» «1» و «يجير على المسلمين أدناهم» «2» حتى «النساء والعبيد». «3»

وهنا «كلام اللَّه» الطليق في صيغته، لا يعني طليقاً منه في محتواه، إنما هو «كلام اللَّه» الذي يهديه هدياً صالحاً إلى اللَّه، فتلاوة آيات الطلاق والعدة وما أشبه ليست لتنفع المشرك، إنما هي الآيات المبرهنة لتوحيد اللَّه وصدق هذه الرسالة، حاملة الحكمة والموعظة الحسنة، فإن لكلِّ مجال مقالًا ولكل مقالٍ مجالٌ.

فقد خصصت هذه الآية- آية: «أقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وخصتها بالمعاندين الذين ليسوا ليسمعوا كلام اللَّه تحرياً عن الحق، فإنما هم فاتنون ضالون مضللون صادُّون عن سبيل اللَّه حيث يبغونها عوجاً، ولأن الفتنة أكبر وأشد من القتل ف «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين للَّه» «4» وعلى ضوء هذه الآية تعرف الحقائق التالية:

1- السمع الصالح لكلام اللَّه للتحري عن الحق يكفى حجة للحق، مما يدل على حجة القرآن البالغة، الدالة على ربانية آياته، وأنها دون أي مساعد آخر يُرشد السالكين المتحرين عن الحق إليه، فقيلة أن القرآن لا يُفهم إلّا بدلالة وتفسير السنة كأصل، إنها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مفتاح كنوز السنة نقلا عن حم- ثان ص 99

(2). المصدر عن حم- ثان ص 215 و 365، رابع ص 197، خامس ص 250، هش- ص 469، قد- ص 339

(3). المصدر بعنوان «إجارة النساء والعبيد» عن بخ- ك 58 ب 9، بد- ك 15 ب 155، تر- ك 19 ب 26، مى- ك 17 ب 58، عد- ج 8 ص 21

(4). 2: 193

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 392

غيلة وحيلة على القرآن الذي هو بيان للناس، ولأن المعدات والقابليات مختلفة فعلى القيادة الحربية إسماعه كلام اللَّه لحدّ يُقنعه تماماً دون أي خفاء لكيلا يبقى له عذر في رفض الحق.

2- الإستجارة لسمع الحق تفرض على أهله عندها الإجارة الصالحة له، وإتاحة الفرصة بعده حتى يتروى فيما سمع- كما تشير له «ثم» المراخية لإبلاغه مأمنه- مما يبرهن على أن معرفة أصول الدين ليست إلّا بالإجتهاد قدر الجهد والإمكانية الذاتية، ثم الإستعانة الإستجارة بمن يعرف الحق بصورة مقنعة، فلا تعني الإستجارة هنا فقط فسح المجال بين المستجير وبين سماع كلام اللَّه لمكان القصور الذاتي أو الحالي للبعض من المستجيرين، فعلى أهل اللَّه أن يبينوا كلام اللَّه قدر ما يقنع المستجير.

3- وبطبيعة الحال لا تعني «حتى يسمع كلام اللَّه» مجرد السماع لمجرد الكلام وإن لم يفهم معناه ومغزاه كالذي لا يعرف لغة القرآن، أو يعرفها ولكنه لا يعرف مغازي الكلام لحد تنتجه صالح النتيجة.

4- ولأن هذه الآية تحمل فرضاً فطرياً عقلياً صالحاً للدعوة الربانية الصالحة التي لا مرد لها ولا حِوَل عنها، لذلك فلا تتحمل النسخ حيث‏ «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» ولا ملاحقة قبل بيان الحجة وتمامها، فليست أمثال «قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» مما تنسخ هذه الآية.

5- ولأن الخطاب هنا يخص الرسول صلى الله عليه و آله في «إستجارك فأجره» فقد نتلمح قرن البيان الرسولي إلى بيان القرآن، الرسالي، ولمكان «وأنذر بالقرآن من يخاف وعيد» مما يفرض المحاولة الصالحة المقنعة لكامل السمع لكلام اللَّه، دون مجرد الكلام أيَّاً كان ومن أيّ كان مهما يحمل كل القرآن، إنما هو «وقل لهم في أنفسهم قولًا بليغاً» يبلغ إلى شغاف أنفسهم، فعلى قيادة الجيش الإسلامي هذه الرعاية الشاملة الكاملة الكافلة لإسماع حجة الحق على ضوء كلام اللَّه.

6- ولأن «استجارك» تفرض السماح لسماع كلام اللَّه، فكذلك في بدء القتال‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 393

والملاحقة من المفروض الدعاء الحق قبله بما يُقنع ثم القتال، ف «إن أحد المشركين» الذين لم يسمعوا إلى كلام اللَّه، أم سمعوا والتهوا، أم على أية حال لم يقتنعوا أم تمنَّعوا عن سماعه ثم استجاروا «فأجره ..» حيث القصد من القتال توجيههم إلى اللَّه بداية أم نهاية وعلى أية حال، ف «لا يجر منكم شنآن قوم على ألَّا تعدلوا عدلوا هو أقرب للتقوى».

ذلك، فمجرد إحتمال أن المشرك في طريق التحري، ليس فقط ليحرم ملاحقته قتلًا أو حصراً، بل ويسمح للإستغفار له وكما فعله إبراهيم لما سمع آزر يقول «واهجرني ملياً» فاستفاد من ذلك أنه يعني مهلة للتفكير فاستغفر له، ف «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين أنه عدو للَّه‏تبرء منه ..». «1»

ذلك، وهل تختص هذه الإستجارة بما تعني سماع كلام اللَّه لمكان «حتى يسمع كلام اللَّه»؟ طليق «استجارك» يطلقها إلى غير هذا المعنى، فقد يعني ذلك الإطلاق اغتنام الفرصة في هذا المجال لإسماعه كلام اللَّه، حيث الإضطرار يحمل الناكر للحق أياً كان ليسمع كلام اللَّه حفاظاً على صالحه المقصود من إستجارته، فإذا سمع كلام اللَّه سمعَ التدبر لا الإدبار «ثم أبلغه مأمنه» إذ لا يُعنى من «يسمع» إلّا سمع التفكر والإهتداء دون سواه مِن سمعٍ لا يغني سامعه شيئاً حيث لا يعني الاستنارة به.

فالمشرك المستجير عند الملاحقة يُجار على أية حال «حتى يسمع كلام اللَّه» سواءٌ أكانت استجارته لذلك أم لسواه، فإنما القصد هنا «المتفقه في الدين أشد على الشيطان من ألف عابد» «2» و «لكل شي‏ءٍ عماد، وعماد هذا الدين الفقه». «3»

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 114

(2). المصدر 245 غوالي اللئالي قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:.

(3). المصدر 245 بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 394

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ». «1»

صحيح أن‏ «قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للَّه» «2» تعم الذين يلونكم والبعيدين عنكم، إلَّا أن القدر المستطاع قبل قيام صاحب الإمر بالدولة الإسلامية العالمية، ليس المستطاع قبله إلا قتال الذين يلونكم‏ «3» وكما الإنذار والدعاية الإسلامة آخذان في خطواتهما من الأقربين الملاصقين، كذلك القتال، فهما الحد الأدنى والخطوة الأولى من الناحيتين السلبية والإيجابية الممثلة لكلمة التوحيد، سلباً للكفر وإيجاباً للإيمان.

ذلك «وليجدوا فيكم غلظة» تحذروهم- أولاء وسواهم من الكفار- عن النيل منكم، فلا بد للمؤمنين إضافة إلى واقع القتال قوة إرهابية عادلة ترهب أعداء اللَّه:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ..»، «4» ثم «واعلموا أن اللَّه مع المتقين» في القتال والغلظة، إتقاءً عن الإفراط والتفريط، مشياً على معتدَل الجادة في سبيل اللَّه كما أمر اللَّه، وبصورة جادة.

فحين تشكَّل دولة إسلامية بغياب صاحب الأمر عجل اللَّه تعالى فرجه الشريف، فلا عليها ولا لها إلَّا أن تقاتل جيرانها الأقربين من الكفار المقاتلين المفسدين، إتقاءً عن التجاوز عنهم إلى الآخرين، حيث الكفر ملة واحدة، فقد يجنِّد جنوده دفعة واحدة وحملة فاردة لاجتثاث الدوالة الإسلامية التي غاية قوتها الحفاظ على نفسها من بأس الذين يلونهم من الكفار.

ذلك، ولأن «الذين آمنوا» لا تختص بالدولة الإسلامية، وهم مبعثرون في المعمورة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 123

(2). 8: 39

(3). نور الثقلين 2: 285 في تفسير القمي في الآية قال: يجب على كل قوم أن يقاتلوا ممن يليهم‏ممن يقرب من بلاءهم ولا يجوزوا ذلك الموضع-.

وفي الدر المنثور 3: 293- أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عليهما السلام انه سئل عن قتال الديلم فقال: قاتلوهم فإنهم من الذين قال اللَّه تعالى: قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وفيه ابن مردويه عن ابن عمر انه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» قال: الروم‏

(4). 8: 60

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 395

فعليهم القتال الدائب قدر المستطاع بصورة متواصلة سوماً للعذاب على الكفار المفسدين الخَطِرين عليهم، حتى تُعبَّد الطريق لدولة المهدي عليه السلام العالمية.

فهنالك للمجموعة المسلمة مثلث من الجهاد في مثناه: دعائياً وحربياً، فالضلع الأوَّل «الذين يلونكم من الكفار» لكل دولة أو دويلة أو مجموعة أو منظمة إسلامية سليمة، والثاني أن تتعاون كافة المجموعات الإسلامية في شتى أنحاء المعمورة، مترابطين مع بعضهم البعض ومرابطين وكما قال اللَّه تعالى: «وإذ تأذن ربكم ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ..» والثالث والأخير- وهو من حصائل ذلك الجهاد الإسلامي المتكافل وفصائله- هو تأسيس الدولة الإسلامية العالمية بقيادة صاحب الأمر وولي العصر حجة بن الحسن العسكري عجل اللَّه تعالى فرجه وسهل مخرج، وأما الحرب الباردة الدعائية فلا حد لها إلا كافة الدعايات الكافرة، أن نحاربها بألسنتنا وأقلامنا.

وقيلة القائل الغائل إنها منسوخة ب «قاتلوا المشركين كافة» منسوخة بأن «كافة» هي وصف للمقاتلة المستفادة من «قاتلوا» فلتكن مقاتلة كافَّة بأسهم عن المسلمين، تكفهم عنهم وتجعلهم في أمن منهم، فهم- إذاً- «الذين يلونكم من الكفار» يلونكم جوارَ المكان والحدود الجغرافية، أم ويلونكم جوار البأس مهما كانوا بعيدين، وهما ليسا إلَّا قتال الدفاع، دون هجوم بدائي أيّاً كان.

ولقد كانت سنة الحروب للقائد الرسولي صلى الله عليه و آله هكذا في خطوات، من «أنذر عشيرتك الأقربين» في العهد المكي حرباً عقيدية، تبنياً لأعضاء الدولة وأعضادها في المدينة، وإلى حرب المشركين المدنيين ثم المكيين ثم سائر الجزيرة وإلى الشام والروم، حيث الجمع بين كل الأعداء في حرب واحدة منذ البداية، إنسحاق لأصل الدعوة بمجموعتها الدينين، ما لم يفعله قائد القوات الرسولية في زمنه فضلًا عمن سواه!.

فلمحاربة الأعداء الأقربين، ولا سيما الدخلاء الداخليين، تقدم حسب كل التكتيكات الحربية، كما وهي أقل مؤنة وأكثر معونة وأوجب دفعاً للخطر الحادق‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 396

الحاذق.

ثم «الذين يلونكم من الكفار» إن كانوا أقوياء، كان تعرُّضهم لدار الإسلام أكثر وتبرزهم أخطر من البعيدين، فهم أولى بالدفع ممن سواهم، وإن كانوا ضعفاء كان إستيلاءهم عليهم أسهل، وإبقاءهم على حالهم إشتغالًا بالبعيدين يخلق لهم مجالًا للإستعداد، وعلى أية حال ف «لقد كان لكم في رسول اللَّه أسوة حسنة لمن كان يرجوا اللَّه واليوم الآخر وذكر اللَّه كثيراً» «1» فقد إبتدأ في كلا الغزو والدعوة بالأقربين، مراعياً سياسة الخطوة الخطوة حتى ملك الجزيرة بكاملها، ثم إلى غير الجزيرة من الروم وما أشبه، سنة سارت عليها الفتوحات الإسلامية. تواجه من يلون دار الإسلام مرحلياً، فلما أسلمت الجزيرة أو كادت، ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف طاقة خطرة بعد فتح مكة، كانت غزوة تبوك على أكناف الروم، ثم انساحت الجيوش الإسلامية إلى الروم وفارس إلى أن وحِّدت الرقعة الإسلامية وتواصلت حدودها ببعضها البعض، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، واسعة الأنحاء، متماسكة الأطراف، ثم لم تمزقها إلَّا الحدود المختلفة المختَلقة المتخلِّفة بين ديار الإسلام فأصبحت دويلات فشكلت ويلات على المسلمين أجمع.

ذلك، وترى «وليجدوا فيكم غلظة» تعني الخشونة والفظاظة التي تنافي في صالح الدعوة؟ إنها غلظة رهيبة في القوات المسلحة وسائر الإستعدادات أمام المحاربين دون سائر الكفار فضلًا عن المؤمنين، فقد تعني «غلظة» منكرةً، الغلظة التي لا بد منها أمام المعاندين، فلا تنافى اللينة في الدعوة والرحمة في الدعاية ف «لا تجادلوا أهل الكتاب إلّا بالتي هي أحسن الّا الذين ظلموا منهم» «2» فحين لا تؤثر الرحمة إلّا زحمة فهنالك الغلظة أمام غلظة، حيث الرحمة أمام الظالم المعاند العامد، إنها زحمة وقسوة على المظلوم، فهي- إذاً- غلظة أمام غلظة، بلا هوادة ولا تميُّع ولا تراجع، إنها قوة وصلابة ومهابة «حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله للَّه».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 33: 21

(2). 29: 46

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 397

ذلك، وكما أن الرأفة والرحمة في الدعوة الربانية من تقوى اللَّه، كذلك الغلظة في محالها من تقوى اللَّه، فالرأفة مكان الغلظة كما الغلظة مكان الرأفة هما خارجتان عن تقوى اللَّه إلى الطغوى على حكم اللَّه.

ولقد كانت الحروب الإسلامية بقيادة القائد الرسولي أو الرسالي، مبنية على تقوى اللَّه: «إن اللَّه يحب المتقين» فلا يحب الطاغين.

ولقد كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى اللَّه تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: إغزوا باسم اللَّه، في سبيل اللَّه، قاتلوا من كفر باللَّه، إغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ولا تقتلوا وليداً، فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دور المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللَّه تعالى الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم من الغنيمة شي‏ءٌ إلَّا أن يجاهدوا مع المسلمين، وإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فاستعن باللَّه تعالى عليهم وقاتلهم ...». «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وأخرج أبو داو عن رجل من جهينة أن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم.

وعن العرياض ابن سارية قال: نزلنا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين وكان صاحب خيبر رجلًا مارداً متكبراً فأقبل النبي صلى الله عليه و آله فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال: يا ابن عوف إركب فرسك ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلّا لمؤمن وإن اجتمعوا للصلاة فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قال فقال: أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته، قد يظن أن اللَّه تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن، ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر وإن اللَّه لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا باذن ولا ضرب نسائِهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم.

ورفع إليه صلى الله عليه و آله- بعد إحدى المواقع- إن صبية قتلوا بين الصفوف فحزن حزناً شديداً فقال بعضهم: ما يحزنك يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهم صبية للمشركين، فغضب النبي صلى الله عليه و آله وقال ما يعني: إن هؤلاء خير منكم، إنهم على الفطرة، أو لستم أبناء المشركين، فإياكم وقتل الأولاد إياكم وقتل الأولاد

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 398

إذاً فلا تعني الغلظة إلَّا في ضوء التقوى، وليست هي الوحشية والبربرية مع الأطفال والنساء والشيوخ وسائر العُجَّز غير المحاربين، إنما هي الخشونة التي لا تميِّع الحركة ولا تفسح مجالًا لأعداء الدين أن يهاجموا المؤمنين، فهذا الدين- كما هو اللَّه- «أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة».

ذلك، وأحرى من الدفاع و الحرب الحارة الحارقة، الدفاع والحرب الباردة وهي الدِّعائية بعد تقديم البراهيم البينة الدُّعائية.

وهنا خطوات أولاها واولاها الدعوة الداخلية بمختلف واجهاتها، كيلا ينصدم المسلمون بدعايات مضلِّلة يحملها المتظاهرون بالإسلام، ومن ثم سائر المهاجمين على المقدسات الإسلامية السامية.

فهؤلاء الربانيون الحافظون لحدود اللَّه هم ثقات الإسلام وحصونه، الذين يصدون الهجمات الهمجات المضلُّلة للمسلمين.

«وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ\* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ» «1»

رجعة في نهاية السورة إلى تتمات من مواصفات المنافقين والكافرين، أنهم «إذا ما أنزلت سورة» يتساءلون هازئين أنفسهم والمؤمنين «أيكم زادته هذه إيماناً» والجواب الحاسم القاصم ظهورهم «فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً» على إيمانهم «وهم يستبشرون» ببشائرها «وأما الذين في قلوبهم مرض» وريبة رَجِسة «فزادتهم رجساً» بمزيد كفرهم «إلى رجسهم» من كفرهم «وماتوا وهم كافرون»-: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 124- 125

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 399

أجل وقضية إختلاف القلوب سعة وضيقاً هي اختلاف إنعكاس القرآن عليها، فالطاهر القلب، المنشرح الصدر، المتحري عن الحق يزيدهم القرآن إيماناً كلما نزلت آياته البينات أو تليت عليه، ف «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر اللَّه وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون». «1»

والنجس القلب ورَجِسه الضال الشاك، «2» والضيِّق الصدر يزداد به ضلالًا ورجساً إلى رجسه: «فمن يرد اللَّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصَّعَّد في السماء كذلك يجعل اللَّه الرجس على الذين لا يؤمنون». «3»

ف «رجساً إلى رجسهم» تعني ضلالًا على ضلالهم، حيث سمي الضلال هنا رجساً، وهو مرض القلب، ف «بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند اللَّه، وبالنقصان دخل المفرطون النار» «4» و «الإيمان يبدو لمظة- نقطة بيضاء-.

«فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُون». «5»

فطالما الأخوة في الدين هي التي بين المؤمنين، فقد تشمل هؤلاء المشركين شريطة التوبة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة كما فصلناها من ذي قبل، وهي الأخرى بين المؤمنين وأدعيائهم غير المعروف آباءهم: «.. وما جعل أدعياءكم أبناءكم .. ادعوهم لآباءهم فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ..» «6» ثم لا رابعَ إلّا اليتامى ولكنهم لأنهم صغار غير مكلفين لم يصرح لهم بالأخوة في الدين: «ويسألونك عن اليتامى قل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 8: 2

(2). نور الثقلين 2: 286 في تفسير العياشي عن زرارة بن أعين عن أبي جعفر عليه السلام في «رجساًإلى رجسهم» يقول: شكاً إلى شكهم‏

(3). 6: 125

(4). نور الثقلين 2: 285 في أصول الكافي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبداللَّه‏

(5). 9: 11

(6). 33: 5

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 400

إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ..» «1» ولكن نسبتهم إلى المؤمنين في الأخوة قد تجعلهم إخوة في الدين، ما تتطلبه هذه الأخوة وراء التكاليف الخاصة بالمكلفين، فعليهم أن يراعوهم بأخوة في الدين، وليس عليهم أولاء لصغرهم فرض في حقل الأخوة الدينية، اللَّهم إلَّا ما يفرض على أولياءهم من تأديبهم وتدريبهم على الدين.

وحين تثبت الأخوة في الدين بين المؤمنين ككل‏ «2» وحتى بالنسبة للقاصرين فهلّا تثبت بين فريقي المسلمين شيعةً وسنةً أماهيه من الفرق، وهم ككل حاصلون على هذه الثلاثة، وحتى التاركين منهم للصلاة والزكوة، المصدقين لهما، هم غير خارجين عن هذه الأخوة الشالمة رَبع الإيمان، فقد تثبت حرمة اغتيابهم بعضهم بعضاً بنص آية الحجرات منضمة إلى هذه الآيات «إنما المؤمنون أخوة» و «ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه».

فقيلة حلية اغتياب أهل السنة غِيلة على وحدة الأخوة الإسلامية، وحيلة لوهدتها أعاذنا اللَّه من سوء الفهم والعصبية الجاهلة العمياء!، فإنما «نفصل الآيات لقوم يعلمون».

فحين يصبح المؤمنون الجُدد- على سوابقهم المزرية- ثم الأدعياء غير المعروف آباءُهم، حين يصبح هؤلاء وهؤلاء ومعهم يتاماهم إخواناً لهم في الدين، أفلا يكون سائر المسلمين إخواناً لنا نحن الشيعة الإمامية، زعم أن الإيمان فالأخوة الإيمانية تختص بنا، ويكأن آيات الإسلام والإيمان والأخوة الإيمانية تخاطبنا فحسب دون سوانا؟! وهكذا الغلطة المغلَّظة بين جمع من إخواننا السنة حيث يرفضون أخوتنا الإيمانية، أم ويفضلون اليهود والنصارى علينا!.

وهكذا نزغ شيطان الإستعمار والأستحمار بيننا لحد جعلنا شذر مذر، تاركين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 2: 220

(2). في تفسير العياشي جابر عن أبي جعفر عليهما السلام «فان تابوا» يعني فإن آمنوا فإخوانكم في‏الدين‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 401

لوحدة الإعتصام بحبل اللَّه هابطين لوهدة الإنقسام عن حبل اللَّه، عاملين على بث الخلافات وحثِّها فيما بيننا، وهذه هي بغية أعداءنا لكي يكونوا علينا- المتفرقين المفترقين- ظاهرين قاهرين!.

والقول إن إخواننا فاسقون في عقيدة الدين متجاهرين، فهم ممن يحل اغتيابهم؟

غول من القول، حيث الفسق المتجاهر به في حقل حلّ الإغتياب هو الذي يعترف صاحبه بأنه فسق، ثم لا يبرَّر سائر الفسق المستور أن يغتاب فاسد العقيدة فيه، والأكثرية المطلقة من إخواننا قاصرون وإن كان عن تقصير، فليسوا هم يعاندون الحق فينكرونه لعنادهم، بل هم حسب بيئتهم وملابساتهم ظلوا في تلكم العقائد، وعلى الدعاة إلى اللَّه أن يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادلوهم بالتي هي أحسن.

ولو حلت الغيبة بين فرق المسلمين لفرقت بينهم أكثر مما هم متفرقون، وهم مأمورون بالوحدة قدر المستطاع، إعتصاماً بحبل اللَّه جميعاً دون تفرق وتمزق، فكيف يجوز اغتيابهم فيما هم غير متجاهرين من فسوق، أم هم غير مقتنعين أنه فسوق، فمن شروط الأمر والنهي ثم جواز الإغتياب، أن يكون الواجب والمحرم واضحين للمأمور والمنهي وضحَ النهار، فإن تخلف بعدُ فأمر أو نهي، ثم إن أصر وجاهر فإصرار في الحمل على شرعة اللَّه وجهار في عرض مآسيه عليه ينتهي.

«وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ». «1»

هنا نكث اليمين والطعن في الدين يُردفان عطفاً مما يدل على أن ذلك العهد المؤكد باليمين كان على المحايدة تجاه الدين، ألا يحارِبوا المؤمنين في الدين، ولا يطعنوا طعنة أخرى في الدين كالدعاية ضده أو مظاهرة عدو على المؤمنين، فعند نكثهم وطعنهم «فقاتلوا أئمة الكفر» الناكثين الطاعنين، «إنهم لا أيمان لهم» قاتلوهم «لعلهم ينتهون» عن كفرهم، أم- لأقل تقدير- عن نكثهم وطعنهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 12

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 402

وهنا تبرز من ملامح الحرب الإسلامية أنها فقط حرب دفاعية أمام الهجمة الكافرة على نفوس المؤمنين أم على عقائدهم وسائر نواميسهم، فحين ينتهون عن الطعن في الدين فلا قتال، كما لا قتال حين لا يقاتلونكم.

ولأن الأصل في نكث اليمين والطعن في الدين بين جموع الكافرين، هو من أئمة الكفر دون المأمومين لهم، لذلك «فقاتلوا أئِمة الكفر» وطبعاً بمن يساندهم من هؤلاء الأتباع الأغباش «لعلهم ينتهون» والقصد الأصيل في ذلك القتال ليس هو الإنتقام، بل الإنتهاء عن النكث والطعن في الدين، ثم علياه هي الإنتهاء عن الكفر.

وقد تشمل «أئمة الكفر»- جرياً- كل من يحمل راية الضلالة والمتاهة كأصحاب الجمل ومن أشبه حيث يشكِّلون على الإسلام خطراً علَّه أخطر ممن سواهم من الكفار الرسميين. «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 2: 188 في قرب الإسناد للحميري عن حنان بن سدير قال سمعت أبا عبداللَّه عليه السلام يقول: دخل علي أناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم: كانوا من أئمة الكفر، إن علياً عليه السلام يوم البصرة لما صف الجمل قال لأصحابه لا تعجلوا على القوم حتى أعذر فيما بيني وبين اللَّه وبينهم فقام إليهم فقال: يا أهل البصرة هل تجدون علي جوراً في حكم؟ قالوا: لا، قال: فحيفاً في قَسم؟ قالوا: لا، قال: فرغبة في دنيا أخذتها لي ولأهل بيتي دونكم فنقمتم علي فنكثتم بيعتي؟ قالوا: لا، قال: فأقمت فيكم الحدود وعطلتها في غيركم؟ قالوا: لا، قال: فما بال بيعتي تنكث وبيعة غيري لا تنكث، إني ضربت الأمر أنفه وعينه فلم أجد إلا الكفر أو السيف، ثم ثنى إلى أصحابه فقال: إن اللَّه تبارك وتعالى يقول في كتابه: «وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون»، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرء النسمة واصطفى محمداً صلى الله عليه و آله بالنبوة إنهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا منذ نزلت، ورواه العياشي عن حنان بن سدير عنه عليه السلام أقول: مغتصبوا الخلافة هم من أهل هذه الآية ولكن الملابسات منعت الإمام عن القيام بالسيف أمامهم.

وفي أمالي المفيد باسناده عن بي عثمان مؤذن بني قصي قال سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله: عذرني اللَّه من طلحة والزبير، بايعاني طائعين غير مكرهين ثم نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ثم تلا هذه الآية، ورواه العياشي في تفسيره عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري مثله، ورواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن وأبي الطفيل والحسن البصري مثله، ورواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذن وفي حديثه قال بكير: فسألت عنها أبا جعفر عليهما السلام فقال: صدق الشيخ هكذا قال علي هكذا كان وفيه عن العياشي عن الحسن البصري قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه السلام على هذا المنبر وذلك بعدما فرغ من أمر طلحة والزبير وعائشة، صعد المنبر فحمد اللَّه وأثنى عليه وصلى على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ثم قال: يا أيها الناس واللَّه ما قاتلت هؤلاء إلا بآية تركتها في كتاب اللَّه، إن اللَّه يقول: «وإن نكثوا إيمانهم ..» أما واللَّه لقد عهد إليّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال: يا علي لتقاتلن الفئة الباغية والفئة الناكثة والفئة المارقة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 403

ذلك، ففرض قتال ائِمة الكفر طليق على أية حال، فإنهم بطبيعة حالهم الشريرة يؤمُّون الكفر بكل بنوده السلبية للإيمان والإيجابية لنفسه، قتلًا للأنفس وطعناً في الدين بكل ما يملكونه أو يُمَّلكون من طاقات وإمكانيات في مؤاتية المجالات.

فالقادة الأئمة هم بين أئمة الإيمان وأئمة الكفر، فلا بد لأئمة الإيمان بربْعهم أن يقاتلوا أئمة الكفر بربعه: «ولولا دفع اللَّه الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن اللَّه ذو فضل على العالمين» «1» ف «أئمة الكفر» هنا ظاهرة بديل ضمير: «فقاتلوهم» عبارة قاصدة لموضوعية إمامة الكفر لفرض القتال مهما لم يكن نكث لأيمان وسواها.

وهنا «لعلهم ينتهون» تعني- لأقل تقدير- عن إمامة الكفر فتنة وإفساداً على المؤمنين وسائر المستضعفين، ثم إنتهاءً عن أصل الكفر، وإذاً فهم إخوانكم في الدين.

ثم «لا أيمان لهم» بعد «إن نكثوا أيمانهم» تعبير قاصد إلى أن أيمانهم لم تكن أيماناً قاصدة صادقة، فإن طبيعة حال الأيمان هي الوفاء دون النكث، فالأيمان المنكوثة ليست في الحق بأيمان، وإنما هي قالتها دون حالتها وفعالتها، وصِرف القالة في اليمين قالة غائلة.

هؤلاء أئمة الكفر وهم دركات، كما وأئمة الايمان درجات علياها الأئمة من آل الرسول صلى الله عليه و آله، الأعزة عند الرسول على حد تعبيره صلى الله عليه و آله: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى إثنى عشر خليفة كلهم من قريش» «2» و «الأئمة من المهاجرين». «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 2: 251

(2). مفتاح كنوز السنة بخ- ك 93 ب 51 ومس- ك 33 ح 5- 10 وتر- ك 31 ب 46 وحم أول ص 398 قا 406، خامس ص 86 و 87 و 93 و 94 و 95 و 96 و 97 و 98 و 99 و 100 و 101 و 106 و 107 و 108 وط- ح 767 و 1278

(3). المصدر ط- ح 926 و 2133

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 404

وترى «إن نكثوا ..» تختص واجب قتال أئمة الكفر- فقط- بما إذا نكثوا وطعنوا، فغير المعاهَد الطاعن لا يقاتَل؟ «أئمة الكفر» موضوعاً ل «قاتلوا» تكفي دليلًا أن لها الموضوعية التامة الطامة في حكم واجب القتال، فسواءٌ في ذلك المعاهَد الناكث وغير المعاهَد ما دام الطعن في الدين بإمامة الكفر قائماً، فذلك- إذاً- حكم يحلق على كافة أئمة الكفر الطاعنين في الدين للطول التأريخي والعرض الجغرافي.

ذلك، ومن أبرز النكث للإيمان فالطعن في الدين هو نكث يمين الإيمان المدعى إرتداداً عنه جاهراً، مما يفت عضد الدين ويضعف ساعد اليقين حيث يخيِّل إلى بسطاء المؤمنين أنه ارتدوا عنه بما وجدوا فيه من خلل فجحدوه لهذه العلل وما نجدوا، وهو طعن في الدين وقلوب الدَّينين، طعناً عملياً يعمل في إضلال البسطاء سراعاً، ودليلًا باهراً على الشمول إضافةً إلى ظاهرة العموم، أن «نكثوا» هنا بعد «فإن تابوا ..» فهو في الأصل نكث بعد التوبة، ثم يشمل كل نكث، ثم كل إمامة للكفر، وقد سبق ذلك النكث ما يعممه تماماً، فسابق «كيف يكون للمشركين عهد» مع «إن تابوا» مرتين، دليل باهر لذلك التعميم.

فلا تختص «أئمة الكفر» بمن يطعنون في الدين وهم كفار جاهرين، بل وأنحس وأنكى منهم كبراء بزعم الناس، يُظهرون الإيمان مضمِرين الكفر ثم يرتدون، وذلك كاف في زعزعة إيمان البسطاء المستضعفين.

إذاً فنكث الأيمان يشمل نكث الإيمان- وبأحرى- لأنه أيضاً يمين من الأيمان، بل وأحرى مما سواه من أيمان، فقضية طليق «أئمة الكفر» بنقض الأيمان والطعن في الدين هي وجوب قتال كل من يحمل مشعل الضلالة والطعن في الدين، ملحداً أو مشركاً أو كتابياً أم ومسلماً يحمل ما يحملون بل هو أخطر وأنكى، فأصحاب البدع الجاهرة، الذين يُبدعون خلاف الضرورة من شرعة الحق هم من أئمة الكفر، وترى إذا انتهى المرتد عما فعل وأبرز الإيمان، فهل يثبت قتاله بعدُ أم لا؟ «لعلهم ينتهون» حيث تُنهي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 405

قتالهم لغاية إنتهاءهم، دليل نفيه عندئذٍ، اللَّهم إلَّا أن يدل قاطع الدليل على إستثناء المرتدين.

وهل للكافر يمين لمكان «نكثوا أيمانهم» حيث النكث لها دليل واقعها؟ أم لا- ل «إنهم لا أيمان لهم»؟ إن لهم يميناً ما لم ينكثوا، فحين نسمع منه يميناً لا نتأكد كذبه فقد نعامله صادق اليمين على حذر لأنهم- كأصل- لا أيمان لهم، إذ لا مولى لهم به يحلفون.

«أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ». «1»

هذه الآية بما بعدها تواجه ما حاك في نفوس ضغيفة لم يتعرض الإيمان بعدُ فيها، من تردد وتهيُّب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة الجاسمة القاصمة، ومن تعلل ورغبة وتَعِلَّة في أن يفي‏ء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل، ومن خوف على نفوسهم ومصالحهم، ركوناً إلى أيسر وسائلهم في مسائِلهم.

فالقرآن يواجه هذه المشاعر بملابساتها الملبَّسة على أصحابها، والتعِلّات والمخاوف الملحقة عليها، استجاشة لقلوب المؤمنين بذكريات وأحداث ورغبات صالحة، تذكرة بنقض المشركين عهودهم بعد إبرامها وسائر ما افتعلوه فحق الرسول صلى الله عليه و آله والذين معه.

وهنا سرد مختصر غير محتصر لثالوث أئمة الكفر: «نكثوا أيمانهم»- «وهموا بإخراج الرسول» «وهم بدءوكم أوّل مرة» وكل واحدة من هذه الثلاثة تكفي في فرض قتالهم فضلًا عن الثالوث كله.

و «ألا تقاتلون» إستفهام إنكاري ممن يتهاون ولا يتعاون في قتال هؤلاء الناكثين البادئين في الحرب وقد «هموا بإخراج الرسول» مما يدل على مدى تعرق الكفر في نفوسهم النحيسة البيئسة.

1- «نكثوا أيمانهم» مع الرسول- كما هو شيمتهم الشنيعة-: نقضاً لعهد الحديبية ف «إن بني بكر الذين كانوا دخلوا في عقد قريش وعهدهم وثبنوا على خزاعة الذين دخلوا في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 9: 13

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 406

عقد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعهده ليلًا .. فقاتلوهم للضغن على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ..» «1» وكان صلى الله عليه و آله قد قبل من شروطهم ما حسبه الخليفة! عمر قبولًا للدنية!.

ثم وفى لهم أحسن الوفاء وأدقَّه، ولكنهم نقضوا عهده صلى الله عليه و آله وخاسوا به بعد عامين لأول فرصة سانحة.

2- «وهموا بإخراج الرسول» مرات عدة، يوم الندوة، ويوم الشعب، وليلة الفراش التي انتهت إلى الهجرة، ثم وكل أيامهم كانت تحمل هماً بالغاً قالًا وحالًا وفعالًا لإخراج الرسول صلى الله عليه و آله عن عاصمة الدعوة، وذلك أنحس وأنكى ما حصل منهم طول همومهم بخصوصهم وعمومهم، ثم ولم يكونوا يكتفون إحراجَه بإخراجهِ عن مكة، بل وهموا بإخراجه أيضاً عن المدينة لما أقدموا عليه من المشورة والإجتماع على قصده بالقتل، فهمهم لإحراجه في المدينة همٌّ لهم لإخراجه عنها كما أخرجوه عن مكة المكرمة.

3- «وهم بدءوكم أوّل مرة» بدءً بالقتال والنكال منذ بزوغ الدعوة، ومن ثم بعد الهجرة خلال بضع أشهر، في حرب بدر التي أصبحت خلاف قصدهم- بادرة القوة الاسلامية ضدَّهم.

فلقد بيتوا عليه في بيت اللَّه الذي يأمن فيه القاتل والسارق، فمحمد صلى الله عليه و آله لا أمان له في ذلك البيت الأمين لأنه يدعو إلى الهدى، ويردهم عن الردى، بيتوا عليه على حريته واراقة دمه دونما تحرُّج ولا تذمم، وبكل تهرُّج، حتى أخرجوه عن مكة بعد كل ما أحرجوه، ثم أصروا على إبادته فى مهجره بقيادة أبي جهل في بدر، ثم قاتلوهم بادئين في أحد والخندق، ثم جمعوا لهم في حنين ولا يزالون وكما قال اللَّه: «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا» مما يبين الطبيعة الشركية النكدة اللئيمة.

وكما هم بدءوكم في قصة خزاعة، والبادى‏ء بالقتال يحق قتاله على أية حال.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. الدر المنثور 3: 215- أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن مروان بن الحكم‏والمسور بن مخرمة قاذلا كان في صلح رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم الحديبية بينه وبين قريش إن من شاء أن يدخل في عقد النبي صلى الله عليه و آله وعهده دخل فيه ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا: ندل في عقد محمد وعهده، وتواثيب‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 407

«أالا تقاتلون» هؤلاء الأنكاد البعاد؟ «أتخشوهم» أنتم‏ «فاللَّه أحق أن تخشوه» فأتمروا بأمره‏ «إن كنتم مؤمنين» به‏ «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين». «1»

و «من خاف اللَّه أخاف اللَّه منه كل شي‏ء ومن لم يخف اللَّه أخافه اللَّه من كل شي‏ء»، فلا يُخاف في سبيل اللَّه أيُّ مخيف إلا اللَّه الذي يأمرنا أن نسلك سبيله دون خوف ممن سواه.

«قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ\* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» «2»

هنا «يشف صدو ر قوم مؤمنين» دون «صدوركم» أو «صدور المؤمنين» ككل، مما يلمح بنزول الآية بشأن ناقضي عهد الحديبية حيث إن بني بكر وثبوا على خزاعة الداخلين في عقد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله واثخنوهم قتلًا جرحاً وتشريداً.

أجل «قاتلوهم» أولاء الناقضين، وبالنتيجة «يعذبهم اللَّه بأيديكم» القوية بالإيمان، وقلوبكم الندية بالإيمان ثم «ويخزهم» كما أخزوا فريقاً من المؤمنين «وينصركم عليهم» بصورة قاطعة لا قِبَل لهم بها، ثم «يشفِ صدور قوم مؤمنين» مظلومين مهضومين «ويُذهب غيظ قلوبهم» الغائطة على تلك الحالة المخزية المزرية «ويتوب اللَّه على من يشاء» منكم مقاتلين ومن هؤلاء المظلومين المقتص لهم، ثم ومن الناقضين الذين قد يتوبون إلى اللَّه عما نقضوا وأبغضوا اللَّه ورسوله حين يرون نصراً كمؤمنين، إحساساً لهم أنهم منصورون بغير ظاهرة القوة الحربية، فتفتح بصيرته على الهدى.

«واللَّه عليم» بكل ما حصل ويحصل وما هو صالح أم طالح لكم ولمن سواكم «عليم» بالعواقب المخبوءَة وراء هذه التقدمات، «حكيم» فيما يأمر وينهى ويقضي ويقدر، «حكيم» يقدر نتائج الأعمال والحركات والنيات.

ذلك، فطبيعة الحال تقضي بأن المؤمنين تغيظ قلوبهم بما يلمسون من مثل ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 139

(2). 59: 14 و 15

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 408

الكبت الشديد والنقض العنيد، فذلك العذاب بأيديكم المؤمنة والخزي للناقضين ونصرتكم عليهم، إن فيها لشفاءً لصدورهم عما جرحت وضيقت وحرجت، وإذهاباً- بالنتيجة- لغيظ قلوبهم.

ولقد تجري هذه الآية فيمن يدعي الإسلام، وهو ناقض لعهده مفض يديه منه حيث يعامل المسلمين كما يعامَل الكافرون. «1»

وترى «يعذبهم» لا تنافي‏ «وما كان اللَّه ليعذبهم وأنت فيهم» وان الدنيا دار عمل ولا حساب والآخرة دار حساب ولا عمل؟.

العذاب المسلوب كما قدمناه هو عذاب استئصال وما أشبه بيد القدرة الربانية دون وسيط الإنسان، ثم العذاب هنا ليس حسب الحساب المخصوص بالأخرى، إنما هو شطر ضئيل منها تتقدم هنا لتكون كلمة اللَّه هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

والقتل والحصر والتشريد وما أشبه، كما الحدود والتعزيرات، هي عذابات مأمور بها بأيدي المؤمنين على المتخلفين عن شرعة اللَّه تأديباً لهم وتأنيباً وردعاً وتقليلًا للفساد.

ذلك «وقاتلوهم» هذا قد يمتد أمره إلى فتح مكة التي تجمع كل هذه المواصفات،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 3: 190 عن تفسير العياشي عن علي بن عقبة عن أبيه قال: دخلت أنا والمعلى على أبي عبد اللَّه عليه السلام فقال: ابشروا أنكم على أحدي الحسنيين شفى اللَّه صدوركم أذهب غيظ قلوبكم وأنا لكم على عدوكم وهو قول اللَّه «ويشف صدور قوم مؤمنين» وإن مضيتم قبل أن يروا ذلك مضيتم على دين اللَّه الذي رضيه لنبيه صلى الله عليه و آله ولعلي عليه السلام، وفيه عنه أبي الأغر اليمني قال: إني لواقف يوصفني إذا نظرت إلى العباس ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شاكٍ ف السلاح على رأسه مغفر وبيده صفيحة يمانية وهو على فرس أدهم إذ هتف به هاتف من أهل الشام يقال له عرار بن أدهم يا عباس هلم إلى البراز، قال: ثم تكافى بسيفهما مليّاً من نهارهما لا يصل واحد منهما إلى صاحبه لكمال لأمته إلى أن لاحظ العباس وهياً في درع الشامي فأهوى إليه بالسيف فانتظم به جوانح الشامي وخرّ الشامي صريعاً بخده وأمّ في الناس وكبر الناس تكبيرة ارتجت لها الأرض فسمعت قائلًا يقول: «قاتلوهم يعذبهم اللَّه بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب اللَّه على من يشاء» فالتفت فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 409

فسائر الحروب الفاتحة لم تكن تحمل منها إلا يسيراً قصيراً، وإنما فتح مكة هو الذي حمل كل هذه المواصفات لقبيل الإيمان.

وهنا «غيظ قلوبهم» في إذهابه رحمة عليهم خروجاً لقلوبهم عن التغيظ التشيق بما أصيبوا من مكائد الكفار، فهي رحمة صالحة لهم، وهناك غيظ آخر في ذهابه رحمة عليهم وعلى الآخرين الذين يجب كظم الغيظ عنهم لكونهم مؤمنين، وهذا مجال قول النبي صلى الله عليه و آله: «وما من جرعة يتجرعها الإنسان أعظم أجراً عند اللَّه من جرعة غيظ في اللَّه». «1»

والقصد من جرعة الغيظ هنا الصبر عند الإهتياج، واللظم عند الإنزعاج، وترك إتباع نوازع النفس إلى ما تدعوا إليه في تلك الحال من شفاء غيظ، أو تنفيس كرب، و إطلاق عقال، أو فعل مراقبة اللَّه سبحانه تنجزاً، واحتجازاً عن عقابه، فشبه صلى الله عليه و آله تلك الحال بالجرعة، كأن الإنسان بالكظم لها والصبر عليها قد ضاق بها مرارة، وأساغ منها حرارة.

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» «2»

«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون» «3» «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساءُ والضراءُ وزلزلوا حتى يقول الرسولُ والذين آمنوا متى نصر اللَّه ألا إن نصر اللَّه قريب» «4» «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم اللَّه الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين». «5»

«أم حسبتم أن تتركوا» لحاكم دونما ابتلاء وإمتحان وتمحيص «ولمّا يعلم اللَّه الذين جاهدوا منكم» عَلْماً وعلامة بواقع الجهاد الذي هو علامة النجاح، كما أن تركه علامة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجازات النبوية للسيد الشريف الرضي (96)

(2). 9: 16

(3). 23: 115

(4). 2: 214

(5). 3: 14

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 410

السقوط، فلهذه المجاهدات المفروضة أبعاده، منها تميُّز المجاهدين الواقعيين عن المدعين الجهاد «يقولون في المجالس كيت وكيت فإذا جاء الجهاد فحيدي حياد».

و «جاهدوا» الطليقة هنا تعم الجهاد الأنفسي إلى الآفاقي والآفاقي إلى الأنفسي، وجهاد النفس هو أعظم، وهو أتم مهاد لجهاد سائر الأعداء، ولا يعني جهاد النفس قتل النفس الأمارة بالسوء، إنما هو جعلها سليمة أمام العقلية الإيمانية، خارجة عن طيشها وعيشها المتخلف عن شرعة اللَّه، فتفسير جهاد النفس بقتل النفس غلط رائج دارج لا يعبأ به!.

«جاهدوا ولم يتخذوا» أية وليجة تلج في صفوفكم وصنوفهم «من دون اللَّه ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة» فالوليجة الربانية هي المعرفة التقية، والتقوى المعرفية أماهيه، الوالجة في قلوبهم الحاكمة في صفوفهم، ثم من الوليجة الرسولية تقبُل قيادته العليا من اللَّه، ومن ثم الوليجة الإيمانية ولوج المؤمنين بعضهم في بعض، مندغمين مع بعضهم البعض صفاً كأنهم بنيان مرصوص، وليس ذلك الإمتحان ليعلم اللَّه الذين جاهدوا منكم إلّا عَلماً لا عِلماً «واللَّه خبير بما تعملون».

ف «يا معشر الأحداث اتقوا اللَّه ولا تأتوا الرؤوساء، دعوهم حتى يصيروا أذناباً، لا تتخذوا الرجال ولايج من دون اللَّه أنا واللَّه خير لكم» «1» و «إياكم والولايج فإن كل وليجة دوننا فهي طاغوت- ند». «2»

وهكذا «فان كل سبب ونسب وقرابة ووليجة وبدعة وشبهة منقطع إلّا ما أثبته القرآن» «3» ولأن «المؤمنين» درجات فأولج الولايج منهم وأبهج المناهج هم ولاة الأمر المعصومون عليهم السلام، فإنهم استمرارية كاملة شاملة لكيان الرسول صلى الله عليه و آله بينهم. «4»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. نور الثقلين 3: 191 في تفسير العياشي عن ابن أبان قال سمعت أبا عبداللَّه عليه السلام يقول: .. ثم‏ضرب بيده إلى صدره‏

(2). المصدر عن أبي الصباح الكنائي قال قال أبو جعفر عليهما السلام:.

(3). المصدر عن أصول الكافي عن أحمد بن محمد بن خالد مرسلًا قال قال أبو جعفر عليهما السلام:.

(4). المصدر عن أصول الكافي عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية يعني بالمؤمنين الأئمة عليهم السلام لم يتخذوا الولايج من دونهم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 411

فكما الوليجة الرسولية هي- فقط- «رسوله» كذلك الوليجة الرسالية بعده ولوجاً قيادياً بينهم ليسوا إلّا خلفاءَه المعصومين عليهم السلام، ومن ثم الدرجات التنازلية لسائر المؤمنين قضية صالح الملابسات والمناسبات.

فمما لا مرية فيه أن الإنسان أياً كان لا يقدر أن يعيش عيشة صالحة بشخصه مهما كان شخيصاً محيصاً، اللَّهم إلَّا بوليجة ربانية تلج قلبه وفكره، مرشداً أو مناصراً ليكون على بصيرة ومسيرة فميصرة صالحة لأمره في حياته.

فالمجاهدون من المؤمنين في مختلف حقول الجهاد هم الذين لا يتخذون وليجة في جهادهم وجهودهم إلّا «اللَّه- ورسوله- والمؤمنين» فوليجة اللَّه- كالإخلاص له فيه- دائبة لا تنفصل إلا بانفصال الإيمان، وطالما الوليجة الرسولية منفصلة بانفصاله عنا ولكنها الوليجة الرسالية مستمرة معنا، في كيانه الرسالي بسنته صلى الله عليه و آله والآخر المتمثل في عترته عليهم السلام، ومن ثم الوليجة الإيمانية من المؤمنين على كتاب اللَّه وسنة رسوله، فمختلفة الولايج من المؤمنين مرفوضة، والصالحة منها مفروضة، ولتكون هذه الولايج النيرة الربانية زاداً صالحاً في هذه السفرة الشاقة البعيدة المليئة بالأشلاء والدماء، كما أن «في سبيل اللَّه» راحلتهم التي ترحلهم.

فكما أن جهاد المؤمن محصور في سبيل اللَّه، محسور عما سواها وسواه، كذلك وليجته في جهاده هي وليجة اللَّه ابتغاء رضاه ورجاء لطفه تعالى في غناه، ثم وما يرضاه من الرسول والمؤمنين، وذلك هو الجهاد الصالح دون سواه، فقد انتقشت كلمة لا إله إلَّا اللَّه في زادهم «في سبيل اللَّه» لا سواه، وراحلتهم «وليجة اللَّه و ..» لا سواها.

وعبارة أخرى عن «وليجة» هي «بطانة» ف «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالًا ودُّوا ما عنتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 412

صدورهم أكبر قد بينا الآيات إن كنتم تعقلون». «1»

ذلك «وقد أخبرك اللَّه عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك، ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلالة والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس، فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك والدنيا إلا من عصم اللَّه». «2»

فعلى المؤمن أن يتزود في قلبه ونيته وليجة اللَّه، وفي كيف يجاهد؟

الايمان الصامد غالب غير مغلوب‏

وترى بإمكان الفاسقين منهم ان يضروا خير أمة اخرجت للناس، المتوفرة فيها المواصفات السابغة السابقة؟ كلا!:

«لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايُنْصَرُونَ». «3»

الأذى هي دون الضرر او الضرر الأدون وإلّا لتناقض المستثنى منه إلا بانقطاعه منه، وعلَّ القصد منها ما يقولونه بألسنتهم تعريضاً بكم وتعييراً لكم، دون واقع الاصطدام بايقاع الغليظ المكروه الشديد.

أم وأذى الجراح والقراح والقتل بدنياً إن يقاتلوكم، دون ضرر الغلبة بحجة أم سلطة عسكرية أماهيه، فحسن استثناء «أذىً» من «لن يضروكم» حيث إن تلك الأذى هي بالنسبة لتلك الاضرار كأنها لا تضر إذ لا تؤثر عميقاً ولا تجحف، فحاصل المعنى «لن يضروكم الا ضرراً قليلًا».

ولم تذكر الأذى في سائر القرآن إلّا في قليل الضرر اللّهم إلا إذا أفردت بذكر، فعامته ك «ان الذين يؤذون اللَّه ورسوله لعنوا في الدنيا والآخرة».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 118

(2). نهج البلاغة الخطبة 208 عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام‏

(3). 3: 111

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 413

ذلك ومتى بلغ الأمر الى المدافعة والمقاتلة وانتهى الوعيد إلى المواقعة كان المؤمنون أقوى ظهوراً وأشداً استظهاراً، والكفار أنقض ظهوراً وأضعف عماداً وأكثر استدباراً، وذلك من ملاحم الغيب ودلائل صحة هذه النبوة السامية وكما رأينا في ماضي تاريخنا المجيد أن اليهود لم يقاتلوا المسلمين إلا منحوهم وأجزروهم لحومهم كبني قريظة وبني قينقاع، ويهود خيبر وبني النضير وكم لهم من نظير!.

ف «لن» لها دور الإحالة لمدخولها وهو هنا «يضروكم» وهم فسقة اهل الكتاب وافسقهم اليهود و «لن يضروكم» هؤلاء بحذافيرهم أي ضرٍّ بأنفسكم وعقائدكم وكل كيانكم الإسلامي السامي «إلا أذى» وهو دون ضرٍّ «وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون» عليكم.

أترى بعدُ أن تلك الإحالة تعم كافة المسلمين وهو خلاف الواقع الملموس طول القرون الإسلامية حتى الآن؟.

كلَّا، فإنها خاصة بمن خوطبوا من ذي قبل بتحقيق شروط السيادة: إعتصاماً باللَّه- حيث تتلى عليهم آيات اللَّه وفيهم رسوله- وبتقوى اللَّه حق تقاته، وأن يعيشوا على طول الخط مسلمين للَّه، وأن يعتصموا بحبل اللَّه جميعاً ولا يتفرقوا، وتكن منهم أمة داعية آمرة ناهية، وأخيراً يصبحوا من خير أمة أخرجت للناس، إذاً ف «لن يضروكم» أنتم المخاطبون بهذه الأوامر، المحققون لها كما أمرتم‏ «لن يضروكم إلّا أذىً وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون»!.

فلأن الأذى هي دون الضرر فالإستثناء- إذاً- منقطع، أو هو الضرر القليل الضئيل فمتصل، وعلى أية حال فالنص يبشر باستحالة الضرر من فسقة أهل الكتاب على هؤلاء المؤمنين القائمين بشرائط الإيمان، المسرودة من ذي قبل.

فالإنهزامات العقيدية والثقافية والعسكرية أماهيه لمن يسمون مسلمين ليست إلا من خلفيات الانهزامات الإيمانية «وان ليس للإنسان إلّا ما سعى».

إنها ليست صيغة الإسلام والإيمان هي العاصمة لحامليها عن الشر والضر، الكافلة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 414

للخير، ولا أن صيغة التهود والتنصر هي القاضية على حامليها، إنما الكافل هو الإيمان الصامد اياً كان ف «ليس بأمانيكم ولا اماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجزيه ولا يجد له من دون اللَّه ولياً ولا نصيراً»

دعائم أربع في سياس الحفاظ على المؤمنين‏

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». «1»

تلحيقة ختامية لهذه السورة تحلق على كل شروطات الايمان المفلح فردياً وجماعياً، كنموذجة شاملة كاملة عن ناجح الايمان وفالحه وكل صالحه، حيث يحافظ على كافة المصالح الايمانية السامية.

هنا يُدعم مفلح الايمان على دعائم اربع: الصبر- المصابرة- المرابطة- التقوى، والنتيجة: «لعلكم تفلحون».

وهذه الاربع كلها مربوطة بسبيل اللَّه لا سواه، كما الزاوية الرابعة هي تقوى اللَّه في كل شروطات الايمان ولا سيما الصبر والمصابرة والمرابطة.

1- «إصبروا» في الأفراح والاتراح، في البأساء والضراء، في تكاليف الايمان ايجابية وسلبية، فالصبر- وهو رأس الايمان- هو زاد الطريق في هذه الدعوة الطائلة الشاقة، الحافلة بالعقبات والحرمانات والشهوات والرغبات، وعلى تنفَّج الباطل ووقاحة الطغيان وفاحشة العصيان ووساوس الشيطان، وعلى الجملة الصبر في كل عسرة ويسرة على طاعة اللَّه وترك معصية اللَّه، والقوامة لشرعة اللَّه، فلا يعني صبرَ التخاذل والتكاسل والتغافل في حقول الايمان فانه من الشيطان.

ولان واجب الصبر- فقط- شخصياً لا يفي بصالح الجماعة المؤمنة وحده او صالح عامة الشرعة الالهية فلذلك:

2- «وصابروا»: صابروا في مختلف طاقاتكم ورغباتكم صيانة عن تفلُّتها او تلفُّتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 200

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 415

في غير صالح، وصابروا مع إخوانكم تعاوناً على البر والتقوى، وتواصياً بالحق وتواصياً بالصبر، تكريساً لكل الطاقات لحمل بعضكم بعضاً على الصبر كما تحملون انفسكم عليه، تعاوناً وتآزراً في التصابر، وصابروا على شهوات المؤمنين ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم وانحراف طبائعهم وأثرَتهم وغرورهم والتوائِهم.

وصابروا على تنفج الباطل وتبلُّجه عند اهله، وعلى انتفاش الشر والضر، وقلة الناصر، وكثرة الغادر.

وصابروا على مرارة الجهاد وما تثيره في النفس من مختلف الانفعالات، في الانتصار والإنهزام سواء.

وصابروا أعداء الإيمان في سباق الصمود على العقيدة، حيث الأعداء يحاولون جاهدين ان يقل صبر المؤمنين فيفلَّ، فلا ينفذ صبركم على طول الجهاد، فذلك رهان في الصبر بينكم وبين أعداءكم، يبرزون فيه ويبارزون لمقابلة الصبر بالصبر والإصرار بالإصرار ثم تكون لكم عاقبة الأشواط، فاذا كان الباطل يصر ويصبر ويمضي قدماً إلى الأمام، فما أجدر الحق ان يسبق في رهان الصبر.

3- «ورابطوا» رباطاً بين طاقاتكم الشخصية، وآخر بين طاقاتكم الجماعية ومنها الصلاة الجماعة «1» واخيراً في معارك الشرف والكرامة رباطاً في الحرب ورباطاً في المحراب، في الحروب الباردة الدعائية، وفي الحروب الحارة، حفاظاً على ثغور الاسلام زمنياً وروحياً.

و «رابطوا» في كل ذلك مع قياداتكم الزمنية والروحية المتمثلة في الإمام، بعد اللَّه وبعد النبي، فالإمام هو الرباط الأدنى‏ «2» في هذه الثلاث واللَّه هو الاعلى والنبي هو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 114- اخرج جماعة عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه و آله قال: ألا اخبركم بما يمحواللَّه به الخطايا ويرفع الدرجات، اسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا الى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذالكم الرباط فذالكم الرباط فذالكم الرباط

(2). نور الثقلين 1: 425 عن تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن ابي عبداللَّه عليه السلام في الآية: «اصبروا» يقول عن المعاصي «وصابروا» على الفرائض «واتقوا اللَّه» يقول ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ثم قال: واي منكر انكر من ظلم الامة لنا وقتلهم ايانا «ورابطوا» يقول في سبيل اللَّه ونحن السبيل فيما بين اللَّه وخلقه ونحن الرباط الأدنى فمن جاهد عنا فقد جاهد عن النبي صلى الله عليه و آله وما جاء به من عند اللَّه «لعلكم تفلحون» وفيه في رواية اخرى عنه عليه السلام «ورابطوا» قال: المقام مع امامكم .. وفيه عن ابي جعفر عليهما السلام «وصابروا» يعني التقية «ورابطوا» يعني الائمة، وفي المعاني عن الصادق عليه السلام في الآية اصبروا على المصائب وصابروهم على الفتنة ورابطوا على من تقتدون به‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 416

الاوسط، والرباط مع القائد يشملهم على مراتبهم متوحدة في سبيل اللَّه. «1»

ولقد كانت الجماعة المؤمنة لا تغفل عيونها أبداً، ولا تستسلم للرقاد، فما هادنا أعداءها قط منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة، اللَّهم إلا من حُمِّلوها فلم يحملوها فاصبحوا غثاءً للنسناس اذ لم يلتزموا بشرعة الناس، وطاعة إله الناس.

فلا بد من مرابطة دائِمة في الثغور العقيدية والأخلاقية والعلمية الثقافية، والسياسية، والاقتصادية والحربية، حيث الكل هي ميادين السباق بين الكتلة المؤمنة والزمة الكافرة، فالعلماء الربانيون مرابطون في الحقول الروحية كما هم قواد في سائر الحقول.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 114- اخرج ابو نعيم عن ابي الدرداء قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: يا ايها الذين آمنوا اصبروا على الصلوات الخمس وصابروا على قتال عدوكم بالسيف ورابطوا في سبيل اللَّه، وفيه عن فضالة بن عبيد سمعت النبي صلى الله عليه و آله يقول: كل ميت يختم على عمله الا الذي مات مرابطاً في سبيل اللَّه فانه ينمو عمله الى يوم القيامة ويأمن فتنة القبر، وفيه عن ابن عابد قال خرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله في جنازة رجل فلما وضع قال عمر بن الخطاب لا تصل عليه يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فانه رجل فاجر فالتفت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى الناس قال صلى الله عليه و آله: هل رآه احد منكم على الاسلام؟ فقال رجل نعم يا رسول اللَّه حرس ليلة في سبيل اللَّه فصلى عليه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحثى عليه التراب وقال: اصحابك يظنون انك من اهل النار وانا اشهد انك من اهل الجنة، وقال صلى الله عليه و آله يا عمر انك لا تسأل عن اعمال الناس ولكن تسأل عن الفطرة، وفيه اخرج ابن ماجة عن ابي بن كعب قال قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لرباط يوم في سبيل اللَّه من وراء عورة المسلمين محتسباً من غير شهر رمضان أفضل عند اللَّه وأعظم أجراً من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها، ورباط يوم في سبيل اللَّه من وراء عورة المسلمين محتسباً من شهر رمضان افضل عند اللَّه واعظم اجراً من عبادة الفي سنة صيامها وقيامها فان رده اللَّه الى اهله سالماً لم تكتب له سيئة وتكتب له الحسنات ويجري له اجر الرباط إلى يوم القيامة، وفيه اخرج البيهقي عن ابي امامة ان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: ان صلاة المرابط تعدل خمسمائة صلاة ونفقة الدينار والدرهم منه افضل من سبعمائة دينار ينفقه في غيره‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 417

والجيوش الإسلامية مرابطون في الحروب الدامية الحامية المستمرة بين فريقي الحق والباطل، والأغنياء الأثرياء المؤمنون مرابطون في الحقول الاقتصادية.

والساة الازكياء الاذكياء مرابطون في ميادين السياسة بكل حراسة وكياسة.

وكل هؤلاء المرابطون يترابطون فيما بينهم لتنسيق الوحدة ووحدة التنسيق، حتى يصبحوا يداً واحدة على من سواهم، تسعى بذمتهم أدناهم.

4- «واتقوا اللَّه» في الصبر والمصابرة والمرابطة ألا تنفلَّت عن سبيل اللَّه، «واتقوا اللَّه» في كل حركات الحياة وسكناتها، وفي كل ثكناتها الحربية ضد أعداء الايمان.

فالتقوى والتقوى فقط هي الحارسة اليقظة في كل كارثة سلبية او ايجابية، فهي هي زاد الطريق وراحلتها «لعلكم تفلحون».

وهذه التفاصيل هي قضية الإطلاق في هذه القواعد الأربع- ف:

«اصبروا» في- على- ل- من .... «وصابروا» بين- في- ل- على ... «ورابطوا» بين- مع- على- في- ل ... «واتقوا اللَّه» في هذه وسواها «لعلكم تفلحون» في سبيل الرحمان كما تفلجون سبيل الشيطان «فبأي آلاءِ ربكما تكذبان»!.

اجل وان المرابطة في سبيل اللَّه في كل حقولها هي السياج الصارم للمجموعة المؤمنة عن التفلت والتفكك والإنهيار، ولا سيما المرابطة في الثغور العقيدية ومن ثم الثغور الجغرافية، وعلى ضوءها سائر الثغور: السياسية والاقتصادية والثقافية أماهيه.

والروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه و آله في فضل المرابطين تعمم المرابطة في سبيل اللَّه وافضلها سبيل الحفاظ على العقيدة وعلى ضوءها سائر الثغور الإسلامية.

فكل ثغر من الثغور الاسلامية بحاجة إلى مرابطة ممن يأهل لها ويقومون بحقها وحاقها، فالحافظون لحدود اللَّه- ككل- هم المرابطون في سبيل اللَّه، دفاعاً عن الحرمات الايمانية بألسنتهم وأقلامهم وسائر جهادهم وجهودهم ما لزم الأمر.

فالربط في أصله هو الايثاق، فالمرابطة هي المواثقة، ايثاقاً من الجانبين فيما يحتاجه للحفاظ على كيان المسلمين، رباطاً «بين» ورباطاً «في»، و «ل» و «مع» للكتلة المؤمنة

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 418

بينهم، ورباطاً «على» لهم على اعدائهم.

ذلك والآيات في الترابط الجماعي بين المؤمنين كثيرة ومن اوضحها بين الناس كافة آية التعارف: «يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللَّه أتقاكم» «1» وآية السخري: «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في‏ الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً». «2»

وبين المؤمنون خاصة «واعتصموا بحبل اللَّه جميعاً ولا تفرقوا ...» و «إنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين اخويكم» «3» «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم‏ والعدوان» «4» «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم». «5»

«ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون». «6»

فالمسئولية الإيمانية مزدوجة وليست فردية انعزالية، فانها صناعة لَبنات بناية الإيمان، ثم صناعة البناية بهذه اللبنات، أن يصنع كل واحد نفسه مسلماً ثم يحاول في صنع الآخرين، محاولة جماعية جماهيرية في تحسين وتحصين بناية رصينة متينة إسلامية لا تتهدم أمام أي قصف من أي قاصف، ولا تتهدر من اي عصف لأي عاصف، فلا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف.

لذلك نرى ان الاسلام يؤكد على التجمعات الإيمانية كأصل ايماني وحتى في العلاقات والصلاة الشخصية بين المسلم وربه كالصلاة والحج وما أشبه، فانهما كافضل النماذج الجماعية في العبادات تربطان المؤمنين بعضهم ببعض في صفوف متراصة من كل صنوفهم ولا سيما في مؤتمر الحج العالمي الذي يهدف- فيما يهدف- توحيد الدولة الاسلامية على مدار الزمن، وفيما يسأل الرسول صلى الله عليه و آله عن صلاة الجماعة لمن ظل وحده‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 49: 13

(2). 43: 32

(3). 49: 10

(4). 5: 2

(5). 8: 46

(6). 3: 104

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 419

فأهله وولده في الشغل، يقول: «المؤمن وحده جماعة». «1»

بعد ما بيَّن اللَّه حق وحدة الألوهية ووحدة الحب إلهياً لنفسه، هنا يقرر حق التشريع له وحده، مناحراً لما كان يفعله المشركون من تحليل او تحريم لا يرجع الى دليل:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ». «2»

الحلال فَعال من الحِلِّ والحَلِّ مقابل العقد، فالشي‏ء غير المعقود ولا المحظور حلال، سواءٌ سبقه عقد الحظر ام لم يسبقه، وليس للمأكول مما في الأرض سابق حضر كأصل، إلّا انه اللَّه، فلا يحل اكله إلّا بمرضات اللَّه، وهو يُحِله في أمثال هذه الآية كأصل وضابطة عامة تُحِلُّ الحظر عما يؤكل.

والطيب- هنا- هو كل ما تستطيبه النفس أكلًا، وطبعاً النفس الباقية على الطبع الإنساني الأولى، دون المنحرف عنه، المنجرف الى دركات الحيونة الوحشية التي تستطيب أكل كل ما يمكن ابتلاعه، مهما كان حشرة، كما في الطباع الأوروبية المنحرفة عن إنسانيتها.

ثم هي النفوس ككل، دون كل نفس، فقد يستطاب أكل شي‏ءٍ عند أشخاص خصوص متخلفة عن الجماهير، ام يُستقذر كذلك، والمعيار هو الإستطابة الجماهيرية بالطباع الأوّلية، حيث الأحكام الشرعية يراعى في تشريعها جمهرة الناس دون الخواص.

أترى «مما في الأرض» تبعيض لمأكولات الأرض، أن: كلوا بعض المأكولات، ثم «حلالًا طيباً» بيان لذلك البعض؟ فهما- إذاً- حالان ل «مما في الأرض» ام مفعولان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مضمون الحديث فيما اذكر ان قرويا يسأله صلى الله عليه و آله انا اؤذن واقيم وورائي أهلي وولدي هل نحن جماعة؟ قال: نعم- قال قد يذهب ولدي الى الشغل فتبقى معي أهلي فهل نحن جماعة؟ قال: نعم- قال: وتذهب اهلي واظل وحدي هل لي جماعة: قال: نعم المؤمن وحده جماعة

(2). 2: 168

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 420

ل «كلوا»؟ فالآية- إذاً- مجملة بالنسبة ل «حلالًا» إذ لم يبين الحلال مهما عرف «طيباً» بما تعرفناه!.

فلنعرف خصوص الحلال مما في الأرض، الطيب، حتى يُسمح لنا أكله، فحين نشك في حلِّه الخاص لا يحل أكله، وهذه هي أصالة الحظر، المطرودة بنصوص كقوله تعالى‏ «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً» «1» وقد تنافي- ايضاً- سماحة هذه الشرعة وسهولتها!.

أم إن «مما في الأرض» تبعيض لما في الأرض، فان منه مأكولًا ومنه غير مأكول، ولم يقيد النص «ما في الأرض» بالمأكول، حتى يبعَّض بأداته، فمطلق النص «ما في الأرض» يشمل كل ما في الأرض، ثم «من» تبعِّضه بالبعض المأكول.

إذاً ف «كلوا مما في الأرض» سماح عام لأكل كلِّ ما يؤكل، فهل إن «حلالًا طيباً» هما مفعولان ل «كلوا مما في الأرض» تقييداً لسماح الأكل؟ فكذلك الأمر! حيث الآية- إذاً- مجملة في الحلِّ، ثم «كلوا من طيبات ما رزقناكم» دون قيد الحل، و «انما حرم ..»

الحاصرة الحرمة فيما حصرت مهما كان نسبيّاً هما لا تساعدان على أصالة الحظر، أم إجمال الآية في الحِلِّ!.

أم انهما حالان ل «مما في الأرض» كما ل «كلوا» أكلًا حلالًا طيباً، مما في الأرض حلالًا طيباً، حلًاّ عاماً كضابطة لأصل الجواز، وطيباً تقييد لذلك الحل كاوَّل ما يقيد الأكل والمأكول، وكما تؤيده «كلوا من طيبات ما رزقناكم ..» إذاً ف «حلالًا» حال لواقع الأكل والمأكول على أية حال، ثم «طيباً» حال ثان او وصف تقييدي ل «حلالًا» يخرجه عن إطلاق الحلِّ، أم إن «طيباً» لها دور «حلالًا» بياناً لأصالة الطيب، ألَّا يسمح باستقذار مأكولٍ مما في الأرض إلَّا ما ترفضه الطباع الإنسانية، فتصبح «طيباً» أوسع مجالًا مما كان تقييداً، إذاً فيكفي في حلِّ المأكول عدم استقذاره نوعياً واقعياً، لا واستطابته كذلك.

وقد يقيد الأكل عن حلِّه العام بعد طيباً ب «ما رزقناكم» و «مما غنمتم»: «فكلوا مما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 3: 29

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 421

غنمتم حلالًا طيباً» «1» «فكلوا مما رزقكم اللَّه حلالًا طيباً» «2» تقييداً للحل بكونه مما ملكته من مشروعه: «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلّا أن تكون تجارةً عن تراض منكم». «3» إذاً فكل مأكول طيِّبٍ يحل أكله بغير باطل، كضابطة عامة، إلّا ما استثني من حل الأكل مادة او مدة، كماً او كيفاً، فالمشكوك جواز أكله داخل في ضابطة الحل إلّا ما ثبت الحظر عنه بدليل من كتاب أو سنة.

ومن القيود العامة لحل الأكل في آيتنا «ولا تتبعوا خطوات الشيطان» وكخطوة الإسراف والتبذير فانهما من الشيطان، وخطوة التحريم لغير المحظور أكله والتحليل للمحظور أكله، وكخطوة أصالة الحظر، مهما اختلفت هذه الدركات في الخطوات، وعلى أية حال فاتباع خطوات الشيطان هو الإنجذاب في قيادة، ان تكونوا سيِّقةً للشيطان فيما يخطوه.

ولأن الخطوة هي ما بين القدمين من المسافة حالة المشي، فقد تعني خطواتُ الشيطان‏وسائله وذرائعه الى بغيته الأخيرة وهي الإشراك باللَّه والإلحاد في اللَّه، فليس الشيطان ليورد الإنسان إلى أخيرة المهالك إلّا بخطوات من صغيرة الى كبيرة الى كبرى، فعند ذلك الطامة الكبرى وكما قال اللَّه:

«إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ» «4»

فالسوء هنا هو ما دون الفحشاء، كما الفحشاء هنا هي دون «أن تقولوا على اللَّه ما لا تعلمون» وبصيغة أخرى الفحشاء هي أقبح أنواع السوء، «وأن تقولوا» هي أقبح انواع الفحشاء، فالفحشاء هي المعصية المتجاوزة حدَّها إما في نفسها ام الى غير العاصي، ام تجمعهما، ثم العقيدة السيئة، والفاحشة هي أفحش من عملية السوء.

فاتباع خطوات الشيطان محظور في كل الحقول، أكلًا كما هنا، أمّا سواه من أفعال وتروكٍ كما: «يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 8: 69

(2). 16: 114

(3). 4: 29

(4). 2: 169

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 422

إنه لكم عدو مبين» «1»- «ومن الأنعام حَمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم اللَّه ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. ثمانية ازواج .. قل ءَآلذكرين حرم أم ..» «2»- وعلى أية حال:

«يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ..»: «3» «انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على اللَّه ما لا تعلمون»، هنا «وان تقولوا ..» هي قولة الفرية على اللَّه في تحريم او تحليل ما لم يأذن به اللَّه، وأفحش منه المشاقة الصريحة لحكم اللَّه، أنني أحرم مهما أحل اللَّه، أم أحلِّل مهما حرم اللَّه.

وقبلهما سوء وفحشاء علي وعقيدي، فمن سوء عملي أكل الحرام الخفيف مادة وحرمة، ومنه عقيدياً تحليله افتراءً على اللَّه، ومن فحشاء الحرام المغلظ والعقيدي منه فريته على اللَّه، والسوء والفحشاء العقيديان هما أسوء وأفحش منهما عملياً، فلذلك يفرد العقيدي بالذكر بعد مطلق السوء والفحشاء: «وان تقولوا ..».

فقد يعصي العاصي معترفاً انه عاصٍ، وأخرى محللًا له تقصيراً في التفتيش عن دليل، فتوى بغير علم، ام افتراءً على اللَّه بمعارضة الدليل، ام مشاقة للَّه‏بمصارحة أنني أحلل وأحرم، رغم ما حكم اللَّه، وذلك ثالوث منحوس بدركاته الثلاث قد تعمه «وان تقولوا على اللَّه ما لا تعلمون» ام قد يفلت الأخير من نصها داخلًا في الأولوية.

فالقول على اللَّه بغير علم- بدركاته- هو أسوء من السوء وأفحش من الفحشاء العمليين، مهما كان القسم الأوّل من الثالوث سوءً أمام الثاني، وهذا فحشاء أمام الثالث من الناحية العقيدية.

فمن السوء عمليّاً في ظلال آيتنا ترك أكل ما لم تثبت حرمته، اللّهم إلّا حائطة ثابتة بدليل، ومنه عقيدياً أصالة الحظر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1)

. 2: 208

(2). 6: 143

(3). 24: 21

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 423

كما من الفحشاء عملياً أكل الثابت حرمته، ومنها عقيدياً القول بحليته دون علم، ثم بعلم، ثم فوقهما عمليّاً التورط في المحرمات الكثيرة الكبيرة، وعقيدياً تحليلها افتراءً على اللَّه، ام مشاقة علنية لحكم اللَّه، وكما منه الإستناد الى القياس والإستحسان أما شابه ليس دليلًا شرعياً، بل الأدلة الشرعية تعارضه، كل هذه تشمله ثالوث خطوات الشيطان بمختلف دركاتها.

فحذارَ حذار من ويلات خطوات الشيطان، فانه لا يحمل المؤمن المتقي على ثالثة الدركات إلا أن يخطو به أولاها ثم ثانيتها، عمليّاً او عقيدياً، حتى يورده في مسيره الى مصير الهلاك الأخير «جهنم يصلونها وبئس المصير».

وإنها ثالوث الخطوات في حصر «إنما» وليست وراءها خطوة، وهي بين آفاقية عملية: «السوء والفحشاء» وأخرى انفسية: «وان تقولوا» قولًا بغير علم!.

أترى الشيطان يأمر- فقط- بالسوء و ..؟ ونراه قد يأمر- فيما يأمر- بالخير! إنَّ أمره بغير السوء هو في الحق أمر بالسوء فأمر سوءٌ، إذ يتذرعه إغراءً إلى سوءٍ، كمن يأمره بقراءَة القرآن، ثم يجمِّده على حروفه ويصرفه عن أحكامه فيصبح صاحبه تالياً للقرآن والقرآن يلعنه.

ففي الحق لا يأتي من الشيطان إلّا عملية الشيطنة وعقيدتها مهما أمر في ظاهر الحال بخير، ثم لا يتمكن الشيطان- ام أيٌّ كان- أن يأمر بسوء وفحشاء بمقدمات كلها شريرة، وإنما يخلط حقاً بباطل وباطلًا بحق وهو بدء وقوع الفتن كما يروى عن قاطع الفتن علي عليه السلام: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تُتَّبع وأحكام تُبتدع يُخالَف فيها كتاب اللَّه ويتولّى عليها رجالٌ رجالًا فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة ولو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف ولكن يؤخذ من هذا ضِغثٌ ومن هذا ضِغثٌ فيُمزجان فيجيئان معاً فهنالك استحوذ الشيطان على اولياءه ونجى الذين سبقت لهم من اللَّه الحسنى».

فخير الشيطان شرٌّ إذ يبوء الى شر، وشر الرحمن خير إذ يبوء الى خير «ونبلوكم‏

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج‏6، ص: 424

بالخير والشر فتنة والينا ترجعون». «1»

وقد يجرّ الشيطانُ الإنسانَ من الأفضل إلى الفاضل ليتذرع به لإخراجه الى غير الفاضل وإلى الشر، أم يجره من الفاضل الأسهل الى الأفضل الأشق ليشق عليه فيترك الفضل عن بكرته!.

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ». «2»

وذلك هو الدرك الأسفل من الخطوات العقلية الإبليسية، مشاقَّةُ اللَّه في حكمه بحكم الآباء القدامى التقليديين، معارضة الدليل بالتقليد الخاوي عن الدليل، وقبله خطوة الحكم غير التقليدي خلاف حكم اللَّه، وقبله القول على اللَّه بغير علم دون أية حجة من كتاب أو اثارة من علم قياساً او استحساناً أما شابه، وقبله الفتوى دون تفتيش صالح عن دليل، دركات اربع عقائدية في خطوات الشيطان، وقبلها او معها خطوات عملية من سوء إلى فحشاء.

هنا «قالوا بل» رفض لاتِّباع ما أنزل اللَّه إلى «ما ألفينا عليه آباءَنا» إتباعاً عملياً وعقيدياً، في تقليد جاهل قاحل «أو لو كان آباءُهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). 21: 35

(2). 2: 170